

الخلفاء السنيون

تأليف
عبد الوهاب النجار

مكتبة
دار الشرائع
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

الخلفاء السنيون

تأليف
عبد الوهاب النجار

مكتبة
دار الشرائع
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة في الإسلام

يقول علماء الاجتماع العمراني إنه ما اجتمع عدد من الأحياء ، سواء كان هذا العدد من الحيوان أو من بني الإنسان ، إلا اتخذ له من بين أفراده رئيساً يذعن الجمع لإرادته ويهتدى بهديه ، ويذل كل فرد نفسه في الدفاع عنه والمكافحة دونه . واتخاذ الكائنات الحية رئيساً منها أمر طبيعي تنساق إليه بمقتضى الفطرة .

قائد الجماعة من بني الإنسان اذا كان قد تمكن له الأمر وتوطدت سلطته على الجماعة ، وأوتى من النفوذ ما يحقق له السيادة عليهم ، فنفذ أمره فيهم بمقتضى القهر والغلبة اللذين هما من آثار القوة الغضبية كان ملكاً مستبداً وغلب على أحكامه الجور والإجحاف بمن تحت يده في أحوال دنياهم ، لما يستتبعه شأن القهر والغلبة من حمل القبيل على ما ليس في طوقهم من أغراضه ومشتباته . ومن البين أن نشوة الملك وسورة التسلط تحملان صاحبها على الأشر في أغلب الأحوال .

فإذا كان الملك يرجع في أحكامه الى قواعد يضعها العقلاء ويلزمون الكافة انتهاجها والسير على مقتضاها كان ذلك أرجى لاستقامة الأمر واجتماع الآلفة في الجملة ، وإن كان الجور ليس بمأمون واستقامة الأحوال ليست بمستيقنة .

أما اذا قام قائد الجماعة على أثر نبوة وفي عقيب رسالة وعلى نهج شريعة فقد خص في عرف أهل الإسلام باسم الخليفة ، والمنصب باسم الخلافة أو الإمامة تمييزاً لها عن الملك الذي تجر اليه طبيعة القهر وتغلب عليه سمة الجور .

كان للرسول صلى الله عليه وسلم مهمتان يؤديهما الى الأمة : إحداهما : أن

يلغ عن الله ما أمره بتبليغه الى الناس من الأحكام المتعلقة بدينهم ودينام وما قصه عليهم من الأخبار والعظات وبين للناس ما نزل اليهم ، فهو بذلك مشرع عن الله تعالى . الثانية : كونه إماماً للمسلمين يضم قاصية الأمة ويجمع كلمتها ويوجهها الى الخير ويبعدها عن مزال الأقدام ومواطن الشرور ، ويرجعون إليه في أقتضيتهم وحل مشكلاتهم طبق ما أوحى إليه من ربه جل ذكره وما يؤديه إليه اجتاده فيما ليس عنده فيه وحى ، ثم إنه يقوم بتنفيذ تلك الأحكام .

ولما كان الله تعالى لم يجعل الخلد لبشر ، وكان الموت غائمة مطاف كل إنسان في هذه الحياة الدنيا ، وقد قبض الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم الى جواره ، كان من الحكمة أن لا يترك الناس فوضى لاسراة لهم (كأغنام ذئب نام عنها رعاؤها) — بل لابد للشرع من حارس يخلف المبلغ له في إقامته بين الأمة وتنفيذ أحكامه فيهم وهو الخليفة .

والخلافة هي النيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وتنفيذ أحكامه وسياسة الدنيا به . والسر في ذلك استحالة حياة أفراد النوع الإنسانى منفردين ولأن من طبيعة الاجتماع التنافس المفضى الى التنازع لازدحام الأغراض المتباينة فيحتاج الى الوازع وهو الشرع . فقد جعل الله تعالى كمال النظام البشرى بالشرائع الإلهية يذعن لها الخاصة والعامة ويراهنا نافذو البصائر في شؤون الاجتماع العمرانى حاجة من حاجات العقول البشرية بها يكون تقويم الملكات وتعديل مزاجها وحملها على القصد من الأمور بلا تفريط فى شيء ولا إفراط يدعى الى تجاوز الحدود وتخطى المعالم .

هذه الشرائع يصطفى الله تعالى من خيرة خلقه رسلا يتلقونها بالوحى عن الملك أو عن الله تعالى ثم يبلغونها للناس (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن

الناس) ويضعون للدائنين بشرائعهم (بأمره) حدوداً عامة لا ترهق الناس مشقة في رد أعمالهم إليها - كتقويم الملكات والأخلاق والعقائد ، وتحريم الدماء والأموال والأعراض إلا بحقها - على وجه يحمل كل واحد من الناس أن ينتفى فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يرغب فيما عند الله مستشعراً الرهبة من عقابه (إذا حاد عن النهج القويم) في يوم تشخص فيه القلوب والأبصار .

انساق المسلمون بمقتضى الفطرة التى لكل جماعة من الأحياء إلى إقامة من يخلف رسول الله في سياسة أمرهم . فأقاموا عليهم خليفة ، ولم يوجد عند الأمة الإسلامية أمر من أمورهما اختلفت فيه الكلمة وتشعبت بشأنه الآراء بمقدار ما كان منها في شأن الخلافة . وأظهر مظاهر الاختلاف أمران :

أولهما : البيت الذى يكون منه الخليفة .

ثانيهما : شكل الانتخاب أو الطريقة التى يكون بها انتخاب الخليفة

((بيت الخلافة)) إن الكتاب الكريم لم يعين بيتاً للخلافة ينتخب الخلفاء من أهله ، ولا شعباً من شعوبهم ولا قبيلة من قبائلهم ، وإنما كان يوجه الكلام إلى عموم المسلمين فيما يقرره من الأحكام ، ويطلبهم بتنفيذها في مثل قوله تعالى :

((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا)) وقوله : ((وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) وقوله : ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)) ومن غير المعقول أن كل واحد من المسلمين يقطع يد السارق أو يقتص من الفاتل ، بل المعقول أن ينوب عن جميعهم واحد منهم يتولى ذلك .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى البخارى حديثاً يسنده إلى معاوية رضى الله تعالى عنه يقول فيه : د إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : د إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا

الدين ، . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان » . وفي مقابلة ذلك روى عنه أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » ، وهي أدلة متعادلة .

لم ينته الناس من تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم ودفنه حتى كان في الناس فريقان لكل منهما رأى في شأن الخلافة ؛ فريق يرى عدم تخصيص الخلافة بيت من البيوت ، والفريق الثاني يرى تخصيصها .

أما رأى أهل التخصيص فقد انشعب إلى شعبتين :

أولاهما : تخصيص الخلافة بقريش بلا فرق بين بطونها .

ثانيهما : تخصيصها بالقرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأهل القرابة القريبة في ذلك الحين ، هم العباس بن عبد المطلب من أعمامه وعلى وعقيل ابنا عمه أبي طالب .

أما العباس فلم تتطلع نفسه إلى الخلافة ولم يطلبها ، وأما على عليه السلام فقد امتاز على أخيه عقيل بأنه كان من السابقين الأولين ، وليس لعقيل ماله من الهجرة والبلاء في إعزاز الدين والدود عن حوزته والمقامات المحموده في جهاد عدوه ، والصهر إلى رسول الله في البضعة الطاهرة ، وهي زوجته فاطمة . وكانت وجهة من يخصصون أمر الخلافة بالقرابة القريبة الإلقاء بمقاليد الأمر إلى على رضي الله عنه دون غيره من بقية قرابة رسول الله الأقربيين . أما الذين يرون أنها حق قريش فحسب فكانوا جمهور أصحاب رسول الله من المهاجرين وبعض الأنصار .

وكان رأى عدم التخصيص في الخلافة لجمهور الأنصار . فكانوا متطلعين إلى أن يكون الخليفة منهم لأنهم أصحاب دار الهجرة ، وقد آووا ونصروا وآثروا المهاجرين بأموالهم ووأسوهم في الضر ، وقاموا يرمون وراء رسول الله ويوالون من

والاه ويعادون من عاداه لا يرغبون بأنفسهم عن نفسه، وكانوا عييته التي آوى إليها إذ أخرجه قومه ثانی اثنين، ولرسول الله المقامات المحموده في الشاء عليهم. وقد تلقف هذا الرأى من بعد الأنصار جميع الخوارج الذين كانوا يشقون عصا الطاعة على الخلفاء في آونة مختلفة، ويفارقون الجماعات لأسباب يستمسكون بها ويتخذونها ذريعة لخلع ربة الأئمة. وفي بعض الأحيان يقيمون عليهم خليفة وينادون به أميراً للمؤمنين كقطرى بن الفجاء، وهو رجل من بنى نعيم. وقد كانت تكأة أولئك القوم فيما أتوه أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيه الأمة إلى الخير والسير بهم في سبيل الصلاح والعدول بهم عن الشر وإقامة الدين فيهم واستقرار العدل في الأحكام، وهذا أمر يحصل بتولية من فيه المقدرة على ذلك والاضطلاع به بقطع النظر عن قومه وقبيلته. وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

والذى أراه أن أصحاب هذا الرأى قد يكونون على صواب إذا كان من يختار لهذا المنصب منفرداً بعصية تويده وتقوم بنصره بحيث تكون غالباً لكل قوة سواها، لأن الإنسان في أموره لابد أن يلاحظ الفواعل الطبيعية وما جبل عليه الناس من الانقياد للغالب ذى النفوذ القوى والكلمة المسموعة والعصية القاهرة فإن هذه هي الأمور التي تبهر عقول الجماعات وتفسر بقية الطوائف على الإذعان. وأما التقى الذى لاحول له ولا قوة. فإن الناس تنفض من حوله ولا يمكن أن يظهر على أمره.

أما رأى تخصيص هذا الأمر بقريش فإنه الرأى الطبيعى المناسب لذلك الحين لما وقر في طبيعة العرب من الإقرار لقريش بالفضل والإذعان لها بالسؤدد لا ينازعها في ذلك منازع بخلاف غيرها من العرب فإن قبيلة منها لا ترضى أن تطلأ عقب قبيلة أخرى وتنقاد لها بأزمها، حاشا قريشا. وقد أبان ذلك أبو بكر يوم السقيفة بقوله: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخرج،

وإن تولته الخزرج نفسه عليهم الأوس . ولا تدين العرب لغير هذا الحى -
من قريش . -

ومن هنا استنتج العلامة ابن خلدون السر في تخصيص قريش بالخلافة
وهو ما كان لهم من العصية والنفوذ السارى في جميع قبائل العرب
وبطوبها يعترفون لهم بالتقدم ، ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم ويستثنونهم
إذا افتخروا :

فأما الناس ما حاشا قريشا فإننا نحن أفضلهم فعلا
فإذا كان الخليفة منهم ألفت إليه العرب المقاليد وتقطعت أسباب المعاذير
في الخلاف عليه والنصب له . وقد بنى على هذا الأصل أنه ليس يمتنع أن تكون
الخلافة في غير قريش إذا ذهبت ريجها وعجزت عن حماية بيضة الإسلام
وكانت المنعة والقوة لسواها . لأن الشريعة مبينة أحكامها على العلل والحكم في
كل زمن بحسبه .

أما رأى التخصيص بالقرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان
رأى على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ومن تابع علياً على ذلك فيما بعد لمكانه من قرابة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، غير أنه التفت يمينه ويسرة فلم يجد من يظاھرہ على أمره ممن يقول
ويفعل لحدا به ذلك إلى الانضواء إلى رأى الجمهور والدخول فيما دخل فيه
الناس ، وذلك بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها لسته أشهر من وفاة رسول الله صلى
الله عليه وسلم في بعض الروايات .

والذى أراه وأعتقدہ هو ما روى من أنه بايعه بعد أيام ، بدليل أنه
جعله قائداً على بعض المسلمين حين بيت الكفار أهل المدينة وذلك لشهرين
من بيعة أبى بكر .

تولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وهو تيمى قرشى ،
ثم تلاه عمر وهو عدوى قرشى ، ثم جاء بعدهما عثمان بن عفان وهو أموى من
بنى عبد مناف وأذعنت الكافة للرأى القائل بأن الخلافة لا تكون إلا في قريش
وأجمع على ذلك أصحاب رسول الله والمسلمون كافة وبقي الرأى الآخر

(وهو القائل بتخصيص الخلافة بأهل القرابة القرية) مهملًا إلى آخر أيام عثمان بن عفان . فطاف على الحواضر الإسلامية طائف من التفريق وانساب إليها دعاة الفتنة يذهبون الناس إلى هذا الرأي وبقبحون من خالفه صارخين صاخبين : « كيف يحرم خلافة الرسول قرابته ! » .

يقول غوستاف لوبون : « لبعض الألفاظ والجل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ، ألفاظ وجل ينطقها المتكلم خاشعا أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهية وجوه السامعين ، وتغنو الوجوه لها احترامًا . وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية . ألفاظ وجل تثير في النفوس صورًا لا كيف لها ولا انحصار ، محفوفة بالإكبار والإعظام إيهامها يزيد في قوتها الخفية فهي آلهة لا تدركها الأبصار قد احتجبت خلف (المظلة) التي ترتعد لهيبتها فرائص العابد إذا تقدم نحوها . » وعلى هذا النمط كانت كلمات المفرقين وعلى هذا النحو سار دعاة الرأي الأخير ، فهاجموا مكان الإحساس من الأمة وملكوا على الناس مشاعرهم وأسمعوا الناس صوتًا ملذوذًا في المسامع فأطربوهم بما كانوا يرددون من الجمل ويصوغون من العبارات . وربما تخطى بعضهم حدود الدين ونحل عليا مالا يتحلى به بشر لينال بذلك فتنة الأمة وينجح في الكيد للإسلام .

كأنى بالناس في أطراف بلاد الإسلام وقد تلجلج هذا الأمر في خواطرهم وإن لم تلسكه ألسنتهم وقد اختمر في نفوسهم وأشعرهم التشوق إليه ما أرقهم به عمال الخلافة في تلك الأطراف المنتبذة في زعمهم فاهى إلا أن وجدت مسّ الدعوة إلى هذا الرأي حتى هبت لتحقيقه وانتدب له أفواج من الأطراف المختلفة غير حاسبين لعقبى عملهم حسابًا . وهذا شأن الجماعات في كل زمان ومكان تندفع بسهولة إلى الشر ، وتنكش في أفرادها الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة . وتنجه المشاعر والأفكار بعامل التأثير والعدوى نحو غرض واحد وتنقاد إلى فعل ما يخالف منافعها الحقيقية . هذا هو شأن الجماعات في كل زمان .

كان تنبه الناس لهذا الرأي وهبوبهم إلى تحقيقه بالفعل سبباً لخطوب جسام ومصائب عظام ، فقد سال سيل الجماعات على المدينة فاجترف في سبيله الخليفة الثالث عثمان بن عفان . وبذلك انبثق على المسلمين سيل من الخطوب لم يمكنهم سده .

ذلك أن دعاة الرأي الأخير والناخبين في هذه البوق رأوا جانباً من أرض الإسلام لا يشمر فيه هذا الغرس الذي غرسوه . بل تيقنوا أن تخطيهم إلى تلك البلاد إنما هو تخط إلى الآخرة فبقى أهلها غير متأثرين بهذا الرأي ولا راضين عن أهله فهبوا لإخماد أنفاسه والإيقاع بالقائمين به بلا شفقة ولا رحمة .

كان عصارة ذلك أن تصادم أهل الرأيين وفزع كل فريق إلى سيفه وما احتقب من رأى ومكيدة وحسن سياسة فظفر معاوية بن أبى سفيان بالخلافة ، وهو من بنى أمية ، وليس من ذوى القرابة القريبة . وبهذا عاد الأمر كما بدأ واستقر الأمر على الرأي الأوسط بعد خطوب وأهوال يشيب لها فود الزمان .

اختلف هذا الرأي قبل أن يبلغ أشده وكنت حياته كمن النار في الحجر كلما وجدت قادحاً ورت وإذا سكنت توارت ، وأهل هذا الرأي قد استسكانوا لحكم السيف ولكن على أمل أن يذهبوا الفرصة إذا رأوها سانحة وأن يشيموا بروق الأمل إذا رأوها لائحة .

ظل أبناء على رضى الله عنه يرون الخلافة إراثاً لهم عن رسول الله لا ينازعهم فيه إلا ظالم جائر وشيعتهم من ورائهم تحفزهم عليهم وتدفعهم إلى المطالبة . فيخرج الواحد منهم بعد الآخر يتهافتون عليه تهافت الفراش على السراج لا يبالون بمرسهم تطاح ، ودمائهم تستباح ، وأجسامهم تذروها الرياح . وكأن ما كان يحل بهم من القتل الوحى ، والتمثيل الذريع ، والتجريق بالنيران والتصليب على الأعواد لا يزيد النار إلا استعاراً ، ويفرى اللاحق باتباع آثار السابق وكان شيعتهم يجدون بتلك الحوادث مكان القول ذا سعة فيطلقون العنان لألسنتهم وقرائحهم في تمثيل أهل البيت بين مضرع بدمائه

وهارب بذمائه وحريب وسليب ومأسور ومقهور وعقائل بيت الرسول تساق
الواحدة منهم سوق السبية الأخيذة . فمن شاء فلينظر إلى شعر الكيت
ابن زيد ومن حذا حذوه ففيه بلاغ ومقنع .

والذي أعتقده أن أهل البيت لو خفضوا من عنانهم في سبيل المطالبة ولم
ينصبوا أنفسهم هدفاً للولاء والخلفاء لأتتهم الخلافة منقاداً بخطامها لأن في طبيعة
الرعية حب الجديد والاستشراف إلى تغيير الحكم متى طال العهد بهم فلا يجدون
بعد بني أمية سوى أندادهم من بني هاشم ، وهم على حال سلامة ووفرة عدديهم
حرز أمتهم ، ولكنهم كانوا يخاطرون بأنفسهم ومن معهم ويلقون بأنفسهم إلى
التهلكة ، وكان ذلك يزيد خصومهم قوة إلى قوتهم ، ويحدث ترات وذحولا
عندهم للقبائل المختلفة ويزيدهم ضعفاً ، ويرهقهم وهنا بقله عديدهم وفناء الفريق
الأكبر منهم .

لم يكن للعباس مطمع في الخلافة كما قدمنا ، ولم يكن لشيعة أهل البيت نظر
يتوجه إلى أبنائه ، وكان قصارى بني العباس أن يكونوا مؤازرين لعلّ مظاهرين
لأبنائه في طي الخفاء على خوف من بني أمية وملتهم أن يعثروهم بسوء . غير أنه
لما توفي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب ، وكان قبله أنظار الشيعة أكثر من
بقية العلويين ، زعم العباسيون حينئذ أنه ألقي بمقاليد أمر الدعوة إلى محمد بن علي
ابن عبد الله بن عباس فهبوا للعمل على إتمام الدعوة لآل البيت في ظاهر أمرهم
ويظنون أن تكون الدعوة إلى خلافتهم ويحتجزونها دون أهل البيت إذا حق
العمل فكانوا يدعون الناس إلى مبايعة الرضا من أهل بيت رسول الله ولا يوحون
لأحد باسمه زاعمين أن ذلك يوجه نظريتي أمية إليه ويعرضه للقتل والتشريد لمن
تابعه . وقد واتهم المقادير على حين فترة من الهمم في بني أمية ، وانحلال العزائم
في خلفائهم وانشغالهم بالعيش الناعم وملذات الحياة ، واستهاتهم بالأطراف القاصية
من مملكتهم واستصغارهم لما يحدث فيها ، وكانت الدعوة التي أخذت صبغة هاشمية
بعد أن كانت علوية قد فشلت في نواحي فارس وخراسان فشوا زائداً واشتغل
بنو العباس فيها بمهارة زائدة وأوردوا ذكر العباس عم رسول الله صلى الله

عليه وسلم وإشاعة فضله وفضل ابنه عبد الله وما له من الذكر النابه عند أولى العلم والتقوى وما للعباس من الحق في إرث رسول الله بالعصبة دون سائر ذوى قرباه ، إلى غير ذلك من الأمور التي لقحت بها الدعوة العلوية .

وقد وفق العباسيون إلى دعاة مهرة ذوى مقدرة فائقة وجرأة وإقدام وعمدتهم أبو مسلم الخراساني ، فأدار الأمر بحكمة وبأشروا انتقاص الأطراف على عمال بني أمية الذين كانوا قد وهن أمرهم فأداهم الله منهم حتى إذا حق الأمر أعلن أبو مسلم اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس خليفة للمسلمين .

إن وجهة الناس كانت إلى العلويين . ولكن لما كان العلويون قد ضعف أمرهم كما قدمنا وكفوا أيديهم في الجملة عن مباشرة الدعوى ، وكان الذى يدير أمر الدعاة إنما هم بنو العباس ، وهم من قرابة رسول الله القرية لم يجد الناس غصاصة في المضى على أمرهم بالجد في نقض بناء دولة بني أمية حتى هوى شأخه وانهار باذخه .

غفل الزمان برهة عن العلويين فخم ذلك الدم الذى كان مطلولا وقوى الضعيف وكبر الصغير وفي أنفسهم من أمر الخلافة ما فيها ، واشتد وجدهم على تراث لم يخرج من يد ناهب إلا ليحصل في يد غاصب أشد قوة وأعزل نابا . فلما آنسوا من أنفسهم بعض القوة وأحسوا بشيء من القدرة على المطالبة لم يلبثوا أن نصبوا أنفسهم حرباً لبني العباس يشادونهم جبل الخلافة . فعادت الحرب العوان إلى حالها الأولى ، وسبت بين الفريقين نار العداوة والبغضاء واستحرق القتلى في العلويين ومزقوا كل ممزق لا تعطف بني العباس عليهم أو أصر القربى ولا تنهيهم عن الفتك بهم لحمة النسب . وكان للنصور والرشيد والمتوكل أيدٍ قاسية في أخذ العلويين بالعنف وتناولهم بالعسف حتى كان مجرد اتهام أى رجل من الناس بالميل إلى العلويين كافياً لاستباحة دمه واستلال روحه من بين جنبيه لا يشفع له في ذلك نباهة قدر ولا ارتفاع ذكر . وقد كان استواء أحد العلويين في بلد قصى على عرش الخلافة مغرياً لبني العباس باستلال نفسه وإخماد أنفاسه

فر بعض العلويين إلى إفريقية لما رأوا أن السيف يحتاجهم ، وشيعتهم تضعف عن حمايتهم وحقن دمائهم ، وبعض آخر إلى المغرب الأقصى قبل ذلك. لانتباز هذين القطرين عن مركز صولة العباسيين وسهولة العمل فيهما لبعدهما عن النجدة والإغاثة وظاهرهم على ذلك في الخفاء أتباعهم وشيعتهم بتلك الأقطار . فاطمأنت بهم الحال وأخذوا الأمر على هيئته وما زالوا دائبين على العمل حتى أسسوا الدولة الفاطمية في إفريقية والدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى قبلها . ثم كان لهم دولة أخرى من ملوك الطوائف بالاندلس ببطلوس .

وقد امتدت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر والشام وقد قويت شوكتها واشتدت بأسها ، أيام ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى ممالك بأيدي الترك والديلم وغيرهم . إلى أن انتهى أمر الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٥٦ هـ .

بقي أمر الدولة العباسية يضؤل إلى أن أزيلت من بغداد في خلافة المستعصم العباسي سنة ٦٤٥ هـ على يد هلاكو خان حين اجتاحت في طريقه ممالك الإسلام بنواحي تركستان وفارس وبغداد .

كانت مصر من الممالك التابعة للدولة العباسية التي لم يمسه المغول في إغارتهم فلما دالت دولة بني العباس ببغداد وصل إلى مصر أحد العباسيين فاراً من وجه التتار ، واسمه أحمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بن المستنصر العباسي في سنة ٦٥٩ هـ أيام سلطنة ركن الدين بيبرس . فأثبت نسبه وبايعه السلطان وأهل الحل والعقد بالخلافة ، ثم خرج الخليفة لمقاتلة التتار والعودة إلى بغداد فقتل ولم ينل ما أراد .

وفي سنة ستين وصل إلى مصر الإمام أحمد بن علي بن أبي بكر ابن الخليفة المسترشد العباسي وأثبت نسبه وبايعه السلطان والقضاة وأهل الحل والعقد بالخلافة ، وهو جد الخلفاء بمصر إلى أن جاءت سنة ٩٢٣ هجرية دخل السلطان

سليم شاه العثماني مصر وأزال دولة المماليك . وكان الخليفة العباسي بمصر هو الإمام المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب فأخذه معه إلى الأستانة هو وولدي ابن عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد ، وبذلك انتهى أمر الخلافة العباسية بمصر .

جاء البيت العثماني التركي واستولى على ممالك كثيرة من ممالك الإسلام ودان للقائم من العثمانيين بالطاعة أهل تلك الممالك وخفت صوت الخلافة . وادعى ملوكهم على طول الزمان أنهم خلفاء المسلمين ويدعى لهم الناس أن آخر الخلفاء العباسيين نزل للسلطان سليم عن الخلافة وبايعه بها ، وهو كلام لم يثبت . ولكن القوم نفذت كلمتهم فيما تحت أيديهم من الأقطار الإسلامية وشهروا بأنهم الخلفاء ، وعرف أكثر أهل بلاد الإسلام هذه السمة وأذعنوا لها فهي خلافة بالفعل عقدت البيعة بها . شوكة والقوة اذ كانوا أقدر أهل الإسلام على حماية البيضة وتنفيذ الأحكام . وهذا هو العلة التي استحققت بها قریش الخلافة في أول الأمر .

بقى أن أقول أن ما يدعيه أهل البيت من استحقاقهم الخلافة بالإرث دعوى غير صحيحة لا مؤيد لها من عقل ولا شرع . أما العقل فإن هذا الأمر مناطه رعاية أمر المسلمين على شؤونهم العامة على نحو ما بينا فيما سبق به ولأه من يصلح له ويضطلع بأمره . والله لم يجعل أمر المسلمين ومصالحهم إرثا لأحد . وهذا الكتاب بين أيدينا خال من دعواهم ، وهذا على لم يدع الوصاية من رسول الله على المسلمين طول حياته ولم يحتج بعهد رسول الله إليه بالأمر . وأما الشرع فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يقبل من هودبة بن علي أن يكون له الأمر من بعده بل قال : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » . ولو كان الأمر لذوى قرابته لجاء به قرآن ، أو لنصر عليه رسول الله ، أو احتج به على رضى الله عنه .

وما كان أبو بكر ليتهدى على اغتصاب الأمر من أهله وي طرح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهريا بعد ثبوته لديه وتحققه عنده .

شكل الانتخاب

لم يرد في الكتاب أمر صريح يستدين به الشكل الذي يجب على المسلمين عمله إذا انتخبوا خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم سوى الأوامر العامة التي تتناول أمر الخلافة وسواء مثل وصف المسلمين بقوله : (وأمرهم شورى بينهم) ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان نظام خاص يتبعه المسلمون في انتخاب من يلي أمورهم .

والذي يلوح لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن لا يضع للمسلمين شيئاً إن وافقهم اليوم ولا هم حالهم فقد لا يوافقهم إذا تبدلت الأحوال وتغير مزاج الأمة . فلم يشأ أن يرهقهم بأمر يشرعه لهم تكون فيه مظنة المشقة عليهم في يوم من الأيام فوكل ذلك إلى فطنتهم وما لهم من عقل يحلونه في كل آن بالحل الذي يناسبه زمانهم ومكانهم .

أما طرقهم التي ساروا عليها فهي :

(١) الطريقة الأولى - طريقة الانتخاب الاستشارية ، وهي التي اتخذت في انتخاب الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ذلك أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يجيلون الرأي في تولية خليفة بعد رسول الله في اليوم الثاني من وفاته . وعلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح من المهاجرين بأمر أصحاب السقيفة وخافوا أن يبت القوم أمراً فيما بينهم يكون فيه تفريق الجماعة أو مالا يحب المهاجرون ، فأسرعوا إليهم وبعد حوار بينهم والمراجعة على مشهد من الملأ تم انتخاب أبي بكر . ولم يحضر هذا الأمر من المهاجرين سوى الثلاثة الذين ذكرنا لأن القوم كانوا بين واجم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مفسكر في شيء آخر ، وبين مشغول بتجهيزه ودفنه كعلي وبنى هاشم . وإنما تم الأمر على هذا الوجه خشية اتساع الخرق بين المهاجرين والأنصار وتنازعهم في استحقاقه ، فأراد أبو بكر وعمر عدم انتشار الأمر والعمل بالحزم قبل خروجه من أيديهم .

وقد نظر المجتتمعون في السقيفة فلم يجدوا من السابقين الأولين من المهاجرين الحاضرين بالسقيفة من هو أحق بها وأهل لها سوى أبي بكر لأنه رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وصديقه ، وقد قدمه رسول الله للصلاة بأصحابه وهي من أهم المناصب وأغلاها قيمة ، وكان عمر حريصاً على الإسراع في جمع الكلمة فمد يده لمبايعة أبي بكر ثم تبعه الناس بعد ذلك ولم يخالف عليه سوى علي وفاطمة كما قلنا فيما تقدم وسعد بن عباد الانصارى .

يرى المطلع على الشكل الذى حصلت به بيعة أبي بكر أن الاستشارة في أمرها كانت ناقصة نقصاً ظاهراً لأن المعقول في مثل هذه الحال أن يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه وأن يؤذن الناس به من قبل ؛ غير أن حرص عمر بن الخطاب على الإسراع في الأمر والمبادرة إلى لمّ شعث المسلمين جعله يتم على هذا الوجه ، وقد أثر عنه أنه قال : ان بيعة أبي بكر كانت فلتة ولكن وفق الله شرها .

(٢) الطريقة الثانية - طريقة العهد من الخليفة إلى آخر في الأمر من بعده ؛ وهذه هي الطريقة التي سار عليها أبو بكر رضى الله تعالى عنه في انتخاب عمر ابن الخطاب للخلافة من بعده بعد أن أمر الناس فوافقوه على الرضا بمن عهد إليه واختاره لولاية أمرهم وقد أعلمهم من هو الذى اختاره .

هذه الطريقة صادفت أن وقع الاختيار من أبي بكر على خير من يكون خليفة المسلمين وأشدّهم صرامة في الدين وأكثرهم تحريماً للعدل ، غير أنها طريقة خطيرة إذ لا ثقة لأحد بأن يكون كل خليفة محسناً للاختيار كأبي بكر رضى الله تعالى عنه فلا يمكن أن يأمن الناس مغبتها لما فيها من احتمال الخطأ في الاختيار .

(٣) الطريقة الثالثة - طريقة الاختيار الشورى ، بأن يعين الخليفة في حياته أفراداً لينتخبوا من بينهم خليفة ؛ وهذه الطريقة التي جرى عليها انتخاب عثمان ابن عفان للخلافة . وذلك أن عمر رأى بعين بصيرته أن سادة الناس وقادتهم

الذين يتطلعون إلى الخلافة ولا يؤمن إنتقاض باقيهم إذا عهد إلى أحدهم على طريقة أبي بكر معه هم القوم الذين عينهم ليختاروا واحداً منهم ويخشي على المسلمين أن تفرق كلمتهم إذا افرقت بهؤلاء القوم لأن المسلمين لهم تبع . فأراد أن يعنى الأمة من تشببت الآراء ورد الأمر إلى هؤلاء النفر الذين يخاف على المسلمين منهم ولا يخاف عليهم من المسلمين . وكانوا ستة ووضع لهم نظاماً يسرون عليه في اختيار الخليفة من بينهم . وذلك أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وختم عليهم الأخذ برأى الأغلبية وأن على الأقل الانصياع إلى مارأوه ومن أبى وخالف استحق القتل ، وإذا تساوت الأصوات أخذوا رأى عبد الله بن عمر على أن لا يكون له من الأمر شيء فلا يصح أن يكون مُنتخباً . فإذا لم يرضوا برأى عبد الله بن عمر كان الراجح رأى الجماعة الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف .

وهذه الطريقة مبدأ نظام صالح لو تناولها المسلمون بالنحسين ، وإن لم تكن وافية بكل غرض . وما سَنَّهُ من بقاء القوم ثلاثة أيام لانتخاب واحد منهم يشبه بعض الشبه مايفعل اليوم في اختيار خليفة للبابا إذا مات . فإنهم يجمعون الكرادلة في مكان واحد يمنعونهم الأكل والشرب إلى أن ينتخبوا منهم البابا الجديد .

ومن نظر إلى هذه الطرق الثلاث التي جرى عليها انتخاب الخلفاء لم يجد مايمكن أن يكون نظاماً مستوياً ولم تلزم الأمة بشيء من ذلك إذ لم يعرف في القاعدة الأولى من لهم حق انتخاب الخليفة : أم الأمة بأسرها ، أم هم أشخاص مخصوصون . وإذا كانوا أشخاصا مخصوصين فمن هم ، وما هي الصفات التي يلزم توفرها فيهم ؟

يقول شراح قاعدة الانتخاب الأولى : إن الذين لهم حق الانتخاب هم أهل الحل والعقد . وهو أمر غير مدرك الحدود ، لأن سامع هذه الكلمة لا يدري من

أهل الحل والعقد؟ هل هم قوّاد الجيوش، أم ولاة الأمصار، أو أعيان الأمة، أو غير هؤلاء من العلماء والقضاة وغيرهم، وذلك لم يبين. وعلى ذلك فمن في نفسه بقية من التطلع إلى الخلافة يجد مجالا للطعن على خلافة من يعين بها كما حصل من معاوية عندما ولي على الخلافة.

أما الطريقة الثانية فقد بينا مافها من الخطر، وما قد يعترى العامل بها من الخطأ.

وأما الطريقة الثالثة فهي عبارة عن أن يعهد الخليفة إلى واحد لا يعينه من أناس محصورين يختارهم الإمام. وهي مساوية للطريقة الثانية وليس كل عصر عصر عمر، ولا كل خليفة ينظر للأمة نظر عمر.

بوع بعد ذلك لعلي بن أبي طالب بالمدينة حين قدم عليها الثوّار وأهل الشغب من أطراف بلاد الإسلام فقتلوا عثمان وبايعوا علياً وبايعه حاضرو المدينة من أصحاب رسول الله والتابعين. فوجد بعض أهل البلاد الأخرى مطعنا على خلافة علي ولم يرضوا بما رضى به الناس، ورأوا أنفسهم في حل من منابذته إذ لا بيعه له في أعناقهم، وأن البيعة لم تلزمهم بفعل أهل المدينة. والأمة لم يسبق لها أن سمعت احتجاجا كهذا، بل كان الخليفة يولى بالمدينة فيطيعه أهل الأمصار فكان هذا حجة عليهم، وقد يقال إن في هذا المذهب إهدارا لأصوات أهل الأمصار وغيرهم النائين عن المدينة، وهم بلا شبهة من أهل الحل والعقد، وقد يكونون عدد الناس والأمر لم يوضع له نظام. وهذه الجمل تجد لها مساعداً إلى الاسماع ومنفذاً إلى النفوس.

نبت هذا الرأي في الشام ووجد تربة صالحة قتما وأثمر، وقام على رضى الله عنه لتأييد رأيه وتثبيت بيعته والتقى الجمعان بصفين وعلى يحمل على يده قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يستمسك به من بيعة وفود الأمصار وحاضري المدينة، فلما لفحتهم الحرب بسموها لجأوا إلى التحكيم فيما شجر بينهم من الأمر، فانتخب كل فريق رجلا لينظر الرجلان فيما شجر بين المسلمين.

والذى أراه أن القوم كانوا حديثى عهد بالتوثيقات ووضع الأنظمة فلم يحدد موضع النزاع تحديداً كافياً شافياً ، ولم يبين مرجع الحكم بياناً يرفع النزاع . بل وضعوا عقد التحكيم بالفاظ عامة يحد من يريد المخالفة ألف سبيل وسبيل لتأويلها ، فكان هذا التحكيم أشبه باللهو واللعب .

تجاوز الحكمان ماعينا لأجله من الحكم فى الأمر الذى دهم فريق المسلمين وتكلما فى خلع كل واحد من الحكمين صاحبه ، وكان للخداع والدهاء أكبر حظ من النجاح إذ انفرط عقد جند على ونشر عليه أصحابه ولم يزل معاوية جميع الأمر .

أما أصحاب معاوية فقد رضوا بهذه النتيجة التى آلت إلى تثبيت صاحبهم فى مركزه وخلع على من الخلافة .

وأما أصحاب على ففريق تناقل عن نصرته ، وفريق خالف عليه وعلى معاوية ورأوا أن التحكيم الذى كانوا يرونه واجباً من قبل إنما هو ضلالة ومروق من الدين ، أولئك القوم هم الخوارج . فقد نصبوا أنفسهم لعداوة على ومعاوية معاً واتخذوا لهم شعاراً هو قولهم : لا حكم إلا لله . وصاروا يبنون عذرهم فى مفاوكة على وبجأه رته بالعداوة على مقدمات يزينونها ويخلصون منها إلى تكفيره وتضليله ، ووجوب التوبة عليه حتى يعودوا إلى متابعتة على أمره .

فيقولون : إن الخليفة المختار معين من الله تعالى ، فلا ينبغي له أن يشك فى أمره .

ولما كان على هو الخليفة الحق وقد حكم الناس فى أمره فقد شك ومن شك فقد ضل ومن ضل لا يصلح للخلافة . وبعضهم يوجب استنابته وتجديد إسلامه . وأما معاوية فلما تعرض لما ليس له بحق فقد ضل فلا يصلح للخلافة .

انتبذ هؤلاء القوم ناحية وروجوا مقاتلتهم بين الناس فيما عددهم وكوتوا لهم

جماعة أعطوها الحق في انتخاب الخليفة . وأذاعوا فيمن ضوى إلى رأيهم أن مخالفهم في الرأي كفر ، واستباحوا دماء الناس وأموالهم ، واندفعوا يقتلون بلا رحمة ولا شفقة . ولم يكن لدعوتهم حدود معينة ، ولا معالم ينتهون إليها ، ولا غاية يبغيون الوصول إليها . فانتشر أمرهم واختلقت كلمتهم وجد الخلفاء في استئصالهم وتبعوهم بين سمع الأرض وبصرها ، وانها لوا عليهم بما عندهم من حول وطول حتى قطعوا دابرهم وأبادوهم بعد حروب حاصدة ووقائع تشيب لها الولدان ، ولم يعد على الإسلام من عملهم منفعة ، ولم تبق الأمة سوى الولايات والحرب . ولم تزل لهم بقية إلى اليوم بالمغرب وجزيرة العرب وسواحل المحيط الهندي .

وعلى كل حال فقد انتهى الأمر باستقرار معاوية في الخلافة ومضى على ربه وكان الفوز للسياسة والدهاء . وهنا نقول : لو كان للخلافة قانون متبع أو قاعدة يجب السير عليها في انتخاب الخلفاء لوقى المسلمون التهور في هذه المزال الخطرة ولساروا على الجادة

وليس للتورخ من حيث هو مؤرخ أن يرجع إحدى البيعتين على الأخرى لأن كلا من الرجلين قد بايعه جمع من المسلمين ولم يتخط في عمله حدوداً مرسومة يعد متجاوزها ظالماً . أما كون أحد الرجلين أولى من الآخر لميزات خاصة ، أو صفات جليلة لا توجد في الآخر فهذا أمر آخر مناطه التقدير . وينبغي لمن يبت فيه أن يرجع إلى الأوصاف التي تشترط في الخليفة ليرى أي الرجلين أكثر جمعاً لتلك الصفات . ولما لم يكن في الشرع بيان لشيء من هذا رجع الأمر إلى تكافؤهما في القوة وكثرة الأعوان والأنصار ، وهي الأمور الطبيعية التي لا ينبغي غض النظر عنها كما قدمنا .

استتب الأمر لمعاوية وهو أول خلفاء بني أمية . وكان حريصاً على أن يكون الأمر في يده فأخذ للأمر عدته وأوفد ولاية الأمصار في حياته واستشارهم في انتخاب خليفة يلي أمر الناس بعده ، معللاً احتياظه هذا بخوفه على المسلمين أن تفشو فيهم الفتن . وقد كان بعض الولاة يعلم ما يرمى إليه فبادر

إلى قصده وحسن له أمر تولية ابنه يزيد ولاية العهد واصفق بقية الولاية ومن معهم على هذا الأمر وكتب له بذلك العهد . وقد اتخذ هذا السبيل غيره من بني أمية يعهدون بالأمر من بعدهم لأبنائهم أو أخوتهم أو أبناء عمومتهم . وقد كان معاوية يحاذي في فعله ما كان من أبي بكر في تولية عمر من بعده ، غير أنه لا مناسبة بين الفعلين فإن معاوية إنما آثر ولده وحبابه لمكانه من الاتصال به . وأما أبو بكر فإنه لم ينظر في عمله إلا لمصلحة المسلمين ولم يؤثر بالأمر نسبياً أو قريباً لنسبه أو قرابته . ناهيك أن معاوية — بإيثاره ولده يزيد وتخطيه في عمله رقاب جلة الصحابة والتابعين وأصحاب السابقة والفضل من الأمة — أوجد في عمله مغمراً للطاعنين وأفسح الكلام لأهل الأقاويل ، فنبه بعمله هذا المطامع النائمة فهبت ربح الثورات بعد موته ، وقام الطامعون في الخلافة ينازعون يزيد حبلها إلى أن مات والأمر على حاله ، وقد عهد إلى ابنه معاوية الثاني بالأمر بعده ، وكان رجلاً ضعيف النخيزة مشغلاً بالعبادة فألقى الأمر إلى المسلمين يختارون من شاموا إلى أن استقرت في مروان وبنه وقد ساروا في أمر الخلافة سيرة معاوية : ربما عهد الواحد منهم بأمر الخلافة إلى واحد من أولاده أو اثنين منهم أو واحد منهم وآخر من بني عمومته ، وقد جرت سنة الله تعالى أن لا يلي ولاية العهد اثنان إلا جرت ذلك نزاعاً وشقاقاً . فإن أولهما كان يميل إلى نزع الأمر من ثانيهما لا اعتقاده أنه يحدث نفسه في تمجيد الأمر لنفسه ، أو لأن الأول يؤثر ابنه على أخيه فهو يريد إزالته وتنحيته عن ولاية العهد بكل سبيل ، أو بغير ذلك من الاعتبارات . فقد جهد عبد الملك في تأخير أخيه عبد العزيز والإفضاء بالأمر من بعده إلى ابنه الوليد وولى سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد ولاية عهده ، فكان عمر يتألم من أن يلي يزيد أمر المسلمين من بعده . ولولا أن عاجلته النية لأخرجه من ولاية العهد وعهد بها إلى رجل من غير بني أمية . والأمثلة سوى هذه كثيرة .

ذهبت بعد ذلك الدولة الأموية لطيتها وجاءت الدولة العباسية ،
فترسم العباسيون في ولاية العهد خطوات بني أمية حقبة من الدهر ، إلى
أن ذهب شبابها ووافاها دور الضعف والهرم وصار الخليفة ليس له من
الخلافة سوى الاسم والأمر في كل شيء في أيدي المتغلبين من الوزراء
والقواد والملوك الذين انتقصوا الدولة من أطرافها وأقاموا لهم منها ممالك
قبضوا بأيديهم على أعنتها ، فكان أمر الخلافة في أيدي هؤلاء المتغلبين
وليس للخليفة معهم صرف ولا عدل .

لم يحفظ الخلافة الاسمية في ذلك الزمان في البيت العباسي إلا ما وقر في
نفوس الناس أن حكم الحاكم لا يكون إلا بمهد من الخليفة ليكون عمله وحكمه
جارياً على مقتضى الشرع الشريف . فكان الخليفة يولى في مكانه ليعطى
الحكام والملوك العهد التي تكسب عملهم الصفة الشرعية . ولم يكن بين
المسلمين في ناحية بغداد بيت يسامى البيت العباسي في نباهة الشأن لما كان له
من قديم الملك ، ونفوذ الكلمة والسطوة ؛ فهذا النفوذ يمتد سلطانه لكل شيء
قديم ، والروعة التي لهذا البيت بحكم الاستمرار ، وعدم حاجة الملوك إلى تغيير
هذا الطراز من الخلفاء الذين يرضون بالاسم من الخلافة ولا يعارضون في شيء
من أمور الملك . أقول : لولا هذه الاعتبارات لزالَت الخلافة في تلك الأيام
ولم يبق لها اسم ولا رسم .

جاء الملوك من أهل البيت العثماني التركي وانتحلوا اسم الخلافة بعد فتح مصر
سنة ٥٩٢٢ هـ من طويل والقوم قد رتبوا أمر الملك وجعلوه لا كبر موجود من أهل
ذلك البيت ، فصار هذا النظام متبعاً في شأن الخليفة منهم إلى أن جاء مصطفى كمال
باشا وألغى الخلافة من البلاد في شعبان سنة ١٣٤٢^(١) وقد أدى هذا الترتيب إلى
منازعات كثيرة سفكت بسببه دماء غزيرة من أهل ذلك البيت ، فإن بعض ملوكهم كان
يعمد بعد توليته إلى استئصال إخوته وذوي قرابته ليخلص الملك لبيته . ولكن

لما كان لهم نظام يسرون عليه في شأن من يلي الأمر ، فقد حفظ أمر الخلافة والملك في هذا البيت إلى العهد الأخير .

أما الذين يقولون بأن الخلافة حق من حقوق أهل البيت العلوي فإنهم كانوا يحرون عليها حكم الوراثة فيجعلون الخليفة أحد أبناء الخليفة المتوفى ويخصون بذلك أكبرهم وقد سافت الفرقة الاثني عشرية (وعلى مذهبهم جمهور أهل فارس اليوم) الخلافة في بنى الحسين بن علي ، وسموا علياً ومن يليه الأئمة ، وكانوا اثني عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي تغيب بسر داب بدارهم بالحلة وأنه يحيى آخر الزمان ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

ولغير الاثني عشرية طرق أخرى في سوق الخلافة . وعند الشيعة في تفصيلاتها اختلاف كبير يخرجنا تتبع الكلام فيه عن القصد .

للأستاذ الخضرى كلمة جلية في إحدى محاضراته ساقها في أمر الخلافة ، وما كان بين علماء الإسلام من البحوث المختلفة في شأنها نسوقها مع بعض تغيير كلما رأينا لزوماً لذلك من زيادة إيضاح أو نحوه ، قال :

لم يكن يحلّ الخلاف في زمن من الأزمان إلا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق . والناس في كل زمان يؤهلون القوة ويعملون باطلها حقاً ويحقرون الضعف ويعملون حقه باطلاً .

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلاف وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية . ويخيل إلينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جرّ إليها المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جديلاً كغيره من المسائل الدينية ، وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور .

٢ - وجوب نصيب الإمام ، أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من

طريقهما معاً كما هو رأى بعض المعتزلة (وأراني إلى هذا أميل)^(١) أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية ؟ أو على الله ليكون معروفاً لله وصفاته كما هو رأى بعض الإسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى بعض الخوارج ؟ أو يجب عند الأمن لا عند الفتنة كما هو رأى هشام القوطي وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شاعبه من المعتزلة !

٢ - شروط الإمام ؛ وقد ذكروا شروطاً لا خلاف فيها وهي : أن يكون شجاعاً ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمي البيضة . وأن يكون أهلاً للقضاء ؛ بأن يكون مسلماً مكلفاً حراً ، عدلاً ، ذكراً ، مجتهداً ، ذا رأى وسمع وبصر ونطق . ومنها شروط فيها خلاف ؛ كالقرشية عند الجمهور ، والهاشمية عند الشيعة ، والعلم بجميع مسائل الدين ؛ وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة .

ولما رأى القاضي أبو بكر الباقلاني ما عليه عصبية قريش من الاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء أسقط شرط القرشية ، وإن كان رأيه هذا موافقاً لرأى الخوارج . وقد بقى الجمهور على اشتراطها وصحة إمامة القرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين .

وكأنى بأهل هذا الرأى يرون أن الخلافة التي أوجب الشرع إقامتها يكفي في سقوط الإثم باتخاذها على السبيل الذي تتخذ عليه الآثار القديمة والعاديات في المتاحف ، ولا أخفى عليكم أن هذا ليس معجباً لى ولا تميل إليه نفسى .

٣ - ما ثبت به الإمامة ؛ وهو النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد ، خلافاً للشيعة . ثم قالوا : لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان ، وقال بعضهم : لا بد أن يكون ذلك أمام بيعة عادلة . وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولاى شئ . يكون ؟

(١) كلام المؤلف .

ولا يخفى أن وجوب الأخذ ببيعة واحد أو اثنين فيه خطر وافتيات على أهل الحل والعقد ، والمعقول أن يكون ذلك باصفاق أكثر من حضر منهم على البيعة . وأما جواز تعدد الأئمة في النفس منه شيء ، مهما احتج المجيزون له بترامى الأطراف واحتياج البلاد النائية إلى قوة تضبط نواحيها وتؤمن فجاجها ونحو ذلك من الحجج لأن هذا يحصل باختيار الكفاة من الولاة .

أما الإمام إذا بويع فإنه لا يجوز خلعه لنحو فسق لما في مفارقة الجماعة بالخروج على الإمام من الخطر وسفك الدماء والمفاسد . ولكنه إذا كفر فلا رخصة في الإبقاء عليه بل لا بد من خلعه . ومثل ذلك إذا جُنّ .

ولا يذهب عليكم أن القول بعدم خلع الإمام بالفسق قول لكثير من أصحاب رسول الله عليه السلام ، فقد كان جمهور المسلمين على هذا الرأي في خلافة يزيد وكثير من الصحابة يساكنونه في بلده ولم يحركوا ساكناً بعزله حتى بعد أن قتل الحسين وهو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفريق يرى خلاف هذا الرأي كالحسين بن علي ومن تابعه وذلك اجتهد منهم .

٤ — من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أهو أبو بكر أم علي ؟ ومعلوم أن الجمهور من المسلمين يقولون : إنه أبو بكر . وأما الشيعة فيقولون : إن علياً معين من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته . وبدعون لذلك حديثاً هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي : أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي ، وأنا لا أذهب بكم بعيداً ، بل أقول : إن رسول الله لو كان قد قال هذا القول لاحتج به علي يوم يبيع أبو بكر واستشهد على ذلك بالمسلمين وإني لأرأى بعلي رضي الله عنه أن يكون قد عمل على خلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايع أبا بكر وهو ليس بالإمام الحق ثم بايع بعد ذلك عمر ثم عثمان .

٥ — من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومعلوم أن جمهور المسلمين على أنه أبو بكر الصديق . والشيعة على أنه علي بن أبي طالب .

وأما نحن فنقول : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم ويده تقلب قلوبهم الحكم فى ذلك وهو على كل شىء شهيد .

٦- ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟ ولا شك أن الجمهور يقولون بأن الإمامة تكون حينئذ صحيحة وحجتهم رضا الصحابة رضوان الله عليهم وسكوتهم على بيعة يزيد بن معاوية مع وجود من يفضلهم منهم ومن التابعين . وأما الشيعة فيقولون بعدم صحة بيعته .

وعلى الجملة كانت هذه المناقشات مع حديثها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الأحيان ، عديمة الجدوى من الوجهة العملية ، لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم ، وأولئك يُحكّمون حدة الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهتمهم .

و (السيف أصدق أنباء من الكتب • فى حده الحد بين الجد واللعب)

والخلاصة أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن فى طريق يؤمن فيها العثار ؛ بل كان تركها على ما هى عليه من غير حل بين الحدود ترصاه الأمة وتدافع عنه سبباً لاكثر الحوادث التى أضنت المسلمين وأوجدت ما سيرد أمام أعيننا من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما خلا منها زمن سواء كان ذلك بين ييتين أو بين شخصين ، اهـ . من محاضرات الخضرى بزيادة وتغيير .

نوع الحكم في الخلافة الإسلامية

إذا نحينا جانبي الإفراط والتفريط في شأن الخلافة الإسلامية واتخذنا رأى الجمهور نظاماً للحكم في الخلافة ظهر لنا بذلك نوع غريب من أنواع الحكم إن الحكومات التي عرفت إلى اليوم أنواع :

١ - حكومة يكون الملك فيها مستبداً ، أمره قانون متبع وشرع مطاع لا يراجعه أحد ولا يستشير أحداً . وهذه هي الحكومة الاستبدادية ويسمونها : (حكومة أوتوقراطية) أى حكومة ذاتية .

٢ - حكومة ينتخب الملك فيها من بيت خاص سواء كان ذلك على نظام متبع أولاً . والملك فيها ليس مقيداً باتباع مجلس من المجالس ، مع وجود مجالس للتشريع وسنّ الأنظمة وإبداء الرأى فى مهامّ أمور المملكة . وأعضاء هذه المجالس تنتخبها الأمة على قاعدة متبعة ، كانت الحكومة (ارستوقراطية) أو حكومة الأعيان .

٣ - إذا كان الملك ينتخب من بيت خاص ، ولكنه لا شأن له بأمر الملك سوى إمضاء المعاهدات والأوامر ، وأما شؤون المملكة فالذى ينظر فيها مجالس تنتخبها الأمة ، ولا يتأتى للملك أن يبت فى أمر إلا بعد عرضه على تلك المجالس وإبداء الرأى فيه وما يستقرّ عليه رأى المجلس يرضيه الملك ، كانت حكومة شعب ويعبر عنها بقولهم : (حكومة ديمقراطية) وتارة يعبرون عنها بحكومة شورية :

٤ - حكومة يكون فيها الرئيس منتخبا من بين الشعب دون بيت خاص ، ويكون انتخابه بواسطة مندوبين من الأمة على نظام خاص لمدة معينة — كثلث سنين أو خمس سنين — ومعه مجالس تنوب عن الأمة ينتخب أعضاؤها بواسطة الأمة ، تنظر هذه المجالس فى كل شئ والرئيس مقيد بأمرها لا يبت شئاً دونها

وليس له إلا إمضاء القوانين والأوامر التي استقر عليها رأى المجالس بمقتضى الدستور المتبع ويمضى المعاهدات الدولية ونحوها ، وليس له تصرف فى مالية الامة أو نظامها ، فهذه تسمى : (حكومة جمهورية) .

* * *

أما الخلافة الإسلامية وإن اختص الخليفة بأن يكون من قریش ، ولكن قریشاً بيوت كثيرة جداً ، فهي أشبه بأمة ولا يختص بالخلافة بيت من بيوتها دون بقيتهم ، وأيضاً فإن الذى ينتخبه رجال الحل والعقد ، وهم جمهور ذوى الرأى فهي من هاتين الجهتين تأخذ شهما من الحكومة الجمهورية .

ومن حيث إن الخليفة يُلَحَظُ فى انتخابه الدوام دون أن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولاً عن الخلافة بانقضائه ، تأخذ شهما من الحكومة الملكية .

ومن حيث إن الخليفة مقيد فى اتباع أحكام نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية ، وأن يقاس النظر على نظيره فى الحوادث وما أجمع عليه أهل الحل والعقد بما ليس فى كتاب ولا سنة ولم يوجد له نظير يأخذ حكمه ، وليس له أن يضع شرائع من تلقاء نفسه ، تأخذ شهما من الحكومة الدستورية أو الشورية أو (الديمقراطية) .

وحينئذ يمكننا أن نقول فى تقريب وصفها مع شىء من التجوز والتساهل فى التعبير : إنها (حكومة ملكية موحدة النظام لها بعض الشبه بالجمهورية) .

انتخاب أبي بكر

لا يجهل أحد أن الأنصار إنما هم الأوس والخزرج . وهما شعبتان كان بينهما في الجاهلية ما يندر أن يكون مثله بين بني أب . وكان الخزرج أكثر عدداً ، وكانت الرياسة لسعد بن عباد من بني ساعدة وهو أحد النقباء . وكانت دار سعد بما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة كانت بالقرب من داره .

لم يلبث الأنصار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن توافوا إلى سقيفة بني ساعدة ليدبروا رأيهم في شأن من يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريدون أن يلي هذا الأمر رجل منهم ويزووه عن المهاجرين ، وكان سعد بن عباد مريضاً فأخرجوه معهم وهو لا يقدر أن يُسمع الناس ما يقول فكان يبلغ عنه بعض ذوى قرابته ما يقول في خطبته يرفع به صوته لسمع الناس . فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا القليل ، وما كانوا يقدر أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمرأ به ؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه . فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم ؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ؛ حتى أثنى الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قدير عين ، استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس فإنه لكم دون الناس . »

فأجابوه بأجمعهم أن قد وقعت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى :

ثم إنهم ترادوا في الكلام بينهم ، فقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعونا هذا الأمر بعد ؟ فقالت طائفة منهم : فإننا نقول إذا : « منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : « هذا أول الوهن ، .

بينما الأنصار يديرون الرأي على وجوهه ويترادون الكلام فيما يجاوبون به المهاجرين ، نبي عمر بن الخطاب بأمرهم ومأم عليهم من الاستشراف لهذا الأمر والتحضر للبيعة ، فأقبل إلى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل إلى أبي بكر (وكان مع علي رضي الله عنه في جهاز رسول الله عليه السلام) أن أخرج إلي ؛ فراجعته قائلاً : إني مشغل بجهاز رسول الله ، فرد عليه عمر بأن قد حدث أمر لابد لك من حضوره . فخرج إليه ، فقال : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة . وأحسنهم مقالة من يقول : « منا أمير ومن قريش أمير ، ؟ فضيا مسرعين نحوهم . فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فتماشوا إليهم ثلاثتهم فلقبهم عاصم بن عدى ، وعويم ابن ساعدة . فقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلم يصغوا إلى قولهما حتى وافوهم مجتمعين بالسقيفة وقد هيا هم في نفسه كلاماً يريد أن يقوم به فيهم . فلما اندفع إليهم يريد ابتداء كلامه قال له أبو بكر : رويدا حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت . ثم تكلم أبو بكر : فلم يدع شيئاً مما في نفس عمر إلا قاله أو زاد عليه . فكان كلامه بعد حمد الله والثناء عليه أن قال :

« إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه وشهداً على أمته ليعبدوا الله ويوحده وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منجور . ثم قرأ ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله - وقالوا - ما نعبدكم إلا ليقربونا

إلى الله ذلني) فمعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم لإيائهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف^(١) الناس لهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينزعهم ذلك إلا ظالم . وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر بن الجوح فقال : يامعشر الأنصار ، أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيثكم وفي ظلكم ، ولن يجترى مجترى على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو السدد والمنعة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ماتصنعون . ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم . أبي هؤلاء إلا ماسمعتم فنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيات لا يجتمع إثنان في قرآن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة . من ذا يقارعنا سلطان بمحمد وإمارته — ونحن أولياؤه وعشيرته — إلا مدل ياطل ومتجانف لإثم أو متورط في هلكة .

فقام الحباب بن المنذر فقال : يامعشر الأنصار ، أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فإن أبوا عليكم ماسألتوه فاجلوه من هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور . فاتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان

(١) شنف كفرح : نظر إلى الشيء كالغرس .

لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جُذِبْتُ لهما المحكمك ، وُعَذِّقَ لهما المرجب
أما والله لئن شئتُم لنعيدنهما جَذَعَةً .

فقال عمر : إذن يقتلك الله . قال : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر . فلا تكونوا
أول من بدّل وغير .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يامعشر الأنصار ، إنا
والله لئن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا
به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا في الكدح لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل
على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولى المنة علينا
بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحقّ به وأولى .
وأيّهم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم
ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتُم فبايعوا . فقالا :
لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما
في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا
ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك .
فسبقهما بشير بن سعد فبايعه .

ولما رأت الأوس ماصنع بشير بن سعد ، وماتدعو إليه قريش وما تطلب
الخزرج من تأمير سعد بن عبادة . قال بعضهم لبعض وفيهم أسيّا . بن حضير
أحد النقباء : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة
ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر . فقاموا إليه فبايعوه .
فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم . وأقبل
الناس يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مريض لا يستطيع
النهوض . وتخلف عن البيعة علي بن أبي طالب ومن معه من بني هاشم ، إذ كانوا
مشتغلين بتجهيز رسول الله فلم يحضروا أمر السقيفة ولمّا سنورده . وأبى سعد
ابن عبادة المبايعه فتركوه لأبي بكر .

لم يكن المانع اعلى عدم حضور السقيفة فحسب أو اشتغاله بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان يرى أنه أحق بهذا الأمر من سواء لئله من صهر رسول الله وقرابته وسابقته وحسن بلائه فى الإسلام وإن القوم قد غصبوه حقه وغلبوه على تراث رسول الله . ويريد أن يبق على إباته حتى لا يكون للناس عليه حجة بأنه نزل عن حقه لغيره ثم يتربق فرصة يعيد فيها الحق إلى نصابه .

غير أن الأحوال التى تلت بيعة أبى بكر من ارتداد العرب ونأيهم بجانبهم عن الإسلام ، كانت أكبر من شأن الخلافة ، والشدائد تذهب الأحقاد وتولف بين جميع من مسهم أذاها . لذلك أطرح على جانب الكلام فى الخلافة ووضع يده فى يد أبى بكر لدفع الأعراب عن المدينة وتثبيت كلمة الإسلام وتقليم أظافر الشرك الذى طما على الأمة .

أول خطبة لأبى بكر

إن قيام الرؤساء من ملوك وأمرأ ووزراء بالخطابة بعد تمام الأمر لهم يعربون عن خطتهم التى يتبعونها فى سياسة أمهم ووجهتهم التى يولون وجوهم شطرها فى حكم شعوبهم ليس بالأمر الحديث . فقد قام أبو بكر بعد توليته الخلافة . فخطب الناس خطبة أبان فيها ما اعتزم على سلوكه فى سياسة الأمة بياناً لا إبهام فيه فقال :

« أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخير منكم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم یرحمكم الله » .

وهذه الكلمة تحمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانتته ، وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفيه ضمان لحریتهم في القول . أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ، ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه . حثهم على الجهاد الذي كان لابد منه . أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم .

ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن قحافة عثمان من بنى تيم بن مرة يجتمع نسبه من رسول الله في مرة بن كعب بن لؤى . وأمه أم الخير بنت سلسى بنت صخر بن عامر من تيم ابن مرة . ولد لسنتين من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلة حميد السيرة بغضت إليه الخمر في الجاهلية ، وكان ذا ثراء وبسطة في الرزق ، وقد ساعدته سعة حاله وما يكسبه من التجارة على الافضال على أهل الحاجة . وكان قريباً من قلوب قريش محبباً فيهم . وإليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغارم ، فإذا احتمل دية أو غرم مغرمًا وأخبر قريشاً صدقوه وأعانوه عليه . وكان أبو بكر نسابة في العرب عامة وفي قريش خاصة ، راوية لأخبارهم حافظاً لأنسابهم ، عالماً بمفاخر كل قوم ومنازلهم . وكان يعرف من أنساب قريش وأخبارها ما لا يعرفه غيره . وكان بزازاً يعتمد على الكسب من تجارته في الجاهلية والإسلام فبلغ رأس ماله أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً في الله ومعاونة رسوله . وكان يشتري المعدبين من الأرقاء بمكة ، إذ كان يريد سادتهم فتنهم عن الإسلام ويعتقهم . وكان أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام من الرجال فآمن به وصدقه وتابعه على دينه . وكان حفيماً أثيراً لديه واحتمل أشد الإيذاء من قريش حتى لقد هم بالهجرة إلى الحبشة . فلقبه ابن الدغنة سيد القارة فأجاره على قريش وقال له . مثلك لا يهاجر إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر . وقد أجازت قريش جواره على أن لا يستعلن بصلاته

لهم . فاتخذ بفناء داره مسجداً يصلى فيه ويقرأ القرآن . وكان رفيق القلب يكاء من خشية الله ، وكان النساء والصبيان من المشركين يسقطون إليه ويعجبون من قراءته وصلاته . وشكاه رجال قريش إلى ابن الدغنة فرد عليه أبو بكر جواره راضياً بحماية الله تعالى له ممن يؤذونه . وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان ثانياً اثنين إذ هما في الغار وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإني ليعجبني قول صديقي الفاضل رفيق بك العظم رحمه الله في كتابه أشهر مشاهير الإسلام :

« تجسم أبو بكر رضى الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن إدراك الصواب والمهارة في الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان فبادره بالدعوة فلم يتردد ، وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر » .

أخلاق أبي بكر

ليس من همتنا أن نستقصى ما كان عليه أبو بكر رضى الله عنه من أخلاق كريمة وسجايا جميلة ، ولكننا نعمد إلى أظهر أخلاقه أثراً في أعماله التي استقبلها بعد أن ولي خلافة المسلمين ، وفي معاملتهم وسياستهم . فإن لكل أمير أو رئيس أخلاقاً تملكه ويشتهر بها ، وأظهر أخلاق أبي بكر خلقتان : الرقة ، وصدق العزيمة .

أما رفته فقد كان هذا الخلق غالباً عليه من أيام جاهليته واستمر معه في الإسلام ، فقد كان كثير البكاء خشية الله تعالى ، وكَم من مرة قام يدافع قريشاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي وقد ليوه بردائه قائلين :

أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، وهو يردهم عنه باكياً ويقول :
أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ولما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم
أصحابه فى أسرى بدر ، كان رأيه أن يقبل منهم الفداء لأنهم قومه وأهله وقد
أظهره الله عليهم وعسى الله أن يهديهم به . وقد مثله رسول الله صلى الله عليه
وسلم بإبراهيم عليه السلام إذ قال : « فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك
غفور رحيم » .

وسيمر بنا فى كتبه وعهوده مبالغته فى الاستيثاق لأهل العافية والنساء
والصبيان ومن ليس لهم شأن فى الحرب ووصيته فيهم بالخير والرفق بهم .

وأما صدق عزمته فإنه يتجلى واضحاً فيما يرد علينا من ضبطه للأمور وجده
فى حفظ البيضة ومجاهدة المشايق وتسير دفة الإسلام وسط الخطوب المظلمة
وأعواج الفتن المتلاطمة حتى أرساها إلى مرفأ السلامة والأمن . ولم يلحق بربه
حتى أعاد الإسلام أقوى ما كان شوكة . وأمتع ما كان جانباً ، وأثبت ما كان
أساساً . وكل ذلك بثباته أمام الأخطار واستصغاره الخطوب وتصميم عزمته
ومضائه على الحق .

وأول مواقف أبى بكر إنقاذ جيش أسامة ، وقبل الإفاضة فى الكلام على
جيش أسامة أريد أن أعجل بالكلام على ردة العرب بعد الإسلام .

الردة

إن كثيراً من الأعراب المنبشرين فى جزيرة العرب كانوا حين وفاة رسول الله
صلى الله عليه وسلم لم يتفق لهم من صحبته ما يصفى جواهر نفوسهم عما مازجها من
شوائب الشرك ، ولم ينفذ إلى بصائرهم نور الحكم الباهرة المنظوية فى أوامر
الإسلام ونواهيها . فزاغت بصائرهم عن أن الزكاة صدقة تؤخذ من أغنيائهم
فترد على فقرائهم ، لا يكلفها إلا من آتاهم الله بسطة فى الرزق . وعدوها إتاوة

ضريبة يسامون أداها كما يسوم الجبابة من الملوك رعاياهم أداء الإتاوات وحمل المغارم . وذهلوا عن بون ما بين الخطتين . فتناجوا بالإثم والعدوان في منع الزكاة وفشت هذه المقالة في كثير منهم — وآخرون من دونهم فشت فيهم فاشية سوء وهم الذين قام فيهم متنبئون يُضلونهم بغير علم ، كطليحة الأسدي ، والأسود العنسي ، ومسلمة الكذاب ، وسجاح التيمية . ومع أن المانعين للزكاة لم يرفضوا جميع أحكام الإسلام ولكنهم سموا مرتدين لجحدهم ركناً من أركانه .

ثبت على الإسلام أهل المدينة ومكة والطائف ومهاجرة الأعراب وبعض الدائنين بالإسلام في قليل من الأطراف كعبد القيس .

فلم يكذب خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتشر في الآفاق حتى نجم النفاق والشقاق وتطاوت أعناق كثير من قبائل العرب إلى البطش بالمسلمين وطمعوا في جانبهم وغرتهم الأمانى ، والله غالب على أمرهم

إنفاذ أبي بكر جيش أسامة

بين هذه الفتنة الحالكة وفي معترك هذه الحوادث ، والإنابة بارتداد العرب يتلو بعضها بعضاً ، قام أبو بكر بإنفاذ جيش أسامة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جهز جيشاً لمعاينة قبائل قضاة الضاريين في جهات الشام مما يلي مؤتة لمظاهرتهم الروم على جيش المسلمين في غزوة مؤتة ، وقد كان أمير الجيش زيد بن حارثة ، وقد استشهد في تلك الغزوة بجهز جيشاً آخر لغزوهم . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير هذا الجيش أسامة بن زيد ، وكانت سنة ١٨ سنة ، وكان تحت لوائه عدد من جلة الصحابة منهم أبو بكر وعمر . وقد حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم على خروج جيش أسامة . ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسن منه ، وقد توفي رسول الله قبل أن يراىل الجيش المدينة فبقى يظاهرها .

خشى المسلمون أن يطمع العرب وأهل النفاق في مسلي المدينة إذا فضل جيش أسامة وبقى المسلمون بدون حامية قوية ترد عادية الطامعين فكلّموا أبا بكر في استبقاء جيش أسامة ليكون للمسلمين ردماً . وقالوا : إن هؤلاء جند المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك . فقال : والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأرسل أسامة عمر بن الخطاب يعرض على أبي بكر تخلف الجيش عن وجهه وعهد بعض المسلمين إلى عمر أن يخاطب أبا بكر في أن يولى أمر الجيش من هو أسن من أسامة . فلما أفضى عمر إلى الخليفة بما حمل من رسالة زيد وجنده أبي إلا المضاء فيما أمر به رسول الله واشتد على عمر حتى أخذ بلحيته وقال له : عدمتك أمك ، وتكلمت يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه !

تصوّر أبو بكر ما خامر قلوب رجال الجيش وما هو لاصق بنفوسهم من كوثنة الجاهلية والأنفة من تأمير من لم تقدمه السن والاستمسك بعري التفاضل بالأنساب والأموال التي وضعها الإسلام . فرأى أن لا يجيبهم إلى طلبهم وأن يحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلا بالتقوى وصالح العمل ، وأن ينوّه بقدر زيد حتى يكون للقوم بخليفتهم أسوة حسنة . ولو أنه أطاع القوم لسن للناس مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاطمعهم في أن يطليوا ما ليس لهم بحق ، وفي ذلك من المضرة ما لا يحهل .

خرج أبو بكر حتى وافى الجيش وشيعهم ماشياً وأسامة راكب واستأذنه في أن يسمح لعمر بالبقاء معه بالمدينة يستعين برأيه ، فسمح له بذلك . وقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبن أو لا نزلن ؟ فقال : والله لا نزلت ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله ؟

كان في عمل أبي بكر ما حدا القوم على الرضا بإمرة أسامة إذ راوه ماشياً في

ركابه غير مفتات عليه في استبقاء عمر دون إذنه ، فكان عمله خير هاد لهم

ومن جهة أخرى رأى أبو بكر أن التوقف عن إنفاذ الجيش إلى الوجه الذى أعد له يشعر قلوب العرب ضعف المسلمين عن حماية أنفسهم ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وإن إنفاذه إمضاء لأمير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصوير المسلمين فى النفوس بصورة القوى الجرىء الذى لم يحتلج قلبه خوف ولم يستشعر الوجل .

زوّد أبو بكر جيش أسامة نصيحة هذا نصها : ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فخصوا بؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا ، ثم قال : اندفعوا باسم الله .

نصيحة تحجل أدياء المدينة الذين يظهرون بمظهر خدام الإنسانية وهم أضرى العوادي عليها ، ويرمون الإسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف وعدم احترام الإنسانية وهم فى كل يوم يُصلون الإنسانية من نار الهمجية ضروبا ، ويذيقونها من الوحشية أفانين .

يجدر بالآمم المتعدنة أن تجعل هذه النصيحة أول ما يتزوّد به الجندي ، وأن تكون القاعدة التى تبنى عليها حقوق الدول والملل .

سار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاة وأحلافهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوماً ثم عاد . وكان إنفاذ جيش أسامة نهاية الحزم ، فقدمت فى اعضاء المرتدين حين تساموا به . وقالوا : لو لم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بعد عنهم من القبائل ذات الشوكة . غير أن ذلك لم يثن كثيراً من المرتدين عن الانحدار فى مهواة الردة التى زلت فيها أقدامهم .

قتال أبي بكر لأهل الردة

إن الدين الإسلامي يُمتَبَرُ أهله والداخلون فيه بمثابة جند على تعبئة لمنازلة العدو العادي . فمن نكل عن العدو وخام عن اللقاء وولى العدو ظهره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله واستحق جزاء الجندى الفار من صفوف الجيش أو المنحاز إلى الأعداء المظاهر لهم . لهذا كان قتال المرتدين إلى أن يفيثوا إلى دينهم أوجب من قتال المخالفين ، ولأن إعطاء الهواة في أمرهم يكون مدرجة لمشاقة سوام حتى تفرق الكلمة وتنشق العصا وتنفض البيضة وتكون فتنة في الأرض وفساد كبير .

الدين الإسلامي لا يفرض على متبعيه أتاوة ، ولا يفرض عليهم حرجاً ولا يخلو حال الأمة من إقامة ولاية وأمرأ وبعث بعوث وإطفاء فتن والإتفاق على مصالح عامة ومواساة ضعيف وإطاعة ذى حاجة ونحو ذلك من الوجوه التى بينها الكتاب وجعلها مصارف للصدقات ، ولا مادة لكل هذه الوجوه سوى الزكاة التى هى ركن لا يتحقق الإسلام من أمرىء إلا بالإقرار به والعمل بمقتضاه .

لهذا كله كان المانعون للزكاة مساوين فى الحكم للجاحدين للدين بعد انضوائهم إليه وانتظامهم فى صفوف جنده .

رأى فريق من الصحابة — بعد تواتر الأخبار بارتداد العرب ومنع فريق منهم الزكاة — أن يقبل أبو بكر منهم ما بذلوه وهو الصلاة ليكون ذلك تأليفاً لقلوبهم حتى يرجع جيش أسامة ويشتد ساعد المسلمين ثم يرمى المدبر بالمقبل ، فلم يقبل أبو بكر هذا رأى لأنه مؤذن بالضعف وثلمة لا يلبث القوم أن يوسعوها بالمطالب حتى يعودوا إلى وثنيهم الأولى وما كان له أن يبدد ذلك الإرث الذى خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجرد تناوله فقال : « والله لو منعوني

عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها .

إذا صدقت العزائم واتحدت الوجهة وَخَلَصَتِ النيات في عصابة تحاول
بروماً . فهناك يكون الضر القريب والفتح المبين . ناهيك بعصابة قوامها
المهاجرون والأنصار ، وهم قوم قد تأدّبوا بآداب الدين ، وغلبت على نفوس
كثير منهم أخلاق القرآن . وقد تبوأ مكان الرئاسة فيهم أبو بكر الصديق
يحف به ويؤازره على سياسة أمره أمثال على وعمر وخالد بن الوليد وعكرمة
ابن أبي جهل وعمر بن العاص وخالد بن سعيد والمهاجر بن أبي أمية
وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ومعاوية ابني أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب
ابن سلمة الفهري وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من أصحاب محمد صلى الله عليه
وسلم ، وكل إذا تعدّ الرجالُ مقدّمٌ .

كانت حامية المدينة قليلة بعد ارتحال جيش أسامة . فأخذ أبو بكر بالحزم
ولم يشأ أن يعاجل العرب بما اعتزم عليه من إعضاض السيف رقابهم حتى
تستقيم له قناتهم ويعودوا إلى الدين الذي مرقوا منه حتى يعود جيش أسامة .
فأخذ يطاول في الأمر — غير أن عبساً وذبيان وغطفان وأسداً وطيّئاً قد
أعجلوه . وكان بعضهم نازلاً بذى القصة وبعضهم بالأبرق بالقرب من المدينة
وأرسلوا إليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أن يجيبهم إلى
تفريق ما جمع الله — والظاهر أن الوفد كانت له مهمة أخرى ، وهي تجسس
أحوال المسلمين والعلم بما هم عليه من قوّة أو ضعف .

عاد الوفد بعد ذلك إلى القوم بجواب أبي بكر وأفضوا إليهم بما رأوه من
قلة عدد المسلمين وضعف جانبهم وأطمعهم في منازلهم . غير أن الوفد كان
على خطأ فيما أنبأ به القوم ، فقد كان للقوم مدد لا يبصر بالعيون ، وهو قوّة
الإيمان وصدق اليقين وثبات إرادة القادة ومضاوهم . يؤازر هذا المدد مدد
آخر ، وهو طول التجربة والتمرس بالحرب والاكتواء بنارها في مختلف الوقائع

التي لم يَنْفَضُوا عنهم غبارها ، وأن مساعير الحرب من أمثال علي وطلحة والزبير وغيرهم من صناديد قريش لا تلين لهم فتاة ولا يَفْلُ لهم حدّ .

لم ينم أبو بكر بعد أن ردّ وفد القوم بالحِية . بل أخذ يستجيش من تيسر له من المسلمين خشية أن يبيت القومُ المدينة ، فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود ، وجعلهم على أنقاب المدينة . وأخذ أهل المدينة بمحضور المسجد خوف البيات ، ليكون منهم المدد لمن على الأنقاب إذا دامهم العدو في ليل أو نهار .

لم يكن إلا ثلاث ليال من عود الوفد حتى طرق القوم المدينة غارة مع الليل . وقد خلفوا بعضهم بذى حِسى ليكونوا لهم فئة ورداً . وكان الذين على الأنقاب قد بثوا نفراً منهم يدرجون بعيداً عنهم ، فلما أحسوا القوم نهبهم ، وعلم أبو بكر فخرج في أهل المسجد على النواضح فانهزم أهل الردّة وتبعهم المسلمون على الإبل حتى بلغوا ذى حِسى خرج عليهم الردة بأنحاء قد نفخوها^(١) وجعلوا فيها حبالاً ودهدهوها (دَخَرُجُوها) في وجوه إبل المسلمين فنفرت عائدة إلى المدينة لا يملك راكب رأس بعيره ، ولم يصب أحد من المسلمين . ولكن أبا بكر بات على تعبته وهياً جنده وخرج في عقب ليلته يريد الأعداء .

أما المرتدون فلما رأوا نفار الإبل غرهم ذلك وبعثوا إلى أهل ذى القصة ، وما طلع الفجر إلا وقد وافاهم أبو بكر بجده وما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا السيف في رقابهم . وما ذر قرن الشمس حتى منح الله المسلمين أكتافهم وغنموا إبلهم ، وكان نصر المسلمين في هذه الموقعة كنصرهم في وقعة بدر أوّل الإسلام فقد عزّ بها المسلمون وذلّ المشركون .

(١) الأنحاء ، جمع نحى (بكسر النون وسكون الهاء) : الرق

جزعت عبس من هذه الواقعة أى " جزع فطاشت أحلامهم ولم يجدوا إلى نكاية المسلمين سبيلا سوى أن يقتلوا من كان مسلماً فيهم كل قِيلة . ومعلوم أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم ويوهنون جماعتهم ولا يضير ذلك جماعة أبى بكر ، فخلف أبو بكر ليقْتلَنَّ في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . بينما أبو بكر يعدّ للقوم ما استطاع من قوّة وافاه جيش أسامة فأمرهم بالإقامة بالمدينة ليأخذوا راحتهم ويريحوا ظهرهم ، وخلف أسامة على المدينة حين خروجه لأهل ذى القصة .

وحين أراد أبو بكر الخروج مع الجند للقتال قالوا له : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشدّ على العدو ، فابتع رجلا فإن أصيب بعثت آخر . فقال : لا والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسى .

سار أبو بكر بجنوده كما سار أولا إلى ذى حِسى وذى القصة حتى نزل على أهل الرَبذة بالأبرق ، فانهزمت بنو عبس وبنو بكر وأقام بالأبرق أياماً . وقد غلب بنى ذبيان على بلادهم وحامها لحيل المسلمين وأرعى سائر الناس الرَبذة . ثم عاد إلى المدينة .

عقد الألوية للقتال

ولما استراح جيش أسامة خرج أبو بكر إلى ذى القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد وقطّع الجند وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وأمر كل أمير أن يستفزّ مسلّى القبائل التى يمرّ بها ليكون بعضهم فى جنده ويتخلف بعضهم لحماية قومهم . وقد حضرت فى تلك الأيام صدقات فكانت عوناً .

وهؤلاء هم الأمراء الذين رمى أبو بكر المرتدين :

(١) — خالد بن الوليد : وجهه إلى طلحة بن خويلد الأسدي بِمِرْخَةٍ ،
فإذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبُطاح .

(٢) — عكرمة بن أبي جهل : وجهه به إلى مسيلة الكذاب باليمامة .

(٢) — مُرَخْبِيل بن حسنة وجهه في أثر عكرمة بن أبي جهل ، فإذا فرغ
من أمر مسيلة قصد قضاة .

(٤) — المهاجر بن أبي أمية : وجهه به إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء
اليمين ومعاونة الأبناء على قتالهم — والأبناء : هم مولدة الفرس باليمن آمنوا
وثبتوا على إيمانهم وذريتهم بها إلى اليوم — .

(٥) — حذيفة بن محصن : وجهه إلى أهل دِبابا بـُعمان .

(٦) — عرجة بن هرثمة : وجهته أهل مهرة : وأمره هو وحذيفة أن
يجتمعا وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه .

(٧) — سويد بن مقرن إلى تهامة باليمن .

(٨) — العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين .

(٩) — طريفة بن حجاز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن .

(١٠) — عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاة .

(١١) — خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وقد فصلت الأمراء بجيوشها من ذي القصة بعد أن كتب إلى المرتدين
من العرب كتاباً واحداً أرسله إليهم ليكون لهم نذيراً بين يدي جيوشه
ليكون قد أعذر إليهم قبل الإيقاع بهم . فكان أول منشور عام يقرأ في
مجامع الناس وأنديتهم . ولما كان هذا المنشور مطوّلاً فنحن نجتزئ بأن
نقتطف بعضه وهو ما يتعلق بالمرتدين .

كتب أنى بكر إلى أهل الردة

بعد أن ذكر الله تعالى بما هو أهله وذكر رسول الله ووفاته قال : « وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى : ﴿ وإذا قلنا للبلائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلاً ﴾ . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وإنى قد بعثت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعاناه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قَدَرٌ عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان . فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفّ عنهم وإن أقرّوا قبل منهم وحلهم على ما ينبغى . »

ونفذ الكتب مع الرسل أمام الجنود .

عهد أبى بكر إلى القوآد

وكتب إلى قوآده عهداً صورته واحدة وهى :

« هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سرّه وعلايته وأمره بالجدّة فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن

الاسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم . فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقرّ له قبل ذلك منه وأعاناه عليه بالمعروف . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسربه . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقرّ قبل منه وعلمه . ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتله بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخنس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً وكلّ يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

طليحة

هو طليحة بن خويلد الأسدى ، علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع فسوّلت له نفسه أن يدعى التبوّة في قومه ومن يليهم ليكون له مثل ما لنبيّ قريش . فتابعه قومه من بنى أسد وأرزت إليهم عبس وذبيان وبعض من جديلة والغوث وطىء لما لها من الحلف في بنى أسد .

كان عدى بن حاتم الطائى مقبياً بالمدينة وقد خشى على قومه أن يحتاجهم خالد وقد أمر أن يبدأ بهم ، فاستأذن أبا بكر في اللحاق بقومه ليردّ من رجع منهم إلى الإسلام وليعين بهم خالداً . فأذن له ، ففارق المدينة إلى قومه وصار يفتلهم في الذروة

والغارب حتى وافقوه على الإسلام ومفارقة طليحة وأرسلوا قومهم الذين مع طليحة بزاخه وجاء عدى إلى خالد ليتلبث ثلاثاً حتى يعود رجال طيء لثلاث يعترهم طليحة بسوء ، ففعل ، ولحق من كان بزاخه من طيء بجيش خالد ومعهم من خف من طيء . وأراد خالد أن يقصد جديلة ، فشق ذلك على عدى ونهه عن قصده وأشار عليه بالتلبث حتى يأتي جديلة لعل الله ينقذهم به كما أنقذ بني النوف قوم عدى ، ففعل خالد ولم يزل عدى بالقوم حتى جاء إلى خالد بإسلامهم ، وانضم منهم إلى جيش المسلمين ألف راكب ، وكان عدى خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم .

يتم خالد بجيشه ومن انضم إليهم من طيء بزاخه لقتال طليحة ومن لف لفه وكان طليحة يُسمى المَلَك الذي يزعم أنه يأتيه بالوحي « ذا النون » وسن لهم الصلاة من قيام وقال : ما يصنع الله بتعفير وجوهكم ، إن الرغبة فوق الصريح .

التقى خالد مع جيوش طليحة واستحضر القتلى بين الفريقين وعصت الحرب بنى قزارة وقائدوها وسيدها عينة بن حصن بكر على طليحة كلها ضرسته الحرب يقول له : هل جاءك ذو النون ؟ فيقول : لا . وطليحة ملتفت بكسائه بفناء بيت له من شعر . فلما استعرا أوار الحرب جاء وقال له : هل جاءك ذو النون ؟ قال : نعم جاني وقال : إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحاً كرحاه وحديثاً لا تنساه ، فقال عينة : أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه يابنى قزارة هذا كذاب . وولى من عسكره ومنح الله المسلمين أكتافهم . وعمد طليحة — إذ رأى الهزيمة — إلى فرس كان قد أعدّه فركبه وأردف زوجته خلفه وقال : من استطاع أن يفعل كما أفعل فليفعل وولى وجهه شطر الشام . ثم عاد مسلماً وحسن إسلامه وكان ذا بلاء في قتال فارس في أيام عمر .

كان بنو عامر بن صعصعة قريباً من ساحة القتال بزاخه على قادتهم وسادتهم

ينظرون إلى القتال فلما رأوا ماحل بطليحة وجموعه أقبلوا يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا .

وقد كان الذي أعظم أمر طليحة بعد صغره ماسنقهه . وهو أن الرجل ادعى النبوة في حياة رسول الله فأرسل الرسول ضاراً إلى بني أسد وأمرهم بالقيام على كل من ارتد ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، ونزل المسلمون بواردات والمتردئون بسميراء وأمرُ المسلمين في نماء وأمر طليحة في انعكاس ، وممّ ضرار أن يأخذ طليحة سلماً وضرب طليحة بالسيف فبنا عنه فشاع أن السيف لا يحميك في جسده وجاء الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس على ذلك فانقض من كان مع ضرار عنه وعظم أمر طليحة إلى أن كان ما أوردنا .

بنو تميم ومالك بن نيرة

كان رسول الله قد أمر على بطون تميم أمراء ، منهم الزبرقان بن بدر وقيس ابن عاصم ووكيع بن مالك بن نيرة ، فلما شاع موت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من بقى على الوفاء بما عاهد عليه الرسول فبعث بالصدقة إلى أبي بكر ، ومنهم من منعها ، ومنهم من تردد . وكان المانع مالك بن نيرة ، وكان اختلاف الترم داعياً لاشتغال بعضهم ببعض .

وبينا القوم على هذه الحال إذ أقبلت عليهم سجاح بنت الحارث ، وكانت نازلة مع أبيها في بني تغلب بالجزيرة وأبوها من بني يربوع من تميم .

كانت هذه المرأة قد ادّعت النبوة وتابعها على أمرها جموع من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد قتال جند أبي بكر فلما أشرفت على بني تميم أرسلت إلى مالك بن نيرة سيد بني يربوع فوادعها وثناها عن قتال أبي بكر وأغراها بمخالفيه من أحياء بني تميم وتابعها على أمرها وكيع بن مالك وقومه فسجعت لهم قائلة : « أعدوا

الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرّباب . فليس دونهم حجاب ، فاستعرت نار الحرب في بني تميم .

ولما رأت أمرها لم يتم في بني تميم قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم : « عليكم بالنيامة ، ودقوا ديف الحامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم فيها ملامة ، قهدت بمن معها إلى بني حنيفة ، وهابها مسيلة وخاف إن هو شغل نفسه وقومه بأمرها أن يدهمه من جيوش أبي بكر داهم ، وتنخطفه القبائل من حوله . فأهدى إليها الهدايا ، واستأمنها على نفسه حتى يكلمها . فأمنته وأما في أربعين وافداً من قومه ، فقال لها مسيلة : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش فباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف من الأجنّ فاحمل النصف ، إلى خيل تراها كالتنهف . فقال مسيلة : سمع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فيما سر نفسه يجتمع . رأيكم ربكم فياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم . فأجياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكُبّار ، رب الغيوم والأمطار . إلى غير ذلك من الأسجاع . وكان قد شرع لهم الامتناع عن النساء إذا ولد للرجل وله ذكر إلى أن يموت ذلك الولد فيطلب أبوه غيره .

وقال مسيلة لسجاح : هل أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب ؟ قالت نعم ، فتزوجها وأقامت معه ثلاثة أيام . ولما رجعت إلى قومها سألوها عن أمرها فقالت : إني وجدته على الحق فاتبعته وتزوجني فسألوها عن صداقها فقالت : لم يعطى صداقاً . فردوها إليه لأنه قبيح بمثلها أن يزوج بلا صداق . فلما سأله الصداق دعا مؤذنها شبث بن ربیع الرياحي ، فأمره أن يؤذن في الناس أنه حط عن الناس صلاتين مما أتى به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . وكان من أصحابها الزبير بن بدر وعطارد بن حاجب وعمرو بن الأهم وغيلان وابن خرسة وشبث بن ربیع .

اتهى الأمر بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل إليها النصف من غلات البجامة فطلبت أن يسلفها السنة المقبلة فعجلها بنصف السنة وخلفت على السلف من يجمعه لها وانصرفت إلى الجزيرة .

لما عادت سجاح إلى الجزيرة ندم مالك بن نويرة على ما فعل وحار لا يدري ما يأتى وما يدع ، وكذلك بقية مرتدة بني تميم ورؤساؤهم ندموا ندما ظاهراً وأرسلوا الزكاة إلى خالد . وأما مالك فنزع الزكاة ورأى أن لا طاقة لقومه بني يربوع بخالد وجنوده ، فأمرهم أن يتفرقوا . فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً ، فبث سراياه مغيرة على من لقيها منهم ، فجاءته السرايا بمالك في نفر من بني يربوع فحبسهم خالد ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، ويروى في قتله روايات أخرى .

كان بعض رجال من جيش خالد قد شهدوا أن القوم أذّنوا حين سمعوا أذان المسلمين ، وأنهم بذلك قد حقنوا دماءهم وأن قتلهم لا يحل ، ومن أولئك القوم أبو قتادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأكبر الأمر ، وزاد ذلك عنده أنه رأى خالد بن الوليد قد تزوج امرأة مالك بن نويرة ، ففارق أبو قتادة خالداً وقدم على أبي بكر ليشكو إليه خالداً فيما خالف فيه . فرأى أبو بكر أن فراق أبي قتادة لخالد خطأ لا ينبغي أن يرخص فيه له ولا لغيره لأنه يكون سبباً للفشل والجيش في أرض العدو ، فاشتد على أبي قتادة ورده إلى خالد . وعمل أبو بكر من أحكم السياسات الحربية .

كثر كلام المسلمين في شأن خالد وما صنع ، وجاء متعم بن نويرة شاكياً ما صنع خالد بأخيه واشتد عمر في شأن خالد عند أبي بكر وأراد على أن يقيتد منه بمالك وأصحابه . فأبى أبو بكر عليه ذلك . وقال له : « هيه يا عمر ، قد تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد » ، ولما عاد خالد إلى أبي بكر اعتذر عما كان منه

في شأن مالك ، وساق أبو بكر دية مالك بن نورية . وبانكسار بني يربوع عاودت تميم كلها الإسلام ورضيت أن تؤدي إلى أبي بكر الزكاة كما كانت تؤديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان من سياسة أبي بكر المبنية على الحكمة أن لا يقيد من عماله وقواده ووزعته إذا حصل منهم أمر في وجههم لقتال العدو ، لأن مفاجأة القائد وهو في جهاد عدوه بالعقاب تخبث نفوس بقية القواد ، وتطمع فيهم الجند ، وتطلق السنة العيايين ، وتفسد الأمر .

وهذه السياسة الحكيمة هي التي نراها من الأمم العريقة في الاستعمار : لا تعجل بمحاسبة عاملها على خطأ كان منهم ، ولا تخذلهم في أثناء قيامهم بأعمالهم في خدمتها ، وإنما تترث في الأمر حتى إذا سكنت الزوايع ، وكفت ألسن الشكاية وكان الأمر ثابتاً لا شبهة فيه ، عمدت إلى نقل عاملها إلى مكان آخر وربما زادت في مرتبته حتى لا يتوهم الشاكون أن نقله كان بسعيهم أو إجابة لمطالبهم ، وفي ذلك قطع لمطامع الشاكين . وهي سياسة الإنكليز في هذا العصر .

بنو حنيفة ومسيلة

قدمنا أن بني حنيفة كانوا قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم الوفد وكان فيهم مسيلة في رحالهم يحفظ ظهرهم ، فلما أعطاهم رسول الله العطايا ذكروا له مكان مسيلة فأعطاه كما أعطى واحداً منهم وقال : أما والله إنه ليس بشركم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه . ولما عاد الوفد إلى قومهم ادعى مسيلة أنه أشرك مع رسول الله في الرسالة إلى آخر ما بينا .

لما فصل عكرمة بن أبي جهل بجيشه إلى اليمامة لقتال مسيلة ، أرسل أبو بكر في أثره شرحبيل ليجتمعاً على قتال مسيلة . فأراد عكرمة أن يذهب بفخر القتال فتعجل وواقعه بنو حنيفة ونكبوه ، ووقف شرحبيل حيث بلغه الخبر وكتب عكرمة إلى أبي بكر بما أصابه ، فقال أبو بكر لعكرمة في كتاب بعث به إليه : لا أرى سنك ولا رأي ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند

حذيفة وعرجة فقالا لهما أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرمون الناس حتى تلتقوا أنتم والمهاجرين أبي أمية باليمن وحضر موت، وكتب إلى شرحبيل بالتوقف حتى يأتيه أمره .

كان خالد بن الوليد قد فرغ من أمر بني يربوع كما قدمنا ، فوجهه أبو بكر إلى اليمامة بمن معه وضم إليه جنوداً أخرى ، لأن أمر مسيلة كان قد استفحل باليمامة ، وانضم إليه جنود تبلغ أربعين ألفاً على ما يرويه الطبري ، اتبعوه عصية وحفاظاً لقوميتهم مع إقرارهم بكذبه ، حتى إن بعضهم كان يقول : أشهد أن مسيلة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

سار خالد بجنده بعد أن ألحق به من أوعبهم أبو بكر من المقاتلة ، وكان شرحبيل قد فعل فعلة عكرمة فأصابه ما أصابه فلامه خالد ، ثم إن خالد أقدم إلى اليمامة وواقع القوم وحاربهم أشد حرب ، واستمات بنو حنيفة في القتال حتى انكشف المسلمون . وكادت الدبرة تكون عليهم لولا أن الله ألهم رجلاً من المؤمنين أن صرخوا في القوم وصدقوا الحملة على بني حنيفة ، وتبعهم فئة باعوا أنفسهم لله ، حتى خالطوا مسيلة فقتلوه . وقد تولى قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الأنصار ؛ فلما رأى بنو حنيفة ذلك داخلهم الوهن ، فلبأوا إلى حصونهم واعتصموا بها ، وكانت النصره لخالد وجيشه في النهاية .

بعد أن تم الأمر على هذا الوجه جاء إلى خالد جماعة بن مرارة فصالحه على أن يحقن دم المقاتلة ، وأن يأخذ ما عندهم من نقود الذهب والفضة والسلاح وربيع السبي . وبعد أن تم الاتفاق على الصلح ورد على خالد كتاب من أبي بكر يأمره بقتل مقاتلتهم ، وقد كتبت شروط الصلح فوفى خالد للقوم بما عاهدهم عليه .

بعد أن انتهى الصلح على هذا الوجه رجعت بنو حنيفة إلى الإسلام . فأرسل خالد وفدًا منهم إلى أبي بكر . فقال لهم حين قدموا عليه : ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذي

بلغك عما اصابنا . كان امرؤ لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ، ثم سألهم عن بعض أجماع مسيلة ، فتلوا عليه شيئاً منها ، فقال : سبحان الله والله ما خرج هذا من إلٍ ولا برٍ فأين يذهب بكم ؟ .

وبهذا انتهى أمر بني حنيفة بعد أن عصت المسلمين حربهم ، وقتل فيها كثير من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . وأقام خالد بن الوليد من أودية اليمامة يقال له الوبر . وقد قتل في هذه الحرب كثير من حفاظ القرآن .

اليمين والأسود العنسي

كان باذان عاملاً للفرس على اليمين ، فلما أسلم وأسلمت اليمين أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان في يده حتى مات . وبعد وفاته جعل رسول الله ابنه شهراً والياً على صنعاء ، وولى على بقية اليمين عمالاً آخرين ، وجعل معاذ ابن جبل معلماً ينتقل في كل ولاية من هذه الولايات .

حدث قبل وفاة رسول الله أن قام رجل من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود العنسي كان كاهناً فتنبأ ، وتابعه على أمره قوم من أعراب اليمين ، فاشتد بهم ساعده واقتحم بهم بلاد نجران ، فلم تلبث أن دانت له ودخل في أمره عوامٌ مندحج ، فكثرت سواده وأمر أمره .

وكان الرجل رأى أن التريث يفسد عليه أمره ، فرأى أن يبادر الفرصة قبل أن يجتمع أمر المسلمين وتتدبر القبائل في شأنها . فقصده صنعاء وهي أكبر حواضر اليمين وأكثرها حاضراً وأوسعها ثروة ، فأنزل عاملها شهراً وقتله وهزم الأبناء ، وهم مولدة الفرس باليمن . ولم يكن بين خروجه لهذا الأمر واستيلائه على صنعاء سوى خمس وعشرين ليلة ، ثم تزوج بامرأة شهر ابن باذان . وصار الرجل لا يميل إلى قوم إلا دخلوا في أمره أو صانعوه تقية وإبقاء على أنفسهم وذريتهم ، وجعل أمره يستطير استطارة الحريق ،

وقد كتب عمال رسول الله إليه بشأن الأسود وما يصنع ، فأرسل عليه السلام كتاباً على يد وَبَر بن يُحَنَس إلى من يصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى العمل في أمر الأسود وقتله بكل ما يمكن من الوسائل مصادمة أو غيلة ، وأن يبلغوا من رأوا عنده نجدة ودينياً .

عمل القوم على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أمر الرجل مُسْتَعْمَباً عليهم . وبينما هم على هذه الحال إذ علموا بتغير الأسود على قيس بن عدي يغوث المرادي ، وكان رئيس جنده وقد خبثت نية الأسود عليه وأضر له الشر ، وأعلمه أن الوحي أتاه وقال له : إن الملك يقول : عَمَدْتُ إلى قيس فأكرمه حتى إذا دخل منك كل مُدْخَلٍ وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضر على الغدر . إنه يقول : يا أسود يا أسود يا سوءة يا سوءة ، اقطف قُنَّتَه وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك أو قطف قُنَّتِكَ . فقال قيس : وأقسم به ، كذب وذى الخمار . لانت أعظم في نفسي وأجلّ عدي من أن أحدث بك نفسى . فقال الأسود : أتكذب الملك ؟ قد صدق الملك وعرفت الآن أنك تائب !

انتهز الأبناء هذه الفرصة ودعوا قيساً إلى ما يرون من الفتك به ، فلبى ثم أفضوا إلى آزاد امرأة الأسود التي تزوجها بعد شهرين باذان بأمرهم وقال من لقيها منهم : يا ابنة العمّ قد عرفتِ بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك وطأطأ في قومك القتل وسفل بمن بقي منهم وفضح النساء ، فهل عندك من عمالة عليه ، إخراجة أو قتله ؟ قالت : نعم ! والله ما خلق الله شخصاً أبغض إلىّ منه ، ما يقوم لله على حقّ ولا ينتهى عن حرمة ، فإذا عزمت فآذنوني .

وفي هذه الأثناء جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء عامر بن شهر وغيره ، ووصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران : عربهم وسواهم ، فأنحازوا إلى ناحية يريدون قتال الأسود ، وكاتبوا من يصنعاء من الأبناء ليعينوا عليه .

غير أن المؤمنين بقتله عاجلوا الأسود بمالاة آزاد زوجته وقتلوه في قصره

وهم فيروز وداذَوَيْهَ وقيس . ولما طلع الفجر أعلن قاتلو الأسود بشعارهم من فوق القصر ، وغرّ أصحابه وجعلوا يترددون بين صنعاء ونجران . وكاتب القوم رسول الله بمقتل الأسود فوافى رسولهم المدينة عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان الأسود قد استغلظ ملكه وثبت أمره ، ودان له بالطاعة ما بين صنعاء وسواحل اليمن إلى عمل الطائف إلى الأحسية وعلب . وبموته ظل المسلمون في صنعاء وماوايلها أن جوار البلاد قد صفا ، ولكن لما داهمهم خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد الأمر إلى أشد مما كان عليه وارتدت العرب وعادوا إلى الخلاف تابعين لبعض الرؤساء ، فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من سادة اليمن ورؤسائهم يأمرهم بالثبات على أمرهم والوقوف حيال المرتدين حتى توافيهم النجيدات .

وذلك أن قيس بن عبد يغوث وهو رئيس جند الأسود والعامل في قتله بادر إلى الردة حين علم بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب المنهزمين من جند الأسود فاجتمعوا إليه . وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء فصنع وليمة دعاهم إليها ، فلم يظفر بأحد منهم سوى داذَوَيْهَ وامتنع فيروز وخُشْنَش بقبيلة خَوْلان واستتب الأمر لقيس بصنعاء . وغرب عيالات الأبناء فاستخلصهم فيروز بمعونته بنى عقيل وعك . واجتمع لفيروز جموع من عرب اليمن كعقيل وعك وغيرهم ، فنازل قيساً دون صنعاء فهزم قيس ومن معه من ول جنود الأسود ومن خفّ إليه من سواهم ، وخرجوا إلى مجالاتهم التي كانوا فيها بعد مقتل العنسي يصعدون ويصوبون .

في أثناء هذا القتال وافى جيش الإسلام الذي يقوده المهاجر بن أبي أمية وكان أبو بكر قد نعته لقتال جنود الأسود العنسي ومعاونة الأبناء . ثم جاء على أثر ذلك عكرمة بن أبي جهل بجنوده بعد أن انتهى من عمان ومهرة ، ويتعاون هذه الجيوش هزم الله المرتدين ومنح جنود الإسلام أقبعتهم ، وأسّر قيس وعمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدِي وكان قد ارتدت وتابع الأسود ثم وازر قيساً على قتال المسلمين

ولما جاء عمرو وقيس أسيرين إلى أبي بكر أنب قيسا على عمله وحقق دمه
ووبخ عمرا على ما كان منه وقال له : أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ؟
لونصرت ، هذا الدين لرفعك الله . فقال : لا جرم لأفبان ولا أعود ، فأطلقهما
ورجعا إلى قومهما مؤمنين . وكان لعمر بن معد يكرب اللاء الحسن في فتوح
نهاوند ، وقد كان عمرو قد انهزم في أول ردة من خالد بن سعيد بن العاص
وغنم منه خالد سيفه الصمصامة ، وقد بقي إلى عهد الواصل فدفعه إلى صيقل
ليسقه فتغير

ردة كندة

سبب ردة كندة ، اختلاف شجر بين زياد بن ليد الأنصاري عامل صدقات
كندة وبين شيطان بن حجر وأخيه العداء في ناقة وضع عليها ميسم الصدقة غلطا
وأبى زياد أن يردا واستصرخ شيطان وأخوه قومهما بنى عمرو بن معاوية من
كندة فقاموا عصية لها وتبعهم غيرهم ، وتعصبت حضرموت والسكون لزياد
وكانت الحرب بين الفريقين ، ومال شرحبيل بن السمط وابنه وامروء القيس بن
عابس إلى زياد فقتل من القوم وسبي . وقام الأشعث بن قيس بفك السبي وأدركت
زيادا جنود المهاجر بن أنى أمية فازل الأشعث وحصره وقومه ، ثم نزلوا على
حكمه عدا تسعة منهم وقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية وأتى بالأشعث فعفا
عنه أبو بكر ورد عليه زوجته وهي أخت أبي بكر وبقي بالمدينة إلى فتح
العراق

ردة أهل البحرين

وإذا يسر الإله سعيدا • لأناس فإنهم سعداء
ليس بين الشقاء والسعادة سوى عقبة لا يقطعها إلا الخيفون من الشهوات ،

الغالبون على هوى النفس ، المالكون للإرادة المطلقة من سلطان التقليد والشهوة
وكما مُسِنِي الإسلام في أول أمره يقوم قدرانت على قلوبهم أهواؤهم
وضعفت نفوسهم عن اطراح سلطان الشهوات والعادات ، فلما لاح لعبونهم
فجر كاذب من الآمال مالوا إلى مآلِقِهِم القديم ، وأرثُوا نار الفتنة وشبوا ضرامها
وأبوا إلا الاسترسال في الرجوع إلى ما كان عليه أبائهم ؛ فقد رُزِقَ أناساً قد
استنارت بصائرهم بنور الهدى فكانوا للحق أنصاراً وللإسلام أعواناً : كالجارود
ابن المعلب العبدى ، وصفوان بن صفوان التميمى ، وعدى بن حاتم الطائى
وأمثالهم ممن أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدِّين حتى تعلو كلمة الدين .
وأشهر مشاهير الإسلام ببعض تصرف .

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على رسول الله صلى
الله عليه وسلم في حياته ، فأمر عليهم المنذر بن ساوى . فلما توفي رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان المنذر مريضاً فتوفي عقبه وارتدَّ أهل البحرين كما ارتدَّ
غيرهم من العرب .

تمت بكر على ردتها . وأما عبد القيس فكان فيهم الجارود بن المعلب وكان
له صحبة برسول الله وفته في الدين وصحة عقل ويقين . فجمع قومه وقال لهم :
يا معشر عبد القيس ، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتم ولا تجيبوني إن
لم تعلموا . قالوا : سل عما بدا لك . فقال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما
مضى ؟ قالوا نعم . قال : تعلمونه أو تُروونه . قالوا : لا بل نعلمه . قال : فما فعلوا ؟
قالوا : ماتوا . قال : فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا . وأنا
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . قالوا : ونحن نشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا
على إسلامهم .

اجتمعت قبائل ربيعة بالبحرين على الردة ، عدا الجارود ومن تبعه .
وقد اجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك إلى المنذر بن النعمان بن المنذر
الملقب بالغرور .

قام الحطيم بن ضبيعة من بني بكر بن وائل في جمع عظيم من المشركين والمرندين ليستبجحوا حتى الجارود ومن معه من عبد القيس والمسلمين . ونزل القطيف وهجر وبعث بعثاً إلى دارين ، وبعثاً إلى مجوأتى وشدد الحصر على المسلمين حتى بلغ منهم الجهد .

بينما كان الحطيم يفعل ذلك بمسلة ناحيته كان العلاء بن الحضرمي يسير اليهم في الجند الذين معه . فلما كان بحيال اليمامة لحق به نمامة بن أثال الحنفي في مسلة بني حنيفة ، وقيس بن عاصم المنقري في قومه . وأتاه كثير من أهل اليمن فسللك بهم الدهناء حتى إذا كان في بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل . فما كادت أرجل القوم تنال الأرض حتى نفرت الإبل بأحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء وأيقن القوم بالهلاك وقد دهمهم من الأمر ما لم يكن لهم في حساب .

جزع القوم لما أصابهم وحق لهم أن يحزعوا لنفوس تهلك ضيعة في غير غناء . إذ المكان قفر لانبات فيه ولا ظل ولا ماء ، وقد انبت ما كان موصولا بأيديهم من أسباب الحياة . غير أن العلاء أمير الجيوش أظهر من رباطة الجأش والثقة بالله تعالى والرجاء في غوث هذه العصابة ما أثاب للقوم بعض الرشد . فلما أصبح دعا العلاء ربه ودعوا معه ، ولم يمض قليل من الزمن حتى رأوا لمع الماء فشوا إليه وشربوا واغتسلوا ، وما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجتمع من كل وجه فأناخت إليهم فسقوها . والذي يخيل إلى أن الإبل كان الجوع قد أخذ منها فلما نزل القوم ظنت أن بالمكان شيئاً من الكلاء فتفرقت تطلب المرعى ، فلما لم تجد شيئاً بقيت ليلها وصدر نهارها ثابت إلى مجتمع القوم لعهدا أن الناس لا ينزلون إلا حيث يكون الأكل والماء . وقد كتب العلاء بما لقي من عجب الأمر ووجدان الماء بمفازة الدهناء وما صنع الله لهم من اللطف في سفرهم .

نزل العلاء حين خلص من الدهناء إلى هجر وأمر الجارود أن ينزل على الحطيم بما يليه واجتمع أهل البحرين إلى الحطيم سوى أهل دارين وانحاز المسلمون إلى العلاء وخندق كل على عسكريه وكانوا يغدون إلى القتال ويروحون

واستمر الأمر على ذلك شهراً — وبينما هم على هذه الحال إذ سمع المسلمون ضوضاء في معسكر أعدائهم ، فأرسل العلاء العيون فأخبر بأن القوم قد شربوا الخمر من النهار ، فلما أخذت من رؤوسهم أحدثوا ما سمع من الضجيج ، فرأى العلاء الفرصة سانحة للإيقاع بهم ، فخرج بالمسلمين حتى خالط القوم وهم على حالهم ، وأعملوا السيف في رقابهم كيف شاءوا ، وهرب الكفار بين متردّة وناج ومقتول ومأسور . ولم يفلت رجل إلا بما عليه ، وأسر المنذر بن النعمان وقتل الخطم ، وأرسل العلاء إلى من ثبت على إسلامه من أهل تلك النواحي أن يقدّموا للزمن بكل طريق ، ففعلوا ، وغنم ما كان بمعسكر أعدائه وتابع الملال واجتاز الخليج عند دارين بجيشه لا يغمر الماء سوى أخفاف الإبل والتقوا بمن كان قد ركب السفن من قلة ذلك العسكر فقتلوه ولم يبق منهم مخبر وضرب الإسلام بجرانه في تلك الناحية . وكان مع المسلمين راهب من أهل ، هجر فأسلم وقال : خشيت أن يمسخني الله بعدها ، فيض في الرمال ، وتمهد أثباج البحر ، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحرآء اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع فليس قبلك شيء ، والدائم غير الغافل ، الحي الذي لا يموت ، وخالق ما يرى وما لا يرى ، وكل يوم أنت فيه في شأن ، علمت كل شيء بغير تعلم ، فعلت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على حق . وبذلك انتهى قتال المرتدين في هذه الناحية .

ردّة أهل عُمان ومهرة

كان أهل عُمان قد أسلموا في حياة رسول الله وولى عليهم جيفرا وعدداً ابني جُلندا ، وكان قد نبغ في عُمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي وادّعى بمثل ما ادّعى غيره من المتنبئين . — وقد خافه ابنا الجُلندا فعازا بالجمال وكاتبا أبا بكر نشأه . فبعث إلى هذا الوجه حذيفة بن عُصْن واتبعه بَعْرُحَة بن هرمة على الوجه الذي قدّمنا . وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد نكته بالنيامة فلحقهما دون عُمان .

أما القبط فقد جمع جموعه بدئي ووافه جيوش المسلمين . فلما التقى الجمعان كان بينهما من القتال أشده . واستعلى المشركون على المسلمين . وكادت الدبرة تكون عليهم ، وبينما هم على هذه الحال إذ من الله على جيوش الإسلام بمدد اشتدت به سراعدهم ، فوافاهم جيش من بني ناجية يقودهم الحرث بن راشد وآخر من عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان ، فقتل ذلك في أعضاد المشركين ولم يلبثوا أن ولوا الأدبار والمسلمون يأخذونهم بالسيف في كل سبيل فقتلوا منهم مقتلة قل أن سمع العرب بمثلها في ماضى حروبهم .

ولما فرغ عكرمة من أمر مَعْمَانَ سار بجيشه ومن انضم إليه من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد واقتحم بهم بلاد مهرة فوجد القوم في جمعين من مهرة مختلفين : أحدهما تحت إمرة سخرت رجل منهم ، والثاني تحت إمرة المصباح أحد بني محارب .

عمد عكرمة إلى أعمال حيلته فكاتب سخرت ودعاه إلى الإسلام . فأجاب بمن معه . وأما المصباح فلم يقبل ، فشدت عكرمة عليه بمن معه وصدق الحملة في قتال المرتدين رجاء أن يمحوا ما لحقه من غضب أبي بكر في قتال أهل اليمامة ، فهزم جموع المرتدين وغنم المسلمون ماشاءوا ، وأقام بعد ذلك يسكن الناس ، وعاد القوم إلى الإسلام .

كانت حروب سوى ما ذكرنا بين المسلمين وأهل الردة وفي جميعها كان النصر حليف المسلمين .

نرى مما قد منا أن أبا بكر قام في شأن الردة وأهلها قياما محمودا ، وأخذ الأمر بحكمة سامية وهمة نادرة المثال لا توجد إلا في الأبطال الذين لا يحدو بهم الزمان إلا نادرا .

نار تأججت في كل ناحية ومُتْعِع ، وعصا قد انشقت ، وكلمة تفرقت ، وأمة

قد صار أهلها عباديد، وركب كل حيّ هواه . فشمّر لها أبو بكر، وضرب المدبر بالمقبل ، ورمى كل ناصب بحجره ، وسدّ كل ثغر ، ولقى كل كارثة بأمثال عدتها (كالسيل يقذف جلموداً بجلمود) ، فلم تنقض سنة من ولايته حتى اختنق وليد الفتنة وقد شبّ عن الطوق ، وأخذ تلك الديرة المستمرة كأنما قد قال لها : كوني برداً وسلاماً فكانت ، واجتت الفتنة من أصولها ، وأدال بطن الأرض بمن على ظهرها من أهل الشقاق ، وأتبعهم بين سمع الأرض وبصرها فجعلهم كأيجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟

عزيمة صادقة وحسن نظام في تزجية الجيوش ، وسرعة في تلقى الأخبار وإلقاء الأوامر ، وقواد قد خرت جتهم الحروب وصقلتهم الوقائع ، وجنود باعوا أنفسهم في سبيل الله . كل ذلك عوامل نصر قل أن تجتمع لقائد إلا بمعجزة أو توفيق من الله .

من نظر نظرة صادقة في التاريخ، لا يتردد في أن أبا بكر مجدد دين الإسلام وممسك رمقه بإذن الله في ذلك الوقت الذي عمّ فيه الذهول وغلبت الدهشة على العقول . وعلى الجملّة فإن انتصار جيوش المسلمين على سائر العرب المرتدّين قد استأصل من النفوس الطماعية في الارتداد ، واستأصل البقية الباقية في أعماق القلوب من الشرك ، ووجّه وجه العرب وأبأسهم من كل دين سوى الإسلام ، وجمعهم على الطاعة لوليّ أمر المسلمين . وكانت ردّة العرب وما استتبعته من الحروب بمثابة تمحيص نقي من الأمة الزينغ ، وأخرج الخبيث وصفي حساب الإسلام مع الشرك حتى صار الدين خالصاً لله .

ظهور الأمة العربية

لم تظهر الأمة العربية بين الأمم المتحضرة ذات الفنون والمطامع في الاستعمار منذ عرفها التاريخ إلى أن انتهى أبو بكر من أصحاب الردة . نعم إن المؤرخين يذكرون عن بعض ملوك الين أخباراً غريبة في الغزو في بلاد بعيدة ؛ ولكن ذلك لم يحرز من الثقة ما يحقق لهم ذلك المظهر ، ولئن كان ذلك ففي أزمان طال عليها القدم ، وعنى كره الغداة ومر العشى على تلك الآثار .

لم يكد أبو بكر يُخَلِّصُ يده من أهل الردة حتى أمسك بكلتا يديه بدولتي فارس والروم ، يريد أن يلقي القوم بأيديهم إليه بالطاعة ، وأن يدخلوا فيما دخل فيه أهل الجزيرة العربية . والفرس والروم هما ما هما ضخامة ثروة ، وسمو مدينة ، واستبحار عمران ، وشموخ عز ، وانفساح رقعة ، وقوة بطش ، وخصوبة أرض ، واستحكام ملك ؛ وما شئت من موجبات السلطان والرفعة والعز .

بعيشك حدثني . ماذا حدث في الأكوان فقلب الوضع وجعل الأصل مُعْتَبَراً للفرع ، وصير المأكول آكلاً ، وأعاد النبيه خاملاً ، والغالب مغلوباً ، والسالب مسلوباً ؟ وبأي سلطان استنسر البغاث ، واستأسدت الأوعال ، وجسرت بيض الأفيال النمال ؟ أُتَجَنَّحُ دولتنا الشرق والغرب ، وتزلزل عروش القياصرة والأكاسرة ، وتُقَضَّ بيضة العالم القديم ، وتفلق جيوش أوروبا وآسيا وإفريقية بأيدي العرب وهم في ذلك الحين فلحرب داخلية قد حصدهم حصداً ، وأكلت عددهم على ما هم عليه من مائة ودلة ، وسداجة في العيش ، وعدم دربة في فنون الحرب النظامية ، وضعف معدة ، وضيق ذات يد ، وقلة عدد بالقياس (في كل ذلك) على ما عند الدولتين ؛ إنه لمرتقى عال يصعب تسنمه ، ومرام وعز يعز على من رامه ويطول .

كيف تَسَيَّ للعرب أن يستيحيوا عَرِين الآساد ، ويدوسوا الحصون الشداد ، والمعاقل ذات العتاد ؛ بعدد لا يزيد عن حامية مدينة من المدن ، أو حرس ناحية من النواحي ؛ معركة أحوالهم ، وخشونة عيشهم ، وقلة مددهم ، ونقصهم عن المدافعين في جميع مواد الحياة ؛ وكل الوسائل والعوامل المادية التي يحرز بها النصر وينال بها الظفر ؟ .

قد كان العرب في جميع أطوار حياتهم بحبال فارس لا يهجنس في نفوسهم هاجس بالاستطالة عليها ، أو مساماتها في الملك ومطاولتها في السلطان ، بل كان خصارى من سمى به همته إلى الملك وتعلق بأن يكون له ولقومه ما يشبه أحوال الناس . أن يكون لهم تابعاً ، ولأوامر ملوكهم خاضعاً ، ليس به منعة منهم ولا يد له بمدافعهم عن مراد يريدونه ، وقد كان الروم في شمال بلادهم ومن صاقبهم من العرب عما لهم على من يليهم من عرب نواحيهم يديون للرومان بالطاعة ، ويدلون في مرضاتهم غاية الاستطاعة . لا يحدث أحد ملوكهم نفسه بالاستبداد بأمره ولا يطمع في اقتطاع أمور من يليه دونهم . ومن كان يحلم ببعض ما كان منهم في عهد أبي بكر وعمر ، سَكَّت وبكت ، واحتسب ذلك منه بعض الأوهام ، أو أضغاث أحلام . فبأى لقاح لقمح دم هذه الأمة فوثبت إلى ما وثبت ، وأتت من ضروب خوارق العادات ما أتت ؟ .

كأنى بصائح يصيح : إن تضعضع حال الدولتين بسبب الحروب ، وانتشار المظالم والانقسامات الدينية في بعضها . دفع العرب إلى اجتياحهما والإتيان على ملكهما بالفتح والاستيلاء (ومن لا يسوس الملك يخلعه) .

وإنى أجيبه بأن ذلك قد يكون بعض الأسباب وليس يمكن أن يكون كلها . إذ العرب لم ترتق حالهم إلى أن يكونوا أكثر من أحد الفريقين عدداً ولا أقوى عُدَّة . ليس العرب فيما أتوا بأولى من ملوك الهياطلة في شرق فارس وخاقان

الترك في شمالهم ، وهم أمم لهم ملك منسق ، وأمر يجتمع ، وعدد وافر ، وعدة قوية ، ومدد متصل ، وثروة عريضة ، ومطامع في الفتح ، وسابقة صول في فارس ، ونكاية في جنودهم وإيغال في حدودهم ؛ وليس للعرب من هذه الشئون والبواعث ما لهؤلاء القوم ، فما الذي أهاب بالعرب إلى أن يأتوا ما أتوا ، وأحجم بهؤلاء وهم أعلم بحال جيرانهم من العرب وأقربهم على شئونهم ؟ فلا بد أن يكون شيء وراء ذلك . وأيضاً فليس العرب بأولى من إحدى الدولتين بالاستيلاء على أخراهما ، وكل حذم لا يبلغ عدده ما يمكن أن يجتمع من إحدى الولايات ، فكان الأجدر بإحداهما أن تستولى على الأخرى بطريقة أسهل من استيلاء العرب وهم أضعف من أهل أية ولاية من الولايات ، وكل منهما تعلم من حال الأخرى ما لا يعلم العرب .

أريد أن أذكر الدافع الذي حدا بالعرب إلى الفتح ثم أتبعه ببيان الأسباب التي ساعدتهم على ذلك ، وسهلت عليهم نيل ما نالوا بسرعة لم يعرفها التاريخ لامة فاتحة قبلهم ولا بعدهم ، ولا لامة في مثل حالهم أو خير منها .

جراحة العرب على الفتح

إن العرب في أيام باديتهم ، وفي جميع أطوارهم قبل الإسلام ، كانوا ينظرون إلى الروم والفرس نظر الهيبة والاحترام ، يضربون الأمثال بعزهما وسطوتهما وصنخامة ملكيهما ، لما ينظرون في أهلها من حسن الحال ، وقوة السطوة ، وصنخامة العمران ، وما عليه حال العرب من الرقة وخشونة العيش وقلة الريف وضعف معدة الحرب ، إذ لا يعرفون منها سوى القوس ، والرماح مشدودة بالعصب ، والسيوف يتقلدونها معلقة بالميسور من فتير أو خرقة . والقوم لم يهجم في خواطرهم ولم يمر في خيالهم قبل الإسلام أن يخرجوا من جزيرتهم غازين لجيرانهم ولا أن ينازعوهم الملك .

لا شك أن الإسلام قد بدّل أحوال العرب وأنشأهم خلقاً جديداً ، وغير ما كانوا عليه من الأخلاق وبدّلهم منها أخلاقاً لا تلتئم مع الانكماش والازواء . كانوا قبائل متنافرة ، وبطوناً متدابرة ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، لا يبيت أحدهم إلا على حذر من بعدت به العvisية من بنى عمه وذوى قرابته . فأزال الإسلام تلك الأضغان التى رانت على القلوب ، واستخرج تلك الأحقاد ، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً أشداء على أعدائهم ، رُحماء بينهم . وجعلوا عوامل التفريق دبر آذانهم ، وصاروا على قلب رجل واحد .

ومن المعلوم فى طبيعة الجماعات أن اجتماعهم يحدث فىهم قوة تشجع الجبان وتغرى الناكل بالإقدام . فاقولك فى أمة عظيمة إذا اجتمعت وكانت الشجاعة أخصّ أوصاف أفرادها ، لا شك فى أنها تقدم على العظامم ، وتستعين بالأخطار ، ولا شك فى أنها تقوم بما لا تقوم به عvisة أوفر منها عدداً وأوفى عددأ .

لا يرجى غير ذلك من عvisة تغفل فى مكان الاعتقاد منها صدق الداعى الذى يدعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وجرى من كل فرد مجرى دمه فى مفاصله أن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؛ وأن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وقد أوفى فى نفوسهم أنهم سيفتحون المدن والأحصار ، ويجوزون الممالك والأقطار ، وياً كلون كنوز كسرى وقىصر . ووعد بعض أولئك الأعراب — البوالمين على أعقابهم — أنه سيتحلى بحلى شاهنشاه كسرى . وكرّر وعد الله لهم بالنصر على الملوك والاستعلاء على الممالك فى غير موقف حتى لم يبق فى نفس أحد مجالا للشك ، ولا محالا للريب . وفوق ذلك قد ذوّقهم حلاوة النصر فى مواطن كثيرة ، أدركوا فيها فوزاً لم يكونوا يؤملون بعضه ، وقادهم إلى فتوح باهرة فأرثهم على يده (٥ — الخلافة)

الأيام ما لم يرمهم المنام ؛ وقد استقرّ في مكان اليقين من نفوسهم أنهم إذا صدقت منهم النيات في لقاء عدوهم فاز المقتول منهم بسعادة الآخرة ، وأحرز الباقي سعادة الدنيا (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسينين ونحن تربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) هذان هما العاملان اللذان جرّأ العرب على المغامرة بحرب أقوى الدول شرّكة وأشمخها بنياناً .

أما الاتحاد فأجلى مظاهره أن دين الإسلام عنوان التوحيد ، وقد نزلت الآيات الكثيرة حاثّة على الاتحاد واجتماع الكلمة ، منفرة من التفرّق ، محذّرة منه ؛ سواء كان التفرّق في الدّين ، أو في الكلمة والرأى . وقد جاء في الدّين أمورٌ هي رمزٌ أبديٌّ للوحدة كاتحاد جميع المسلمين في استقبال مكان واحد ، يولون وجوههم شطره ، أينما كان الواحد منهم وحيث وجد ، وهو الكعبة . وأوجب على المستطيع منهم حجّ هذا المسكان وقضاء النسك عنده تأكيذاً لمعنى الوحدة مع فوائد أخرى . وأوجب (على سبيل الكفاية) اجتماع أهل المحلة خمس مرّات لأداء الصلوات المكتوبة جماعة ، وذلك في كل يوم وليلة ، وأوجب اجتماع أهل البلد الواحد في كل أسبوع مرة لصلاة الجمعة . هذا فضلاً عن اجتماعهم عند الأمور المهمة في سرور أو غيره للصلاة كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وغير ذلك . وإنك لا تكاد تقرأ خطبة من خطب الخلفاء الراشدين إلا وتجد فيها ذكر الاتحاد ، والاتفاق وما نالت الأمة ببركة الاتحاد بعد الاختلاف ، وإنه منّة من منن الله تعالى على الأمة أعتقهم الدين بها من الأهواء المختلفة والآراء المتباينة . أما ما جاء في الأحاديث فشيء كثير جداً لا يكاد يستقصيه مستقص .

وأما تحقّقهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من وعد الله لهم بإحدى السعادتين إن قتلوا أو فازوا فيما أخبرهم به من الاستعلاء والتسكن في الأرض وغلبتهم على دولتي كسرى وقيصر فظاهر من أقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فاهوا به في حضرة الملوك وقواد

الأجناد ، كقول المغيرة بن شعبة لرؤسهم حين قال له : « إنكم ستموتون فيما تطلبون » ، إذ قال له المغيرة : « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار . ويظهر من بقي منا على من بقي منكم ، وهذا عبادة بن الصامت قد خوفه المقوقس جموع الروم ، وأن العرب في قلته عددهم لا يقدرّون عليهم ، فقال عبادة : « يا هذا لا تفرّج نفسك ولا أصحابك أما ما نخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنت لا تقوى عليهم ، فلعمري ما هذا الذي نخوفنا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشدّ لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ لنا من ذلك . وإننا منكم حيثنّ لعلّ إحدى الحسينين : إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرتنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإنها لأحبّ الخالصين إلينا ، الخ

الأمور التي ساعدت العرب على الفتح

قد اختص المسلمون في أوّل الفتح بأمور ساعدتهم على قصدهم وكانت عوامل باجتماعها كان فوزهم ، ولم يكن لأعدائهم مثل ما لهم ، فكانت لهم بها الميزة على خصومهم . نذكر منها :

(١) — نشاط العرب وخفة أثقالهم لأنهم خشونة العيش ، وتجاوهم عن الترف ومذاهبه بما ألفوه من سكنى البادية ، وتعودهم للجوع والعطش ، واجترأؤهم بالقليل بما يمسك الرميح ، فلا يتكاثف أحدهم ما يثقل كاهله ، أو يشقّ على راحلته حمله كما يفعل الجنود في الأمم المتحضرة ، فإنهم يحتاجون إلى أصناف منوعة متعددة من المأكول والمشروب وأدوات صحية وعقاقير طبية وعلوفات للماشية وأواني للمياه وكل ذلك مشغلة للجنود ، عائق لهم عن سرعة السير .

ولا تنس أن العرب معهم الإبل التي تصبر عن الطعام والشراب أياماً عديدة فلا تعوقها الصحارى ، ولا يتهيبون القفار وهي معهم .

إن الجُند المتعدّن لا يستطيع السير في بلاد غير متمدّنة إلا إذا كان معه الأحمال من البقسماط واللحوم المحفوظة والسكر والشاي والبنّ والشمع وفناطيس^(١) الماء والخيام والأمتعة وعلف الماشية . وقد كانت حملة القمّة سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨م عددها ١٥٠٠ جندي ، وجالها أربعة آلاف ، ومعها الجمالة والمخدم . أما الرجل من أهل السودان (وهم عَرَبٌ) فكان الواحد منهم في غنّى عن ذلك كله بجراب فيه شيء من الذرة الجافة أو الدخن يتأبطه ، وربما كان ذلك مؤونة شهر أو شهرين . وهو في ذلك يكاد يكون نسخة مطابقة للأصل من المجاهد العربيّ في عصر الفتح .

(٢) - اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ، وقد رسخ ذلك في نفوسهم أعظم رسوخ بما جاء في الكتاب العزيز من مثل قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » وقوله « قل لو كنتم في يوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وقوله : « إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقوله : « قل لن يصينا إلا ما كتب الله لنا » . فكان هذا الاعتقاد يحدو بهم إلى الاستهانة بالأخطار لأنها لا تقرّب أجلا ولا تدنّي حيناً . ولهذا أبدوا من البسالة ضروباً ، ومن الشجاعة والإقدام فنوناً ؛ ولم يكن اعتقادهم ذلك على النحو الذي يتخيّله الأوربي فيمن اعتقد هذه العقيدة من أنه تكلّة مستسلم ، لا يهيمّ بعمل ، ولا ينشط لنافع ، اعتماداً على القضاء والقدر .

(٣) - إن العرب وإن كانوا حديثي عهد بالقتال بالزحف ، ولكن القتال لذلك العهد كان يبدأ بالمارزة غالباً ، فيبدأ الفارس يطلب قرناً يبارزه . وخيل العرب أنجب من خيل الفُرس والروم ، فهي تدرك الخصم إذا كرّرت ، وتفوته إذا فرّرت . وكانوا أقدر على تصرّيف الاعنّة من سواهم ، ففرس الواحد منهم طوع يده . وكانوا أسدّ بالنبال رمياً ، وكان لذلك يغلب أن يفوز العربيّ بالغلب

(١) فناطيس : يطلق هذا اللفظ على أوعية توضع فيها المياه لاستعمالها عند الحاجة .

على مبارزه فيكسر ذلك من قلوب مقاتليهم ويوقع الرعب في نفوسهم من أول الأمر ، وخاصة إذا كان المغلوب رئيس الجند أو من شهر بالشجاعة فيهم .

(٤) — ما كان للمسلمين من الثروة الواسعة في عظماء الرجال من القواد ذوى الحنكة والدربة قد خرت جثهم الحروب وثقتهم الوقائع فبرزوا كما يبرز السيف من الصقال . فإن ما كان في طبيعة العرب من حب الغزو والإعارات والتلبس للصيال والحفاظ للجار ؛ كل ذلك أرث نار الحرب بينهم . وقد كانت وقائع الإسلام من غزوات وسرايا مدرسة عليا زادتهم تبصرة بالحروب ومكانتها وعودتهم لإحراز الفوز .

وقد جاءت حرب الردة فزادتهم في الحرب بصيرة ، وفي مكايدها حذقاً ومهارة .

فإذا ذهبنا نعد أمثال خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص ويزيد بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب ممن تتجلى فيهم البسالة والحدق في قيادة الجنود وجدناً عدداً جماً ، وإذا أردنا أن نعد أمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ممن يغلب عليهم الدهاء وحسن السياسة وجدنا عدداً فوق الكفاية وعلي رأس هؤلاء وأولئك أبو بكر وناهيك بالرجل في الحزم والتقوى وصدق العزيمة والعدل .

إن أمة تضم حاشيتها أمثال من ذكرنا جديرة بأن تنبؤاً أعلى مراتب العظمة ، وتحوز أقصى غايات الفخار .

(٥) — نجدة العرب واستمسك كثير منهم بأسباب العصبية . ذلك أن العرب المنبثين في نواحي الشام الخاضعين للروم . وكذلك العرب الذين يناوحن الفُرس ، لم يبدؤ منهم كبير عناد في مقاومة المسلمين ومقاتلتهم وإن كانوا على غير دينهم فإن الرُّبَط التي كانت تربط العرب في تلك الأصقاع بفارس والروم لم تكن مريرة محكمة ، والقوم لم نزل أنفسهم تشعر بأن العرب قومهم وقتهم التي

يرجعون إليها ، فلم يكونوا يحتاجون إلى كبير علاج في دخولهم في الإسلام أو الدخول في طاعته . وكان ذلك من الأسباب التي سهلت فتح بعض البقاع وفتت في أعضاد أعدائه .

(٦) — حفظ خط الرجعة . فلا يُوغلون في البلاد قبل أن تدين لهم بالطاعة ويشقوا بأن العدو قد انقطع طمعه من مفاجأتهم من خلف ظهورهم . وكان ذلك في مبدأ الأمر حيناً عليهم في جهات الشام . فإن الصحراء من خلفهم تكون لهم ملجأ إذا خافوا أن يلحق بهم عدوهم ، ولا يتقدمون خطوة في أرض عدوهم إلا إذا كانوا قد استولوا على ما على يمينهم وشمالهم من المدن والبلاد ودان لهم بالطاعة وسدوا كل ثغر بالمقاتلة .

وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم بحرصون عليها كل الحرص وقد قال المثنى بن حارثة الشيباني : « قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، ولا تقاتلوهم بعقر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ماوراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم ، وقد أقام سعد ابن أبي وقاص بمداين كسرى بعد افتتاحها ، وكذلك عمرو بن العاص أقام بالإسكندرية . فقال عمر بن الخطاب : « لاتجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحتي حتى أقدم عليكم قدمت ، فتحول سعد إلى الكوفة وتحول عمرو إلى البفسطاط . »

(٧) — ما كانت عليه أحوال الدولتين : الفارسية والرومانية من الاعتلال والاختلال . وقد أتيت على شرح تلك الأحوال في المحاضرات الماضية بما يترك صورة مصغرة للدولتين في نفس القارىء .

ذلك أن حال كل من الدولتين كان في انحطاط وتدهور ، فقد فسدت الأخلاق ، وانحطت الهيئة الاجتماعية ، وبدأ التحاسد والتباغض في بيت الملك ، وخبثت النيات ، وكثرت الدسائس بين الآب وابنه والأخ وأخيه ، ونزا على

عروش الملك أبناء السوق والغاصبون . هذا فضلا عن الاختلال في الأحوال الدينية ، ودوام المنازعة بين أهل الدولتين ، واستمرار نار الحرب ؛ فإتكا الدولة منهما 'تغمد السيف من حرب في الخارج حتى تستله على الرعية في الداخل ، وكل ذلك دعا إلى تضعضع حال الدولتين وأوجب اختلالهما .

هذا فضلا عن استحكام الشحنة بين أهل البلاد الداخلة في حكم الدولة الرومانية وبين الرومانيين ، وبخاصة في مصر والشام ، لاختلاف القوم في المذهب الذي يدينون به ، ومبايقتهم للرومان في ذلك ، واستعلائهم على أهل البلاد بما لهم من السلطة وأخذهم بالعسف . فالأقباط في مصر قد عانوا حُكم الأجانب من فرس فيونان ورومان أجيالا متطاولة ، وقاسوا من ذلك أهوالا ، ويتسوا من قيام الملك في أحد منهم ، وأيقنوا أنهم ما كولون على كل حال ، فهان عليهم الانتقال من سلطة إلى سلطة رجاء أن يحدوا فترة يحدون فيها راحة من الضغط والظلم . وكذلك أهل الشام وهم خليط من الآراميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم ، فقد نالهم ما نال المصريين ، فلا يهتم أحداً من هؤلاء أن يكون الحاكم عربياً أو رومانياً . وإنما يهتمهم أن يحدوا مسّ الراحة . وبما لا خلاف فيه أن المرء يميل بطبعه إلى البعيد عنه ، ويرجو أن ينال النفع منه ، ويتوسم الخير في القادم المجهول أكثر مما يظنه في الحاصل المعلوم ، وبخاصة إذا كان الفرق بينهما ظاهراً كما كانت الحال ظاهرة الفرق بين الروم والعرب ؛ فقد كانت الرومان يومئذ في أدبار دولتهم وانحطاطهم ، وقد فسدت آدابهم وأحكامهم ، والعرب في إبتان إقبال دولتهم ودور نهضتهم ، وقد جعلوا العدل شعارهم ، والمساواة أساس أحكامهم ؛ فكان ذلك من العوامل المساعدة للعرب على افتتاح ما فتحوا في تلك الجهات .

(٨) — كان الرومان مع انقسامهم إلى طوائف وأحزاب في الدين قد

اجتمعوا على اضطهاد اليهود ومضايقتهم مضايقة شديدة ، وقد بلغت البغضاء بين الفريقين أقصى نهايتها ، واليهود يودون بجَدْع الأنف أن يصيبوا رغم الرومان ، فكانوا عوناً للعرب يدلونهم على عَوَزَات القوم ويرشدونهم إلى مقاتلتهم .

وهذه مدينة السامرة افتتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً على أن يكون أهلها عيوناً للمسلمين على أعدائهم ، وأطعمهم أرضهم ووضع عنهم جزية رهوسهم .

(٩) — إن المسلمين كانوا يفشون العدل في البلاد التي تدين بطاعتهم ، ويرفقون بالرعية ، ويعفون عما في أيدي المحكومين ؛ وهذا شيء لم يألوه في حكمهم . فكان شيوع هذه الخلال عنهم يسبقهم ويفتح لهم القلوب قبل فتح المدن والحصون .

(١٠) — إن العرب كانوا إذا دخلوا قرية أقروا أهلها على ما هم عليه من دين ومعاملات ، ولا يتقاضون منهم سوى الجزية ثمناً لحمايتهم والدفاع عن حوزتهم وتأمين سُبُلهم ، وهي بالطبع ليست إلا جزءاً من الإتاوة التي كانوا يؤدونها إلى حكمهم من الرومان . فكان في ذلك تخفيف لإصرهم وما عليهم من الأغلال . ويرى ذلك واضحاً في قول عبادة بن الصامت للمقوقس والقبط لما دعاهم إلى الإسلام : « وإن أبيتم إلا الجزية فأدوها إلينا عن يدٍ وأتم صاغرون ، وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتكم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم ، الخ .

ولما دخلت حمص في ذمة المسلمين وأدوا الجزية واحتاج المسلمون بعد ذلك إلى الاجتماع في اليرموك ردوا إلى أهل حمص ما أخذوا من جزيتهم وقالوا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والضميم ، ولندفعن مجند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، .

وعلى الجملة إن المسلمين لم يجزئهم على الفتح سوى الدين وصحة الاعتقاد

بالنصر مع ما كان فيهم من الميزات كالمهارة والفروسية وقوة أبدانهم ونشاطهم وما كانوا عليه من التقشُّف ومجافاة الترف ومذاهبه . ونبوغ كثير من القواد وذوى الرأى ، مع العدل والقسط والرفق ، واختلال أحوال دولتى الروم والفرس ومَلَل المحكومين من حكمهم . فلم يَمُضْ عليهم بضعة عشرة سنة حتى اجتاحتهم فلسطين والشام ومصر والعراق وفارس وأخذوا ينتقصون الأرض التى على الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط بخطوات ثابتة ، وهو أمر لم يعرفه التاريخ لغير العرب .

غزو الفرس

لو أن أبابكر حين فرغ من أمر أهل الردة أعاد الجيوش إلى بلادها ، وأقر السيوف فى أعمادها ، لما استقام له الأمر طويلا ، ولعاد بعد قليل إلى نشر ماطوى ، ولاحتاج إلى انتفاخ ما انتهى منه ، وافتقر إلى إطفاء قن تشب فى الأطراف ، وحروب تستعر نارها فى أرجاء البلاد . لأن قوما شوا وشابوا فى الجلال والصدام لا يمكن أن يهدأ نائر نفوسهم ، بل هم يحرقون على خلق الأعداء فى الداخل إن لم يجدوهم من خارج بلادهم . ولكن الله تعالى خلق لهم الاشتباك مع الفرس ثم الروم ليكون ذلك أدعى إلى توافق القوم وتوازرهم وتناصرهم فانهطعت الحروب فيما بينهم واتصلت بينهم وبين مجاورهم .

كان ابتداء أمر فارس مع المسلمين أن الملك فى فارس قد أفضى إلى بوران بنت كسرى لفقدان من يصلح من بيت الملك لأن شيرويه كان قد قتل جميع إخوته سوى حوان شير فإنه كان طفلا . فلما مات حوان شير وليت هى الملك بعده فشاع فى أطراف الأرضين أن فارس لا ملك لها وإنما يلودون بياب امرأة ، وكان أمر فارس فى اضطراب واختلال مُطمع للجيران .

خرج فى تلك الأيام رجلان من بنى بكر بن وائل . أحدهما : المشئ بن

حارثة الشيبانيّ ، وثانيهما : سعيد بن قطبة العجليّ ، ونزلا فيمن جمعا من العرب بتخوم أرض العجم . فكانا يغيران على الدّهّاقين^(١) فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طلبا أمعنا في البر فلا يتبعهما أحد — وكان المثنّى يُغير من جهة الحيرة ، وسويد من جهة الأُبلة . وذلك في خلافة أبي بكر — فكتب المثنّى إلى الخليفة يعلمه ضرّأوته بفارس وينبئه بوهن القوم ويسأله أن يمدّه بجيش ليؤثر في فارس .

كان خالد بن الوليد قد انتهى من أمر بني حنيفة حين ورد كتاب المثنّى على أبي بكر فتدبّر لغزو بلاد فارس وأمره أن يبدأ بشعر الهند وهو يومئذ الأُبلة وندب عيساي بن غنم ابغزو فارس من الشمال ويبدأ بالمضيح في شمال العراق وأمرهما أن لا يستكرها أحداً من معهما إذا عزّما فانفضّ عنهما جموع من معهما وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردّة وأن لا يستعينا بمرتدّ . ولما استمده خالد وعيساي أمدّ الأوّل بالقحقاق بن عمرو النيمي وقال لمن راجعه بقوله : أتمدّه برجل واحد ؟ — : لا يغلب جيش فيه مثل هذا ، . وأمد الثاني بعبد بغوث الحميريّ .

ولما وافى خالد كتاب أبي بكر وهو باليمامة كتب إلى صاحب الثغر وهو هرْمُز كتاب إنذار يقول فيه : « أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة ، واققر بالجزية وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبّون الحياة ، ولم يحمل خالد عسكريه في طريق واحد . بل جعلهم ثلاث فرق فسرّح المثنّى بن حارثة (وكان قد وافاه فيمن معه) قبله بيومين . ثم عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ؛ أحدهما قبل صاحبه بيوم . وخرج خالد وقد واعدهم الحفير ليجتمعوا به ليصدعوا عدوّهم مجتمعين .

لما قدم كتاب خالد على هرْمُز كتب بالخبر إلى أزدشير الملك وجمع جموعه ثم تعجل يريد السكواظم ، وهى من جادة اليمامة فلم يجد لها طريق خالد ونبيه أن

(١) الدهقان (بضم الدال وكسر ها) : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

جموع المسلمين تواعدوا الحفير فيممه يبادرهم إليه وعبيّ به جيشه .

ولما علم خالد بأمره عدل عنه إلى كاظمة ، خفّ هرمز إليها ، وكان من أخبث الناس وأشدّهم دهاء وأعظمهم نكاية ، تضرب العرب به المثل في الكفر والخبث لما كان منه من سوء الجوار لهم ، وكلهم عدوّ له حاقد عليه . وكان هرمز قد بقي في عسكره وقد قيدوا أنفسهم في السلاسل آية استبسأهم في القتال وعدم البراح ، وكان الماء في أيديهم . ولما وافى خالد نزل على غير ماء ، ففيل له في ذلك فقال : حطوا أنفالكم ثم جالدوهم على الماء فلمعري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، ثم تبارز هرمز وخالد ، وكان هرمز قد اتفق مع أصحابه على الغدر بخالد إذا بارزه ، فلما تلاقيا صرعه خالد وخرج أصحاب هرمز لاستلحام خالد فلم يثنه ذلك عن قتله ، وخفّ القمعاق في جماعة إلى أصحاب هرمز فأناموهم وشدّوا على القوم فانهزموا .

ثم رحل خالد بجيشه حتى نزل قريباً من موضع البصرة ، وكانت لم تبين في ذلك الوقت .

كان كسرى قد أمدّ هرمز بجيش تحت قيادة قارن بن قريانس ففصل عن المدائن حتى انتهى إلى المذار - على أربعة أيام من البصرة إلى شمالها قرب واسط - فأدركه فلاّك جيش هرمز من الأهواز والسواد والجيل ، وضوى جميعهم إلى جيش قارن وعسكر جمعهم حيث انتهى ، واستعمل قارن على مجنّديّيه قبّاذ وأنوشجان ، وكانا من قوّاد هرمز . وخفّ المثنى وأخوه المسعنى إلى خالد بالخبر فقسم الفء على من أفاء الله عليه ، ونقل من الخمس ما شاء الله ، وبعث ببيّيته وبالفتح إلى أبي بكر مع الوليد بن عقبة ، وبعث معه بالخبر عن اجتماع القوم - مغبيهم ومغائهم - بالمثنى . وخرج خالد بجيشه حتى التقى وهو على تعبئة بجيش قارن فاقتلوا على حنق وحفيظة وبدأت الحرب بالمبارزة . فكان أول هرب ، وقتل الأخوان أنوشجان وقبّاذ ، وهما من ذرية

أردشير الأكبر وقتلت الفرس مقتلة عظيمة وانهزموا وأعطى خالد الأسلاب لسايبها بالغلة ما بلغت وقسم الغنيمة وبعث بالخنس والفتح إلى أبي بكر مع سعيد ابن النعمان من بني عدى .

انتهى خبر الهزيمة إلى كسرى بالمداثن ، فجهز جيشاً كفيفاً بقيادة الأنذر زغر فسار حتى أتى كسكر ثم إلى الوجلة وهي في شمال المدار . ثم حجز بهم من جاذويه فسلك وسط السواد وحشر إلى الأندر زغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكروا إلى جنب جيش أندر زغر .

أما خالد فلما علم بأمرهم أذن بالرحيل على تعبئة بعد أن خلف على القرى حامية تحمي ظهر جيشه وتحفظ عليه خط الرجعة ، ورتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات . جعل جهتين منهما كميناً ، وصادمهم بمن معه فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظن الفريقان أن الصبر قد نفذ . واستبطأ خالد كمينه . ثم لم يشعر القوم إلا بالكمين قد اكتنف العدو من جانبيه فانهزمت صفوف الأعاجم وأخذهم الكمين من خلفهم ، وخالد بمن معه من بين أيديهم . وانهزم أندر زغر ومات عطشاً . وأصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فغضبوا حمية لقومهم وكاتبوا الفرس ليكونوا لهم عوناً على العرب المسلمين واجتمعوا بألبس وعلى العرب رؤساؤهم وعلى الفرس جابان . وقد أمره جاذويه أن لا ينازل العرب حتى يصل إليه إلا أن يعجلوه .

ولما علم خالد باحتشاد القوم تعجل إليهم وهو لا يظن أن يلتقى إلا منتصرة العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية ولا يظن أن جابان معهم . فلما أطل عليهم كان الفرس قد هياؤا الطعام وتنادوا له ولم يظهروا الا كثرات لأمر خالد ومن معه وكان خالد على تعبئة فأجهضهم عن طعامهم وقاتلهم قتالاً شديداً وكانت جموع المشركين تزيد كلباً وشدة ، ثقة منهم بأن بهم جاذويه لاحق بهم في مدد عظيم . وحرب المسلمون عليهم فكشف المشركون وكانت عليهم الدبرة

وأخش خالد في قتلهم وغنم المسلمون طعامهم الذي كان مهيباً لهم . وكان فيه الرقاق فلم يعرف كثير من المسلمين ما هو ، وقالوا : ماهذه الرقاق البيض ؟ فكان العارفون منهم يمزحون قائلين هذا رقيق العيش . وكانت هذه الوقائع في صفر من السنة الثانية عشرة إلا وقعة الأُبلة فكانت في المحرم وكان جيش خالد قد بلغ ثمانية عشر ألفاً وكان لا تمر به واقعة إلا كانت التي تليها أعظم منها نصراً وغنيمة . وكان يوصي بالفلاحين وأهل الأعمال ولا يظلمهم بل يقرم في عملهم ولا يتصدى إلا للمقاتلة وأهلهم ؛ وكل ذلك عملاً بوصية أبي بكر له . وكان من أمر خالد أنه بعد وقعة الوَلجة خطب في جنده يرغبهم في بلاد العجم ويُرْهِدُهم في بلاد العرب . وقال :

« ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل . ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأي أن تقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والإقلال من تولاه بمن أتناول عما أنتم عليه . »

ولما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى مغيشياً وقد جلا أهلها عنها وتفرقوا في السواد وكانت مصرأ كالحيرة وكان فرات بآدثلى ينتهى إليها وكانت أليس ، من مسالحها فأصاب المسلمون بها مالم يصيدوا مثله فلقد بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسة مائة درهم سوى النفل الذي نفعه خالد أهل البلاد ؛ ثم أمر بهدمها وكل شئ . كان في حينها ، ولما جاء خمس الغنيمة إلى أبي بكر وبلغه ما صنع خالد أخبر قريش الخبر فقال : « يامعشر قريش ، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله . »

لما علم الازاد به مرزبان الحيرة بما صنع خالد بامغيشيا أيقن أنه غير تاركة ، قهياً للحرب وقدم ابنه أمامه ثم خرج في أثره على عسكر خارجاً من الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات . وكان خالد قد حمل الرجل في السفن مع الأنفال والأثقال . فلم يفجأ إلا والسفن جوانح . فارتاع المسلمون لهذا الأمر

وقال لهم الملاحون: إن الفرس قد فجروا الأنهار فسللك الماء غير طريقه ولا يجرى الماء إلينا إلا بسد الأنهار . فنهض خالد في خيل نحو ابن الازاذبة . فلقى خيلا من خيله فجثهم وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة فأنامهم بالمقرثم نهض من فوره وسبق الأخبار حتى لقي بجند من جند ابن الازاذبة على فم فرات بادقلى فقاتلهم وهزمهم وسد الأنهار وسلك الماء سبيله . ثم استلحق خالد عسكره ويمم الحيرة حتى نزل بين الخورنق والنجف .

أما الازاذبة فقد طرقة مصاب ابنه وخبر موت أزدشير في وقت واحد فهاه الأمر وكان معسكراً بين الغربيين والقصر الأبيض فاستخفه الفرع فعبى الفرات هارباً من غير قتال قبل أن تنام أصحاب خالد . فلما لحق بخالد عسكره سار حتى عسكر بهم مكان الازاذبة وجنوده . وأهل الحيرة متحصنون . فأدخل الحيرة الخيل من عسكره وأمر ضرار بن الأورور بمحاصرة أهل القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي وضرار بن الخطاب بحصار قصر العدسين وفيه عدى بن عدى العبادي . وكان ضرار بن مقرن المزي عاشر عشرة إخوة له محاصراً قصر بني مازن وفيه ابن أكال ، والمثنى بن حارثة كان محاصراً قصر ابن بقبلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وقد عهد خالد إلى أمرائه أن يدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً ، وقال : لا تمكنوا عدوكم من أذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم ، ففعلوا ، فاختر القوم المنابذة وعمدوا لرمى المسلمين بالحزف فرشقهم المسلمون بالنبل وبنوا غارتهم ففتحوا الدور والديارات فنادى القسيسون . يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم فنادى أهل القصور : يا معشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا . وخرج رؤساء أهل القصور إلى خالد نخلاً بأهل كل قصر على حدة ولا مهم وكان عما قاله : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ ثم قال اختاروا واحدة من ثلاث ، إن تدخلوا في ديننا فلكم مالا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمت في دياركم

أو الجزية أو المنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة . فقالوا : بل نعطيك الجزية . وصالحوه على مائة وتسعين ألفاً . وبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر . وكانوا أهدوا إلى خالد هدايا ، فقبل أبو بكر الهدايا على أن تكون من الجزية . وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقية ما عليهم فقوم بها أصحابك - وقد كتب خالد لأهل الحيرة كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمرهم به . عاهدتم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبسنا عن الدنيا تاركاً لها ، وعلى المنعة . وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ . »

ومن طريف ما يحكى في فتح الحيرة أن رجلاً من متصرة العرب اسمه شويل كان قد أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع رسول الله يبشر المسلمين بأن قصور الحيرة ستفتح عليهم . فسأله أن يعطيه كرامة بنت عبد المسيح من سبي الحيرة حين تفتح . فقال النبي عليه السلام : هي لك . فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة جاء شويل يستنجز خالداً عدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرط خالد عليهم أن يسلموا كرامة فشق ذلك على القوم وعلمت كرامة فقالت لهم لا يشق عليكم ذلك فإنه رجل أحق رآنى في شببتي فظن أن الشبيب يدوم فأسلمونى فإنى سأفتدى منه فلما حصلت عد الرجل قالت : ما أريك من عجوز كما ترى ؟ فأدنى . قال لا إلا على حكمي قالت فلك حكمك . قال فليست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم

فأظهرت أنها تستكثر ذلك لتخذه ثم أتته بالآلاف ورجعت إلى قومها .
وتسامع الناس بما كان من شويل فعنفوه على أن لم يطلب أكثر من ذلك . فقال :
ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف أو حاصم القوم إلى خالد فقال : كانت نيتي
نهاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف . فقال خالد : أردت أمراً وأراد
الله غيره فأخذ منك بما يظهر وندعك ونيتك .

ولما صالح خالد أهل الحيرة . جاء إليه صلوبا بن نسطونا وهو صاحب
قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من
شاطئ القرات على عشرة آلاف دينار ، وكتب لهم خالد كتاباً نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إني عاهدتكم
على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار
سوى الخرزة^(١) القوى على قوته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة وإنك
نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين
ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا
حتى نمنعكم . »

وكان الدهاقين يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع بأهل الحيرة فلما استقام
ماينه وبين الحيريين ، أتته دهاقين البلاد فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز
جرد على ألفي درهم وكتب لهم بذلك كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بهيش وصلوبا بن نسطونا . إن لكم الذمة
وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل الهقباز الأسفل والأوسط

(١) كذا في ابن جرير وفي مجمل الأدباء لياقوت « مادة بانقيا » كتاب يعبر هذه الصورة

على ألفي ألف تقبل في كل سنة عن كل ذي يد سوى ما على بانقيا وباروسما
وإنكم قد رضيتموني والمسلمين وإنا قد رضيناكم وأهل اليهقياذ الأسفل ومن
دخل معكم من أهل اليهقياذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى
ومن مال ميلهم .

بعد ذلك بعث خالد مسالحه وعليها ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب
والمنثى بن حارثة وضرار بن مقرن والقعقاع بن عمرو ونُسر بن أبي رهم
وعتيدة ابن النحاس . وأمرهم بالغارة والإلحاح في الوجوه التي وجهوا إليها وكان
قد أغزاهم .

ولما استقر خالد على أحد جانبي السواد . دعا برجل حيرى وآخر
نبطى وكتب معهما كتابين : إحداهما إلى ملك الفرس مع مرة الحيرى وقال :
اذهب إليهم فقلل الله بهم عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا . وأعطى النبطى حزقيل كتاباً
وقال : اللهم ازهق نفوسهم وكان إلى المرازبة - فأما كتاب الملك فهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد : فالحمد لله الذي حل نظامكم ،
ووهب كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا
في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون
على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . وصورة الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس : أما بعد : فأسلموا تسلموا . وإلا
فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية . وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما
تحبون شرب الخمر .

وكان أهل فارس في ذلك الحين عقب موت أردشير مختلفين في الملك
مجموعين على قتال خالد متساندين ، وكانوا بذلك سعة والمسلمون يمحرون مادون
(٦ - الخلافة)

دجلة وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر ، وليست لأحد منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتبوا منه وسائر أهل السواد جلاءً ومتحصنون ومحاربون . وكان الفرس ليس منهم سوى المدافعة عن بُهرسير وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى واقعة في الجانب الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها . فلما وردت كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من اختلافهم فوقع اختيارهم على رجل من غير بيت الملك يولونه إلى أن يوجد من آل كسرى من يصلح للملك . وكان الذي ولوه هو الفرخزاذ خسرو ولم يستقر له الملك فولوا يزدجرد بن شهريار وكان في ملكه من الأحداث ما سيأتي .

لما استقام لخالد الأمر في الناحية التي أنحن فيها أجمع السير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسله أبو بكر ليفتح العراق من شماله ويلتقي بخالد ؛ فاستخلف على الحيرة القمعاق بن عمرو وسار بمجده حتى وافى الأنبار فوجد القوم قد امتنعوا بمحصولهم وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون . فأمر جنوده أن يرشقوهم بالنبل فأصابوا في عدوهم . وكان خالد رجلاً لا يصبر عن الحرب إذا رآها ، فقال لمن معه : إني أرى قوماً لا علم لهم بالحرب فارشقوا في عيونهم ولا تحمروا سواها . فأصيب في ذلك اليوم ألف عين .

ولم يكتف خالد بما صنع بل عمد إلى أضيق مكان في الخندق وعمد إلى الضعاف من الإبل في جيشه فحرقها وأفعم الخندق بحشها واقتحم المسلمون الخندق وجسرهم عليه جثث الإبل وصاروا مع أعدائهم داخل الخندق فالتجأ المشركون إلى الحصن .

وكان رئيس القوم رجل يقال له شيرزاذ صاحب ساباط وكان أعقل أجمعى يومئذ وأسوده واقنعه في الناس العرب والعجم . فراسل خالد في الصلح على ما أراد فقبل خالد منه على أن يخليه ويلحقه بمأمه في جريدة من الخيل ليس معهم من المناع والأموال شيء ، ووفى له خالد بما صالح عليه .

ولما انتهى أمر الصلح مع القوم صالح من حولهم واستخلف الزبرقان ابن بدر وسار إلى عين النمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من الفرس والعرب وعقبة بن أبي عقبة في جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم . فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقبة لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً قال : صدقت لعمرى لأتم أعلم بقتال العرب وإنكم كئيلنا في قتال العجم — وقد كان العجم ينظرون إلى العرب بعين الاحتقار والمهانة — فقال من مع مهران من العجم : كيف تقول ما قلت لهذا السكب ؟ فقال : دعوني فإنني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وقل حدكم فائقته بهم . فإن كانت لهم على خالد فمى لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون . فحمدوا له رأيه . فلزم مهران العين ونزل عقبة لخالد على الطريق وعلى ميمنته بجير أحد بني عبيد بن سعد بن زهير وعلى ميسرته الهذيل بن عمران وبين عقبة ومهران غدوة أو روحة ومهران في الحصن في جند فارس وعقبة كالحفير له بجنده . فقدم خالد في تعبته ، وقال لُجَنْبَتَيْهِ : اكفونا ما معه فإنني حامل ووكل بنفسه حوامي ثم حمل وعقبة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيراً فانهزم جنده قبل القتال ، وأمعن المسلمون فيهم الأسر ، وأمعن كثير من المشركين في الحرب .

لم يكد الخبر يصل إلى مهران حتى وهنت قوته فترك الحصن ونجا فيمن معه من الفرس . وجاء فلال جيش عقبة إلى الحصن فاقحموه واعتصموا به وكأنما كان اعتصامهم به إنما هو اعتقال وسجن ضرب عليهم حتى يتسلمهم خالد فإنه لما قدم إلى الحصن ومعه عقبة وعمرو بن الصعق في الأسر نزل عليهم وكان القوم يظنون أن خالداً كثيرة العرب لا يلبث أن يعود أدراجه إذا أصاب مغنماً فلما رأوه غير تاركهم يتسوا من النجاة ونزلوا على حكمه . فأمر بعقبة وعمرو بن الصعق فضربت أعناقهما وأجزر السيف بقية من كان معهما وغنم

ماحواه حصنهم وسبي السبي . وقد وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رُهْن . فقسّمهم في أهل البلاد . منهم أبو زياد مولى ثقيف . ومنهم نصير أبو موسى بن نصير . ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيرين . وحران مولى عثمان بن عفان وغيرهم ..

وكان خالد أرسل الوليد بن عقبة بالأخماس إلى أبي بكر . فوجه به أبو بكر إلى عياض بن غم في جند مددا له .

وبينا كان خالد يفتح الفتوح ويحرز النصر كان عياض لم يعمل شيئاً ولم يدرك غرضاً مما وجه إليه . فقد كان أبو بكر وجهه لفتح شمال العراق ويكون اجتماعه مع خالد بالحيرة وأيهما سبق إليها كان أميراً على صاحبه ، فأتى خالد مانيط به وشرع يعمل في عمل عياض . ولما قدم الوليد على عياض بدومة الجندل وجده قد حاصر القوم وحاصروه وأخذوا عليه الطريق . فقال له : الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف ، إبعث إلى خالد فاستمده . ففعل ، وقدم رسول عياض على خالد مستغيثاً في أعقاب واقعة العين . فكتب إليه : « من خالد إلى عياض — إياك أريد .

كَبْتُ قَلِيلاً تَأْتِكَ الْجَلَانِبُ

يَحْمِلُنَ آسَاداً عَلَيْهَا الْقَاشِبُ

كَتَاتِبُ يَتَّبِعُهَا كَتَاتِبُ ،

خبر دومة الجندل

خلف خالد على عين التمر — عويم بن الكاهل الأسلمي . وخرج في تعيينته التي دخل بها العين ويمم دومة الجندل ، فلما علم أهل دومة بمسير خالد إليهم استنفروا أحلافهم من بهراء وكلب وغسان وتيوخ والضجاعم . ومن قبل

واقاهم وديعة في كلب وبهراء ومسانده ابن (تبرة) بن رومانس . وأتاهم ابن
الحدرجان في الضجاعم وابن الأيهم في طوائف من غسان وتنوخ فأشجوا
عياضاً وشجوا به .

وقد كان للقوم رئيسان : أحدهما أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة ،
فقال أكيدر : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أئمن طائراً منه ولا أحد في حرب .
ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ؛ فأطيعوني
وصالحوا القوم . فأبوا عليه . فقال : لن أمالككم على حرب خالد . وتركهم
وذهب لطيئته .

قد كان في رأى أكيدر كل الحزم وفي مخالفته الخطل والطيش والغرور .
لا يذهب من ذا كرتنا أن أكيدرا هذا كان قد صالح رسول الله صلى الله
عليه وسلم على الجزية ليلة أن أرسل خالداً إليه لجاء به في رجال من قومه إذ
كانوا يصيدون البقر في ليلة قراء وقتل في تلك الليلة أخا أكيدر . فلما مات
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيمن غدر وخاس بالعقد ، فلما علم خالد
بمخرج أكيدر أرسل إليه من عارضه في الطريق وأتى به فضرب عنقه
جزاء غدوره .

مضى خالد حتى نزل على دومة وعلى المشركين يومئذ الجودي بن ربيعة
ووديعة الكلبي وابن رومانس وابن الأيهم وابن الحدرجان ، فجعل خالد دومة
بين عسكره وعسكر عياض ، وكان مدده من منتصرة العرب محيطاً بالحصن
لأنه لم يحملهم . وخرج الجودي ووديعة لخالد وابن الأيهم وابن الحدرجان
لعياض ، فأظفر الله المسلمين بالفريقين وأثنى كل فيمن يليه من المشركين ،
وأخذ خالد الجودي أسيراً ، وأخذ عييه ابن حص وديعة أسيراً كذلك .
وطلب المنهزمة الحصن للالتجاء إليه فلم يحملهم وأغلق أهل الحصن أبوابه وبقي
المغيثون بالعرام بادية مقاتلهم . فأحار عاصم بن عمرو ومن معه من تميم حلفاءهم
من كلب فنجوا . وقتل خالد من كان خارج الحصن واقتلع بابه وقتل من كان فيه .
أقام خالد بدومة فظن الأعاجم به الظنون وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً

لعقة نخرج زرمهر من بغداد ومعه روزه يريدان الأنبار واتعدا حصيدا والحنافس . فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع خليفة خالد على الحيرة بما عليه من أمر العجم والعرب . فبعث القعقاع أعبد بن فدكى وأمره بالحصيد . وبعث عروة بن الجعد وأمره بالحنافس . وقال لهما : إن رأيتما مقدما فأقدا . فخرجا فحالا بين زرمهر وروزبه وبين مقصديهما ، فلما قدم خالد الحيرة علم بالامر فعجل القعقاع وأبا ليلى بن فدكى إلى روزه وزمهر فسبقاه إلى عين التمر ، وقدم على خالد كنان من امرئ القيس السكابي يعلمه أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمصبيح ونزل ربيعة بن بجير بالثني وبالبشر في عسكر غضبا لعقة يريدان روزه وزمهر . فخرج خالد واستخلف على الحيرة عياض بن غنم وأخذ طريق القعقاع وأبي ليلى حتى قدم عليهما بالعين فبعث القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الحنافس . كان من همه أن يزجيا القوم ليجتمعوا حتى ينازلهم بجمع كثيف هم ومن هب لمعاونتهم من العرب . ولكن القوم لم يجمعوا ولعلمهم فطنوا لنية خالد فأرادوا أن لا ينيلوه مراده .

حصيد

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبه لا يتحركان قصد الحصيد وعلى من به من العجم والعرب روزه . فاستغاث بزرمهر فخفف إليه بنفسه وخلف على جيشه المهبوذان ، والتقى المسلمون بأعدائهم فقتل من العجم مقتلة عظيمة وقتل زرمهر وروزبه وغنم المسلمون غنائم كثيرة وانحاز فلان جيش حصيد إلى الحنافس .

الحنافس

ولما قصد أبو ليلى بن فدكى الحنافس — وبها المهبوذان وجنده ومن ضوى إليهم من فل تجيش الحصيد وعلم به المهبوذان ، انهزموا دون قتال وانضموا إلى المصبيح وبه الهذيل بن عمران ومن معه (مُصَيِّحُ بنى البرشاء) . ولما انتهى إلى خالد

ما كان بالحصيد والخناس كتب إلى قواده وواعد القمقاع، وأباليلي، وأعبد، وعروة ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المضيق وهي بين حوران والقلت. فتوافوا إليها في موعدهم فاتفقوا على أمرهم وبيتوا الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فأتوا عليهم وامتألوا القضاء برمم القتلى فما شهبوا إلا بغنم مصرعة ولم ينج سوى الهذيل في نفر قليل. وقد أصاب جرير بن عبد الله يوم المضيق عبد العزى ابن أبي رهم وليد بن جرير، وكان معها كتاب من أبي بكر بإسلامهما فوداهما أبو بكر، وكان عمر رضى الله عنه يعتد على خالد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة. وقد سمع عبد العزى في تلك الليلة يقول:

أقول إذ طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربى لا إله غيره رب البلاد ورب من يتورد

فكان أبو بكر يقول: كذلك يلتقى من ما كن أهل الحرب في دارهم وقد كان للرجلين متسع من الأرض يأمان فيه وليس بهما من ضرورة تضطرهما إلى المقام في مستنقع الموت وفي صف أعداء دينهم والمشاقين لأهل الإسلام. ومن ظن أنه يصنع صنيعهما ولا يكون موطناً نفسه على أن يكون طعاماً للسيوف فقد ظن عجزاً، وليس لعمر حق في الاعتداد بهما على خالد.

الثنى والزميل

لما أصاب خالد أهل المضيق بما أصابهم به تقدم إلى القمقاع وأبى ليل أن يرتحلا أمامه وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على من بالثنى من ثلاثة أوجه، كما فعل بأهل المضيق، ففعلوا وأعملوا السيوف في أهله يياتا وهم نائمون فلم يفلت من الجيش مخبر، ثم عطف بمثلها على من بالزميل وهو البشر وقد سبق الخبر إليهم ثم عطف من بالبشر إلى الرضاب وكان هناك هلال بن عفة فأنقشع عنها. ولم يلق خالد كيداً.

الفِراض

وهي تخوم العراق والشام والجزيرة . قصدها خالد بعد الرضاب ليكون على بينة من أنه لم يترك وراء جيشه عورة يناههم العدو منها ، وقد أفطر في تلك السفرة في رمضان لما كان من تتابع الغزوات واتصالها والأيام والوقائع قد نظمن فيها نظماً وقد أكثر الرُّجَّاز في هذه الغزوات .

فلما اجتمعت المسلمون بالفِراض حيت الروم واغتازت واستجاشوا من يليهم من مسالح الفرس يستعينون بهم ، واستمدوا تغلب وإيادا والتمر فأمدوهم وناهدوا خالداً حتى صار الفرات بينهم وبين المسلمين ، وأجال الرومان الرأي فقال بعضهم لبعض : هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم والله لينصرن ولنخذلن . ثم لم ينتفعوا بذلك وعبروا أسفل من خالد وامتازوا ليعلموا من يأتي بحسن ومن يأتي بقيح وناجزوا خالداً الحرب واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً ثم انهزمت جموع الروم ومن معهم من العرب ، فقال خالد : ألحوا عليهم ولا ترفهوا عنهم وقد أخش فيهم القتل . وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد بالعراق .



يحق لنا أن ننظر نظرة متأمل إلى ما صنعه خالد في سنته . فإننا نجده قد فعل في هذه المدة القصيرة ما لم يفعله قائد من القواد في مثل عدة جنده . مع كثرة عديد أعدائه ومحاربيه وقوة أعددهم . فقد اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من سمالي الأبله إلى الفرات وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات وأثنى في جيوش الفرس والعرب والروم في مواقع كثيرة لم تهزم له فيها راية ولم يثتن سيفه عن ضريبته وكان الرعب يسبقه إلى كل قوم ويسير أمامه في كل موقعة أجمع عليها حتى أن اسمه كان بمثابة مدد للجيش . وكان في كل أعماله فاتحاً موطداً لأركان الملك والاستعمار ، لا مغيراً ناهباً . فلم تدن له بلد بالطاعة إلا خلف عليها حامية لحفظ

نظامها ، وأميرا لإقامة العدل فيها ، وآخر يجبي خراجها من الذمة على مقتضى كتاب صلحهم .

ومن أحسن ما يؤثر لخالد من المحاسن الغراء أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء ولا يمسهم بأذى . بل كان يشملهم برأفته ويعمهم برعايته ويمنتهم ممن يريدون بسوء لاعتقاده أنهم مادة الأمة وبهم قوام الدولة . ولهذا صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس لما كانوا يجدونه في عظمائهم من الغلظة عليهم والإعنات لهم ويستعبدونهم وينذلونهم .

وكما كان خالد رؤوفا بهؤلاء كان شديد الأخذ للمقاتلة وأهل الحرب لا يصبر على الميدان إذا رآه ولا يدع الجنود ينظر بعضهم إلى بعض دون أن يشنها غارة شعواء — بل سرعان ما يخرج طالبا كبش الكتبية في بجوحة الميدان ويدعوه إلى المبارزة ثم ينقض عليه انقضاض البازي على العصفور وفي ذلك بواره فكان عمله هذا يشرذم من خلفه من عدوه ويوقع الرعب في قلوبهم ويكون سببا للفشل ثم الهزيمة .

قال الأستاذ الخضرى : وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه . ومما يبين عظيم عمله ما قاله الهيثم البكائى قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى كان يبلغهم ويقولون : ما شاء معاوية ، نحن أصحاب ذات السلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

وإلى ما عجبت من شيء لا يبلغ ذلك عجبى من أمر أولئك القوم الذين كانوا يتهافتون على حرب خالد تهافت الفراش على النار ، قد يكون وجه العذر واضحاً فى أهل ذات السلاسل وما بعدها بواقعتين أو ثلاث ، ولكن ما عذر أولئك الذين كانوا يعرفون أثره فى غيرهم ومبسمه فى آناف القبائل ثم لا يكون

منهم إلا أن يهجموا عليه هجوم الحمار على الأسد ؟ إن البهائم تعرف ريح الليث بما قدرت عليه ولكن هؤلاء القوم جهلوا ما عرفته البهائم فلم يكتفوا من الليث بريحه دون أن يذوقوه .

أينكر ريح الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريح الليث البهائم

كان لخالد في العراق من الوقائع : (١) ذات السلاسل . (٢) والمذار (٣) والولجة . (٤) وأيتس وامغشيا . (٥) والمقروم فرات بادقلى . (٦) وقصور الحيرة . (٧) وذات العيون بالأنبار وكلواذى . (٨) وعين الثمر . (٩) ودومة الجندل ومُحصيد (١٠ ، ١١) والخنافس . (١٢) ومضيج بى البرشاء . (١٣ ، ١٤) الثنى والزميل . (١٥) الفراض وقد انتظم جميعها في سمط لأقل من سنة من خروجه للقتال . أفما كان في الناس رجل رشيد يحثهم على المساومة وبذل ما يريد يحقن على الناس هذا الدم الممار ؟ إن الابتعاد عن طريق خالد نهاية الحزم ولا يمكن أن يهجم في خاطري أن الذين اتقوه بالفرار من الفرس كانوا جنباء أو ضعفاء لأن الإقدام الذي لا تقع منه القاء بالنفس إلى التهلكة .

على أن القوم الذين كانوا يجمعون له ويرصدونه أو يهدون إليه كان يكون لهم شبه عذر لو أن الذى يقع في يده محاربا يجد منفذاً إلى النجاة أو طريقاً إلى السلامة فيكون القوم قد أقدموا على طمع في الفوز أو أمل في النجاة ، إن خائهم الظفر فلم يخنهم عفو المتصر . ولكن الرجل ما كان يقبل لمخدول عشرة بعد ما أشرع الرمح وفوق النبل ، بل كان كما قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : إن في سيف خالد رهقا . ولو أتى كنت القائل لقلت : إن في سيفه قرماً إلى لحوم مخالفيه وزهداً في موافقيه .

نعود إلى خالد في الفراض فنقول : إنه أقام بعد الموقعة عشرة أيام ثم أذن

في الناس بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وأمر عاصم بن عمر أن يسير بالناس وأمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم وأظهر أنه في الساقة . ثم خالف من معه إلى مكة حاجاً يعتسف البلاد حتى أتى مكة على السمت في عدة من أصحابه فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل خريت ولا رثبال . وقد سلك بأصحابه طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب ولا أشد صعوبة منه . فلما قضى نسكه خف مسرعاً إلى جنده . فأتوا في الجند بالحيرة إلا وقد طلع عليهم في أصحابه مع ساقة الجند فقدموا معاً ولا يعلم الجند بحج خالد ومن معه إلا بعد أن رأوهم محلقين رؤوسهم إلا ما كان ممن أنضى إليهم بذلك من أهل الساقة .

وقد انتهى إلى أبي بكر ما كان من خالد من ترك الجند ومخالفتهم إلى الحج فأكبر ذلك واعتده إعجاباً منه بنفسه وبما أتبع له من الظفر واعتاراً بمن يجاوره من عدوه واستضعافاً لشأنهم . وصادف في ذلك الحين أن أبا بكر احتاج إلى أن يرعى الروم بمثل ما رعى فارس ، وقد استمده أمراؤه فأحب أن يرعى غرضين بجحر ، فأمر خالداً بالإنصراف إلى الشام مدداً لمن هناك من الأمراء بنصف الجند وأن يخلف المشي بن حارثة على من معه من الجنود بالعراق فأرسل إلى خالد كتاباً يعاتبه فيه على ما كان منه ويعظه ويأمره بالإنصراف إلى الشام وكان في هذا الكتاب

سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة فآتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء

وكان انصراف خالد في صفر سنة ١٣ هـ

ابتداء حرب الروم بالشام

كان ابتداء حرب الروم متأخراً عن حرب الفرس . وأول ما كان من ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه كان عقد لخالد بن سعيد على جيش حين بعث البعوث إلى أهل الردة . وقد جهد عمر بن الخطاب بأبي بكر أن يصرف خالداً عن العمل له . وقال له : إنه لضعيف التروثة مخذول فلا تستنصر به . فاطاعه أبو بكر في بعض أمره وخالفه في بعض ، ذلك أنه أمر خالد بن سعيد أن ينزل بتياء وأن يدعو من حوله للانضمام إليه ، وأن لا يقبل مرتداً ولا يقاتل إلا من قاتله . وأن لا يبرح مكانه حتى يأتيه أمره

وكان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد أن خالداً كان عاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الين فقدم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر والقوم في مصابرة أهل الردة . وكان لابساً جبة ديباج ، فقال عمر لمن يليه : مزقوا عليه جبته . ألبس الحرير وهو في رجالا في السلم مهجور ؟ فوجدها خالد في نفسه ولقى على بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال : يا بني عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم . وتربص ببينة أبي بكر مدة يقول أتمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلى حتى قبضه الله . وكان عمر يضطغن ذلك عليه وأبو بكر ولم يحفلها ولم يحتمل عليه

فصل خالد بن سعيد وجنده وسار حتى نزل على تيماء . فاجتمع إليه جند كثير وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فرأوا أن يقذفوا جلوداً بجلود ويقلوا ذلك الجيش قبل أن يعظم بجموع من عرب الضاحية والحديد بالحديد يفلح

علم خالد بن سعيد بما صنعت الروم فكتب إلى أبي بكر بهذا الشأن وبنزول من استفزت الروم ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليخ وتنوخ ولخم وجذام وغسان . فكتب إليه أبو بكر أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله . فنهض إليهم خالد

في جموعه فلما داناهم تفرقوا وأُعروا، منزله فنزله ودخل عامة من تجمع له في الإسلام . وكتب إلى أبي بكر بما كان . فكتب إليه : أقدم ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك ، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء ومن لحق به حتى نزلوا فيما بين آيل ويزاء والقسطل . فسيرت الروم إليه عسكرياً بقيادة بطريق منهم يدعى باهان فهزمه خالد وفض جموعه . وكأن خالد رأى أن توالى نكايته في الروم يُنبئهم إلى شأنه والجد في أمره فكتب إلى أبي بكر يستمده حتى لا يفاجئه العدو بجيش لا قبل له به .

وافق كتاب خالد بن سعيد إلى أبي بكر أن قدم إلى المدينة المستنفرون من اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم على أبي بكر أيضاً عكرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرور فكتب أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يدلوا من استبدل فكلهم استبدل فسمى جيش البديل وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص يخبره بين عمله الذي هو فيه أو يوحهه إلى عمل آخر يراه خيراً لدنياه وآخرته . فكتب إليه عمرو : إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاهها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاء من ناحية من النواحي . وكتب إلى الوليد بن عقبة فأجابه بإيثاره الجهاد . فأوعب أبو بكر إلى خالد بن سعيد جيشاً فيه الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وذو الكلاع وغيرهم فوافوا خالد بن سعيد . وعند ذلك احتاج أبو بكر إلى الشام واعتزم على الجد في أمر الروم وأرسل الأمراء والجنود لافتتاح الشام .

في أواخر سنة ١٢ هـ اختار أبو بكر أربعة من خيرة قواد المسلمين لهم جد وهمة وغناء وهم (١) عمرو بن العاص (٢) يزيد بن أبي سفيان (٣) وأبو عبيدة ابن الجراح وهم قرشيون (٤) وشرحبيل بن حسنة وهو قحطاني .

وقد تخير لكل واحد منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير في الطريق التي

سماها له وعين لكل واحد منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمر بن العاص فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن وكان عدد الجنود التي سيرت إلى الشام سبعاً وعشرين ألفاً على ما رواه الطبري .

رأى خالد بن سعيد أنه قد عز بمن أمده بهم أبو بكر، وأن جنود المسلمين وقوادهم قد فصلوا لفتح الشام. فأراد أن يدرك الفوز قبل مقدمهم ويحجز الفخار دونهم فبادر الأمراء بقتال الروم، واستطرد له باهان وقصد فيمن معه قصد دمشق واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر بين الواقصة ودمشق فانطوت عليه مسالح باهان وأخذوا عليه الطريق وهو لا يشعر وزحف له باهان وأصاب سعيد بن خالد فقتله ومن معه . وعلم خالد بالخبر فخرج هارباً في جريدة وأفلت من أصحابه من أفلت على ظهور الخيل والإبل وقد أجهضوا عن عسكرهم، ولم تنقه بخالد وأصحابه الهزيمة عن ذي المروة وأقام عكرمة ردة للناس يرد عنهم باهان وجنوده . وقد علم أبو بكر بما نكب به خالد بن سعيد فكتب إليه وهو بذى المروة أن أقم مكانك فلمعمرى أنك مقدم محجام نجاه من الغمرات لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه .

ولما علم الروم بقدوم أمراء جيوش المسلمين كاتبوا هرقل فقدم حمص وأراد أن يشغل قواد المسلمين عن بعضهم بما عنده من الجنود الكثيرة . وأرسل إلى كل قائد أمثال ما عنده ، فهابهم المسلمون ورأوا التريث حزمًا وكاتبوا أبا بكر وعمر بن العاص فيما نزل بهم . فأرسل إليهم عمرو أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا . فأتعدوا اليرموك ليجتمعوا به وهو واد يصب في الأردن وقد طلع عليهم كتاب أبي بكر أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى

مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه .

لما علم هرقل باجتماع المسلمين باليرموك كتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع التعطن واسع المضرب ضيق المهرب . وبين لكل قائد مكانه من الجيش : من يكون على المقدمة والميمنة والميسرة ومن يكون قائدا عاما . فصدعوا بأمره ونزلوا الواقصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقا لهم وهو لهيب لا يدرك غوره — وقد أراد قواد الرومان أن يستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين حين يرون قتلهم وكثرة جند الروم وترجع إليهم أفقتهم عن طيرتها . ولما نزل الروم منزلهم هذا انتقل المسلمون ونزلوا بجذائهم على طريقهم وليس لهم طريق غيره . فقال عمرو بن العاص : أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير . فأقام المسلمون على حالهم هذا صفرا وشهري ربيع سنة ١٣ لا يقدر من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم اللهب وهو الواقصة من ورائهم والخندق من أمامهم .

كان المسلمون في مبدأ اجتماعهم كتبوا إلى أبي بكر واستمدوه فقال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . وكتب إلى خالد الكتاب الذي قدمنا فوافاه إلى الحيرة منصرفه من حجه وأمره أن يسير إلى الشام بشطر الناس وأن يخلف على الشطر الباقي المثني بن حارثة . وقال لا تأخذن نجدا إلا تركت له نجدا فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم ائت على عملك .

ولما أراد خالد أن يفصل بنصف الناس استأثر بأصحاب رسول الله فأبي المثني إلا أن يكون الأمر على ما كتب أبو بكر فلم يزل به خالد حتى أرضاه . وكان خالد يعتقد أن صرفه عن العراق وفارس إلى الشام إنما كان سعي عمر حسداً له أن يكون فاتح العراق وفارس . وقد كان إرسال خالد إلى الشام توفيقاً من الله تعالى لأبي بكر لأنه كان صاحب اليوم الذي حصلت فيه الصدمة الأولى وتتابعت الفتوح بعده .

سار خالد بمن معه من الجنود من الحيرة حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم ثم أغار على جموع من تغلب وكتب على ماء يسمى قراقر . ثم أراد السير مُفَوِّزاً من قراقر إلى سُوى وهو ماء لبراء من ناحية السماوة . وقراقر ماء لبنى كلب وبينهما خمسة أيام للراكب المفرد المُخِف ؛ وإنما أراد خالد هذا الطريق لأنه إذا مر في العمران ودار حول المفازة وجد جموع الروم في طريقه ؛ وذلك يدعوه إلى منازلهم وفي ذلك ما يؤخره عن الموعد الذي يريد . وهو إغاثة المسلمين باليرموك فالتبس دليلاً يسلك به المفازة فدل على رافع بن عميرة الطائي ، فأراد خالد على الانطلاق بالباس فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيول والأثقال والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغرراً . إنها خمس ليال جياذ ولا يصاب فيها ماء مع مضلتها . فقال خالد : ويحك إنه والله إن لي بُدّاً من ذلك انه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك فربأمرك . قال : استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر لذن ناقتة على ماء فليفعل فإنها الممالك إلا ما دفع الله — أبغني عشرين جزورا عظاما سمانا مَسَّان . فأتاه خالد بهن فظمأهن ، حتى إذا أجهدهن عطشا أوردهن فشرين حتى إذا امتلأن عمد إليهن فكمن لثلاث يجتررن ثم أخلى أديار من ثم قال لخالد سر فسار بالناس مغذا بالخيول والأثقال فكلما نزل منزلا اقتطع أربعاً من تلك الشوارف فأخذ ما في أكراشها فخلطه بما كان من لبن ثم سقى الخيل وسقى الناس بما حملوا معهم من الماء . فلما كان آخر يوم خشى خالد على أصحابه فقال لرافع : ما عندك ؟ قال أدركت الرى إن شاء الله ليطمئن الناس فلما دنا من العلمين قال للناس : انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ فوجدوا جذمها بعد جهد فأشار عليهم بأن يحفروا في أصلها فحفروا فخرجت لهم أوшал فشربوا وسقوا ظهريهم واتصلت بعد ذلك لخالد المنازل وقد قال بعض القوم في ذلك :

لله عينا رافع إنى أهتدى فوَّز من قُراقرٍ إلى سُوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ما سارها قبلك أنسى يرى

ولم يكد خالد يصل إلى سُوى حتى أصبح بهراء بالقتال، وهم لا يظنون أن أحداً يأتيهم من هذه المفازة المهلكة، فدهمهم وبعضهم في صبوحة . ثم أتى أرك فصالحوه، ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه، ثم أتى القريتين على مرحلتين من تدمر فقاتلهم فظفر بهم وغنم، وأتى قَصَم فصالحه بنو شبيعة من قضاة . وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشراً راية سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب، ثم أتى مرج راهط فصبح غسان في يوم فصحهم فقتل وسبي، ثم سار إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم وصالحهم فهي أول مدينة فتحت صلحاً بالشام على يد خالد وجند العراق . ثم بعث بالخمسة إلى أبي بكر . ثم سار فأطل على المسلمين في ربيع الآخر وطلع باهان على الروم ومعه القسوس والشمامسة فكان كل حزب مستبشراً فرحاً بما جاءه من المدد .

واقعة اليرموك

كان المسلمون في قلة من العدد بالنسبة إلى عدد الروم، فالمقل من المؤرخين يجعلهم أربعين ألفاً، والمكثّر يجعلهم ستة وأربعين ألفاً . وأما الروم فعدهم أربعون ومائتا ألف على رواية الطبري وأقل ما قيل فيهم ما قاله ابن الأثير في إحدى روايته أنهم كانوا مائة ألف . وكان قتال المسلمين على تساند، كل أمير على جيشه وقد مكث القسيسون شهراً يحرضون على القتال ويرغبون الروم فيه وينعون لهم النصرانية حتى أحسواهم . فخرج الروم في تعبئة لم ير مثلاً للقتال الذي ليس بعده قتال . فلما رأى خالد هذا الأمر مع تفرق المسلمين على عدة أمراء وأن القوة مجزأة بتعدد الأمراء؛ خشى أن يدخل على جيش الإسلام الوهن والضعف، لأنهم إنما يقاتلون عدواً كثير العدد قوى العدة موحد الرأي والكلمة، ولا بد ليل الظفر من حزامه الرأي واجتماع الكلمة . فقام خالد في الأمراء، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له

مابعدہ . ولا تقاتلوا قوماً على نظام و تعبیه و أنتم متساندون ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي . وأن من ورامكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا في ما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى من واليكم ومحبتة . قالوا : هات فما رأى ؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنبتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لما جمعكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم وأنفع للمشركون من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . هلموا فإن هؤلاء قد تهبوا وهذا يوم له مابعدہ . إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نرؤهم ، وإن هزمونا لم نقلح بعدها . فهلموا فلتنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم . ودعوني أليكم اليوم فأمروه . وهم يرونها كجراتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه .

صار خالد أمير المسلمين فى ذلك اليوم . وقد قدمنا أن الروم خرجوا فى تعبیه لم ير الرايون أحسن منها ولا أهيب فى العين ، فخرج إليهم خالد فى تعبیه لم تعبها العرب قبلها : فخرج فى ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين . والكردوس هو الجماعة من العسكر ، وظاهر أن كردوس المسلمين فى هذه الوقعة لا يزيد على ألف مقاتل إلا قليلاً . وقد قسم الجيش فجعل على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وجعل على كراديس الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة . وأقام على كل كردوس قائداً من شجعانهم وكان القاضي فى ذلك الجيش أبو هريرة . والقاص الذى يعظ الناس ويحرضهم على القتال أبو سفيان ابن حرب . فكان يقف على كل كردوس ويقول : والله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك . وكان المسلمون يقرأون على الجنود وهم فى الصفوف سورة القتال .

وفيا المسلمون في المصاف قبل أن ينشب القتال خرج قائد القلب من جيش الروم طالبا خالد بن الوليد ، فجاء إليه وكله في بعض الشأن .

ذلك أنه لا بد في كل زمان ومكان من أناس يتزيدون في الأخبار ويهرفون بما لا يعرفون ، ويؤولون الكلام على ما يخطر على قلوبهم بدون تدبر ولا تحقيق . ولعل بعض القوم أشاعوا في بلاد الشام أن خالدا في يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه أعطاه له رسول الله . وأخذوا ذلك بما اشتهر به بين المسلمين أنه سيف الله . ويظهر أن ذلك القائد (ويسميه الطبري جرجة بن توذر ، ولعله جورج بن ثيودور) كان يعرف العرية لأنه كلم خالدا بدون ترجمان .

وقف ذلك القائد فقال : يا خالد لا تكذبنني فإن الحر لا يكذب ، ولا تخدعني فإن الكريم لا يخادع المسرسل . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا . ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا كذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : « أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعالي بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين . قال : صدقتني : ثم أعاد عليه يسأله عن الإسلام وما يأمر به ، وما للداخل فيه من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وخالد يجيبه عن كل ما سأل عنه ، فقال مع خالد إلى صفوف المسلمين ، ودخل خيمة خالد فاغتسل وتشهد وصلى ركعتين ، وخرج يقاتل مع المسلمين إلى أن قتل عصر ذلك اليوم ما صلى سوى الركعتين .

نعود إلى شأن القتال فنقول : لما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم أنها من قائدهم حملة فحملوا فأزالوا المسلمين عن مواقعهم إلى المحامية وعليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة : قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر

اليوم ؟ ثم نادى : من يبائع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم . فقاتلوا بين يدي فسطاط خالد حتى ثبتوا جراحة ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل . وقد اشتد القتال بين الفريقين النهار كله إلى جنوح الشمس للغروب ، فهد خالد بالقلب حتى تصافح القوم بالسيوف وصار خالد بمن معه بين خيل الروم ورجلهم ، وكان المكان واسع المطرد ضيق المهرب . وتضايقت خيل الروم ، فلما وجدت مذهباً ذهببت تشتد في الصحراء ، وأفرج لها المسلمون وترك فرسانهم الرجالة في مصافهم وتفرقوا في كل مذهب لا يلوون على شيء . وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم ، فكانما هدم بهم حائط فاقتمحوهم في خندقهم فاقتمحوهم عليهم فعمدوا إلى الواقصة فهووا فيها . وقد زاد خسارتهم أنه كان فيهم كثير من المقيدين وآخرون مسلسلين للموت ، فكان الجماعة من المسلسلين أو المقيدين إذا هوى واحد منهم في الواقصة هوى بقيتهم بهويته ، فكان ذلك فكلاً لهم ووبالاً عليهم إذ تهافت في الواقصة أكثر القتلى .

وقد ذكر الطبري أنه قد هوى فيها من الروم عشرون ومائة ألف ، وهؤلاء سوى من قتلوا بالمعركة . وقد استمر القتال طول النهار ومعظم الليل . وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم . وإنى لأشك في عددهم ، ولكن لأشك في نصر المسلمين .

وقد شق على كثير من عظماء جنود الروم وشجعائهم وقوادهم أن يروا هزيمة جيشهم بأعينهم ، ففضلوا الموت على الحياة : فترملوا وجلسوا ينتظرون الموت حتى لا يروا اليوم البئس فقتلوا على حالهم تلك — وهذه هي العادة لم تزل إلى اليوم في بعض القبائل العربية : إذا غلب الجيش على أمره وحقت عليه الهزيمة عمد الرؤساء إلى التزمل والجلوس حتى يأتي من يقتلهم ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة وتجزع غصص الذل . وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف فيهم كثير من أجلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد اليوم منهم ألف ؛ وفي ذلك اليوم سمع خالد رجلاً يقول :

ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين
إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان ، ولوددت أن الأشقر يرى
بما به من الوجى وقد أضعف الروم جيوشهم .

وفي أول هذا اليوم ورد كتاب عمر بن الخطاب يوفاة أبي بكر رضى الله عنه
وبتولى عمر الخلافة ، وفيه عزل خالد عن إمارة جيشه وتولية أبي عبيدة بن
الجراح . فلما جاء الرسول سئل عما وراه ، فأخبر بالمدد وبسلامة الأمة ، وأعطى
الكتاب لخالد وأسر إليه بما وراه . فأحمد خالد رأيه ولم يشأ أن يظهر الأمر
للناس وهم على حالهم تلك ؛ حتى إذا ما انتهت الواقعة سلم الكتاب إلى أبي عبيدة .
وسلم عليه بالإمارة . وفي الصباح بعد انتهاء الواقعة أتى خالد بعكرمة وابنه عمر
فوضع رأس عكرمة على نخذه ورأس عمر على ساقه ، وصار يقطر في حلقيهما
ويمسح وجههما ويقول : زعم ابن حنتمة أن لانسشهد — يريد عمر رضى الله
عنه — وقد قاتل النساء في ذلك اليوم قتالا شديداً في بعض الجولات ، وكن
يقمن بسقى الجند الماء ومداواة الجرحى وتمريضهم .

ومكان العبرة بعد هذه الواقعة هو أن جيشاً عدته أربعون ألفاً قد غلب
جيشاً فيه خمسة أمثاله ، يفتش الناس عن الأسباب التي دعت إلى ذلك .

أنا لا أبعد بكم إلى شيء ناء ، وإنما أحيلكم على ما قدمنا من الأسباب .
وأزيدكم أن جيش المسلمين كان فيه العدد المدرب على الحرب وهم قريبو عهد
بالانتصار على الجنود الفارسية ، فأورثهم ذلك ضلالة عليهم . وقد أحبوا أن
ينتظموا الروم مع فارس في سلك ليكون لهم غفر الإثخان في الدولتين .

قد كان في حكم المقبول أن يقال : إن الانتصار في كل من الناحيتين (العراق
والشام) سببه ارتباك الدولتين ، غير أن هذا الارتباك لم يمنع الطائفتين عن
حشد الجنود التي تفوق المسلمين أضعافاً مضاعفة ، ورعى كل ثغر بما يسده من
المقاتلة وذوى البجدة . فالأمر الذي ساعد المسلمين كما قدمنا وراء المدد وهو أن
الجندي المسلم إنما كان يخوض المعامع وقلبه متأثر بأمرين :

أولهما — ثقته بأن العاقبة له لما قرأه في الكتاب من عدة النصر وما سمعه من الرسول من النبشير بهذه الفتوح . وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله تعالى يؤيده .

ثانيهما — أنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل شهيداً فائزٌ بالحسن وزيادة ، وإذا عاش ظافراً فذلك خير عَجَّلَهُ الله له ، والآخرة خير وأبقى .

ولا تنس براعة القواد وحسن تديرهم . فإن أولئك القواد الذين قاموا بهذه الفتوح قد أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم في مثل حالهم ، وإن أمثالهم في تاريخ الشرق قليل .

أما خالد فكان واسطة عقد هؤلاء القواد ، وزينة تاريخ أبي بكر . وباتهاء وقعة اليرموك تمت الأعمال الكبرى التي قامت بين دولة الإسلام في مقابلة دولتي الفرس والروم في عهد أبي بكر . وإنما عددنا اليرموك من الأعمال في عهد أبي بكر لأنها بدأت ونهأت في زمنه ، وبعمله ، وإن كان تمامها في عهد عمر . وإن الأعمال الكبرى التي تمت في هذا التاريخ القصير الذي لم يمتد إلى أكثر من سنتين وأربعة أشهر — وهي مدة خلافة أبي بكر — تشهد بأن الرجل كان صادق العزيمة قوى الإرادة كبير الهمة ؛ لأنه لا يحمل العظيم من الأمور ويستقل به لا العظيم .

إدارة البلاد في عهد أبي بكر

لم يكن للمسلمين بلاد في عهد أبي بكر سوى شبه جزيرة العرب ، وهي التي كانت تابعة للإدارة الإسلامية نهائياً . وقد كان أبو بكر جزأها إلى ولايات ، وجعل على كل ولاية أميراً من قبله ، وكان الأمير يقيم الصلاة ويقضى في القضايا ويقيم الحدود . فكان أميراً وقاضياً ومنفذاً يقوم بعمل الشرطة ، ولم يول أبو بكر قضاة يتولون القضاء دون الأمرأ . وهذه ولاية الجزيرة وولاياتها لعهده :

(١) مكة : وأميرها عتاب بن أسيد ، وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر مدة أبى بكر .

(٢) الطائف : وأميرها عثمان بن أبى العاص ، ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقره أبو بكر .

(٣) صنعاء : وأميرها المهاجر بن أبى أمية ، وهو الذى فتحها وولها بعد انتهاء أمر الردة .

(٤) حضرموت : ووالها زياد بن لبيد .

(٥) خولان : ووالها بعل بن أمية .

(٦) زُبَيْدٌ وَرَمَعٌ : ووالهما أبو موسى الأشعرى .

(٧) الجَنْدُ : وأميرها معاذ بن جبل ، وبها مسجد من بناء معاذ ، وقد كانت العرب تحج بمسجد الجَنْد قبل الإسلام .

(٨) نجران : ووالها جرير بن عبد الله .

(٩) جرش : ووالها عبد الله بن ثور .

(١٠) البحرين : ووالها الهلاء بن الحضرمي .

أما العراق والشام فكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها ، ولم يكن أمر التولية فى نواحيها راجعاً إلى أبى بكر . بل كان كل أمير يولى واحداً من قبله على الناحية التى فتحها ليكون نائباً عنه فيها ، ولم يكن الأمر قد استقر فى تلك النواحي استقراراً نهائياً .

ولم يتخذ أبو بكر وزيراً ، وإنما كان عمر يلى له القضاء بالمدينة ولم يكن قاضياً . وكان أبو عبيدة أميناً على بيت المال قبل أن يسير إلى الشام .

ولم يتخذ أبو بكر كاتباً بعينه ، بل كان يكتب له زيد بن ثابت ، وكان يكتب له الأخبار عثمان بن عفان ، وكان يكتب له من حضر كعلى وغيره .

جمع القرآن

وفي عهد أبي بكر جمع القرآن . وذلك أن القتل قد استحرّ في القراء في حروب اليمامة وأهل الردة . فرأى عمر أن يجمع القرآن في مصحف خشية أن يهلك الحفاظ فيضيع القرآن ، فلم يزل بأبي بكر حتى رضى بذلك ، فدعا زيد بن ثابت فلم يزل به أبو بكر حتى رضى ، وهو الذى قام بجمع القرآن . أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال : « أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، إلا أن يجمعه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن . »

« قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ! فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك شاب عاقل ولا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فأجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل على مما كلفنى به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبي بكر وعمر . فتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والأكتاف ، والانس ، وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمه بن ثابت لم أجدهما مع غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها . »

وسنذكر عند الكلام على عثمان أنه هو الذي استنسخ المصاحف وفرقها في الأمصار ، وكان القرآن قبل ذلك محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة .

رزق الخليفة

كان أبو بكر يرتزق من استغلال ملكه وعمل يده . وقد ظل مدة ستة أشهر بعد خلافته وهو على حاله تملك ، لا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً ، فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق . فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فن أين أطعم عيالي ؟ فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة (أمين بيت المال) فلما ذهب إليه ، قال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف إذا أحلقت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن . أخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب .

وقال الطبري : قالت عائشة : كان منزل أبي بالسُّنح عند زوجته حبيبة ابنة خارجة ، وكان قد حجّر عليه حُجْرَةٌ من سَعَفٍ ، فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة فأقام هناك بالسُّنح بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجله إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشق فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسُّنح . فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب . فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيُجْمَعُ بالباس . وكان رجلاً تاجراً . فكان يغدو كل يوم إلى السوق يبيع ويتاع . وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم . فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى :

اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعهما أبو بكر فقال : بلى ، لعمري لأحلبنها لكم وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خُلُقِ كنت عليه . فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحى : يا جارية أتجبن أن أرغى لك أو أصرِّح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرح ، فأى ذلك قالته فعل . فمكث كذلك بالسَّنح ستة أشهر ، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها . ونظر فى أمره فقال : لا والله لا تصلح أمور الناس على التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم . ولا بد لعلالى بما يصلحهم . فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر . وكان الذى فرضوا له فى كل سنة ستة آلاف درهم ، فلما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً . وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم . فدفع ذلك إلى عمر ولقوحا وعبدا صيقلاً وقطيفة ما تساوى خمسة دراهم . فقال عمر : لقد أتعب من بعده .

وروى عن عائشة أنها دخلت على أبيها فى مرضه الذى توفى فيه وطلبت إليه أن يعهد بالأمر وهى حزينة كثيفة . فرفع رأسه وقال : أى أمه هذا يوم يُمنى لى عن غطائى وأشاهد جزائى : إن فرحاً فدائم ، وإن ترحاً فمقيم . لى اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص لإضاعة ، والحذل تفريطاً . فشبهى الله ما كان يقبلى إياه ، فتبلغت بصفحتهم وتعللت بدرة لقمحتهم . فأقت صلاتى معهم لا محتالاً أشراً ، ولا متكاثراً بطراً . لم أعدُ سد الجوعة وورى العورة وقواته القوام^(١) . حاضرى الله من طوى مُمعض تهفو منه الأحشاء وتجب له الأمعاء ، فاضطرت إلى ذلك اضطرار المريض إلى الميعف الأجن . فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم وعبدى ولقمحتهم ورحام ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الأرض ، كان حشوها قطع السعف اه .

(١) القوام : ما يعاش به .

وكان أبا بكر يرى أنه ليس له حق في أن يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ، فلهذا أوصى بأرمنه للمسلمين في نظير ما أخذ من أموالهم .

ومناقب أبي بكر كثيرة . منها قول النبي صلى الله عليه وسلم « مدعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كربة غير أبي بكر » . وقد شهد له بالجنة وبعثته من النار . وأخبر بخلافته تعريضاً لانصافه بقوله لامرأة « إن لم تجدني فإنك تجدني أبا بكر » . وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتق سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون في الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزنيرة ، والنهدية ، وابنها ، وجارية بنى مؤمل ، وأم عيسى . وكان بيت المال معه في داره . ولما فتح بيت المال بعد وفاته لم يجدوا فيه درهما ولا ديناراً إلا ديناراً واحداً سقط من غراره .

وقال أبو صالح الغفاري : كان عمر يتعهد امرأة عمياء بالمدينة بالليل فيقوم بأمرها ، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه ، فرصده فإذا هو أبو بكر وهو خليفة وقيل : إن زوجته اشتدت حلوا ، فقال لها : ليس لنا ما نشتري به . فقالت : أنا استفضل من نفقتنا عدة أيام ما نشتري به . قال : افعل . ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفت ذلك ليشتري به حلواً أخذه فرده إلى بيت المال وقال : هذا يفضل عن قوتنا . وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه من بيت المال من ملك كان له .

وهو أول من سمي ما كتب فيه القرآن مصحفاً ، وأول من فرض له رعيته نفقة ، وأول من سمي خليفة ، وأول خليفة ولي وأبوه حي .

كان يسوى في قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . من ابن الأثير .

أرزاق الجند

كان جند المسلمين في عهد أبي بكر متطوعين لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً ، وإنما ينفقون من أموالهم ابتداء ثم مما يصيرون من الغنائم فإن المقاتلة

لهم أربعة أخماس الغنيمة سوى ما يناله القاتل من سلب القتل . وكان الأمير ينفل أهل البلاء الممتازين بالغناء في الحرب والضراوة على العدو . ولقد كانت الغنائم في العراق والروم مما يغري المخلفين باللاحاق بإخوانهم، لأنها كانت شيئاً كثيراً لا عهد لهم به . وحسبنا من ذلك خطبة خالد التي أغرام فيها على العراق وافتتاحه وحيازته دون فارس ، وأن الأمر لو لم يكن ديناً ولم يكن إلا المعاش لكان في الحق أن يجالدوهم على ما في أيديهم . وقد كان أبو بكر يسوي في العطاء بين الناس ولا يميز أحداً عن أحد ، فقيل له : كيف تسوي بالسابقين الأولين غيرهم ؟ فقال : أولئك قوم عملوا لأنفسهم وسبقوا إلى الدخول في الدين ابتغاء مرضاة الله فوق أجرهم على الله . أما أنا فلا أفضل أحداً على أحد . وعذره في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان يفاضل بين الناس في العطاء ، لأنه كان أعلم بوجوه المصلحة ، وأجر العطاء مردود إليه يصنع فيه ما شاء ، والناس يرضون منه بكل ما يحى به ، فإذا حرم أحداً من أهل البلاد رجع وهو راض مكتفياً برضا الله ورسوله عنه . وليس لأبي بكر ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم ، وصدقات المسلمين ، وجزية أهل الذمة ؛ وذلك كله مادة الخلافة يرزق الخليفة منها العمال ، ويعين منها المجاهدين في سبيل الله ، ويفض ما بقي على أهلها المعينين في كتاب الله تعالى .

وفاة أبي بكر

مرض أبو بكر بالحمى لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . ومكث محمواً ١٥ يوماً ، وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ م) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالي ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يميل عنه قليلاً إلى الجهة الشرقية .

انتخاب عمر للخلافة

لما اشتدَّ على أبي بكر مرضه ، وأحس بدنو أجله ، خاف على المسلمين أن ينتشر أمرهم وتنحلَّ عقدة اجتماعهم بتنازعهم سبل الخلافة . وقد رأى الناس يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انقسموا ففتن كل منهما يجذب الخلافة إلى حيزه — فكان ذلك حادياً له على النظر للمسلمين والاحتياط لاجتماع كلمتهم ، ولم يشعله ما هو فيه عن النظر في مصلحتهم من بعده وجمع كلمتهم ، ولو أن أبا بكر ترك مركز الخلافة شاغراً لكان للنصارى عليها مجال ، ولشغل المسلمون عن أعدائهم بأنفسهم ، ولكان وجه التاريخ تغير عما هو عليه اليوم ، ولكانت فتنة القوم بالخلافة أنكى وأشد من فتنة الردة ، ولعادت فتنة الردة جذعة واتسع الفتق على الراتق ..

أدار أبو بكر عينه في أصحابه يتخير منهم لهذا المنصب رجلاً يكون شديداً في غير عنف ، ليناً في غير ضعف ، فوجد كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يجب . غير أن عمر كان أفضلهم في نفسه ، وأقربهم إلى الصفة التي يجب أن يكون عليها خليفة المسلمين . وكذلك كان عمر في نفوس من استشارهم أبو بكر في أمر الخلافة ومن يليها .

يقول صاحب أشهر مشاهير الإسلام رحمه الله ، « ومن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، إلا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى في طريقه عقبة فيدور إليه ، والثاني يرى الاستقامة فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو إلى الشدة أميل منه إلى اللين » .

أقول : إن ما ذكره حضرة الفاضل في وصف الرجلين صحيح ، غير أن عدول أبي بكر عن علي إلى عمر لم يكن سببه ما ذكره فحسب . والذي أعتقد أن تراث علي في بيعة أبي بكر واحتجاجه على أحقيته للأمر بقرايته من رسول الله

صلى الله عليه وسلم هو الذى حدا بأبى بكر إلى العدول عنه إلى غيره ؛ لأنه خشى أن يجعلها ميراثاً للأعقاب على نظام الأرستقراطية ، فى حين أن أبا بكر كان يراها غير خاصة ببنى هاشم كما يرى على . بل قد صرح بأنه كان يود : أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الانصار: هل لهم فى هذا الأمر شيء حتى لا يكون قد غلبهم يوم السقيفة بأن كان ألحن منهم بحجته . فهو يود أن لو كان استبرأ لنفسه . ومن كانت هذه حاله كان أحرص على إبعادها عن يراها تراثاً وطعمة لأهله خاصة . هذا هو الذى أظنه سبباً لما ذكر .

عزم أبو بكر على اختيار عمر . وأحب أن يستوثق للأمر وبوطن أصحاب رسول الله وأهل السابقة على هذا الأمر حتى لا يكون فى نفس أحد منهم حفيظة ، ولئلا يكون قد استخلف عليهم من لا يرضونه . فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب . فقال : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى . فقال : وإن . فقال عبد الرحمن : هو أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه . ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرنى عن عمر . فقال أنت أخبرنا به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ، أخبرنى عن عمر . فقال : اللهم علمنى به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . فقال أبو بكر : رحمك الله أبا عبد الله . لا تذكر بما ذكرت لك شيئاً . قال : أفعل . فقال له أبو بكر : لو تركته ماعدوتك وما أدرى لعله تاركه ، والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئاً ، ولوددت أنى كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم . وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضى ويسخط للسخط ، الذى يسر خير من الذى يعلن ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه . واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والانصار فكلهم قال خيراً وأثنى عليه .

ولما تهاى لأبى بكر ما أراد دعا عثمان بن عفان فأملى عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين
أما بعد، ثم أغشى عليه فكتب عثمان : « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب
ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ على . فقرأ عليه فكبر أبو بكر
وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتتحت في غشيتي . قال : نعم . قال :
جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله . وأقرأها أبو بكر من هذا الموضع .

قال الطبري : ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس بمسكته . فقال
لهم : أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ إني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا
وليت ذا قرابة . وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا .
فقالوا : سمعنا وأطعنا .

ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فقال : إني مستخلفك من بعدى وموصيك
بمقوى الله . إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ،
وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه
يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه
إلا الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم
الباطل وخففت عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً .
إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا
ذكرتهم قلت : إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم
بأسوأ حالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني لأرجو أن لا أكون
من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى
على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب
أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض
إليك من الموت ولست بمعجزه .

ولما خرج عمر من عنده رفع يديه وقال : اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم
وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً فوليت

عليهم خيرهم ، وأقوامهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ما حضر ، فاخلقنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته .

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م) .

ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب من بنى لؤى . وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة . ولد لثلاث عشرة سنة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان عمر ذا شهامة ونجدة وجرأة وشجاعة . وكانت الشجاعة الأدبية أخص أوصافه لا يحاف فى الحق لومة لائم ، ولا يقر على كتمانها ولا يعطى هواة فى باطل يعتقد بطلانه .

كان عمر فى صغره يرعى على أبيه غنمه ويضم إليهن غنيمات لحالات له . وقد روى ابن عساکر بسنده : أن عمر مر بصحنان (اسم مكان) فقال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً . فكنت أرعى أحياناً وأحطب أحياناً فأصبحت أضرب الناس ليس فوقى أحد إلا رب العالمين . ثم قال :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى إلا لله ويودى المال والولد

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة فى ماله وكان يذهب أحياناً إلى الشام متجراً . وقد روى ابن عساکر : أن بطريقاً أسره بالشام واستعمله فى بعض عمله فتغفله عمر وقتله وخرج هارباً من الشام . ولم يكن لعمر وفر من المال ، بل كان مقلداً من ذلك وحرفته التجارة فى الجاهلية والإسلام إلى أن ولى الخلافة .

كان عمر عزيز الجانب فى قومه مشهوراً بالشدة ، وصدق العزيمة وقوة الشكيمة ، وكانت سنه حين البعثة سبعا وعشرين سنة . ولم يكن قد أشرق نور الإيمان على قلبه فكان ينال المسلمين بالأذى .

كان رسول الله في مبدأ أمره يتمنى أن يكون له بين المسلمين رجل له عز وشرف وصدق عزيزة يكفكف عنهم المشركين ويكون للمسلمين ردماً من الأذى ؛ ويرى أن قريع هذه الصفات إنما هو عمر بن الخطاب ، وعمر بن هشام ، فكان يدعو الله أن يعز الإسلام بأحدهما ، فاستجاب الله له في عمر .

ذكر في أسد الغابة بسنده قال : قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي ؟ قلنا نعم . قال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة ، إذ لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك ، قلت : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت ، قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ، وبصبيان من طعامه . وكان قد ضم إلى زوج أختي رجلين . قال : فجئت حتى قرعت الباب . فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب . قال : وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم ، فقامت المرأة ففتحت لي ، فقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغني أنك صبوت . قال : فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به ، فسال الدم ، فلما رأت المرأة الدم بكيت ، ثم قالت : يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل ، فقد أسلست . قال : فدخلت وأنا مُنْفَضَّة ، فجلست على السرير ، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت ، فقلت : ما هذا الكتاب أعطيتني ، فقالت : لا أعطيك ، لست من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر ، وهذا لا يمس إلا المطهرون ؛ قال : فلم أزل بها حتى أعطتني . فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ، ذعرت ورعيت بالصحيفة من يدي ، ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) قال فكلمنا مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم تراجعت إلى نفسي حتى إذا بلغت (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)

(م - ٨ الخلافة)

حتى بلغت إلى قوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ قال : فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني ، وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا : يا بن الخطاب ، أبشر فإن رسول الله دعا يوم الإثنين فقال : « اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين : إما عمرو بن هشام ، وإما عمر بن الخطاب ، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك الخ . وقد قدمنا فيما سبق نحو هذا مع اختلاف يسير .

ولما أعلن عمر إسلامه في قريش اشتد الأمر على القوم وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاص بن وائل السهمي ، وناله ما كان يناله المسلمون من الأذى غير أنهم لم يبلغوا به مبلغهم .

ولما كانت الهجرة كان الناس يخرجون متسللين لا يعلم بخروجهم أحد حتى لا تمنعهم قريش . أما عمر فأعلن أنه مهاجر وقال : « من أراد أن تشككته أمه وتأييم عرسه فليقتني خلف هذا الوادي ، ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد .

وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها . وكان موفق الزاوي ، ملهماً بالصواب ، وكثيراً ما كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر ثم ينزل القرآن موافقاً لما أشار به ، وكان هو وأبو بكر بمنزلة وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته حفصة ، وله مقامات حسان في الحذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه ، والشدة على من ناوأه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فهو عمر » .

ومن مقاماته المحموده في الإسلام يوم السقيفة حين اختلفت الآراء وخشى أن يتفرق أمر المسلمين وتشتب نار الفتن فأخذها بالمبادرة إلى مبايعة أبي بكر فكان عمله هذا سبباً لنجاة المسلمين من أكبر كارثة كانت تحمل بهم لولا يمن نقيبته وصحة نظره بعد معونة الله تعالى . وقد كان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يؤزره ويعينه ويشير عليه ، وكان أبو بكر يحيل عليه النظر فيما يرفع إليه من القضايا بالمدينة ، فكان قاضياً له وإن لم يتسم باسم قاض .

أول خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التي اعتزم أن يسوس بها الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله :

« إنما مثل العرب كمثل جبل آتف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده .
أما أنا فو رب الكعبة لأحملنكم على الطريق ، » .

والجبل الآتف : هو الجبل الذلول المواتي الذي يأنف من الزحر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً . وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعنده فإنها كانت سامعة مطوعة إذا أمرت ائتمرت ، وإذا نهيت انتهت . ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها فإنه يجب عليه أن يرتادها ويصدر في شأنها بعقل ، ويورد بتمييز حتى لا يورطها في خطر ، ولا يُقحمها في مهلكة ، ولا يهمل شأنها إهمالاً يكون من ورائه البطر . وقد أراد بالطريق . الطريق الأقوم الذي لا عوج فيه . وقد برّ بما أقسم به .

فتح فارس وما كان بعد خالد

رحل خالد عن العراق كما أمره أبو بكر وشيخه المثني ثم قال له خالد : ارجع إلى سلطانك غير مقصر ولا وان . وقد استقام أمر فارس على رأس سنة من مقدم خالد على شهر براز بن أردشير بن شهریار ، فوجه إلى المثني جنداً كشيفاً بقيادة هرمز جاذويه ومعهم فيل . وكتبت المسالحي إلى المثني بإقبال ذلك الجيش ، فخرج المثني من الخيرة للقاء الجيش وضم إليه مسالحيه وجعل على مُحَنَّبَتَيْه أخويه : المعنئ ومسعودا وأقام بيا بل . وأقبل هرمز وعلى مجنبيه الكوكبذ والخوكبذ . وقد كتب شهر براز إلى المثني كتاباً يقول فيه :

« إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس . إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم ، فأجابه المثنى : إنما أنت أحد رجلين إما باغ فذلك شرٌّ لك . وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك . وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم فالحمد لله الذي ردّ كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنازير ، فجزع الفرس لذلك وقالوا لملكهم : جرات علينا عدوتنا بالذي كتبت به إليهم ، فإذا كاتبنا أحداً فاستشر .

التقت جموع الفرس وجموع المسلمين بيا بل بعدوة الصّراة الدنيا وتقاتلوا قتالا شديداً . ثم إن المثنى قصد الفيل في جمع من المسلمين وكان يفرق بين الصفوف والكراديس فأصابوا مقتلة فانهزم الفرس وتبع المسلمون فلتهم حتى جازوا بهم مسالحهم وهم يقتلون ويأسرون فيهم حتى انهزموا إلى المدائن .

وقد رأى المثنى أن الفرس غير تاركيه ولا بدّ لهم من مناجزته بجنود لا قبل له بهم ، فخف إلى المدينة ليخبر أبا بكر بالمسلمين وما تمّ لهم وما يتوقعون ويستأذنه في الاستعانة بأهل الردّة ممن قد ظهرت توبته وندمه ، وكان المثنى قد خلف على من كان معه بشير بن الخصاصة ، ووافق انصراف المثنى إلى المدينة اضطراب الفرس في شأن ملكهم ، فشغلهم ذلك عن المثنى وجيشه إلى أن عاد من وجهه ذاك .

ولما قدم المثنى على أبي بكر وجده قد اشتدّ به المرض ، فلما أخبره الخبر قال علىّ بعمر ، فلما حضره قال : إني لأرجو أن أموت في يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تُنمّنين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ؛ وقد رأيته متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ، والله لو أنى آبى عن أمر الله ورسوله لخذلنا ولما قَبِنا فاضطربت المدينة ناراً . وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم .

فلما فرغ عمر من أبي بكر ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر، ثم أصبح فبايع الناس . ولما فرغ من أمر البيعة عاد فندب الناس إلى فارس .

كان الناس قد وقر في نفوسهم عظم ملك الفرس وقوة شوكتهم وظفرهم في الحروب في الجاهلية ، فكان حرب الفرس أثقل شيء على نفوسهم فاشتاقوا فلم ينتدب أحد لذلك الوجه ، وما زال عمر يندب الناس إلى اليوم الرابع ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وسعد بن عبيد الأنصاري ، ثم تابع الناس بعد ذلك وتكلم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شئ السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها . وقام عمر فقال : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النخعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه وممزه ناصره ومولى أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ؟

فكان بعد ذلك انتداب أبي عبيد . ثم ثنى سعد بن عبيد أو سليط بن قيس . لما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر : أُمِّر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الأنصار فقال : والله لا أفعل إن الله إنما رفعكم بسيفكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جَبَنْتُمْ وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أُمِّر عليهم إلا أوَّلهم انتداباً . ثم دعا أبا عبيد وسليطاً وسعداً فقال : أما إنكما لو سقتهاه لوليتكما ولأدركتما بها إلى مالكما من القُدْمة . فأُمِّر أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشرِكهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف .

عجل المثنى إلى عسكره وأبو عبيد بمن معه ، وكأوا خمسة آلاف ، في أثره

وصار أبو عبيد يستنفر من يمرّ به من العرب لقتال الفرس فأجابه بشر كثير وقد وصل المثنى إلى الحيرة في عشر ليال وجاء أبو عبيد بعده بشهر .

التمارق

كانت الفرس مشغولة عن المسلمين بموت شهر براز وصارت تولى وتعزل إلى أن عاد المثنى من المدينة إلى الحيرة ، وكان الفرس قد ولوا رُسْتَمُ أمر حرب المسلمين فكتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودسّ في كل رُسْتَأَق رجلاً ليثور بأهله ، فبعث جابان إلى اليهقباذ الأسفل ، وبعث نَرْسِي فَنَزَلَ زَنْدَوَرْد وثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله - فضمّ المثنى مسالحه وحذر . وعجل جابان فنزل التمارق ونزل المثنى بِحَقَّان حتى لا يقطع عليه خط الرجعة إلى أن قدم عليه أبو عبيد ونزل حتى جمّ الناس وما معهم من الظهر ، ثم تعباً ونزل على جيش جابان بالتمارق فاقتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت الفرس وأسر جابان ومردان شاه - فأما أسر مردان شاه فقتله ، وأما أسر جابان فقد خدعه جابان فقال له : إنكم معاشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا ؟ قال : نعم . قال : فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه . ففعل . وأجاز أبو عبيد أمانه . ولما علم بنو تميم أنه الرئيس قالوا لآبي عبيد اقتله . قال : ماتروني فاعلا معاشر ربيعة^(١) ؟ أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا ؟ معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم . وكان أسره مَطَر بن فضة التميمي .

قسم أبو عبيد الغنائم وبعث بالْخُس إلى عمر ثم نادى بالرحيل إلى كسكر حيث ينزل نَرْسِي وهو ابن خالة كسرى . وكسكر قطيعة له وقد ضوى إليه فل جيش جابان وقد وجه إليه رستم وبوران بجيش على رأسه الجالانوس حين بلغهما هزيمة جيش جابان ، فرجا نرسى ومن معه أن يدركه المدد قبل منازلة المسلمين له . ولكن أبا عبيد عاجلهم وكان المثنى على تعيينه التي لقي بها جابان فاقتلوا أسفل من كسكر بمكان يقال له : السقاطية قتالاً شديداً فانهزمت الفرس وفر نرسى

(١) كذا في ابن الأثير ، ولعل صحتها مضر لأن أسره تميمي وهم من مضر لامن ربيعة .

وغلب على عسكره وأرضه ، وأخرب أبو عبيد ما كان حول عسكرهم من كسكر
وجمع الغنائم ، فوجد من الأطعمة شيئاً كثيراً وأخذت خزائن زسى فلم يكونوا
بشيء مما في خزائنه أفرح منهم بالنرسيان لأنه كان يحميمه . لا يأكله بشر ولا
يغرسه سواه وأهل بيته أو ملك الفرس ، فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين ،
وبعثوا بخمسه إلى عمر وكتبوا : إن الله أطعمنا مطاعم الأكامرة يحمونها
وأحيينا أن تروها لتذكروا أنعام الله وأفضاله .

وأقام أبو عبيد بكسكر وسرح المثنى وغيره من القواد يغيرون على النواحي
ويفلون عمائب الجنود التي كانت متفرقة هناك ، وصالحه أهل بعض تلك
النواحي ، وجاء فروخ وفرّاونداذ من أهل الصلح إلى أبي عبيد بآنية فيها أطعمة
فارس من الألوان والأخصة وغيرها فقالوا : هذه كرامة أكرمناك قري لك .
قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون . قال :
لا حاجة لنا في ما لا يسع الجند ، وقدم إليه آخرون مثل ذلك ، فأبى وقال : بنس
المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دمهم دونه أو لم يهريقوا
فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ؛ لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل
ما يأكل أوساطهم .

وقعة الجسر

جاء خبر الهزيمة إلى رستم فجهر جيشاً آخر عظيماً وعليه بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس وهي المسماة درفش كايان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر ذراعاً من جلود النمر . وأقبل أبو عبيد ونزل المروحة ، موضع البرج والعاقول ، فبعث إليه بهمن : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما تخلوا بيننا وبين العبور . فقال من مع أبي عبيد : دعهم يعبرون إلينا فأبى ولج وقال : لا يكونون أجراً على الموت منا . فعبروا على جسر نصبوه في مكان ضيق المطرد والمذهب فاقتتلوا يوماً ، حتى إذا كان آخر النهار واستبطأ رجل من ثقيف الفتح ألف بين الناس فتصافحوا بالسيوف وقصد أبو عبيد الفيل وضربه فخط الفيل أبا عبيد وقد أسرعت السيوف في أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف . فلما خبط أبو عبيد انهزم المسلمون وتموا على هزيمتهم وعمد رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه . فانهى الناس إلى الجسر والسيوف تأخذهم من خلفهم قهافتوا في الفرات فأصيب من المسلمين أربعة آلاف من بين غريق وقتيل . وقام المثنى من خلف الناس في أهل النجدة يحمون ظهورهم ويدافعون عنهم حتى أصاح الجسر وعبر الناس ثم عبر بمن معه إلى المروحة وهو جريح ومعه عدد من حماة الناس جرحى وهذه عاقبة اللجاج والمجازفة في الحرب

كان المثنى قد نصح لأبي عبيد وقال له : إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جرموا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفتن سرك ، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصص لا يؤتى من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة .

هرب من الناس نشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا

عما نزل بهم وبلغ عمر من بعض من آوى إلى المدينة فلم يعنف الفارين وخفف عنهم مصابهم وقال : عباد الله اللهم إن كل مسلم في حلّ مني ، أنا فئة كل مسلم . يرحم الله أبا عبيد : لو كان عبر فاعتصم أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكننا له فئة .

أراد أهل فارس العور للمسلمين لما رأوا من قتلهم وضعفهم بمن قتل منهم أو شرد وأحبوا أن يستأصلوهم . فدهمهم خبر أهمهم وصرفهم عن نيتهم . وهو أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه فصاروا فرقتين : الفهلوج على رستم ، وأهل فارس على الفيرزان . وقد كان بين وقعة اليرموك ووقعة الجسر أربعون يوماً .

وقد أخطأ أبو عبيد رحمه الله في عبور النهر ومخالفته أصحابه ، وقد أمره عمر بأن يستشيرهم وينتهي إلى رأيهم وهم أصحاب رسول الله وبخاصة سليط ابن عمرو ، ولم يسمع نصيحة المثني وهو رجل قد خرجته الوقائع وزاده علماً ما رآه من خالد إذ كان معه . وخطأ ثان ما صنعه مرئد الثقفي من قطع الجسر على الناس ، فإن العدو لم يحدث بهم من المكايه ما أحدثه فيهم بعمله ، فكان الصديق الجاهل ، ولا ينفعه اعتذاره بأنه أراد أن يقاتل الناس على ما قاتل عليه أمراؤهم ، فإن لكل مقام مقالاً ومثل هذا القول لا يصلح في وقت الجولة . وإنما يقال للقوم وصفوفهم ثابتة وآذاهم مصغية وهم في سعة من التدبر وإجالة الرأي ، فأما وقت الهزيمة فلا كلام .

البويب

إن وقعة الحسر قد أكلت جيش المسلمين وعلم عمر أن ليس بالقوم امتناع ولا قوة إذا نازلهم العدو فشرع يبعث الإمداد إلى المثني منهم حرير بن عبد الله البجلي في بجيلة وعصمة بن الحارث فيمن تبعه من قومه بني ضة . وكتب

إلى أهل الردّة ولم يوافه في شعبان أحد إلا رمى به المثنى فتوافى المنجدون إليه في جمع عظيم . وبلغ رستم والفيرزان ما عليه المثنى وما ينتظر من المدد . فاجتمعوا على أن يبعثا مهران الهمداني إلى الحيرة . وعلم المثنى خفّة إلى البويب لموعد من كان بالحيرة من المسلمين وخرجوا منها حين علموا بجند مهران وقد توافت جنود المثنى ومددهم إلى ذلك المكان مما يلي موضع الكوفة وبينه وبين مهران النهر . فكاتبه مهران يخبره في العبور ولكن المثنى رأى العبرة في أبي عبيد وجيشه فلم يرض أن يكون هو الذي يعبر . فعبر مهران بجنوده وكان ذلك في رمضان . فنادى المثنى انهضوا لعدوّكم . وكان قد عبأ جيشه تعبئة خالدية . وخطب المثنى في المسلمين فقال : إنكم قوم صوام والصوم مرقّة مضعفة ، وإنى أرى من رأى أن تفطروا ثم تقوّوا بالطعام على قتال عدوّكم فأفطروا . ورأى رجلا يستوفر ويستقتل من كردوسه فقال : ما شأنه ؟ قالوا : قد فرّ يوم الجسر ويريد أن يستقتل ، فقرعه بالرمح وقال : لا أبالك الزم موقعك فإذا أذاك قرّئك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل . قال : إنى بذلك لجدير . واستقرّ ولزم الصفّ . وسار المثنى على الرايات يقف بها راية راية يحضهم ويأمرهم بأمره ويهزم بأحسن ما فيهم ويقول لكل قوم : إنى لأرجو أن لا تؤثى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو بسرّى لعامتكم . فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم المثنى في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحجوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولا أو عملا . وقال : إذا كبرت الرابعة فاحملوا فأعجلهم أهل فارس عند التكبيرة الأولى وحمى القتال بين الفريقين واشتد فعمد المثنى إلى أنس بن هلال وقال له : إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على دينى فإذا رأيته حملت على مهران فاحمل معى . وذمر قوما معه وأوصى القوّاد بأمره وبأن لا يزالوا أمكنتهم لئلا ينكشف الجيش وحمل المثنى وخلط القوم وأوغل في صفوفهم وصبر المسلمون صبرا جميلا . ولم يزل المثنى يعمل ومن معه في قلب الفرس حتى أفاءه فقويّت مجنّبات المسلمين

على من يليهم وصار المثنى يذمرهم ويحضرهم حتى هزم الفرس وسبقهم المثنى إلى جسرهم فقطعه لثلا يعبره أحد منهم .

كان عمل المثنى هذا خطأ ، لأن القوم وإن كانت الهزيمة قد حقت عليهم في عدد كبير وقوة عظيمة إذا تنام قلوبهم في مكان ووجدوا من يقودهم وهم واجدون لا محالة ، عادت لهم قوتهم وثاب إليهم نشاطهم إلى القتال ويصيرون بعد ذلك كالشوكة في جنب جيش المسلمين .

قتل في هذه الواقعة مهران ، قتله بعض فتيان تغلب وكانوا مع المسلمين ، وتمت الهزيمة على الفرس بقتله ، وأخذ فل المنهزمين يصعد ويصوب إذ جلاهم المثنى عن الجسر وخيل المسلمين تتبعهم ويقتلون منهم فلم تكن وقعة من الوقائع أبقي رمة منها . وقد أصيب من حماة المسلمين عدد كبير بين قتل وجريح . وما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإخراجه العدو — قال : لقد عجزت عجرة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم ، فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فإنها كانت منى زلة . لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع .

ثم أرسل في أثر المنهزمين من اتبعهم حتى وصلوا إلى السيب — كورة من سواد الكوفة — بعد أن عقد لهم جسراً . وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس ، واستمكن المسلمون من الغارة في السواد وانتقضت مسالحي الفرس وتشتت أمرهم في تلك الحاجة واجترأ المسلمون عليهم وشنتوا الغارة عليهم فيما بين سورا وكسكر والصرارة والفلايج والاستانات . وقد قال عروة بن زيد الخيل في هذه الواقعة والطبرى ينسبها إلى الأعور الشنئ :

هاجت لعروة دار الحى أحزانا	واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع	إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم	فقتل القوم من رَجُل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته	حتى أبادهم مثنى ووحدا

ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب فى الحرب أشجع من ليث بخفانا
وقد كان عمر من أول أمره حريصا على تعرف حال المسلمين والوقوف
على ما عليه الجند من الشؤون . فكان يعهد إلى قوم من المسلمين بالكتاب
إليه بكل شؤونهم وأحوالهم حتى إذا رأى خللا أو خطلا بأمرهم بما يصلحهم
لا تأخذه فى ذلك هوادة — لأن الجند والرعية إنما يؤتون من قبل الإهمال
والاستهانة بالخلل حتى يقوى ضعفه ويعظم صغيره .

من ذلك أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند للإغارة على
صفين وبها النمر وتغلب على تساند . فأغار جند المسلمين على القوم حتى أقحموا
طائفة منهم فى الماء فاشدوهم أن يكفوا عنهم وينادوهم الغرق الغرق . وأخذ
عنية وفرات البكرىان وهما قائد الجند يذمران الناس ويناديانهم : تغريق
بتحريق يذكراهم بما كان من النمر وتغلب فى أيام الجاهلية إذ حرقوا قوما من
بكر بن وائل فى إحدى الغياض . وبعد أن فرغوا من أمر القوم رجعوا إلى
المثنى ، وقد كانت لعمر عيون فى كل جيش فكتب إليه العين بما قال عتبة وفرات
يوم بنى تغلب والنمر على صفين . فاستقدهما أمير المؤمنين وأخبراه بأنهما قالوا
ذلك على وجه أنه مثل وأنهما لم يقولوا ذلك على وجه طلب دحل الجاهلية
فاستحلفهما على ذلك فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام ،
فقبل منهما وصدقهما وردّهما إلى المثنى . فهكذا يكون حرص الأمراء على صيانة
أخلاق الرعية وحياطتها من تسرب الفساد إليها .

كان المثنى اتخذ دليلين : أحدهما أنبارى والآخر حيرى ، فدلّه الأنبارى على
الخنافس وكانت هذه السوق عظيمة يؤمها تجار فارس والسواد فاتهبها المثنى .
ثم قدم على سوق بغداد ، أسرى إليه من ليلته ثم صبح السوق فملا أصحابه أيديهم
من الذهب والفضة وحر المتاع و تفرق الناس عن بضائعهم وقتل من كانوا يخفرون

السوق من ربيعة وقضاة ، ثم عاد إلى معسكره ، وكانت عسكره تصوب وتصعد
ولا حامى للبلاد منهم .

ولما بلغ سويد بن قطبة العجلى ما أتبع للبثى بن حارثة من الظفر يوم مهران
أحب أن يكون له من الفخر ما للمثنى فكتب إلى عمر يخبره به من الناحية التي
هو فيها ويسأله أن يمدّه بجيش يغزو به الفرس في ذلك الوجه . فندب عمر لذلك
الوجه عتبة بن غزوان المازنى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره
على جيش فيه ألفا مقاتل من المسلمين وكتب إلى سويد بن قطبة يأمره بأن
ينضم إلى عتبة . وقد خرج عمر لتشجيع الجيش وأوصى عتبة فقال : « يا عتبة إن
إخوانك من المسلمين قد غلبوا على الحيرة وما يليها ، وعبرت خيلهم الفرات
حتى وطئت بابل مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين ، وإن خيلهم اليوم
تغنى حتى تشارف المدائن ، وقد بعثت في هذا الجيش فاقصد قصد أهل الأهواز
فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدّوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانكم الذين
هناك وقتلهم مما يلي الأبلّة ، فسار عتبة حتى أتى مكان البصرة ، ولم تكن
هناك يومئذ إلى الخريبة . وكانت منازل خربة وبها مسالح الفرس تمنع الأعراب
من العبث في تلك الناحية . وموضع البصرة إذ ذاك حجارة سود وحصى .
ثم سار حتى نزل على الأبلّة وافتتحها عنوة بعد قتال شديد وكتب إلى عمر رضى
الله عنه : « أما بعد ، فإن الله وله الحمد فتح علينا الأبلّة وهى مرقى سفن البحر
من عمان والبحرين وفارس والهند والصين . وأغنمنا ذهبهم وفضتهم وذرايرهم
وأنا كاتب إليك ببيان ذلك إن شاء الله ، »

ثم إن عتبة سار حتى أتى إلى المذار وأظهره الله على أهله ووقع مرزبانه
في يده ، فضرب عنقه وأخذ بزّته وفي منطقته الزمرد والياقوت وأرسل بذلك
إلى عمر . وقد تباشر المسلمون بذلك وأكبوا على رسول عتبة يسألونه

عن أهل البصرة (وكان ذلك ابتداء اختطاطها ونزول المسلمين بها) فقال :
لأنهم يهيلون الذهب بها هيلا فرغهم ذلك في القدوم إليها . وكان ذلك قبل
تمصير البصرة .

ثم خرج عتبة إلى فرات البصرة فافتتحها ثم إلى دست ميسان فافتتحها
بعد أن قاتل مرزبانها وقتله وهزم من بها من العجم ثم إلى ابرقباد فافتتحها
كذلك ثم عاد إلى مكانه من البصرة . وكاتب عمر يستأذنه في العود إلى المدينة
فأذن له . ثم أرسل بعده المغيرة بن شعبة بالبصرة مدة ثم استبدل به
أبا موسى الأشعري .

أمر القادسية

نظر الفرس فيما دهمهم من أمر العرب الذين يجوسون خلال ديارهم
ويفضون مسالحهم ويغيرون على أسواقهم ويحتوون متاجرهم وامتعهم وضيقوا
على فارس السبل في الوجه الذي هم فيه . فقالوا لرستم والفيروزان : ما تنتظرون
والله إلا أن يُنزل بنا ونهلك ، والله ما جرّ هذا الوهن علينا غيركم يا معشر
القواد ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، والله لولا أن
في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم بالقتل الساعة ، وإن لم تنتهوا لنهلككنكم ثم نهلك
وقد اشتفينا منكم وإنه لم يبلغ من خطركما أن تعزكا فارس على ما أتم عليه
وان تعرضاها للهلكة . ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله
لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت .

تفاوض الرجلان ومن معهما من وجوه فارس في الأمر وعلموا أن كلام
أهل فارس الذين كلهم حق وقالوا : إنما أتينا من تملك النساء علينا فقالوا
لبوران بنت كسرى — وكانت عدلا في فارس تلي ملكهم مدة الاختلاف
إلى أن يتفقا — اكتبينا لينا نساء كسرى وسراربه ونساء آل كسرى وسراربه
ففعلت وأرسلت إليهن فلم يبق منهن امرأة إلا أتوا بها فأخذوهن بالرجال

ووضعوا عليهم العذاب يستدلونهم على رجل من آل كسرى . فقلن لم يبق إلا ولد يدعى يزد جرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادُورِيَّا . فأتوا بها فدانهم عليه ، وكان ابن إحدى وعشرين سنة ، فاطمأت فارس واستوثقوا وملكوه عليهم وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته . فأخذ أمر القوم بعزيمة وهمة وجيش الجيوش وكتب الكتاب وسمى الجنود لكل مسلحة من المسالحي التي كانت لكسرى وسد الثغور وسير جنداً إلى الحيرة والأنبار .

علم المثنى علم القوم فكاتب عمر بشأنهم وما ينتظر من انتفاض من دان له بالطاعة ممن بين ظهرانيهم . فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى انتقض أهل السواد وكفروا من لم يكن في يده عهد ومن كان له عهد ، فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار وتنزل الناس بالطف حتى جاءهم كتاب عمر وفيه : « أما بعد ، فأخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه ، فإن أتى طائعاً وإلا حشرتموه . احلوا العرب على الجدل إذ جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم ، فأقام المثنى بمن معه بذي قار ونزل الناس بالخل وشراف إلى غضى . حبال البصرة ، فكانوا في أمواه العراق من أوّلها إلى آخرها مسلح بعضهم ينظر إلى بعض ويفيك بعضهم بعضاً إن كان كون ، وذلك في ذي القعدة سنة ١٣ هـ وكتب عمر — إلى عماله على الكور والقبائل — أن لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو راى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل ، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٣ هـ فلم يقفل من حجه حتى وافته الجنود من كل وجه وناحية . فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فقد اجتمعوا عليه بالمدينة ، وأما من كان على أكثر من نصف الطريق من المدينة فقد لحق بالمثنى .

والذين وافوا عمر أخبروه فيمن وراءهم بالحث وترادف ورود الجنود إلى أن جاء المحرم سنة ١٤ هـ فخرج عمر بمن اجتمع إليه إلى ماء يدعى صراز

على ثلاثة أميال من المدينة فعسكر به ولا يدرى الناس ما يصنع عمر ، يسير بهم أم يرجع إلى المدينة ويؤمر رجلا آخر . وقد رغب الناس في الوقوف على نيته .

كان الناس إذا أرادوا علم شيء من عمر فهابوا أن يسألوه رموه بعبد الرحمن بن عوف أو بعثمان بن عفان . وكانوا يدعون عثمان رديفاً — والعرب تقول ذلك للرجل يرجونه بعد رئيسهم — فإذا أعيا عليهما ذلك الأمر فزعوا إلى العباس بن عبد المطلب . فلما أرادوا معرفة نيته كلوا عثمان . فقال لعمر : ما تريد ؟ فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه . فأخبرهم الخبر وانتظر ما يشيرون به . فقال العامة : سر وسر بنا معك .

رأى عمر ذلك منهم والصواب في خلافه ، غير أنه لم يرد أن يخالفهم لأول أمرهم ، بل دخل في أمرهم إلى أن يخرجهم من ذلك الرأي برفق فقال : استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يحىء رأي هو أمثل من ذلك . ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب . فقال : أحضرونى الرأي فإنى سائر . فأجمع ملوهم على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقم عمر ويرميه بالجنود ، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فهو الذى يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجلا وندب جنداً آخر ، وفى ذلك ما يغيظ العدو ويقر عين المسلمين ويحىء نصر الله بإنجاز موعوده ، فنادى عمر : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس إليه وأرسل إلى على — كرم الله وجهه — وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه وعلى المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف ، فقام فى الناس فقال : إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم

ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم . يا أيها الناس ، إنى
لإنما كنت كرجل منكم حتى صرقتى ذوو الرأى منكم عن الخروج . فقد
رايت إن أقيم وأبعث رجلاً . وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت
(يريد علياً وطلحة) .

أخذ عمر في إجمالة الرأى في شأن من يتولى إمارة الجيش وقال : أشيروا
على برجل . وكان سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن وقد كتب إليه
عمر قبل ذلك بانتخاب ذوى النجدة والرأى والسلاح ، فجاء كتاب سعد إلى عمر
وهو يستشير الناس فيمن يبعثه . يقول فيه : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم
له نجدة ورأى وصاحب حيلة يحوط حريم قومه ، إليهم انتهت أحساب قومهم
ورأيهم . فلما قرأ عمر الكتاب قال القوم : قد وجدته . قال : من هو ؟ قالوا :
الأسد عادياً ، سعد ابن مالك . فأنهى عمر إلى قولهم وأحضره وأمره على
حرب العراق ووصاه فقال : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله
صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السىء بالسىء
ولكنه يمحو السىء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ،
فالناس في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون
ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه
ووصاه بالصبر ، وسرحه فيمن اجتمع إليه وهم أربعة آلاف . وكان في ذلك
الجيش حد الأمة العربية وجدها ونجدتها ورأيها . فإن عمر لم يدع رئيساً
ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا ذا نجدة ولا خطياً ولا شاعراً إلا رماهم به ،
فكانت حاشيتا الجيش تضمان وجوه الناس وغررم .

وقد أمر سعداً بالمسير وقال له : إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وهى رمال
بين الشعبية والخريرية على طريق الحاج إلى الكوفة . فلما نزل بها تفرق الجند
فيما حولها من أمواه تميم وأسد . وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفى ذلك
الوقت توفى المشنى ابن حارثة من جراحة كانت أصابته قبل ذلك .

وقد كان المثنى البادى بأمر فارس من تلقاء نفسه ، وكان فارساً مغواراً صاحب مكيدة وغناء في الحرب ، بصيراً بقيادة الجند ، شديد الخذر ، نافذ الرأي قوى الإرادة ، موثقاً في الحرب ، مظفرأ على العدو ، حريصاً على نصر الإسلام وظهور المسلمين على الفرس . فلما أحس بدنو أجله كتب وصيته إلى سعد بن أبي وقاص يبصره فيها بأمر العجم ويلقى إليه بزبدة الوقائع التي منحضها ونتيجة خبرته وتجاربه قبله . فأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم ، وإن تكن الأخرى فاموا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم . وهى وصية أنضجتها الخبرة وسبكتها التجربة .

سار سعد من زرود حتى نزل بشراف وأرسل المغيرة بن شعبة إلى ناحية الأبله من أرض العرب وكتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس ، فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس (اجعلوهم عشرة عشرة) وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعيبتهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واضم إليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب إلى بالذى يستقر عليه أمرهم . فأرسل سعد إلى المغيرة فانضم إليه ودعا برؤساء القبائل فأتوه . فقدر الناس وعبأهم بشراف وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الأمراء . وأمر على الرايات رجلاً من أهل السابقة . وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلاً من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحروب رجلاً فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها ومجرداتها وطلاتها ورجلها وركبانها .

فكان أمراء التعيبة يلون الأمير . ويليهام أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رموس القبائل ، ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعيبة ويأذن من عمر . وقد بعث عمر إليهم الأطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وجعل إليه الأقباض وقسمة النى . وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى

فلما فرغ سعد من تعبته وأعد لكل شيء من أمره مجّاعاً ورأساً كتب إلى عمر بذلك . وكان في تلك الأثناء — قبل إذن عمر في الارتحال إلى القادسية — قدوم المعنى بن حارثة وسلى بنت خصفة إلى سعد بوصية المثنى . وكان السبب في إبطائهما مع أمر المثنى لهما بالتعجل إلى سعد أن الأزاد مرّد بعث قابوس ابن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال : ادعُ العرب وأنت ملك على من أجابك كما كان آبؤك . فلما علم المعنى به أسرى إليه حتى بيته ومن معه فأنامهم فشغله ذلك عن الإسراع إلى سعد بزُرود فلما وقف سعد على الوصية ترحم عليه وولى المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً ، وتزوَّج سلمى بعد انقضاء عدتها . وكان في جيش سعد بضعة وسبعون بدرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين يعة الرضوان فما فوق ، وثلاثمائة ممن شهد الفتح ، وسبعائة من أبناء الصحابة من جميع أحياء العرب .

وكان كتاب عمر إلى سعد وهو بشراف : « أما بعد . فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله . واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً كثود لبحوره وفيوضه ودآذنه إلا أن توافقوا غيضاً من فيض . وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدموهم الشدة والضرب ، وإياكم والمناظرة بجموعهم ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم . وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية — وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول وهو منزل رغب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار مقنعة — فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراخ بينهما . ثم لزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنقضهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أتم صبرتم لعدوكم واحسبتم لقتاله

ونوئتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدياركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويردّ لكم الكرة .

وكتب إليه أيضاً باليوم الذي يرتحل فيه من شِراف — وكانت الكتب متواصلة مترادفة بين سعد وعمر رضي الله عنهما — .

وقد جاء إلى سعد كتاب عمر يقول له فيه : « واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم . فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأنني أنظر إليها . واجعلني من أمركم على الجلية » .

فكتب إليه سعد بصفة البلدان يقول . « القادسية بين الخندق والعقيق^(١) وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوفٍ لاج^(٢) إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحصّوس^(٣) يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق^(٤) والحيرة . وإن ما على يمين القادسية إلى الوجلة فيض من فيوض مياههم . وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السّواد قبليّ إنبّ لأهل فارس . قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رُستم في أمثال له منهم . فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعدّ ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية » .

(١) المحدث : حمير لسابور الملك بيرة الكوفة ، والعقيق : نهر

(٢) لاج : ضيق

(٣) الحصّوس كصور . نهر كان بين القادسية والحيرة .

(٤) الخورنق كفدوكس : قصر للثعمان الأكبر ، معرب خورنسكاه ، أى موضع الأكل .

فكتب إليه عمر : « قد جاءني كتابك وفهمته . فأقم بمكانك حتى يُنفض
الله لك عدوك واعلم أن لها ما بعدها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم
حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله ، ثم كتب إلى سعد : « إني قد
ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو وهزمتهم فاطرحوا الشك وآثروا الثقة
عليه فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرقه بإشارة أو بلسان
كان لا يدري إلا عجمي ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى
الأمان وإياكم والضحك والوفاء الوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ
بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم .
واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهمهم .

ولما نزل سعد عذيب الهجانات بثّ الغارات وكان من ذلك سرية فيها
الشماخ الشاعر القيسي في ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس وأميرهم بكير
ابن عبد الله الليثي وسرحهم في جوف الليل وأمرهم بالغارة على الحيرة فسروا
حتى جاوزوا السليحين وقطعوا جسرهما يريدون الحيرة فسمعوا جلبة فأحجموا
عن الإقدام وأقاموا كيناً فمرت بهم خيل تقدم تلك الغوغاء فتركوها فتفذت
الطريق . وإذا أخت أزاد مرّذ بن أزاذه مرزبان الحيرة تزفّ إلى صاحب
الصنّين وكان من أشراف العجم . فلما انقطعت الخيل عن الزواف والمسلمون
كمن في النخل وجازت بهم الأثقال حمل بكير على شير زاد بن أزاذه فقسم
صلبه وطارت الخيل على وجوهها . واحتوى المسلمون الأثقال وابنة الأزاذه
وثلاثين امرأة من نساء الدهاقين ومائة امرأة من التوابع وبما لا يدري قيمته
ثم عاجوا فصبحوا سعدا بعذيب الهجانات بما أفاء الله على المسلمين فكبر
المسلمون تكبيرة شديدة . فقال سعد : أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم
عرفت فيهم العزّ . ثم فصرّ الغنيمة في المجاهدين بعد أن نفل الخمس وأعطاهم
بقيته ، فوقع ذلك منهم موقعاً .

كان كثير من المسلمين يرحلون إلى الغزو بحريمهم وعيالاتهم وذرائعهم
فأنزل سعد حريمهم في حامية وأمر عليهم غالب بن عبد الله الليثي ونزل
سعد بالقادسية .

كانت الفرس تنظر إلى رستم نظر المستغيث إلى مغيثه وكانت العرب من حين
نزولهم إلى القادسية يثنون السرايا فتغير على النعم والدواب وكانوا في قرم إلى
اللحم أما الشعير والحنطة وما ينفع من الحب فقد كان عندهم من ذلك الحب
ما يغنيهم أياماً طويلة لولم يأتهم منه شيء ، وكانوا يسمون الأيام بأسماء ما يأتهم
من اللحمان كيوم الأباقر ويوم الحيتان . فلما تواترت منهم الإغارات في السواد
على دواب الفرس ومن معهم واغتنام مواشيهم ، كتب أهل السواد وعظما
فارس ممن كان له ملك بناحيتهم إلى يزدجرد وعجوا إليه بالشكوى من العرب
وما يعترضونهم به من النكبات قائلين : إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس
يشبه إلا الحرب وإن فعل العرب مذ نزلوها لا يبقى على شيء وقد أخرجوا
ما بينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك أنيس إلا في الحصون وقد ذهب الدواب
وكل شيء لم تحمله الحصون من الإطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا ، فإن أبطأ
عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا .

وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالظف وهيجوه على بعثة رستم .
أرسل يزدجرد إلى رستم فلما جاء قال له : إني أريد أن أوجهك في هذا
الوجه وإنما يعد للأمور على قدرها وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى
ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولي آل أردشير . فأراه أن قد قبل
منه وأثنى عليه .

إن اشتراك الملوك مع القواد في شؤونهم إذا كانوا غير مضطلعين بالحرب
عارفين بكل ما يلزم لها لا يعود إلا بالخسار . وهذه العادة الرديئة
قد خذلت قواداً من أحسن القواد خبرة وأغزهم علماً بالحرب وفنونها
ومكايدها . فكانت وبالا على الدول . ونحن لم نزل نسمع ما يقوله الخبراء عن

إدارة الحرب الروسية العثمانية سنة ١٢٩٤ - ١٢٩٥ هـ إنما كان أكبر أسباب الخذلان فيها أن القواد لم يكونوا أحراراً في عملهم من تقدم أو تأخر بحسب ما يستلزم الميدان وتقتضيه الأحوال . بل كانت الأوامر من القواد من الآستانة .

من ذلك أن يزدجرد قال لرستم : صف لي العرب وفعلهم منذ نزلوا القادسية وصف لي العجم وما يلقون منهم . فقال رستم : صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت فقال : ليس كذلك إني إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب . فافهم عني . إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شدة منها شيء اختطفه فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته . وجعلت كلما شدة منها طائر اختطفه فلو نهضت نهضة واحدة رده . وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت . فهذا مثلهم ومثل الأعاجم ، فاعمل على قدر ذلك . فقال له رستم : أيها الملك ، دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم مالم تُضرم بي ، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفي ونكون قد أصبنا المكيدة رأى الحرب . فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر . فأبى عليه وقال . أي شيء بقي ؟ فقال رستم . إن الأناة في الحرب خير من العجلة وللأناة اليوم موضع . وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا . فليج وأبى فخرج حتى أنزل عسكره بسباط .

رأى رستم أنه يسير في الحرب برأى غيره ويعمل فيها بمشورة سواه الغائب عنها الجاهل بها فأراد أن يستعني يزدجرد من قيادة الجيش في هذا الوجه واختلفت منه إلى الملك الرسل ليرى موضعاً لإعفائه وبعثه غيره فلم يبله الملك مأربه .

قد يقال إن عمر كان يوافي سعداً بالنصائح والآراء ، ولا ينتقل من موضعه الذي يكون فيه إلا بأمر منه ، فلماذا لم يكن هذا توهيناً لأمر سعد ؟ والجواب على هذا أن عمر من أهل المكيدة في الحرب والرأى الراجح والبصر النافذ فيها

وهو يخشى أن يتورط سعد فيما تورط فيه أبو عبيد يوم الجسر . فكان يحذره مثل ذلك . ولما صار سعد مع العجم وجهالوجه . لم يكن ليأمره بشيء من أمر الحرب لأنه أعلم بها من الغائب عنها . والدليل على أن عمر كان ضليعاً بالحرب ذا كفاءة للقيادة أن أبابكر رضى الله عنه كان يندم على أنه حين صرف خالد بن الوليد عن العراق إلى الشام لم يكن قد ولي عمر مكانه فجعله بجيال فارس . وكانت كل أوامر عمر تصدر إلى القائد بأخذ الحيلة والاحتراس والتأني والحث على الصبر والعدل والزهد في الدنيا ونحو ذلك مما هو بمنزلة المدد للجيش . والفرق بين الغرضين واضح .

خرج رستم حتى نزل بساباط واجتمع إليه الجند . وجاء العيون إلى سعد بذلك من قبل الحيرة وبني صلويا . فأعلم عمر بذلك ، وكثرت الاستغاثة على يزدجرد من أهل السواد وعليهم الإزازمرد بن الإزاز به الذي جشعت نفسه وكان ضيقاً لجوجا فاستحث رستم فقال له : أيها الملك ، لقد اضطررتني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به فأشددك الله في أهلك ونفسك وملحك . دعني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس : فإن تكن لنا فذلك ، وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرتناهم ونحن جاهئون . فأبى إلا أن يسير . فكتب إلى فارس وعظماؤها أن يرموا حصونهم وأن يعدوا ويستعدوا . وقال في كتابه فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم ، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم .

ولما بلغ عمر أن كسرى ولي رستم بن الفرخزاذ حرب المسلمين وفصول رستم بالهند إلى ساباط كتب إلى سعد لا يكره بك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وأبعث إليه رجلاً من أهل المنظرة والرأي يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم . واكتب إلى في كل يوم .

ولما جاء أمر عمر إلى سعد اختار من جنده قوماً عليهم نجار وآخرين لهم

آراء ، فأما الأولون فالنعمان بن مقرن . وبسر بن أبي رهم ، وحمالة بن جويثة
الكناني . وحنظلة بن الربيع التميمي ، وفُرات بن حيان العجلي ، وعدى بن
سهيل ، والمغيرة بن زرارة . وأما الآخرون فعطاردة بن حاجب ، والأشعث
ابن قيس ، والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو . وعمرو بن معد يكرب ،
والمغيرة بن شعبة ، والمُغني بن حارثة ، فبعثهم دعاة إلى الملك كسرى يزددجرد
فسار القوم حتى وصلوا إلى المدائن واستأذنوا فقبسوا ، وبعث يزددجرد إلى
وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ويقول لهم . وسمع بهم الناس
فخضروهم ينظرون إليهم وعليهم المقطعات والبرود وفي أيديهم سياط دقاق وفي
أرجلهم النعال وبعد أن أجلسهم قال للترجمان : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى
غزونا والولوع ببلادنا من أجل أنا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فردَّ
عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد : إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء
آثرته . فقالوا بل تكلم . وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا فقال النعمان :
إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر
وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة فلم يدعُ إلى ذلك
قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ولا يدخل معه في دينه
إلا الخواص ، فكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أمر أن ينبذ إلى من
خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكره عليه
فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه
من العداوة والضيق . ثم أمرنا بأن نبداً بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى
الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقتيح القبيح كله فإن
أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن
أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع
عنكم وشأنكم وبلادكم وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .
فقال يزددجرد : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقلّ عدداً
ولا أسوأ ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم

لا تغزوكم فارس ولا تطعمون أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكناكم عليكم ملكاً يرفق بكم . فسكت القوم .

فقام المغيرة بن زُرارة الأسدي فقال : أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، ويفخم الأشراف الأشراف . وليس كل ما أرسلوا به جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه . وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك ، فجأوبني لا كون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فترى ذلك طعامنا وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحداً ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ؛ فأرضه خير من أرضنا ، وحسبه خير من حسبنا ، وبيته أعظم من بيوتنا ، وقبيلته خير من قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلبنا . فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترزب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ؛ فلم يقل شيئاً إلا كان ؛ فغذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه . فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلى بصير كل شيء وإن رجعتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل الذي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري . دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية

ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبي فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه . فاختار إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتتجى نفسك .

أصاب السكلمات مكان العزة من نفس كسرى يزددجرد ، ورأى كبيراً عليه أن ينازله بالقتال — وهو شاهان شاه الواسع ، الملك العزيز الجانب المهيّب السطوة — من قوم ظلوا مستضعفين لآبائهم طول حياتهم لا يابيه لامتلاك أرضهم طامع ، ولا ترغب نفس أحد الملوك في التغلب عليهم لقحولة أرضهم ، وقلة ريفها ، وسوء عيشهم فيها ، وقتلهم وذلتهم . وأقلّ عبد من عبده أبهى منهم رواء . وأحسن منظراً ، وهو أقوى منهم ناصرأ وأكثر عدداً . وهاجبه منهم أن يستقبلوه بطلب الجزية يؤذيها صاغراً فعل الذليل المستضعف ، والحقير المستضام . فقال محققاً : أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت إلا من كلمني ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به . فقال كسرى : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لاشيء لكم عندي . ثم قال اتنوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن . ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليهم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية ، وينكّل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد ما نالكم . ثم قال : من أشرفكم ؟ فقال عاصم بن عمرو : أنا . فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليها ، ثم صار هو وأصحابه حتى أتى إلى سعد بالتراب متفائلين بالظفر ، متأولين أن كسرى أعطاهم أرضه . وإنما قصد كسرى أن يعطيهم التراب من الجزية ولا ينالون منه إلا المذلة التي تكون بحمل التراب .

وقد جهد رستم حين بلغه ما صنع كسرى أن يلحق عسكرياً بحامل التراب ليأخذوه منه فأخبر بأنه فاتهم إلى المسلمين فأهمه ذلك ورآه قال سوء عليهم .

وكان يتعاطى العياقة والتنجم واعتدتها من سوء فعل الملك .

وفي الوقت الذي قرب فيه جيش رستم كان سعد قد بثّ الطلائع لاستطلاع أحوال الفرس وتقدّم إليهم أن يأتوه برجل من الفرس يعلمه علمهم ، وكان فيمن ذهب إلى هذا الوجه عمرو بن معد يكرب الزُّيَندى وطليحة بن خويلد الأسدى — الذى كان متنبّئاً فى بنى أسد أيام الردّة — فلما رأوا عسكر الفرس ، وكانوا لا يعلمون بمقدمهم ، لم يشأ طليحة أن يعود إلى معسكر المسلمين . فقال له أصحابه : ما تريد ؟ قال : أريد أن أخطر القوم أو أهلك . فقالوا : أنت رجل فى نفسك غدر ولن تُفلح بعد قتلك عكاشة بن محصن . فارجع بنا . فأبى ومضى حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يحوسه وينظر ويتوسّم . فلما أدبر الليل أتى فى ناحية العسكر فإذا فرس لم ير فى خيل القوم مثله فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ثم ضمه إلى مقود فرسه ثم حرك فرسه فخرج يعدو به . ونذر به عسكر الفرس فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول فى طلبه ، وأصبح وقد لحقه فارس من الجند فبعد مصاولة قليلة قتله طليحة ، ثم لحق به آخر فسقاه بكأس الأوّل ، ثم لحق به ثالث فما زال يصاول حتى استأسر الفارسى ، فسار حتى غشى عسكر المسلمين فجاء إلى سعد ؛ فلما انتهى إليه قال له : ما وراءك ؟ قال : دخلت عساكرهم وجُستّها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توّسماً ، وما أدري أصبت أم أخطأت ؟ وها هو ذا . فاستخبره وأمنّه على دمه إن صدقه فاسمح له بذلك . فقال : أخبركم عن صاحبكم قبل أن أخبركم عن قبلى . باشرت الحروب وغشيتها ، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى . ولم أر ولم أسمع بمثل هذا . إن رجلاً قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال — وكان طليحة قد جاز عسكر الجالينوس وعسكر ذى الحاجب إلى عسكر رستم — إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الواحد منهم الخمسة إلى العشرة فما دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته فأنذره فأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأوّل وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله فأدركه الثانى وهو نظيره

فقتله ، ثم أدركته لا أظنني خلفت بعدى من يعدلني وأنا النائر بالقتيلين ، وهما أبناء عمي ، فرأيت الموت فاستأسرت . ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف ، وبأن الأتباع مثلهم مُخَدَّام لهم ، وأسلم الرجل وُسْمِي مسلماً ، وكان من أهل البلاء .

كان بين خروج رستم من المدائن إلى أن لقي سعداً أربعة أشهر ، لا يقدم ولا يقا تل رجاء أن يضجر المسلمون بمكانهم ، وأن يجهدوا فينصرفوا ، وكره قتالهم مخافة أن يلقي ما لقي من قبله وطاولهم . وجعل الملك يستحشّه وينهضه ويقدمه حتى أفحمه .

كان على مقدمة سعد زهرة بن الحَوَيَّْة ، وعلى مجنبيه عبد الله بن المُسْتَعْم وشرحبيل بن السمط الكندي ، وعلى مجردته عاصم بن عمرو ، وعلى المرامية والرجل قائدان من أهل النجدة ، وعلى الطلائع سواد بن مالك . وعلى مقدمة رستم الجالينوس ، وعلى مجنبيه الهزُمزان ومهران ، وعلى المجردة ذو الحاجب ، وعلى الطلائع الفيرُزان ، وعلى الرجالة زاذ بن بهيش . فلما انتهى رستم إلى العقيق نزل عليه بجيال عسكر سعد وتلاحق به العسكر حتى تكاملوا وأخذوا منازلهم والمسلمون ممسكون عنهم ، وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً مُضْرَأةً بالحرب .

ولما أصبح رستم سائر العقيق ليَحْزُرُ المسلمين ويعرف مقدار عددهم حتى انتهى إلى منقطع العسكر . وأرسل إلى زهرة قائد مقدمة المسلمين فخرج إليه حتى وافقه . فأرادَه على الصلح ويجعل له جعلاً على أن ينصرفوا عنه وجعل يقول : أتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم في سلطانتنا ، فكنا نحسن جوارهم ونكفّ الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم في أهل باديتهم ؛ فترعيتهم مراعيها ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا ، وقد كان لهم في ذلك معاش . 'يعرض لهم بالصلح ولا يصرح . فقال له زهرة . صدقت قد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم ، إنما لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم

من ورد عليكم منّا ، ونضرع إليكم بطلب ما في أيديكم ؛ ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة عليهم ماداموا مقرّين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحدٌ إلا ذلّ ، ولا يعتصم به أحدٌ إلا عزّ . فقال رستم : وما هو ؟ قال : أما عموده الذى لا يصلح منه شيء إلا به ، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى : قال : ما أحسن هذا ؟ وأى شيء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : حسن ، وأى شيء أيضاً ، قال : والناس بنو آدم وحوّاء إخوة لأب وأم . قال : ما أحسن هذا . ثم قال له رستم : أرايت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى ، كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟ قال : أى والله ثم لا تقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة . قال صدقتنى .

لم يكن استرسال رستم معه فى الكلام هذا الاسترسال عن اقتناع أو رضى بما يقول ، وإنما كان خديعة ليأتى زهرة بأخر ما عنده ويعرض عليه منتهى أمانيه وأمانى القوم الذين هو منهم ، ويدلّ على ذلك قول رستم له بعد ذلك : والله إن أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السّفلة . كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا إلى أشرافهم . فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون . نطيع الله فى السّفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا .

إن الكلام الحق لا بدّ أن يترك فى النفس أثراً ، مهما حاول الإنسان مقاومته . فلما انصرف رستم إلى قومه دعا رجال فارس فذاكرهم ما دار بينه وبين زهرة فحَمَوْا من ذلك وأنفوا ونالوا منه ونال منهم .

أرسل سعد إلى المغيرة بن شعبه ، وبشر بن أبي رهم ، وعرجة بن هرثمة ، وحذيفة ابن محصن وربيع بن عامر ، وقرقة بن زاهر الوائلى . ومذعور بن

عدى العجلى ، ومعبد بن مرة العجلى ، والمضارب بن يزيد العجلى . وكان معبد من دهاة العرب فقال : إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟ قالوا جميعاً : تتبع ماتاً مرنا به وننتهى إليه ، فإذا جاءنا أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به . فقال سعد : هذا فعل الحزمة . اذهبوا قتيباًوا . فقال ربعي بن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآداب ومتى جئناهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فالقووه على ذلك ، فقال : سرحوني فسرحه حتى دخل على عسكر رستم فحبسه العسكر حتى جاء إذن رستم فيه ، وقد أظهر رستم الزينة وبسط البسط والنمارق ، وجلس رستم على سرير الذهب ولبس زينته . وأقبل ربعي على فرس له زباه قصيرة ، ومعه سيف مشوف وغمده لفافة ثوب خَلَقَ ورمحه معلوب . ومعه حجلة من جلود البقر على وجهها قرص جلد أحمر مثل الرغيف ، ومعه قوسه ونبله ورمحه ، وعليه درع له كأنها إضاءة ويلمعة . عباءة بعيره قد جلبها وتدرعها وشدها على وسطه بسلب وقد شد رأسه بمعجرتة ، وهي نسعة بعيره ، ولرأسه أربع ضفائر كأنها قرون الوعلة . ولم ينزل عن فرسه إلا على البساط ، ثم أرادوه على وضع سلاحه فأبى أن يأتهم إلا كما يريد وإلا رجع . وأراد أن يستخرجهم فأقبل يمشى وهو يتوكأ على رمحه وزُجُّه نصل يقارب الخطو وزج الرمح يهتك الفارق والبسط .

ولما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض . وركز رمحه بالبساط فقالوا له : ما حملك على هذا ؟ فقال : لا نستحب الجلوس على زينتك هذه ، فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لدعواهم إليه . فمن قبل ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله . قال : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى فقال رستم : قد سمعت مقالتيكم . فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ونظروا ؟

قال نعم ، كم أحب إليك ؟ أيوماً أم يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . وأراد مقاربتة ومدافعتة . فقال : سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لا نمسك الأعداء من آذاننا ، ولا توجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . اختر الإسلام وندعك وأرضك ، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه ؛ وإن كنت إليه محتاجاً منعناك . أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك على أصحابي . وعلى من ترى . وكان رستم عد غريباً أن يضمن له هذا الرجل الزرى الهيشة سيكون الجيش إلى اليوم الرابع ، فقال له : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أديانهم على أعلام .

كان رستم قد قارن بين ما قال زهرة وما قاله ربعي بن عامر . فرأى اتحاداً في الكلمة ، وصدقا في اللهجة . وفي اعتقادي أنه أراد أن يصرف القوم عن بلاده بأى الوسائل ، وفي نيته أن يخدعهم بقبول دينهم ويصرفهم عن وجههم بكلمة ينطقها ، ثم يكون على ما عليه قومه . ولو وجد من فارس من يعينه على رأيه لفعل . ولكنه خلص إلى أهل فارس ورؤسائهم فقال : ما زنون ؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا أو تدع دينك لهذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ ثم أخذوا يعميون رثائته وتناولوا سلاحه وأداة حربه فعمدوا إلى تجربتها فاستبان فضل ذلك على سلاحهم . فلما رأى منهم ربعي ذلك قال : يا أهل فارس ، إنكم عظمتم اللباس والطعام والشراب وإنا صغرناهن ، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل

فلما كان اليوم الثانى طلب رستم أن يرسل اليه المسلمون الرجل الذى كان بالأمس (ربعي) فأرسل إليه سعد حذيفة بن محصن ، وكان منه ما كان من ربعي ، لا يكاد أمرهما يختلف . ثم في اليوم الثالث طلب رستم أن يرسل إليه سعد رجلا له عقل ورأى يكلمه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة .

جاء المغيرة إلى رستم ومعه وجوه قومه ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة من مجلس رستم . وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريريه ووسادته ، فوثبوا عليه فقتلوه وأنزلوه . فقال : كانت تبلفنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تتواسون بينكم كما تتواسى . وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه . ولم آتكم ولكن دعوتهموني . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون . وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول . فقال السفلة : صدق والله هذا العربى ، وقال الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدا يتزعون إليه . قاتل الله أولينا ما كان أحقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة . وقد رأى رستم أن بأسوا ما صنعت حاشيته وأن يطيب خاطره ليستخرج ما عنده ، فمازحه ليححو ما صنع . فقال له : يا أعرابى إن الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغى من ذلك ، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق ، ما هذه المغازل التى معك ؟ (يريد السهام) قال : ما ضررت الجرة أن لا تكون طويلة ، ثم رامهم . قال : ما بال سيفك ؟ قال : رثت الكسوة ، حديد المضربة ثم عطاء سيفه .

بعد ذلك أراد رستم أن يكلمه فيما استقدمه لأجله . فقال له : تكلم أو أتكلم ؟ فقال المغيرة : أنت الذى بعثت إلينا فتكلم . فأقام الترجمان بينهما وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطولاه وقال : لم نزل متمكنين فى البلاد ، ظاهرين على الأعداء ، أشرفا فى الأمم ، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا ، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين ، أو الشهر والشهرين للذنوب ، فإذا انتقم الله فرضى ردت علينا عزنا وجمعنا لعدونا ثم لم يكن (١٠ - الخفاء)

في الناس أمة أصغر عندنا أمرا منكم كنتم أهل قشَف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئا ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشئ من التمر والشعير ، ثم نردكم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم وأنا أمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وأمر لكل رجل منكم بوفر تمر وبشوبين وتنصرفون عنا ، فإني لست أشهى أن أقتلكم ولا أسركم . فكلهم المغيرة بن شعبه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

إن الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئا فإنما هو يصنعه والذي له ؛ وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمسك في البلاد وعظم السلطان في الدنيا ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره فالله صنعه بكم ووضعه فيكم ، وهو له دونكم .

وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك فصيرنا إليه ، والدنيا دول ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتهم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال . ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم ما تنابع علينا مستجلبا من الله رحمة يرفه بها عنا . ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به .

إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا (ثم ذكر ما ذكره سابقه حتى انتهى إلى قوله) وإن احتججت إلينا أن نمنعك منعناك فكن لنا عبدا تؤدى الجزية عن يد وأنت صاغر وإلا السيف إن أبيت .

فاستشاط رستم غضبا ، وحلف بالشمس : لا يرتفع لكم الصبح غدا حتى أقتلكم أجمعين . فانصرف المغيرة .

ثم بعد ذلك أرسل سعد بقية ذوى الرأى إلى رستم وحبس الثلاثة الذين ذهبوا إليه فكلّمهم بمثل ما تكلم به وكلّمه بمثل ما تكلم به سابقوهم وضرب لهم الأمثال وضربوا له الأمثال كذلك ، ثم تبا الفريقان للحرب .

وقد سأل رستم ذلك الوفد : أتعبرون إلينا أم نعبّر إليكم ؟ فقالوا : بل اعبروا إلينا . وأخذ سعد فى الاستعداد — ولما أرادوا عبور العقيق على القنطرة وكانت فى يد المسلمين أبوا عليهم ذلك وقالوا شئ غلبناكم عليه لا نعيده إليكم أبدا بل انظروا لكم معبرا آخر ، فباتوا ليلتهم يسكرون العقيق ثم أصبحوا فعبروه على ما سكروا به من قصب وبراذع وتراب .

عين رستم جيشه ورتب القيلة فى مواقعها وعليها الرجال فى الصناديق ، وكان يزدجرد قد رتب الرجال بينه وبين رستم بين كل رجلين مقدار ما يسمع أحدهما صوت الآخر فكلما نزل أو ارتحل أو حدث أمر قاله فقالة الذى يليه حتى يقوله الذى يلى باب الإيوان وفيه الملك . وهكذا إذا أراد الملك إصدار أمر إلى رستم على هذا النمط . فكانت الأخبار تعلم ساعة حدوثها لا يغيب عنه شئ حدث فى ليل أو نهار .

كان بسعد عرق انتسا وجُبُون قامت له ، لا يستطيع معها الركوب ولا الجلوس . تخلف على الناس خالد بن عُرْفُطَة . فشغب عليه بعض وجوه الجند . فقال سعد : اخلونى واشرفوا بى على الناس . فارتقوا به فأكب مطلعا عليهم وتحت صدره وسادة . وأتى بمن شغب على خالد فهم بهم وشتهم وقال : أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ولا يعود أحد بعدما يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائه إلا سُنْتُ به سنة يؤخذ بها من بعدى — ثم كتب إلى الرايات : إني قد استخلفت عليكم خالد بن عُرْفُطَة ، وليس يمتنعى أن أكون مكانه إلا وجهى الذى يعودنى وما بى من الجُبُون ، فأبى مكب على وجهى وشخصى لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم ويعمل برأى . فقرأ أمره على الناس فأتوها إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة والرضا بما صنع سعد . فكان سعد يرى بالرقاع فيها أمره

ونبيه إلى خالد بن عرفة وخالد يبلغها من قصد بها لينفذها (فكان أركان حرب لسعد ذلك اليوم) .

وقبل أن تنشب الحرب بين الفريقين أرسل سعد إلى الذين انتهى إليهم رأى الناس والذين انتهت إليهم نجاتهم ومن أحرزوا أصناف الفضل ، فكان منهم ذوو الرأى النافذ الذين أتوا رستم : المغيرة بن شعبة ، وحذيفة بن محصن ، وعاصم بن عمرو ، وبسر بن أبي رهم ، وعرجة بن هرثمة ، وربيع بن عامر ، وقرقة بن زاهر ، ومذعور بن عدى ، ومعبد بن مرة ، والمضارب بن يزيد ، وطليحة وقيس الأسديان ، وغالب بن عبد الله الأسدي . وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم ، ومن الشعراء : الشماخ والحطيئة وأوس بن مفرأ وعبد بن الطيب وأمثالهم . وقال انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذى أتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجاتهم وساداتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرصوهم — فما شئت فى ذلك اليوم من خطب حشوها الحث على الحرب والحض على الطعان والاستبسال بكلام تستأسد منه الأوعال ويستنسربه البعاث ويغلى به دم القلوب وتوتر له الأعصاب . ومن شعر يورث الشر ويوغر الصدور ويهون الموت .
لو تتبعنا ذلك لامتد بنا القول واتسع مجال الكلام وخرجنا عن عهدة ما نحن بصدده .

اتَّعَدَّ سعد مع جنده أن يكبر لهم ثلاث تكبيرات ، والثالثة علامة بدء الحرب والرابعة علامة الزحف العام وإن ذلك يكون بعد صلاة الظهر . فلما أذن المؤذن بصلاة الظهر وأدوا المكتوبة كبر سعد ثلاث تكبيرات ، فلما كبر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال . وبرز غالب بن عبد الله الأسدي وهو يقول :

قد علمت واردة المسامح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايخ وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب مثل على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبير الرابعة وهى علامة الهجوم العام فزحف الجنود واصطدموا صدمة من أشد صدمات الحروب هولا . وكان أشد شيء لقي منه المسلمون عناء لا يطلق الفيلة . فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت عن الرجالة وكان مبدأ أمرها فى بحيلة ، تؤكل حين فرت عنها خيلها فرقا من الفيلة . فلما رأى سعد ما حل بهم أعانهم ببنى أسد فصمدوا لها وكانت حلبة الفرس تدور على بنى أسد قيل الهجوم العام . فلما رأى سعد ما حل ببنى أسد من الفيلة أرسل إلى عاصم بن عمرو التميمى وقال : يا معشر بنى تميم ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى ثم نادى برجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال للرماة : ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال لأهل الثقافة : استدبروا الفيلة وقطعوا وُضُنُها ، ففعل كل فريق ما أمر به ووقعت الصناديق عن ظهور الفيلة ، فلم يبق من ركبان الفيلة راكب إلا قتل . ولما أعريت الفيلة من ركبائها عادت إلى مواقعها ونفس ذلك الكرب عن بنى أسد بعد ما قتل منهم فى ذلك اليوم خمسمائة مقاتل وكانوا ردماً للناس . واستحر القتال حتى غربت الشمس ثم حتى ذهب هداة من الليل . وقد كان الظفر ظاهراً ذلك اليوم فى صفوف الفرس وهذا اليوم يسمى يوم أرمات - وكان فيه عاصم عادية الناس وحاميتهم . وكان ذلك فى المحرم سنة ١٤ هـ يوم الإثنين .

يوم أغواث

ولما أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعية و وكل سعد قوماً بنقل القتلى إلى مُشْرِفٍ وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس ، و وكل آخرين بحمل الجرحى إلى العذيب ليقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم وبينما القوم على هذا الحال

ولم ينشب القتال إذ طلعت نواصي خيل الإسلام قادمة من الشام . وذلك أن عمر أرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرد الجند الذين جاءوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ليكونوا عوناً لجنود سعد على قتال الفرس . فكان وصولهم إلى جيش المسلمين ذلك اليوم قبل انتشاب القتال وكانوا ستة آلاف ، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من أفناء اليمن . وكان خالد قد فصل بهم وهم تسعة آلاف قبل اليرموك — وكان الأمير على هذا الجيش عتبة بن أبي وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى مجنبيه قيس بن هبيرة ، والهزهاز بن عمرو العجلي . وقد عجل القعقاع فطوى حتى قدم المسلمين بالقادسية صبيحة ذلك اليوم .

وقد أراد القعقاع أن يوقع الرعب في قلوب الفرس فقسم جيشه عشرة أقسام ليردوا على المسلمين قسماً بعد قسم ليعلم الفرس أن المدد موصل على المسلمين فيكون ذلك أدعى إلى انكسار نفوسهم — ثم قدم هو في القسم الأول ولم يلبث أن باشر القتال ذلك اليوم . وكان قدومه سبباً لتنشيط المسلمين واستبشارهم حتى كأن لم تكن فيهم مصيبة بالأمس . وقد كان القعقاع فارس يوم أغواث . فإنه حين ورد ساحة الحرب طلب البراز فبرز إليه ذو الحجاب يَهْمَنُ جاذويه وهو صاحب يوم الجسر الذي قتل فيه أبو عبيد فقتله القعقاع ، ثم برز إليه البيرزان والبندوان . فقتل القعقاع أولهما ، وقتل الحارث بن ظبيان ثانيهما وباشر المسلمون العجم بالسيوف فاجتلدوا إلى المساء وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ولم ير أهل فارس في قتال هذا اليوم ما يعجبهم ولم تباشر فيلتهم الحرب لأن صناديقها كانت قد تكسرت فلم تصلح حتى أمسى المساء ، وفي هذا اليوم قدم رسول عمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس لتقسم على أهل البلاء إن كان سعد لقي حرباً ففضها سعد في أهل البلاء وفي ذلك يقول الديلم بن عمرو :

لقد علم الأفرام أنا أحقهم إذا حصلوا بالمرهقات البواتر
وما فتئت خيلي عشية أرمثوا يندودون رهواً عن جموع العشائر

لدى غدوة حتى أتى الليل دونهم وقد أفلحت أخرى الليالى الغواير

وقال القعقاع :

لم تعرف الخيل العراب سواءنا عشية أغواث بجانب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها على القوم ألوان الطيور السارس

ومما صنعه المسلمون فى ذلك اليوم أن بنى عم القعقاع حملوا عشرة عشرة
من الرجال على إبل قد ألبسوها الحلال والبراق وطافت بهم الخيل تحميا
فى حملتها على خيول العجم بين الصفيين يتشبهون بالقبيلة ، فجعلت تلك الإبل
لا تصمدُ لقليل ولا كثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين
وقد استن بهم الناس فى عملهم فلقى الفرس منها ما لقيت خيل المسلمين من القبلة
فى اليوم الأول وقد استحر القتال إلى نصف الليل وكان الظفر للمسلمين
واضح الغرّة ذلك اليوم .

وفى ذلك أبلى أبو محجن الثقفى بلاء حسنا ، وذلك أنه كان محبوساً فى
منزل سعد بن أبى وقاص لشغبه على خالد بن عرفة ، فلما كان يوم أغواث
قال لسلمى زوج سعد هل لك أن تخلىنى وتعيرينى باللقاء ؟ فله إن سلمنى الله
أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى فأبت ، فقال :

كنى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقها
إذا قت عنائى الحديد وأغلقت مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحداً لا أخالبا
وقه عهد لا أخيس بعهد لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فرقت له سلمى وأطلقتته وأعطته اللقاء فرس سعد فركبها فحمل على
الفرس وكان يقصف الناس قصفا منكراً . وتعجب المسلمون منه وهم
لا يعرفونه وكان سعد يقول لولا نجس أبى محجن لقلت أبو محجن وهذه
اللقاء حتى إذا انتصف الليل أقبل وأعاد رجليه فى القيد وقال أياتاً منها :

وليلة قانس لم يشعروا بي ولم أشعر بمُخْرِجِي الزُّحُوفِ
فإن أحبس فذلكم بلائي وإن أترك أذيقهم الختوفا

وآخر آياته الأولى يدل على أنه إنما حبس في الخمر كما هو المشهور وبديل
قوله لزوجة سعد وقد سأله عن سبب حبسه : إني كنت صاحب شراب
في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى ، فقلت :

إذا مت فادقنى إلى جنب كرمة تروى عظامى حين تسقى عروقها
ولا تدفنتى فى الفلاة فإتنى أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

ولعله كان قد اجتمع عليه الأمران . ولما علم سعد بأمره أطلقه وقال :
اذهب فما أنا مؤاخذك بشئ تقوله حتى تفعله . فقال لا جرم لا أجيب لسانى
إلى صفة قبيح أيدأ .

يوم عماس

وفى اليوم الثالث أصبح القوم وهم على مواقفهم وقد أصيب من المسلمين
ألفان ما بين قتل وجريح وأحرز المسلمون قتلاهم خلف ظهورهم ووكلوا بهم
من يدقهم وبالجرحى من يبلغهم مكان النساء لترريضهم وكان النساء والصبيان
يحفرون القبور فى يومى أغواث وأرماث .

وقد بات القعقاع يسرب أصحابه وأمرهم أن يعودوا من النهار مائة مائة
ليجدد نشاط المسلمين ، وكان قتلى فارس بين الصنفين لم يوارهم أحد ، فكان
ذلك مما أشجى الفرس وقتاً فى عضدهم . وزاد ذلك ما صنعه القعقاع بجنوده
وطلوهم مدداً للمسلمين واقتدى به عاصم بن عمرو ووصل هاشم بن عتبة
فى سبعمائة من جند عتبة بن أبى وقاص فصنع صنع القعقاع وكلما جاء جماعة
كبر المسلمون .

أما الفرس فقد أصبحوا على مواقفهم وقد أصلحوا توايت الفيلة فأقبلت

ومعها رجال يحمونها أن تقطع وُضنها ومن خلفهم رجال تحميمهم إذا أرادوا
كتيبة دَلَفُوا لها بفيل وأتباعه لينفروا بهم خيلهم . وقد ظن الفرس أن ذلك
يكون كما حصل في يوم الرماث ، ولكن خيل المسلمين لم تنفر من الفيلة فعلها
في ذلك اليوم ، لأن الفيلة فيه كانت وحدها ، فلما كانت في هذا اليوم والفيلة
معها الرجال أنست الخيل ولم تنفر . واستمر القتال شديداً بين العرب والعجم
كل فريق منهما صابر على شدة القتال والنجدات تصل إلى الفرس ويزدجرد
يُزَجِّجها ويمدحهم بأهل النجدة والبأس من قومه والأمداد تصل على البرد وهم
يقرون بها كما قوى المسلمون بهاشم بن عتبة ومن معه ، وكان البلاء فيه من
الجانبيين على السواء .

رأى سعد أن الفيلة قد عادت إلى فعلها في اليوم الأول فأرسل إلى جماعة
من مسلمة الفرس أسلموا قبيل الحرب فسألهم : هل للفيلة مقاتل ؟ قالوا : نعم
مشافرها وعبونها ، فأرسلوا إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو وقال لهما : اكفيا
الفيل الأبيض ، وأرسل إلى الرييل وحمال الأسديين وقال لهما : اكفيا الفيل
الأجرب ، وكانت الفيلة كلها آلفة لاثنيهما . فحمل القعقاع وأخوه على الفيل
الذي وجه له فقفاً عينه ونفحه بالسيف فرمى بمشفره ، فلم يكن من الفيل إلا أن
يُقْمَى على من خلفه ثم ينقلب بمن على ظهره فيقتلهم المسلمون ، وأما الآخرا
فعبرا الأجرب ورميا بمشفره فقر ووثب في العقيق فتبعته الفيلة وخرقت
صفوف الفرس وألقت من عليها وعبرت العقيق في أثر الأجرب حتى أتت
المدائن بتوايتها .

ولما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون بأهل فارس ومال الفضل تراخف
المسلمون وحامهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا على حرد بالسيف
وهم في ذلك على السواء .

ولما جاء الليل خرج القعقاع بن عمرو التميمي في جند وزاحف الفرس بغير

إذن سعد ثم تبعه كثير من القبائل حتى زحف الجيش كله واشتد القتال وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع في تلك الليلة سوى صليل السيوف كأنه صوت مطارق الحداد على الحديد ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط وانقطعت الأخبار والأصوات عز، سعد ورستم وبات سعد بليلة لم يبت مثلها وأقبل على الدماء للمسلمين بالنصر . فلما أصبح الصبح انتسب الناس فعلم أنهم الأعلون وأصبح الناس وهم حسرى لم تغمض عيونهم ليلتهم كلها .

ولما أصبح القوم أخذ القمعاق يحرض الناس ويقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا عليهم فإن النصر مع الصبر، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وتحاضوا على الموت وحملوا في من يليهم . فاقتتلوا أشد قتال إلى أن جاء الظهر ، وحيث بدأ الحلل في صفوف الفرس فتأخروا وثار عاصفة فألقت طيارة رستم في العقيق وانتهى القمعاق إليها فلم يجده لأنه قام عن مكانه حين قلعت طيارته إلى بغال كانت مهيأة فاستظل بحمل بغل منها وضرب هلال بن علقمة الحبل الذي تحته رستم وهو لا يدري به فسقط عليه العدل وضربه هلال فلم يقتله فرمى بنفسه في العقيق فأخذ هلال برجله فأخرجه وقتله ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة . فأطاف به الناس وكبروا وانهمزم قلب الفرس وتنابت الهزيمة وغنم المسلمون راية الفرس وهي (دُرُش كايان) ثم تتبع المسلمون المنهمزين حتى أجلّوهم إلى ما وراء القنطرة . وليلة الهرير يمر بالمسلمين ليلة أشد منها هو لا مع الفرس ولا غيرهم وقتل فيها من المسلمين نحو ثمانية آلاف ومن الفرس ثلاثون ألفاً .

قال الطبري : فأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العقيق فوخزم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفاً وكان الذي أخذ (دُرُش كايان) ضرار بن الخطاب فعوض منها ثلاثين ألف درهم ، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف . وقد قتل في اليوم الذي تلا ليلة الهرير عشرة آلاف سوى من قتل في الأيام قبله .

أما الأسلاب والغنائم في تلك الواقعة فلم ياخذ المسلمون عنيمة مثلها قبلها ولا بعدها . وقد كان سلب رستم سبعين ألف درهم . ولو وجدت قلنسوته لكان ثمنها مائة ألف درهم . وقد تعقب المسلمون المنهزمين فلم يكن بهم منعة ولا مدافعة ولا نجاء . وقد صمد للقتال بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار فعمد لكل كتيبة رئيس من رؤساء المسلمين في جنده ، فن هذه الكتاب ما استوصل ومنها ما هرب .

ما بعد الواقعة

بعد أن انتهت الواقعة كتب سعد إلى عمر : « أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بـعدة لم ير الراؤون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاريء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله أعلم بهم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب له ، »

كان عمر حريصاً على تعرف أجناد المسلمين في القادسية وكان كل الناس في شبه جزيرة العرب يرونها الحد الفاصل بين العرب والفرس . ولا يرون أن الإسلام تقوم له قائمة وينتظم للأمة العربية حال إلا بالظفر فيها ، يشترك في هذا الاعتقاد كل أهل الجزيرة من عدن أبين إلى أبله إلى البحرين إلى حدود الشام . حتى الرجل منهم إذا كان له عمل أحجم عنه حتى يرى ما يكون من شأن حرب القادسية فلا غرو إذا كان عمر مشغول القلب والبال بها .

كان يخرج كل يوم يتنسم الأخبار من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى منزله . وبينما هو بسبيل ذلك ذات يوم لقي البشير عمر ، فسأله من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله حدثني . قال : هزم الله العدو وعمر يحب معه ويستخبره والبشير يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة . فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل هلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى . فهكذا يكون أمراء المؤمنين والخلفاء الراشدون .

قرأ عمر الكتاب على الناس وقال : إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تأسينا في عيشنا حتى نستوى في الكفاف . ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم . ولست معلمكم إلا بالعمل ، إني والله ما أنا بملك فاستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرض على الأمانة فإن أيتها ورددتها عليكم واتبعتم حتى تشبعوا في يوتكم وترووا سعدت وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتى شقيت فقرحت قليلا وحزنت طويلا وبقيت لا أقال ولا أرد فاستعتب .

وكتب سعد إلى عمر يقول . « إن أقواما من أهل السواد ادّعوا ولم يقيم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبارسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارسا أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض ، ثم كتب كتابا آخر يقول فيه : « إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهد ولم يجلب علينا فتمننا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن هم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشروهم ولم يقاتل ، أو استسلم . فأنا فى أرض رغبة والأرض خلاء من أهلها وعدونا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم ،

فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد . فأجمعوا على أن الوفاء لمن

أقام وكف ولم يزد كفه إلا خيراً . وإن من ادعى صدق أو وفى فبمنزاتهم وإن من كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم ، فإن شاموا دعوم وكانوا لهم ذمة وإن شاموا تموا على منهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال ، وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء . وكذلك الفلاحون . فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول : « أما بعد — فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين : العدل في السيرة والذكر . فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير . وأما الثاني العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وإن روى لنا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقع للباطل من الجور وإن روى شديداً فهو أنكش للكفر . فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء . فلهم الذمة وعليهم الجزية . وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخافهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاموا فانبذ إليهم وأبلغوهم ما منهم » .

وكتب إليه جواب الكتاب الثاني :

« أما من أقام ولم يحل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة عدوكم . وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك . وكل من ادعى وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا نبذ إليهم . وأما من أعان رجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شتم فادعوه إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فأقسموا ما أفا . الله عليكم منهم ، وهنا أقول لسنا في حاجة إلى بيان ما تضمنته الكتب وأجوبتها من الأمور الإدارية والنظام البديع وطرق الاستعمار . وإنما العجب أن يصدر عن قوم لا عهد لهم بهذه الأمور ، وإنما يصل إليها الناس بعد الدرس والبحث والتجارب الطويلة .

فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم

خراجهم أثقل . وأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم . وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد . وكذلك الفلاحون . ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجهم إلا إلى واحدة من اثنتين : الإسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهم والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة . وأخذوهم بخراج كسرى . وكان على رؤوس الرجال على مافى أيديهم من الحصاة والأموال .

ولم تتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن أقام معهم لأنه كان متفرقاً فى السواد فكان يليه لأهل الفىء من وثقوا به وتراضوا عليه .

ما بعد القادسية

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد انتهاء الموقعة . وذلك أمر طبيعى بعد موقعة قاسى فيها الجيش شدائد عظاماً وأهوالاً جساماً واصطلى بنارها جميع الجيش ، فسكوا بعد ذلك كله فى حاجة إلى الحمام والراحة . ولو كان عند سعد جبوش احتياطية لم تشهد الحرب ولم تمكنوا بنارها لكان فى حكم الحزم أن يرى الفرس بها قبل أن يأخذوا راحتهم ويدبروا أمرهم ، لأن المعاجلة فى مثل هذه الحال حزامة — ولكن القوم كانوا على ما علمنا من قلة عدد وقد قاتلوا عدواً يفوقهم أضعافاً وقد نالوا منه ونال منهم . فلا بد أن يكونوا فى حاجة إلى الراحة والمدد — ومع هذا فما كان احتياج القوم إلى الراحة ليحبسهم شهرين فى القادسية . بل كان أكثر ما لبثهم تطهير النواحي التى غلبوا عليها من الأعداء حتى لا يتركوا وراءهم عورة يخافونها وأن يقتها مع من دانوا لهم بالطاعة على حال وأن يستأمرؤا عمر فى شأنهم وفى الوجه الذى يريد أن يرميهم به والعمل بما ينبغى .

أمر عمر رضى الله عنه سعداً أن يؤم المدائن وعهد إليه أن يخلف النساء والعيال بالعقيق ويجعل معهم كثفاً من الجند وأن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم — فقدم زهرة بن الحوية إلى اللسان الذى أدلعه

البر في الريف وعليه الكوفة اليوم والخيرة قبل اليوم وكان النخير جان معسكراً به فارفض ولم يثبت فلحق بأصحابه .

برس

وبعد تقديم زهرة إلى اللسان أتبعه بعبد الله بن المعتم ، ثم شرحبيل بن السمط ثم هاشم بن عتبة وقد ولاء عمل خالد بن عرفة وجعل خالداً على الساقة ثم اتبعهم وكل المسلمين فارس مؤد^(١) قد نقل الله إليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكراع ومال وكان ارتحالهم لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين (برس) لقيهم جمع من الفرس بطنهرى . فلم يكن بين الفريقين كبير قتال حتى انهزموا إلى بابل ، وبها فل القادسية وجميع رؤساء الفرس كالنخيرجان ومهرجان ومهران الرازي والهرمزاني وأشباههم وعليهم الفيرزان . ولما رأى بسطام دُهقان برس أن المسلمين قادمون على بلاده وقد هزموا من يازاء بلده من الفرس بعد أن هزموا عسكرهم الأكبر بالقادسية وقتلوا قائدهم الأعظم وعلم أن بلده حاصل في قبضتهم وخاف معرفة دخولهم عليه عنوة وخشى أن يعتريه أحد منهم بسوء بادر إلى زهرة فاعتقد منه ذمة وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لمواقفة المسلمين .

(١) المؤدى هو التام عدة الحرب القوى .

يوم بابل - وكوثي

فلما علم زهرة بما أنباء به بسطام كتب إلى سعد يعلمه بما أجمع عليه الفرس وما أعدوا له . وقد قال الفرس فيما بينهم : نقاتلهم دستا (طابقا) قبل أن تفرق وذلك ليلوا عذرا أمام الأمة حتى لا يقال إنهم تفرقوا وتشنت جمعهم وهم في عدة تفوق المسلمين تمكنهم من أن يواقفهم غلوا بينهم وبين البلاد جبنا وهلما — ومعلوم أن جيشا يقاتل على مثل هذه النية لا يكون مآله سوى الهزيمة ولا تغنيه كثرة العدد شيئا لأن توطيد الجند العزيمة على النصر وانفساح الآمال بالفوز أمامهم وعظم الثقة بالنصر مدد لا يعادله مدد . وأما ضد ذلك إذا جال في رؤوس القواد والجنود فهو هزيمة معجلة وخذلان تسلفوه .

التقى الجمعان ببابل بعد أن زجى سعد الجيوش إليها وفي رؤوس الفرس ما بيننا والمسلمون كما قد علمنا وأفسكارهم ما بينوه ليزدجرد ورستم ورؤساء فارس فلم يكن إلا كلفت الرداء حتى انهزم الفرس ، ثم لم يكن لهم هم سوى الافتراق . فخرج الهرمزان إلى ناحية الأهواز فأخذها وأكلها ومهرجان قذق وخرج الفيرزان حتى نزل على نهاوند وبها كنوز كسرى فاحتواها وأكل الماهين وولى النخیرجان ومهران الرازي وجهيهما شطر المدائن حتى عبرا (بهر سیر) إلى جانب دجلة الآخر ثم قطعا الجسر .

أقام سعد أياما ببابل وبلغه أن النخیرجان ومهران قد خلفا شهربار دهقان كوثي لقتال المسلمين في جمع من الجنود . فقدم سعد إليه الجيوش . فالتقى أوائل جموع المسلمين بجنود شهربار فلم يلبثهم أن طلب البراز وقال : « أالارجل ، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلى حتى انكل به ؟ فأخرج له زهرة أبا نباتة بن قائل بن جعشم الأعرجي فخرج إليه . وكلاهما وثيق الخلق إلا أن شهربار مثل

الحمل فلما تلاقيا تجالدا ثم تعانقا . فصرع شهربار أبا نباتة وأراد أن يحتز رأسه
بمخنجره فوقعت إبهام الفارسي في شدة أبي نباتة فلاكها فاسترخى الفارسي وفتر
فانقلب عليه واحتز رأسه واستلبه وأخذ برذونه . وكان يلبس ملابس ويتحلى
بجلاء ويلبس أساوره عند الحرب ، وهو أول مسلم تزيا بذلك الذي بأمر من
سعد بن أبي وقاص .

بهرسير

بهرسير إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن وهي في غدوة دجلة
الغربية تجاه إيوان كسرى ولم يبق من المدائن سواها إلى عهد صاحب
معجم البلدان .

قدم سعد زهرة من كوئي إلى بهرسير . فتلقاء شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية
الجزاء فأرسله إلى سعد حتى قدم معه . ثم سار زهرة حتى أتى إلى المظالم وكان به
كتيبة لكسرى تسمى پوران ولعلها بمنزلة ما يسمونه الحرس الملوكي — وكان
أهل هذه الكتيبة مدلين بأنفسهم ويقسمون بأن مملك فارس لا يزول ما عشنا ،
يفعلون ذلك كل يوم — فلقبهم زهرة بجنوده فقلهم . ثم جاء هاشم بن عتبة بن
أبي وقاص إلى المظالم ووقف حتى لحق به سعد ووافق ذلك رجوع (المقرط)
وهو أسد كان لكسرى قد ألفه وتخير من أسود مظالم ساباط فبادر المقرط
الناس حتى انتهى فخرج إليه هاشم فقتله بسيفه . وقبل سعد رأس هاشم . فقبل
هاشم قدم عمه سعد ولما جاء إلى المظالم قرأ : أولم تكونوا أقسمتم من قبل ،
مالكم من زوال ، وقدم سعد على بهرسير — وكلما قدمت خيل من خيول الإسلام
إليها كبروا إلى أن تنام الجند وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة .

أقام سعد على بهرسير شهرين يحاصرها ويرميها بالمجانيق ويدب إليها بالذبابات
ويقاتلونهم بكل عدة . وكان الفرس البادين بالرمي بالمجانيق والعرادات
(م ١١ - الحناء)

فاستصنعها سعد واقام عليها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها — ولما طال
الأمَد على الفرس خرجوا في رجالة وناشبة وتجردوا للعرب وتبايعوا على
الصبر فقاتلتهم المسلمون فلم يثبتوا لهم .

ولما رأى الفرس أن البقاء في هذه المدينة لا يستقيم تركوها ودخلها
المسلمون فلم يجدوا فيها غير نفر قليل وقعوا أسرى في أيديهم — وفي مقام
سعد على بهر سير . أرسل سراياه فأغارَت في سواد الفرات فأتت بناس من
الفلاحين لا عهد لهم ولا ذمة . فكانوا مائة ألف فقال شيرزاد : إن هؤلاء
عُلُوج لاهل فارس لم يُحرضوا عليكم فاتركوهم حتى يفرق لكم الرأي . فتركهم
سعد بعد أن كتب عليه أسماءهم ثم كتب إلى عمر يقول : « إنا وردنا بهر سير بعد
الذي لقينا فيما بين القادسية وبهر سير فلم يأتنا أحد لقتال فبثت الخيول فجمعت
الفلاحين من القرى والأجام كفرَ رأيك ، فأجابه : « إن من أتاكم من الفلاحين
إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم . ومن هرب فأدر كتموه
فشأنكم به » فلما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم ،
ودعاهم إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة فتراجعوا عن الجزية
والمنعة فلم يبق في غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واغتبط بملك
الإسلام واستقبلوا الخراج .

المدائن القصوى

ولما دخل سعد بهر سير وكان ذلك في شهر صفر سنة ١٦ طلب السفن ليعبر
عليها إلى عدوة دجلة الشرقية فلم يجد سفيناً يحجز الناس عليهن فبقى على ذلك أياماً
من صفر فجاء بعض أهل فارس ودلهم على مخاضة نخشى سعد ذلك ثم بدا له
أن يحجز بهم في دجلة وقد جاء المدد . فقام في الناس فقال : « إن عدوكم قد اعتصم
منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم
في سفنهم وليس وراكم شيء تخافون أن تؤتوا منه فقد كفاكم أهل الأيام

وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذاتهم . وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . إلا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد . ثم انتدب الناس ليحموا الفِراض حتى يعبر الناس ويتلاحقوا حتى لا يمنعهم الفرس العبور فانتدب أنجاد الناس وأولهم عاصم بن عمرو ذو البأس وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات فجعل عاصماً عليهم فصار بهم عاصم وانتدب منهم ستون ليكونوا أولين . فافتحموا دجلة بخيلهم ورآهم الفرس فاقحموا خيلهم دجلة ليلاقوهم ويمنعوهم فلقوا عاصماً في السرعان فصاح عاصم : الرماح الرماح ، اشرعوها وتوخوا العيون . فطعنوهم في أعينهم فمن لم يقتل منهم صاروا عورانا ف ساحلوا بخيلهم فلم تصل إلى الشاطئ . حتى ولت مدبرة وملك الستون الفراض وتلاحق سائر الستمائة ثم اقتحم المسلمون دجلة حتى ضاروا بالعدوة الشرقية مع الفرس . والذي يظهر أن الفرس باحتوائهم السفن كانوا آمنين أن يعبر إليهم المسلمون في زمن قريب . وأن ذلك لا يكون إلا بعد أن يحصلوا على سفن يجيزون فيها إليهم ، فلم يكن بالقوم استعداد للقائهم في ذلك الحين ولا على تلك الحال . فأجهضهم المسلمون وأعجلوهم عن جمهور أموالهم واقتحموا عليهم مدينتهم على هذا الوجه واستولوا على كل ما بقى في بيوت كسرى من الأموال .

وقد قال الطبرى : فيما هيج سعداً على دعاء الناس لعبور دجلة — إن علجاً فارسياً أتى سعداً فقال ما بقيمك ؟ لا يأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن .

والذى يفهم من ذلك أن سعداً كان على ثقة من أن تقوم قد يشسوا من المقام في المدائن وأن حاميتهم لا تصلح للمقاومة ، وإلا كان عمله مخاطرة لا تصح من قائد حريص ولا تلتئم مع تحذير عمر له ذلك التحذير الذى علمناه .

كان يزجرد قد أحس سوء الحال فرحل عياله إلى حلوان حين فتحت
بهرسير . ولما علم بعبور المسلمين خف حتى لحق بعياله وخلف مهران الرازي
والنخيرجان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حر متاعهم وخفيفه وما قدروا
على استخلاصه من بيت المال والنساء والذراري وتركوا في الخزان من
الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطف والأدهان شيئاً لا تعلم قيمته
لكثرتهم وغادروا ما أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة .
وكانت كتيبة الأهوال أول داخل المدينة وهي كتيبة عاصم بن عمرو ثم الخرساء ،
وهي كتيبة القعقاع بن عمرو وحمال بن مالك والربيل بن عمرو — فأخذوا
في سككها لا يجدون أحداً إلا من كان بالقصر الأبيض . وقد استجابوا على
الذمة وقد نزل سعد القصر الأبيض . وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً
ودخله وهو يقول : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة
كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء
والأرض وما كانوا منظرين » .

في مثل هذا الدخول الفجائي الذي دخل به المسلمون مدائن كسرى ،
وبخاصة إذا كان بحالة غريبة ، يستولى الفزع على الأفتدة وتجيئ النفوس إلى
الفرار ومفارقة الديار . ولكن كثيراً ممن يستولى على نفوسهم الطلع ويجلون
عن أوطانهم لا يذهبون بعيداً عنه حتى تضيق الدنيا في وجوههم وتخرج صدورهم
وتعصى عليهم السبل ثم تنازعهم نفوسهم إلى ما ألفهم القديم ثم لا يلبثون أن
يعودوا ، ولا سيما إذا عرفوا أن من ملأ الخوف قلوبهم منه وظنوه فتاكاً
لا يأخذ الناس بعنف ولا يسوسهم بعسف ، بل يبسط المعدلة ويتوخى حسن
السيرة . فإنهم حينئذ يعودون إلى وطنهم ويثوب إليهم رشدهم . كذلك كان حال
أهل المدائن فإنهم تراجعوا إلى مدينتهم ودخلوا في ذمة المسلمين إلا من كان
من آل كسرى ومن معهم .

ثم جمع سعد ما وجد في خزائن كسرى من الأموال والغنائم فكان شيئاً

كثيراً فخمسه وقسم أربعة الأخصاس على المقاتلين ، فكان نصيب الفارس اثني عشر ألف درهم . وهو شيء لم يكن أحد من العرب يظن أن يراه في منامه . وكان كل المسلمين فرساناً وبعضهم معه الجنائب . ثم قسم سعد دور المدائن على الناس وأنزلهم بها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليته وسيفه وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم وكان في ما أرسله إلى عمر أيضاً بساط ذرعه ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب . وقواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك — فلما قسم سعد الشيء في العسكر فضل هذا البساط عنهم ولم تستقم قسمته . فجمع سعد المسلمين فقال : « إن الله قد ملأ أيديكم وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى أحد على شرائه ، فأرى أن تطيؤوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء . ففعلوا . فلما قدم البساط على عمر بالمدينة جمع الناس واستشارهم . فمن مشير بقبضه وآخر مفوض إليه وآخر مرقق . فقام على حين رأى عمر يابى حتى انتهى إليه فقال : لم تجعل عليك جهلاً وبقينك شكاً ؟ إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنت . قال : صدقتني ، فقطعه وفرقه في الناس — وفي رواية أخرى أنه قال له : يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية . إنك إن تقبله على هذا اليوم لم نعدم في غد من يستحق به ما ليس له . فقال : صدقتني . وقد أصاب علياً قطعة منه فباعها بعشرين ألفاً وما هي بأجود تلك القطع^(١) .

ونوى سعد الإقامة بالمدائن وصلى فيها صلاة المقيم وأول جمعة صليت في العراق كانت بالمدائن في صفر سنة ١٦ هـ . ثم بث السرايا تغير فيها حول المدائن

(١) لم يكن من شأن العرب الاحتفاظ بمثل هذه الدخائر . ولو أنهم من أهل هذا العصر المقدرين للآثار والعائس قدرها لاحتفظوا به على الدهر .

في الوجوه كلها . وصدر الأمر من عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ماغلب عليه وحرّبه وولى النعمان وسويد بن عمرو الخراج أولهما على ما سقت دجلة وثانيهما على ما سقى الفرات . ولما جرى إلى عمر بتلك الأخماس من الغنيمة وفيها زينة كسرى وتاجه وحلاه وأزيأوه التي كان يلبسها للمباهات وبساطه ، أكثر الناس الكلام في فضل أهل القادسية وحق لهم أن يكثروا ، فقال عمر : أولئك أعيان العرب وغررها اجتمع لهم مع الأخطار الذين . هم أهل الأيام وأهل القوادس .

يقول ابن الأثير : كان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ثلاث هرات أخذ منها رستم عند سيره إلى القادسية النصف وبقي النصف .

والذي أراه أن هذا المقدار يزيد على عشرات المقدار الذي كان موجوداً لأنه يقتضى أن يكون في خزائن كسرى ثلاثة آلاف بليون وهو مقدار لا يمكن أن يتفق مثله لدولة في ذلك العهد مهما كان عمراتها مستبحراً وخراجها وافراً .

وما لنا ولللكلام ؟ لا بد أن نرجع إلى الأرقام فإنها لا تكذب .

قال ابن الأثير نفسه : إن سهم الفارس بلغ في المدائن اثني عشر ألف درهم وكان المسلمون جميعاً فرساناً ، فإذا فرضنا أن المسلمين كان عددهم في ذلك اليوم هو عددهم يوم القادسية بزيادة الربع كان عدد المسلمين الذين كان لهم حظ من غنيمة المدائن ستين ألفاً .

فعلى ذلك يكون عدد النقود التي قسمت على الغانمين ٧٢٠ مليوناً .

فإذا أضيف إلى ذلك الخمس (١٨٠ مليوناً) كان مجموع ذلك ٩٠٠ مليون .

وإذا كان رستم أخذ مقداراً مساوياً له كان ما في الخزائن من قبل ١٨٠٠ مليون . وبعبارة أخرى بليوناً واحداً وثمانمائة مليون . فأين هذا من ثلاثة ترليونات وهو يزيد عما أدى إليه الحساب مع التساهل ترليونان وثمانية وتسعون بليوناً ومائتا مليون .

ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن وعلى القسمة سليمان بن ربيعة الباهلي فجمع ما في القصر والإيوان والدور وأحصى ما يأتيه به الطلب وكان أهل المدائن قد نهبوا عند الهزيمة وهربوا في كل وجه ، فما أفلت منهم أحد بشيء إلا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم . ورأوا بالمدائن قباباً تركية مملوءة سلالاً مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فإذا فيها آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف لبيع الذهب بالفضة متهاثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً فعبجنوا به فوجدوه مرأاً وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهران فازدحموا عليه فوقع منهم نعل في الماء فعبجلوا وأكبوا عليه فقال بعض المسلمين . إن لهذا البغل شأناً فجألدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى : ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي فيها الجواهر وكان يجلس فيها للباهاة ولحق الكلخ بغلين معهما فارسيان فقتلتهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال فقال له : قف حتى تنظر ما معك فخط عنهما فإذا سفطان فيهما تاج كسرى مرصعاً وكان لا يحمله إلا الاسطوانيان وفيه الجواهر وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً وأدرك القعقاع بن عمرو فارسياً وأخذ منه عيبتين في إحداهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستة أسياف وأدوع منها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر .

وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى - والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقباز وفيروز وهرقل وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان فأحضر

القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الأسياف فاختر سيف هرقل وأعطاه
درع بهرام ونقل سائرهما في الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان بعث بهما
إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك . حسبوها في الأخماس وبعثوا بتاج
كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد
الضبي رجلين معها حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر فأخذ الحارين فأتى
بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب
بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته البياقوت والزمرد المنظوم على الفضة والجام
كذلك وفارس من فضة مكلل بالجواهر . وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل
من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت ،
وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر . وكان كسرى يضعها على أسطوانتي
التاج .

وأقبل رجل بحق إلى صاحب الأقباض فقال هو والذي معه ما رأينا
مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال :
والله لولا الله ما أتيتكم به . فقالوا : من أنت ؟ فقال : والله لا أخبركم
فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً فسأل عنه فإذا هو
حامر بن عبد قيس . وقال سعد : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق
لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر . لقد تبعتم منهم هناة ما أحسبها
من هؤلاء .

وقال جابر بن عبد الله : والذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل
القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كآماتهم
وزهدهم وهم طليحة وعمر بن معد يكرب وقيس بن المكشوح .

وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجده : إن قوماً أدوا
هذا لذو أمانة . فقال على . إنك عفتت فعفت الرعية . فلما جمعت

الغنائم قسم سعد الفيء بين الناس بعد ما قسمه وكانوا ستين ألفاً فأصاب
الفارس اثني عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل .

وقعة جلولاء

قال ياقوت : طشوج من طساسيج السواد في طريق خراسان بينها وبين
خانقين سبعة فراسخ ، ثم حكاه بالقصر والمد في قول القعقاع :

ونحن قتلنا في جلولا أثراً ومهران إذ عزت عليه المذاهب
ويوم جلولاء الواقعة أفنيت بنو فارس لما حوتها الكتاب

وسبب هذه الواقعة أن الفرس لما انتهوا إلى جلولاء في هربهم من المدائن
إلى هذا الموضع وافترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال
وفارس — ويظهر أن جمهور جيش الفرس كان مجتمعاً من هذه الأقاليم —
فقال رؤوس القوم : إنا إذا افترقنا لم نجتمع أبداً وهذا مكان يفرق بيننا .
فهلوا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم ، فإن كان الظفر لنا فذاك الذي نحب ، وإن
كانت الأخرى نكون قد قضينا الذي علينا .

ويظهر أن القوم في هذه المرة كانوا قد وطنوا أنفسهم على الاستماتة في
القتال وصدق الحملة فاجتمعوا تحت إمرة مهران الرازي واحتفروا خندقاً
حول حصنهم وأحاطوه بحسك الخشب أول أمرهم ثم استبدلوا به حسك
الحديد إلا طرقتهم . وعلم سعد بأمرهم فاستأمر عمر فأمره أن يسرح إليهم
هاشم بن عتبة في اثني عشر ألفاً وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو .
فسار هاشم في جيشه وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب بمن
كان ارتد ومن ثبتوا على إسلامهم إلى أن نزل على الفرس بمكانهم هذا .

كانت الفرس كسرى يزجرد وهو بجلوان يعلمونه بأمرهم الذى أجمعوا عليه فأمدهم بالأموال والرجال وجعل يستنفر الفرس فيما يليه وكلما اجتمع إليه جند بعضهم إليهم مدداً . وقد عزم الفرس على المطاولة لا يخرجون إلى القتال إلا إذا شاءوا والمسلمون يحيطون بحصنهم فزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً وهم فى كل مرة ينالون من الفرس . وأمد سعد المسلمين فلما رأى الفرس أن الأمداد متواصلة إلى عدوهم خافوا أن يصير المسلمون إلى حال قوة يضعف الفرس عن منازلهم معها وذلك أن الفرس كانوا أكثر من محاصريهم أضعافاً كثيرة وازدياد المدد على المسلمين يغير من تلك الحال فاعتزموا على القتال وتقاسموا بالنار على أن لا يفروا وجعلوا فى الخندق من ناحيتهم طرقاً لخييلهم فأفسدوا بذلك حصنهم ثم خرجوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقاتلوا المسلمين مثله فى موطن من المواطن حتى أنفذوا ما معهم من نبل ونشاب واطعنوا بالرماح حتى تقصفت ثم صاروا إلى السيوف والسطرزيات فكانوا على هذه الحال صدر نهارهم إلى الظهر ، وصلى المسلمون إيماء وقد كلَّ المسلمون وبلغ التعب بهم أشده . فجاء القعقاع بن عمرو إلى الناس فقال : «أهالتكم هذه ؟ قالوا : نعم، نحن كالون وهم مريحون والكال يخاف العجز إلا أن يعقب. فقال : إنا حاملون عليهم ومجادوهم وغير كافين عنهم حتى يفتح الله بيننا وبينهم . فاحملوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا تكذب . ثم حمل وحملوا معه فانفروا فما ذب أحد عن باب الخندق وألبسهم الليل سواده فأخذوا يمينة ويسرة وجاء إلى المسلمين أمداد فيهم طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معديكرب وحُجر بن عدى فوافقوا القوم وقد تحاجزوا لما أجنهم الليل ، غير أن القعقاع لم يكف بل أمر مناديه أن يقول يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق . وقصد أن يقوهم بذلك فحملوا لا يشكون أن هاشماً فى الخندق فإذا هم بالقعقاع قد أخذ به وانهمز الفرس يمينة ويسرة فوقعت خييلهم فيما أعدوا من الحسك فعقرت وصاروا رجالة . واتبعهم المسلمون فلم يفلت

منهم إلا عدد يسير وذهب جمع الفرس طعمة لل سيف وصاروا مصرعين في المجالات وتلك النواحي حتى تجللت الأرض بهم .

وصار القعقاع في طلب الفاتة حتى وصل إلى خانقين وقتل بها مهران ثم أخذ ناحية حلوان في جيش من الأتقاء والحمران . فوجد الملك يزدجرد قد أجفل منها إلى الرى عندما بلغه خبر الهزيمة بحلوله . فنزل القعقاع بحلوان وكانت هذه الواقعة في ذى القعدة سنة ١٦ هـ . ولم يلق القعقاع كبير قتال دون حلوان وبقي بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة أما غنائم جلولاء ، وما سباه المسلمون من النساء والذرية فكان شيئاً يخرج عن الوصف فكانت سهام المقاتلة تسعة آلاف وتسع دواب وفي رواية اثني عشر ألفاً . وأما السبي فكان شيئاً كثيراً من أحرار فارس حتى أن عمر استعاذ بالله من ذرية سبي جلولاء .

ولما ذهب الخنس إلى عمر كان على حسابه زياد بن أبيه . فنقص على عمر أخبار الواقعة وما كان فيها من الأهوال وما فتح الله على المسلمين . فقال له عمر : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل ما كلمتني به ؟ فقال : والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدرى منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟ فقام زياد في الناس وفص عليهم ما فتح الله عليهم وما كان منهم في حربهم وما صنعوا وما يستأذنون فيه من الانسياح في بلاد عدوهم فأحسن في ذلك ما شاء الله أن يحسن . فقال عمر : هذا الخطيب المصقّع . فقال زياد : إن جدنا أطلقوا بالفعال لساننا ، وكان زياد شاماً حدثاً في ذلك الوقت .

ثم كتب عمر إلى سعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأحر لهم ما أجريت للفلاحين من قتلهم وإذا كنت إليك في قوم وأجروا أمثالهم مجراًهم . ثم كتب إليه سعد في غير الفلاحين .

فكتب إليه « أما من سوى الفلاحين فذلك إليكم ما لم تغنموه — يعني قسمته — ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلاها فهي لكم فإن دعوتهم وقبلتم منهم الجزاء ورددتهم قبل قسمتها فذمة ، وإن لم تدعهم ففيكم لمن أفاء الله ذلك عليه .

فتح تكريت

علم سعد أن الفرس قد جمعوا جموعاً بتكريت اجتمعوا من الموصل . فسرح إليهم عبد الله بن المعتم في جيش قوامه خمسة آلاف . فسار أربعاً حتى نزل على تكريت وفيها جموع الفرس ومعهم جموع من الروم وإياد وتغلب والفرس وقد خندقوا بها فحصرهم بها أربعين يوماً وقد تراحقوا أربعة وعشرين زحفاً وكانوا أهون شوكة وأخف أمراً من أهل جلولا . ولما أحس الروم أنهم لا يخرجون مرة إلا نال منهم المسلمون تركوا أمراءهم ونقلوا أمتعتهم إلى السفن ورأى العرب الذين معهم ذلك وعلبوا أن القوم منفض جمعهم عنهم وأنهم لا يقولون على المسلمين بعد ذلك ، فجاءت العيون من إياد والثر وتغلب إلى عبد الله بن المعتم بالخبر وسأله السلم للعرب فدعاهم إلى الإسلام فاستجابوا له سرّاً واتفق معهم على أن يأخذوا على القوم الأبواب من ناحية النهر إذا أخذها بجنده من ناحية البر . ففعلوا ونهد المسلمون لما يليهم وكبروا علامة ما بينهم وبين مسلمة ليلتهم فأخذ جنود الفرس والروم من كل ناحية ولم ينج إلا من أسلم في تلك الليلة من العرب

ولم يلبث عبد الله بن المعتم أن أرسل إلى الحصنين قوة بمن معه عليها الأكل والعزى إلى الحصنين وبهما جموع من فارس . وقال له : اسبق الأخبار وسر ما دون القليل أخى الليل . وسرح معه من كان مع الفرس بتكريت من إياد

والنمر وتغلب فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعل وغيره من أمرائهم فادعى عتبة بالظفر والنفل والقفل ثم جاء من بعده من أمرائه حتى أخذوا الأبواب وأقبلت سرعان الخيل مع ربعي بن الأفكل فافتحموا الحصنين فأجاب من استجاب وهرب من لم يستجب ثم عاد القوم وتراجع الهرب واغتبط المقيم وصاروا جميعاً ذمة ولهم المنعة .

ماسبذان

ما سَبَذَانَ عن يمين حلوان إلى همدان .

وأرسل سعد بن أبي وقاص فصيلة أخرى من المدائن يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان . وذلك أنه قد بلغ سعداً أن أذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً نفخج بهم إلى السهل فأرسل إليه ذلك الجيش فالتقى ضرار بن الخطاب بمن معه بالفرس فأخذ أذين وضرب عنقه وشتت سمل جيشه وأثنى فيهم القتل ثم خرج في طلب القالة حتى انتهى إلى سيروان فأخذت ماسبذان عنوة فتطير أهلها في الجبال ثم عادوا وصاروا ذمة للمسلمين وعليهم الجزاء .

فرقيسيا

بلدة على نهر الخابور وهو يصب في الفرات ، فهي بين الخابور والفرات . كان سبب هذه الغزوة أنه لما رجع هاشم بن عتبة عن جلولاء اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل بجند يساعدهونه على أهل حصص وبعثوا جنداً إلى أهل هيت . فوجه إليهم سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند وعلى مقدمته الحارث بن يزيد العامري في غيره من القواد فسار عمر حتى رل على هيت وقد خندق من بها عليهم خندقاً واعتصموا به — فلما رأى عمر

امتناع القوم خشى أن يطول عليه الأمد . فخرج في نصف الجند وكتبم خروجه عن الأعداء وأمر أن لا يقوضوا خيامهم حتى لا يعلم الأعداء بقلة المسلمين . المحاصرين لهم ثم خلف على من أقام الحارث بن يزيد وذهب هو بمن معه حتى نزل على قرقيسيا على حال غرة من القوم لا يشعرون به فأخذها عنوة . فطلب أهلها أن يقيموا على الجزاء فرضى منهم بذلك . فلما رأى من بهيت ذلك جزعوا . وكتب عمر إلى الحارث يقول له : إنهم إن استجابوا نخل عنهم فليخرجوا ، وإلا نخندق عليهم خندقا يحيط بخندقهم وأبوابه مما يليك حتى أرى رأي . فسمحوا بالإجابة وانضم الجند إلى عمر ، والأعاجم إلى أهل بلادهم .

بعد هذا صار السواد كله في يد المسلمين فهدوا طريق إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرق والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم . وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة ، وعلى كلهم الإرشاد وضياقة ابن السبيل من المسلمين وأما من أفاء الله عليهم البلاد فالضياقة كانت لهم خاصة ميراثا . وكان في صلح عمر لهم أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة وإن سبوا مسلما أن ينهكوا عقوبة وإن قاتلوا مسلما أن يقتلوا وعلى عمر منعهم وبرئ عمر إلى كل ذى عهد من معرة الجيوش .

تمصير الكوفة

لما فتح على المسلمين ما فتح من العراق وفارس أوطن المسلمون بمختلف البلدان عنها — وكان كل أمير على ناحية يبعث بالوفود إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فكان عمر يرى في أوجه من يرد عليه تغيرا فقال لهم والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهما لكما

أبدؤوا فما غيركم؟ فأجابه القوم بأن وخومة البلاد قد أثرت فيهم هذا الأثر وأراد عمر أن يتعرف الأسباب التي أثرت فيهم هذا الأثر وأهمه ذلك فكتب إلى سعد يسأله عن ذلك الذى غير ألوان العرب ولحومهم ، فكتب سعد إليه يقول : إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة . فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان فابعث سلمان رائداً وحذيفة — وكانا رائدى الجيش — ولم يكن أمر فى الجيش إلا أسند إلى من يقوم به — فليرتادوا منزلاً برياً بحرياً ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر — فبعثهما لذلك فسارا مرتادين غربى الفرات حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصاء ورمل مختلطان فأعجبتهما وفيها أديار ثلاثة : دير 'حرمة' — دير أم عمرو — دير سلسلة . وبينهما خصاص خلال ذلك . فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه عمر : فأمره أن يسير بالجنود . فطلب سعد إلى أمراء الجنود بالشغور أن يستخلفوا عليها ويقفلوا إليه ففعلوا وارتحل سعد بالباس حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول المسلمين بالكوفة سنة وشهران وقد ترك سعد من رضى بالإقامة بالمدائن ليكونوا مسلحة للمسلمين فى نواحهم .

كان عمر يريد ممن نزلوا الكوفة أن يكونوا فى خيامهم لأن ذلك أسرع فى اتقائهم إذا مست الحاجة إلى ذلك وليكون ذلك أهيب فى عين عدوهم وأدعى إلى إحجامه عن أمرهم به إن كان فى رأسه شئ من ذلك . ثم بعد ذلك استأذنوه فى اتخاذ البيوت من القصب فأذن لهم فى ذلك بعد أن عرفوه أنه هو العكرش إذا روى .

ثم أصاب الكوفة بعد ذلك حريق أتى على ثمانين بيتاً فاستأذنوه فى البناء باللبن فأذن فيه وقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم إلا على ثلاثة آيات

(حجرات) ولا تطأوا في البنيان والزموا السنة تلتزمكم الدولة . فرجع المستأذنون إلى الكوفة بذلك وكتب إلى أهل البصرة بمثله . وكان على تنزيل الكوفة أبو هيثاج بن مالك وعلى تنزيل البصرة عاصم بن مذلج أبو الجرباء . وقد قدر عمر لهما المناهج أربعين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعاً والأزقة سبع أذرع والقطائع ستين ذراعاً . وأول شيء خطه فيهما وبني المسجدان . مسجد الكوفة ومسجد البصرة وقام في وسطهما رجل شديد النزع فرمى في كل جهة بسهم وأمر أن يبني فيما وراء ذلك وبني مظلة في مسجد الكوفة على أساطين رخام في مقدمته كانت في بعض أبنية الأكاسرة بالحيرة وبنوا لسعد داراً بحمال المسجد وهي قصر الكوفة بينها وبين المسجد طريق منتصب بناها روضة من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة . وجعل الأسواق على شبه المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ مما معه .

بلغ عمر أن سعداً قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق سكتوا عنى الثعوب وإن الناس يسمونه قصر سعد فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأمره أن يحرق باب القصر ثم يرجع . فحرق باب القصر واستدعاه سعد فلم يفعل فخرج إليه وعرض عليه نفقة فأبى وبلغه كتاب عمر إليه وفيه : « بلغني أنك اتخذت قصرأ جعلته حصناً ويسمى قصر سعد . بينك وبين الناس باب . فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال . إنزل منه مما يلي بيوت الأموال واغلقه ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس دخوله ، خلف له سعد ما قال لئلا قالوا فرجع محمد فأبلغ عمر وصدقه .

كانى بصائحين يصيحون ما هذا الحرّ الذي استفز عمر إلى أن يزجج محمد ابن مسلمة ويكلفه أن يذرع ما بين المدينة والكوفة لإحراق باب قصر أو باب بيت اتخذهُ أمير ليسكون حجاباً بينه وبين من لا يروق منظره ومن لا يحب مقابله؟ وهل يريد عمر أن يسكن الناس في القبور وهم أحياء؟ ومن ذا الذي حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ وأي حرج على الناس إذا استطالوا

في البناء وجللوا دورهم بما تنسج له حالهم التي صاروا إليها ؟ ومن المعلوم عند علماء الاقتصاد أنه إذا لم يوجد في الناس أهل الثراء الذين يروقههم تأمل القصور واتخاذ الشامخ من البنيان والرائع من الزينة والزخرف لا يمكن أن يكون للأمة رقي ولا يوجد فيها من يتعاطى الفنون الجميلة فضلاً عن البراعة فيها . فكيف يضيق عمر على الناس واسعاً ولا يأذن لهم في اتخاذ البنيان من اللين إلا بعد مؤامرة ثم هو بعد ذلك يأمرهم بعدم الاستطالة في البنيان وذلك تعطيل للفنون الجميلة ومعارضة لرقى الأمم الذي هو الغاية من العمران ؟

أما أنا فأعرض عن أولئك الصائحين — وإنما أقول لكم — إن القوم على أثر من رسالة قد بهرتهم عجائبها وفي عقب نبوة قد أخذت بنواصيرهم وعلى بينة من دين استغرق أفتدنتهم وملك عليهم مشاعرهم وهم حديثو عهد بأخوة قد أحكمت عراها واستحصدت مرثتها ولم تنجل عن قلوبهم تلك الروعات التي كانوا يسمعونها في قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وفي قوله تعالى : « فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وهذه يد عمر لم تغسل من دماء الأعاجم والروم الذين كانوا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وملوكهم يتخذون المصانع الشائخة والقصور المزخرفة فغرتهم الحياة الدنيا وسوغوا لأنفسهم استعباد الرعية وتسخير الكافة في توفير لذاتهم وشهواتهم فأدال الله منهم هؤلاء القوم وهم على حال أخوة وتواس فيما بينهم لا ميزة لأحد منهم على الآخر إلا بحسن البلاء أكرمهم عند الله وفيما بينهم اتقاهم لم تبهرهم الدنيا بزخرفها ولم تختلب قلوبهم بنقشها ورقشها . فمثل عمر يخشى أن يغمس أمثال سعد بن أبي وقاص ومن على شاكلته أيديهم فيما غمست فارس والروم أيديهم فيه فيديل الله من أهل الإسلام كما أدا لهم من جيرانهم بالأمس .

واتخاذ الأبواب دون الأمير وصعوبة الوصول إليه أمر لم تجر به عادة العرب ولم يألوه فيما بينهم إلى اليوم وعمر يخشى أن يكون مبدأ جبرية يقتربها سعد

تحت ظل ويأخذ الناس بها باسمه سرت إليه من أهل فارس . إذا رخص له عمر في أخذ الناس بها كان شريكاً له في إثمها ومساهماً له في جزائها . وهم إنما كانوا يعيرون العجم بالأمس ويحجونهم بمثل مايتخوف عليهم عمر مغبته اليوم ولايحسن في القالة أن يكونوا بمن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم .

إن الأمر الذي أخذ به سعداً مما تطرّب له قلوب أهل الاشتراكية المعتدلة وتصغى إليه مسامع الفئات التي تنشد المساواة وتخفيف ويلات الإنسانية وتطهير المجتمع من أدران المدنية الجائرة القاسية وتعبس له وجوه أهل الأثرة وعباد الأثانية ومن يؤلهون الآلهة ويقدسون الخيلاء .

أما تحجيره على أهل المصرين أن يبتنوا بيوتهم في أول الأمر ثم تسويغهم ذلك على شرط القصد في البناء وعدم الاستطالة فسببه أن القوم هم جند الإسلام وأعباء الجهاد وحماة تلك النواحي وذادة الملة وهم على أهبة النجعة وعلى أوفاز للإغاثة أن دعا داع في ناحية من النواحي . والجندي إذا تأثل العقار وتبجح في اتخاذ الدور المنجدة بأنواع الزخرف والزينة كان ذلك أدعى إلى نقل الجهاد على نفسه ورغبته عن مزايلة مستقر راحته وإذا أزعج من مكانه هذا إلى وجه من الوجوه أو ناحية من النواحي كان قلبه دائماً الالتفات إلى ماخلف وراءه من نعم ومافارق من مال هو عدل نفسه وشقيق رُوحه . وإنى أقتصر على هذا وأترك لكم الحكم بالإنصاف في منع أمير المؤمنين وإذا استطاع واحد منكم أن يفهم الصائحين فليفعل وله الأجر .

ومهما كان الشأن في ذلك . فإن عمرو وضع تخطيط المصرين على قاعدة صحيحة محكمة فقد وسع طرقها وجعلها على نظام جميل وهي في شكلها العام تشبه أن تكون كحلوان في نظامها واتساع طرقها إذا قارنا بين ارتفاع الحيطان فيها وسعة المناهج والطرق لا في الرواء والزينة — فكانت الكوفة تجمع بين سكنى

المدن وهواء البادية وتربتها . وذلك أدعى إلى صحة الأجسام وجودة الهواء لأن سعة الطرق للبلاد بمثابة الرئة للجسم .

ومن المدن التي خططت على نظام أتم مدينة الخرطوم الحالية وقد قسمت درجات فابلي النيل الأزرق الدرجة الأولى ورامها الدرجة الثانية والثالثة والرابعة وهي في سعة الشوارع على هذا الترتيب .

وقد بنيت البصرة والكوفة في سنة واحدة وإن كان أهل البصرة قد نزلوها قبل ذلك وبهذا يجمع بين الأقوال المختلفة في تحديد العام الذي أسست فيه البصرة فمن قال إن ذلك كان سنة ١٤ هـ فذلك مبدأ نزولها ومن قال سنة ١٧ هـ فذلك عام تمصيرها والبناء فيها على التخطيط الذي وصفنا .

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة : حلوان وماسذان وقرقيسيا والموصل وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص بعينه أمير المؤمنين . وقد صار كل من الكوفة والبصرة مركزاً حرياً تفصل منه الجنود لحرب العجم ، ولكل منهما جنود خاصة ترابط فيه لحين الحاجة .

فتح الجزيرة

يراد بالجزيرة هنا ما بين دجلة والفرات من جهة الشام ويسمى جزيرة أودر وهي تشتمل على ديار مضرو وديار بكر ومن أمهات مدنها حرّان والرّها والرّقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد ومبارقين والموصل وغير ذلك .

وكان الذي أثار فتحها أن عرب الجزيرة قد أمدوا الروم بمجموع كثيرة يعاونونهم على المسلمين الذين كانوا يقاتلون الروم بناحية حمص — فأراد عمر أن يخالفهم إلى ديارهم وبلادهم ليشغلهم في أنفسهم وأهلهم عن نصرة الروم .

وقد نقل بن جرير الطبري خبر فتح الجزيرة فقال أول ما أذن عمر للجند

بالكوفة بالانسياح أن الروم خرجوا وقد تكاثبوا هم وأهل الجزيرة يريدون
أبا عبيدة والمسلمين بحمص فضم أبو عبيدة إليه مسالحه وعسكروا بفناء مدينة
حمص وأقبل خالد من قنسرين وانضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح
فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث . فكان خالد
يأمره أن يناجزهم وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ويكتب إلى عمر فأتاهم
وعصى خالدًا وكتب إلى عمر بخروجهم عليه وشغلهم أجناد أهل الشام عنه وقد
كان عمر اتخذ على كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين معدة
لكون إن كان . فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس . فلما وقع الخبر
لعمر كتب إلى سعد بن مالك أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم
من يومك الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحبط به .
وتقدم إليهم بالجد والحث . وكتب إليه أيضا أن سرح سهيل بن عدي إلى
الجزيرة في الجند وليأت الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استناروا الروم
على أهل حمص وإن أهل قرقيسيا لهم سلف وسرح عبد الله بن عتبان إلى
دصيبين فإن أهل قرقيسيا لهم سلف ثم لينفضا حران والرها . وسرح الوليد
ابن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضا فإن كان قتال فقد
جعلت أمرهم جميعا إلى عياض بن غنم . وكان عياض من أهل العراق الذين
خرجوا مع خالد بن الوليد متجدين لأهل الشام ومن انصرف أيام انصراف
أهل العراق بمدن لأهل القادسية وكان يرافد أبا عبيدة ففضى القعقاع في أربعة
آلاف من يومهم الذي أتاهاهم فيه الكتاب نحو حمص وخرج عياض بن غنم
وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض وتوجه كل
أمير إلى الكورة التي أمر عليها فأتى سهيل الرقة وخرج عمر من المدينة مغيبا
لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية . ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا

الروم على أهل حصص واستناروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من بالجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت من السكوة ولم يدروا : الجزيرة يريدون أم حصص؟ أجفلوا ففارقوا إلى بلدانهم وإخوانهم وخلوا الروم . ورأى أبو عبيدة أمراً لما انفضوا غير الأول فاستشار خالداً في الخروج فأمره بالخروج ففتح الله عليهم . اهـ

وعلى هذا الوجه فتحت الجزيرة على الصلح وما جرى مجراه ولم تكن بلد أيسر منها أمراً ولا أسهل منها فتحاً .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد وفد تغلب على أن لا ينصروا وليداً فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من أوفدهم ولم يلتزمه غيرهم . فلما جاء عمر ووجه إليهم الوليد بن عقبة وأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام حاجوه بأنهم لا سبيل عليهم لأنهم لم يعطوا عهداً بذلك ولا شأن له عليهم ، فكتب الوليد إلى عمر في شأنهم فكتب إليه عمر : إنما ذلك في جزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام فدعهم على أن لا ينصروا وليداً واقبل منهم إذا أسلموا . فقبل منهم على أن لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام فأعطى بعضهم ذلك فأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزاء فرضى منهم بما رضى من العباد وتوخ . على أن رضى القوم بالجزاء إنما كان باسم صدقة أنفة منهم أن يساموا جزية . وذلك أن الوليد أرسل رؤسائهم وديانهم إلى عمر فقال لهم عمر : أدوا الجزية . فقالوا له أبلغنا ما أمتنا والله إن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحننا من بين العرب . فقال أتم فضحت أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف واقتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدن وأتم سفرة قاة . ولئن هربتم إلى الروم لا كتبنيكم ولا سيبنكم . فقالوا خذ منا شيئاً لا تسميه جزاء . فقال أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم . فقال على بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ألم يُضغف

عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ قال بلى وأصغى إليه ورضى منهم بالجزاء على أن يسمى صدقة . وكان في بني تغلب عز وامتناع وكانوا ينازعون الوليد فهم بهم وقال :

إذا ما عصبت الرأس منى بِمَشَوِذٍ فَمَيْكَ منى تغلب ابنة وائل
تخاف عمر أن يخرجوه فيخرجوه إلى أن يسطو عليهم فعزله وولى
عليهم سواه .

فتح الأهواز^(١)

الأهواز تناخم حدود البصرة وكان بها الهرمزان وكان من أحد ييوتات فارس وأمه بتلك الناحية فكان يغير على البلاد التي دانت لحكم المسلمين . فلما علم بذلك عتبة بن غزوان وهو بالبصرة استمد سعد بن أبي وقاص فأمدته بنعيم ابن مقرن ونعيم بن مسعود في عسكر وأمرهما أن يأتيا ميسان ودستميسان حتى يكونا بينهما وبين نهر تيرى وأرسل عتبة بن غزوان سلمى بن القين وحرملة بن مريطة في جند وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مناذر . وقد دعوا بني العم بن مالك وكانوا من حاضري تلك الجهة فأجاب رؤسائهم إلى أن يكونوا عوناً للمسلمين واتفقوا على إحداث ثورة بمناذر ونهر تيرى والهرمزان يومئذيين نهر تيرى وبين ذلك . فلما التقت جيوش المسلمين بجيوش الهرمزان واشتد القتال بين الفريقين كان بنو العم قد أخذوا مناذر ونهر تيرى . فقت ذلك في عضده وهزم جنده فقتل المسلمون منهم ما شاءوا وأسروا منهم عدة ثم عبر الهرمزان بمن بقي معه من دُجَيْلٍ أمام سوق الأهواز وصار دُجَيْلٍ بين المسلمين ومن معهم من بني العم وبينه ثم طلب الهرمزان الصلح فعقد معه الصلح على الأهواز كلها ومهرجان فذق ما عدا ما فتحه المسلمون عنوة . واتخذ المسلمون مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطون .

(١) الأهواز بجوز كور عدما ياقوت عشراً وهي سوق الأهواز ورامهرمز وأبذج وعسكر تكرم وتستر حندي سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومادر . وهي مقالة البصرة .

أقام بنو العم مسلحة للمسلمين بتلك الناحية . ثم فجر اختلاف بين بعض رؤساء بني العم غالب وكليب وبين الهرمزان على حدود الأرضين ورؤساء بني العم يومئذ سلمى وحرملة وغالب وكليب الوائليان . فقدم سلمى وحرملة لينظرا الخلاف فوجدا الهرمزان ظالماً لغالب وكليب لحالا بينه وبينهما . فنقض الهرمزان صلحه ومنع ما قبله واستعان بالأكراد فكشف جنده وانتهى إلى عتبة بن غزوان فكتب بذلك إلى عمر فأمره أن يمدهم بمجد من عنده عليهم حرقوص بن زهير فالتقى بنوا العم وهم على ساداتهم مع جند المسلمين بجند الهرمزان على جسر سوق الأهواز فانهزم الهرمزان وجنده وفر إلى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الأهواز ونزل الجبل واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تستر ووضع الجزية على أهل البلاد التي افتتحها وجد في عمارتها ثم أرسل الهرمزان في الصلح فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتح عنوة وهورامهرمز وتستر والسوس وجندی سابور والبنیان ومهرجان قذق .

كان عمر يخاف أن يكون نقض أهل الذمة ما بأيديهم من العهود عن غدر من المسلمين أو ظلم منهم لأهل الذمة فكتب إلى عتبة : أن يوفد عليه عشرة رجال من صلحاء جند البصرة . فأوفدهم وفيهم الأحنف بن قيس ، فسأله عمر عن حال الجند وعن انتقاض من ينتقض بتلك الناحية أعن ظلم هو ؟ فقال : لا بل لغير ظلم والناس على ما تحب فصدقه عمر فيما قال . وقال عمر — وقد رأى في ثياب الأحنف فضولا — : خصوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم . وكتب عمر إلى عتبة : أعزب الناس عن الظلم واتقوا الله واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم لكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً .

غزو فارس من البحرين

كان المسلمون في ناحية البصرة والكوفة بإزاء الفرس وقد استقامت الأحوال في الغالب والفرس في تلك الناحية يؤدون الخراج للمسلمين لا يدخل عليهم ولهم الذمة والمنعة . وكان عميد الصلح في تلك الناحية من البصرة الهرمزان . وكان عمر يريد الاكتفاء بما في أيدي المسلمين ويقول : وددت لو أن يفتنا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم .

وكان العلاء بن الحضرمي عاملا لعمر على البحرين وكان له ذكر وشهرة في أيام حرب أهل الردة ليست لسعد بن أبي وقاص ، فلما فتح سعد العراق والفرس وظفر بالقادسية وأزاح الأكاسرة وورث المسلمين أرضهم وديارهم عني ذلك على ما كان للعلاء من شهرة وبلاء وكان العلاء يباريه . فسر العلاء أن يبلي بلاء يكون في وزان ما صنعه سعد لئلا يذهب عليه بالشهرة والصيت .

ندب العلاء أهل البحرين إلى فارس فأسرعوا في إجابته ونزلوا عندما يسره وفرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر السوار بن همام ، وعلى الثالث خليلد بن المنذر بن ساوى وجعله قائدا عاما وحملهم على السفن وأجازهم في البحر إلى فارس دون أن يكون قد أذن له عمر في ذلك ولم يستأذنه في شيء من هذا الأمر وكان عمر يكره أن يغزر بالمسلمين أو يميزهم إلى عدوهم في ماء قبل أن يشنوا في ناحيته ويكسروا شوكته .

عبرت تلك الجنود فخرجوا وبإزائهم أهل فارس وعليهم الهرمزان فاجتمعوا على الجند وحالوا بينهم وبين سفنهم . فقام خليلد في الناس فخطبهم وحشهم وقال :

أما بعد : فإن الله إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبه ، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن دعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها الكبيرة إلا على الخاشعين — فلما صلوا الظهر شبوا القتال بينهم وبين الفرس فقتل من قواد المسلمين السوار والجارود . وجعل خليلد يذمر القوم ويحرضهم فاشتد القتال فقتل الفرس مقتلة لم يقتلوا مثلاً قبلها ولم يجد المسلمون سيلاً إلى الرجوع في البحر لأن الفرس أغرقوا سفنهم فخرجوا يريدون البصرة فوجدوا شهرَكَ قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا .

وصل الخبر إلى عمر فتذكر ما قدم بما حدث وخشى أن يصيب هذا العسكر ما أصاب عسكر أبي عبيدة فاشتد غضبه على العلاء فعزله وكتب يتوعده وأمره بأمر يشق عليه حمله وهو : أن يلحق فيمن معه بجند سعد بن أبي وقاص . وكتب إلى عتبة بن غزوان : أن العلاء بن الحضرمي عمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني وأظنه لم يرد وجه الله بذلك فخشيت عليهم أن لا ينصروا وأن يغلوا وينشبوا فاندب الناس واضمهم إليك قبل أن يحتاجوا .

انتدب له أنجاداً من الناس كما هم بن عمر وعرجة بن هرثمة والأخنف بن قيس وسواهم من أنجاد أهل الإسلام في اثني عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل وعيهم أبو سبرة بن رُم والمسالخ على حالها بالآهواز فسار لا يلقاه معارض إلى أن التقى بجيش خليلد وقد كان أهل اصطخر وحدهم وشذاذ من غيرهم هم الذين أخذوا الطرق على جيش خليلد . فلما أقام المسلمون بمكانهم طارت الأخبار إلى أهل فارس فطار إليهم من كل فج وناحية وتوافت إلى الفرس أمدادهم وتوافت إلى المسلمين أمدادهم كذلك فاقتلوا قتالاً شديداً حالف المسلمين فيه الظفر ونالوا من الفرس ما شاءوا قتلًا وأسرا . وكانت هذه الغزوة سبباً فيما طار بين الناس من شرف نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار وأفضل المصرين نابتة ثم

انكفأوا بما أصابوا وعاد المُنْقَذُونَ من أهل هجر والبحرين إلى قبائلهم من البصرة .

هنا نلفت نظركم إلى خطأين . فأما أولهما : فمن العلاء بن الحضرمي لأنه أجاز جنده البحر إلى قوم لهم قوة وشوكة وليسوا بدون جنده عدداً وعدة دون أن يكون له بتلك العدو وزر أو فئة . ولم يكن عند السفن من يمنعها من الإعداء أن يعتروها بسوء — فلو أن الهزيمة كانت على جنده لاستوصلوا وكانت نكبة دونها نكبة جسر أبي عبيد .

الخطأ الثاني : ما حصل من أهل فارس بإخراج جند في قوة ومنعة وقد نال منهم . ولو أن القوم وجدوا سفنهم لأجازوا فيها وخالوا للقوم ديارهم . ولكن القوم وهم في قوة عمدوا إلى المكاشرة وامتنعوا حتى جاءهم المدد وتنقذهم ولم يجدوهم ما صنعوه من إغراق السفن ولا أخذ الطرق عليهم ، بل كانت خسارة أهل فارس مضاعفة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلّل الفرس في ناحيته استأذن عمر في الحج فأذن له . فلما قضى نسكه استغفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات يبطن نخلة فدفن به . وبلغ عمر خبره فمر به زائراً وقال : أنا قتلتك ، لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم . وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ .

فتح رامهرمز والسوس وتسائر

كان يزدجرد يبرو وفي يده ما بقي من بلاد فارس وهو رقعة فسيحة كان في ميسوره أن يدبر أمرها لو قنع والقوم وادعون راضون به . وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مقصر للسليين من عنانهم لا يرضى لهم بالانسياح فيما

وراءهم من فارس . غير أن الله تعالى إذا أراد أمراً يسره . فإن يزدجرد لم يسخ الغصة التي رمى بها . فلم يقر له قرار عن استرجاع بلاده فأخذ يحمس أهل فارس ويستثير حميتهم ونخوتهم ويهزم لاستنقاذ بلادهم ومسح العار اللاحق بهم . فتحركوا لذلك . وكاتب بعضهم بعضاً ودخل أهل الأهواز في أمر فارس وتعاهدوا وتعاهدوا وتوافقوا على النصر . وجاءت الأخبار إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة . فكتب إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجل وابعث سويد بن مقرن وعبد الله ابن ذى السهمين وجريز بن عبد الله البجلي فلينزّلوا بإزاء الهرمزان حتى يفرغوا من أمره وكتب إلى أبي موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً ، وأمر عليهم سهل بن عدي وابعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو وجزاة بن ثور وكعب بن سور وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محسن وعبد الرحمن بن سهل والحسين بن معبد ، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم وكل من أناه عدداً له . تخف النعمان في أهل الكوفة على البغال يحبون الخيل حتى انتهى إلى تيرى فجاوزها ثم جاوز مناذر وسوق الأهواز قاصداً رامهرمز . فلما سمع الهرمزان بقصده طمع في نصر أهل فارس وأراد أن يقطع النعمان ومن معه وبأدبه القتال بأربك وقد وردت أوائل الفرس تستر فاقتلوا قتالا شديداً فانهزم الهرمزان وأخلى رامهرمز ولحق بتستر وأخذ النعمان رامهرمز . ولما وصل أهل البصرة إلى سوق الأهواز جاءهم خبر الواقعة وأن الهرمزان لحق بتستر فقالوا انخواها وراغ النعمان إليها من رامهرمز وقصدنها المسالح التي تركوها خلفهم وكان عليها حرقوص وجزء ولحق بهم سلمي وحرملة من بني العم ونزل جميعهم على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس . ثم جاء أبو موسى الأشعري مدداً للمسلمين فحاصروا الفرس أشهراً وقتل كل من البراء بن مالك وجزاة ابن ثور وكعب بن ثور وأبو تيممة ونفر سواهم في براز الفرس مائة مقاتل سوى من قتل منهم في غير براز .

وقد زاحف المسلمون الفرس في حرب تستر ثمانين زحفاً يكون ذلك لهم مرة وعليهم أخرى . فلما كان آخر زحف قال المسلمون يا برآء أقسم على ربك ليهزمهم لنا فقال : اللهم اهزمهم واستشهدني فهزموهم واقتحموا عليهم خنادقهم ففزع الفرس إلى المدينة وأحاط المسلمون بها وقد ضاقت بهم المدينة .

وبينما المسلمون على ذلك إذ خرج إلى النعمان رجل من المدينة فاستأمنه على أن يده على مدخل المدينة .

وقال أبو جنيقة الدينوري في الأخبار الطوال أن الرجل إنما كلم أبا موسى الأشعري وكان اسم الرجل سمينة وكان من أشراف المدينة فقال تؤمنني على نفسي وأهلي وولدي ومالي وضياعي حتى أعمل في أخذك المدينة عنوة فجعل له ذلك فقال ابعت معي رجلاً من أصحابك فتدب أبو موسى الناس لذلك الوجه . فقال الأشرس بن عوف الشيباني أنا فضي معه حتى خاض به دجيلاً ثم أخرجه في سرب حتى انتهى به إلى داره ثم أخرجه من داره وقد ألقى عليه طلياساناً وقال امش ورأى كأنك من خدعي ففعل ومر به في أقطار المدينة طولاً وعرضاً حتى انتهى به إلى أحراس أبواب المدينة ثم انطلق حتى مر به على الهرمزان وهو على باب قصره ومعه ناس من مرازبه وشجع أمامه حتى نظر الرجل إلى جميع ذلك ثم انصرف إلى داره وأخرجه من السرب وعاد إلى أبي موسى فأخبره الأشرس بجميع ما رأى وقال وجه معي مائتي رجل حتى أقتل الحرس وافتح الباب فانتدب مائتي رجل مع الأشرس وسيمينه حتى دخلوا من ذلك النقب وخرجوا في دار سيمينه وتأهبوا للحرب ثم خرجوا والأشرس أمامهم حتى أتوا إلى باب المدينة وأقبل أبو موسى في جميع الناس حتى وافوا الباب من خارج فوافي الأشرس بمن معه وقتلوا حرس الباب وضربوا القفل حتى كسروه ودخل المسلمون ووضعوا السيف فيهم وهرب الهرمزان في عظماء مرازبه حتى دخلوا الحصن الذي في جوف المدينة وامتنعوا

به ولما أخرج الهرمزان طلب أن يسلم على حكم عمر يصنع به ما شاء فرضوا منه بذلك ثم ذهبت طلائع المسلمين في اتباع القالة وأخذ ما أحاط بتستر من البلدان .

أما الرجل الذي دل المسلمين على عورة بلده فلا أدري سبب فعلته وليس من شأن الفرس هذا فهل كان له ثأر قبل الهرمزان ؟ لم أقف على ذلك .

وأرسل أبو سبرة الهرمزان إلى عمر فلما قدموا به إلى المدينة وكان في الوفد أنس بن مالك والأخنف بن قيس ، ألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجاً يسمى الأزين وألبسوه حلته كما يراه عمر .

فلما دخلوا المدينة قصدوا بيت عمر فلم يجدوه فقبل لهم إنه في المسجد مع وفد جاءوا إليه فقصدوا المسجد فلم يجدوه فذهبوا يسألون عنه فقال لهم ولدان المدينة ما تلذدكم تريدون أمير المؤمنين إنه نائم في ميمنة المسجد متوسد برأسه فذهبوا إليه فوجدوه كما وصفوا ودرته معلقة في ذراعه فجلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره - فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فأشاروا إليه فقال : وأين حرسه وحجابه عنه ؟ فقالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان فقال : ينبغي أن يكون نبياً - قالوا لا . بل يعمل عمل الأنبياء . وكثر الناس واستيقظ عمر على الجلبة فاستوى جالسا ثم قال : الهرمزان ؟ قالوا نعم . فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال : أعوذ بالله من النار وأستعين الله . وقال الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه . يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة وقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلمه . فقال : لا حتى لا يبقى عليه من حلته شيء فرمى بكل شيء عليه إلا شيئا يستره وألبس ثوباً صفيقاً . فقال عمر : هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : يا عمر إنا كنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتونا - فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم

وتفرقنا ثم قال عمر : ما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فم إناه غليظ . فقال : لو مت عطشاً ما شربت في هذا . فأتى به في إناه يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال : أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء . فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه . فقال عمر : لا تجمعوا عليه بين القتل والعطش فقال : لا حاجة لى في الماء . فقال له عمر إني قاتلك . فقال آمنتى . فقال عمر كذبت . فقال أنس بن مالك صدق يا أمير المؤمنين . فقال عمر ويحك منى يا أنس أبا أو من قاتل البراء ومجزة بن ثور ؟ والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبك . قال قلت : لا بأس عليك حتى تخبرنى . وقلت لا بأس عليك حتى تشرب . وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل عمر على الهرمزان وقال : خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له عمر في العطاء على ألفين وأنزله المدينة .

والذى أعتقده أن عمر إنما أنزله المدينة ليكفى المسلمين عواقب غدر الرجل ومكره فإنه كان واسع الحيلة خداعاً كما يتبين من عمله هذا وما كان منه مع المسلمين في الأهواز . والرجل لم يترك دسائسه وهو بالمدينة حتى كان من أمره ما كان حين قتل أبو لؤلؤة المحوسى عمر . ولو أنه أقام بعد عمر لتحيل حتى يرجع إلى بلاده ثم يكون له مع المسلمين شأن آخر . فإسلامه كما أعتقد إنما كان تقية ودسياسة على الإسلام والمسلمين . وقد بلغ من قوة مكيدة الرجل أن كان يتجنب إلى عمر ويوهمه أنه يخلص النصيح له حتى يكسب ثقته .

خلص عمر إلى الوفد يسأل عن المسلمين وما يعاملون الناس به وخشى أن يكونوا قد اعتروا أحداً من أهل الذمة بسوء وأن يكون الانتقاض له سبب من ذلك فقال للوفد : لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما يذيقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة . قال فكيف هذا ؟ فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصام على ما في أيدينا وإن ملك الفرس حتى بين أظهرهم وإنهم لا يزالون

يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أننا لم نأخذ شيئا بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنَسَحْ في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه عن مملكته وعز أمته . فهناك ينقطع رجاء أهل فارس . فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه . ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند على قتال المسلمين . فكان ذلك سببا لإذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد فارس .

فتح نهاوند

كان الفرس قد اجتمعوا بنهاوند من بلاد الجبل جنوبى همدان واستشار عمر الهرمزان . فقال : إن فارس اليوم رأس وجناحان فاقطع الجناحين يهن الرأس وذكر له أن الرأس بنهاوند وهو بَنَدَار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان . فقال عمر كذبت يا عدو الله بل أعمد إلى الرأس أقطعه فإذا قطعه الله لم يعص عليه الجناحان وكتب إلى أبى موسى أن سر بأهل البصرة . وإلى حذيفة بن اليمان أن سر بأهل الكوفة فإذا التقيتم فأمركم النعمان ابن مقرن المزنى . وكتب إلى النعمان : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . فإنه بلغنى أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار . والسلام عليك ، فسار النعمان فى جند المسلمين وفيهم أعيان الصحابة ووجوه العرب وأنجادهم . فلما انتهى إلى نهاوند بث العيون ليتعرفوا له حال ناحيتها فأخبروه بأن القوم قد ألقوا حولهم الحسك وهم يمتنعون .

حط المسلمون في تلك الناحية وأنشؤا القتال مع الفرس أياماً ثم انجزوا في خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا . وخاف المسلمون أن يطول بهم المقام عليهم فكلموا النعمان في الأمر فجمع أهل الرأي والنجدة في الجند وأجال معهم الرأي فيما ينبغي أن يصنعه والقوم معتصمون أشد اعتصام بالحصون والخنادق والمدائن والمسلمون لا يقدرّون على إنفاضهم وانبعاثهم وإنه إنما يريد أن يحبسهم ويستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل . فقال عمرو بن "ثي" وكان أكبر الناس سناً وكانوا يبدأون بدوى الأسنان . فقال : التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم . فردوا عليه جميعاً رأيته وقال عمرو بن معد يكرب : ناهدم وكأثرهم ولا تخفهم . فردوا عليه رأيته وقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا . وقال طليحة الأسدي : قد قالوا ولم يصيبا ما أرادوا . وأما أنا فأرى أن نبعث خيلاً مؤدية فيحدثوا بهم ثم يرموهم لينشؤا القتال ويحمسوه فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم وإنما إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فينا ولم يشكوا في هزيمتنا فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فينا وفيهم ما أحب فرمضى منه هذا القول . وأمر القعقاع . ففعل وأنشب القتال فأنغضهم ثم نكص ونكص وظنها الأعاجم هزيمة فاغتموها وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الأبواب وتقهقر القعقاع إلى المسلمين حتى انقطع الفرس عن حصنهم وقد أمر النعمان الناس بأن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم وقد رماهم الفرس وفشت فيهم الجراحات وجعلوا يستأذنون في الهجوم وهو يلبثهم ثم أمر بالهجوم وصار يمشى في الرايات ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور وقد أنجز لكم هوادى ما وعدكم وصدوره ، ولم يبق إلا أنجازهم وأكارعهم والله منجز وعده ومنبع آخر ذلك أوله واذكروا إذ كنتم أذلة وما استقبلتم من هذا الأمر وأتم أعزة . فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه . وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة والذي لهم في ظمركم وعزكم والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم . إلى آخر ما كلمهم وأطال به .

بعضهم فانبعثوا إلى الأعداء فاقتتل الناس بالسيوف اقتتالا شديداً لم يسمع الناس بوقعة يوم قط كانت أشد هولا منها . وقتل من الفرس فيما بين الزوال والعتمة ماطبق أرض الميدان وما يزلق الناس والدواب . وأصيب النعمان فأخذه أخوه سواد وبيجاه بنوبه . وتناول الراية حذيفة بن اليمان ولا يعلم الناس بمصاب النعمان وكنتم ذلك من علمه لثلاثين الناس حتى إذا أقبل الليل انكشف الفرس ولزم المسلمون مجالدتهم فعمى السبيل على الفرس وهروا في هاوية كانت هناك بعيدة الغور ولم ينج من جموع الفرس سوى الشريد - وكان فيهم الفيرزان فهرب من بين الصرعى وتبعه القعقاع وهو يتعقب الفلال حتى أخذه ووصل القعقاع إلى همدان . وقد هال ذلك أهل البلاد القريبة من نهاوند فصالحوا ودخل المسلمون نهاوند واحتوا ما فيها من الأموال وكان شيناً كثيراً وأقبل الهربذ صاحب بيت النار يطلب الأمان لنفسه ولمن يريد على أن يؤدي إليهم ما وضع عنده للتخيرجان من ذخائر كسرى وهي جوهر كان أعده لنواب الزمان فأجمع رأى المسلمين على رفعه إلى عمر مع الأخماس وخرج بذلك السائب بن الأقرع وأدى إليه ذلك . ولم يقبل عمر سفطى الدر بل ردهما على حذيفة ليقيم أمانهما بين المسلمين ولم يرض بشيء مما خصوه به وهو كنوز كسرى .

وقد بكى عمر لاستشهاد النعمان بكاء شديداً حتى سمع له نسيج . وبعد انتهاء الموقعة أذن عمر للمسلمين بالانسياج في بلاد الفرس لقطع مادة الشغب وليأس الملك من عود ملكه إليه حتى لا يكون كالشوكة في جنب المسلمين . فبعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلدان وأرسل إليهم بالآلوية وهم :

(١) الأحنف بن قيس التيمي ووجهه إلى خراسان .

(٢) مجامع بن مسعود السلمي ووجهه إلى أردشير خُرَّه وسابور .

- (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجهه إلى اصطخر .
(٤) سارية بن زنيمة الكنانى ووجهه إلى قنسا ودار بجرود .
(٥) سهيل بن عدوى ووجهه إلى كرمان .
(٦) عاصم بن عمر ووجهه إلى سجستان .
(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجهه إلى مكران .
وقد استعدت هذه الجنود إلى وجهها مفتح سنة ١٨ هـ .

فتح أصبهان

أصبهان إقليم من نواحي الجبل تجمع بها جمع للفرس فسار إليهم عبد الله بن عبد الله بن عتبة في جند من المسلمين وصار يغلب على البلاد حولها ويصالح من طلب الصلح منهم حتى انتهى إلى أصبهان وكان بينه وبين ملكها القاذوسبان زحوف وكان ذلك بقاعدة هذا الإقليم وهي (آجى) ثم خرج القاذوسبان وقال لعبد الله : لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن أبرز لى فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتنى صالحك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم نسيابة . فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل على وإما أن أحمل عليك . فقال: أحمل عليك . فوقف له عبد الله وطعنه القاذوسبان فأصاب قربوس سرجه فكسر وقطع السرج واللبب والحزام وأزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوق قائماً واستوى على الفرس عرياً وقال له اثبت ، فحاجزه وقال : ما أحب أن أقاتلك قد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن ارجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراحمون . ومن أى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه فإن لكم ذلك ودخل أهل جسى في الذمة إلا ثلاثين رجلاً من أهل أصبهان خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان .

قال الطبرى : وقدم أبو موسى الأشعرى من ناحية الأهواز وقد صالح القاذوسبان عبد الله ثم قال : ودخل أبو موسى وعبد الله جسى وقد جاء كتاب عمر إلى عبد الله أن سر حتى تقدم إلى سهيل بن عدى على قتال من بكرمان .

وكان كتاب صلح أصفهان « بسم الله الرحمن الرحيم » كتاب من عبد الله للقاذوسبان وأهل أصفهان وحواليها . إنكم آمنون ما أدبتم الجزية وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدونها إلى الذي يلي بلادكم عن كل حاكم ، ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوما وليلة وحملان الراجل إلى مرحلة ولا تسلطوا على مسلم وللمسلمين نصحتكم وأداء ما عليكم ولكم الأمان ما فعلتم . فإذا غيرتم شيئا أو غيره مغير منكم ولم تسلبوه فلا أمان لكم ومن سب مسلم بلغ منه فإن ضربه قتلناه وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله ابن ورقاء وعصمة بن عبد الله .

فتح أذربيجان

صقع جليل وملكه عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برزعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت اقبل مدينة المراغة .

وذلك أن نعيم بن مقرن كان في همدان بعد أن فتحها فبلغه أن الفرس تجمعوا بواج روذ بين همدان وقزوین . فخرج إليهم وأنشب القتال معهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة .

فتح الرى

الرى قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسبة إليها رازى .

لما فرغ نعيم من أمر واج الروذ قصد الرى فقهر المجتمعين فى تلك الباحة ثم دانوا له بالصلح وكان الذى ولى الصلح عنهم رئيسهم الزينبى أبوالفرخان وبعد أن تم صلحهم بعث أخاه سويد بن مقرن إلى قومس ، فسار إليها وأخذها سليماً . ومن هناك كاتبه ملك جرجان (وهى مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان) بالصلح فكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان .

فتح الباب

الباب مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر قنوين) وهى ثغر عظيم .

سار سراقه بن عمرو على رأس جيش إلى الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة . فلما أطل عبدالرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمناً لآتيه فأمنه عبد الرحمن فجاء الملك إليه ويظهر أن هذا الملك كان حكيماً عاقلاً رأى العبرة فى غيره فلم يقبل أن يكون عبرة لسواه . وقد رأى المسلمين قد غلبوا فارس على العراقيين والأهواز وغيرها وأنه وإن كان فى بلد منيع وثيق الحصون وعنده من الحماة من يقدر على الامتناع مدة غير أن ذلك ينهك قوته ويضعفه عمن يتأخمون حدوده من الأعداء وليس وراه سوى التسليم لحكم قاهريه وليس وراه ذلك سوى القتل وسبي الذرية فأحب أن يبقى على نفسه ومن معه من الرجال والذرية والنساء وأن يتركوا على حال عافية ليكون ذلك أبقي لهم عاقبة وأعوناً على مصاولة من وراههم من الأعداء .

قال الملك لعبد الرحمن : إني بإزاء عدوك وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول ، وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح فى شىء ولا من الآرمين وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى وأنا اليوم منكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم المصلركم والقيام بما تحبون ، فلا تذبلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم .

كلام جميل وعبارة ناصعة تدل على عقل وبعد غور فى السياسة . وما كان جواب عبد الرحمن إلا أن قال له : فوقى رجل قد أظلك . وجوزة . فسار إلى سراقه فلما جاءه وكلمه بمثل ما كلم به عبد الرحمن وقع ذلك من سراقه موقعا فقال له : قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض . فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عندة الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم الجزاء تلك السنة . وكتب بذلك سراقه إلى عمر فأجازه وحسنه . وكان فى كتاب صلحهم الأمان على أنفسهم وأموالهم . وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر تاب أولم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن توضع الجزاء عن أجب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض عن جزائهم . ومن استغنى منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به . وهذه سنة حسنة فى عهد عمر بن الخطاب ، فليست الاستعانة بالمخالفين ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة .

ثم وجه سراقه بعد ذلك فصائل إلى الجبال المحيطة بأرمينية موقان وتغليس وجبال اللان فلم ينجح أحد منهم فى غزاته سوى بكير بن عبد الله الذى توجه موقان من جبال القبيج وأعطاهم الأمان على الجزاء عن كل حالم والدلالة والنزل

للسلم يوما وليلة — وكان غزو سراقة ومن معه على هذا الوجه لم يخطر لعمر ولا لغيره ببال . لأن جيشا ليس بالضخم يخرج إلى مثل هذا الوجه بغير زاد ولا مؤونة ثم يلاقى هذه السهولة في الفتح والنجاح أمر يتعجب منه ، وبخاصة أن هذه الناحية ثغر عظيم حافل بالجند ، والفرس كانوا يتوقعون أن تكون نكاية جند الإسلام في هذه الناحية ، فجاء الأمر على ما لا يشتهون . وقد مات سراقة بعد أن استوثق أهل هذه الناحية واستحلوا الإسلام . وكان قد استخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر — وقد غزا عبد الرحمن فيها وراء الباب . فلما قطعه لوجهه ذاك قال له شهر براز: ما تريد أن تصنع ؟ قال: أريد بلنسجر . فقال: إنا نرضى منهم أن يدعونا ، قال: ولكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم وتالله إن معنا لأقواما لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الردم . قال: ومن هم ؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا في هذا الأمر بنية كانوا أصحاب حياء وتكرم فازداد حياؤهم وتكرمهم فلا يزال هذا الأمر دائما لهم ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من بخلهم وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم . ثم أخذ عبد الرحمن طريقه حتى غزا بلنسجر غزاة لم تتم أيها امرأة ولا يتم فيها صبي . وبلغ بخيله البيضاء على مائتي فرسخ من بلنسجر وذلك أن أهل البلاد لما رأوا هؤلاء القوم قد طلعو عليهم حال الله بين الترك أهل تلك الناحية وبينه وأوقع الرعب في قلوبهم فقالوا: لولا أن الملائكة تمنعهم من الموت لم يجترئوا علينا ، فتحصنوا منهم ورجع عبد الرحمن بالغنم والظفر .

فتح خراسان

(بلاد واسعة في شرق الفارسية وقصبتها مرو. وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وغير ذلك من المدن التي دون نهر جيحون) .

سبب هذه الغزوة أن كسرى يزدجرد لما وقعت هزيمة جلولا خرج يريد الري وقد جعل له عمل واحد يطبق ظهر بعيره فإذا سار نام فيه ولم يعرس بالقوم . فلما انتهى إلى الري وعليها أبان جاذويه وثب عليه فأخذه . فقال له: أتغدر بي ؟ قال: لا ولكن قد تركت ملكك وصار في يد غيرك فأحييت أن أكتب على ما كان لي من شيء وما أردت غير ذلك ووصل الأدم واكتب الصكاك وسجل السجلات بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم . وكره يزدجرد المقام معه فخرج إلى كرمان والنار معه . ثم عزم على خراسان فأتى مرو فزّلها وقد نقل النار فبنى لها بيتاً واتخذ بستانا وبني أزجا فرحين من مرو إلى البستان واطمأن في نفسه وأمن أن يوثق وكاتب الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدأبوا له حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكشوا وثار أهل الجبال مع الفيرزان فكان ذلك سببا لتغيير عمر رأيه في الانسياح في بلاد الفرس فانساح أهل البصرة والكوفة حتى أثنخوا في الأرض وتوجه الأحنف بن قيس إلى خراسان فأخذ على مهرجان فندق ثم إلى أصبهان وأهل الكوفة محاصروا . فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار العبدى ثم سار نحو مرو الشاهجان وأرسل مطرف بن عبد الله بن الشخير وليس دونها قتال وأرسل الحارث بن حسان إلى سرخس . فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها وحل الأحنف بمرو الشاهجان .

كتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان ملك الترك يستعده جنداً يقاتل بهم العرب فأمدّه . وكتب إلى ملك التصغد كذلك وإلى ملك الصين يستعينه

أما الأحنف بن قيس فاستخلف على مرو والشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي بعد أن لحقت به أمداد السكوفة على أربعة أمراء وهم : علقمة بن النضر النصرى ، ورعى بن عامر التيمى ، وعبد الله بن أبي عقيل الثقفى ، وابن أم غزال الهمداني . ثم خرج الأحنف سائراً نحو مرو الروذ فخرج منها يزدجرد ومرّ على وجهه بلخ فأقام الأحنف بمرو الروذ وقدم جنود أهل السكوفة إلى بلخ ثم أتبعهم الأحنف فالتقت جنود أهل السكوفة بيزدجرد ومن معه فانهزم يزدجرد وتوجه بمن بقى معه من الفرس إلى النهر فعبره ولحق الأحنف بأهل السكوفة وقد فتح الله عليهم وحصلت بلخ في أيديهم وتتابع أهل خراسان ممن شذ أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان وعاد الأحنف إلى مرو الروذ واستخلف على طخارستان رعى بن عامر . ثم كتب الأحنف إلى عمر بفتح خراسان ، فقال : لوددت أنى لم أكن بعثت إليها جنداً ، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار . وكتب عمر إلى الأحنف : « أما بعد فلا تجاوزن النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأى شئ دخلتم خراسان فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر وإياكم أن تمثروا فتغنصوا » .

كان عبور يزدجرد قبل أن يستتب لخاقان وعوزك ملك الصفد لإنجاد يزدجرد والملوك ترى حقاً عليها لإنجاد الملوك . فأقبلت جيوش الترك وحشر أهل فرغانه والصفد وعاد بهم يزدجرد إلى خراسان فلما عبر إلى بلخ خف أهل السكوفة الذين بها إلى مرو الروذ وجاء إليها المغيثون والأحنف بها . وكان الأحنف حين بلغه عبور القوم يخرج يتسمع ليلا فر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول للآخر : لو أن الأمير جعل هذا الجبل خلف ظهورنا وتركنا نقاتل العدو من وجه واحد رجوت أن يكون النصر لنا . فأخذهما الأحنف وعمل بها . وجاءت جموع الترك وسوام فصاروا يقاتلون حتى إذا جاء الليل انشمروا إلى مكان بعيد - ولم يهدأ للأحنف روع حتى علم أين يكونون .

ثم خرج ليلة وحده حتى إذا كان بمكان قريب منهم وقف فلما كان وجه الصبح خرج فارس منهم ومعه طبل فطبل به ثم أخذ مكاناً وقف فيه فجاء الأحنف فقتله . ثم خرج الثاني ففعل فعله ثم وقف فقتله الأحنف . ثم خرج الثالث ففعل فعلهما فألحقه بهما وانصرف لا يشعر به أحد من المسلمين . فلما خرج الترك وجدوا فرسانهم قتلى فتطيروا ورجعوا عودهم على بدشهم يؤمون بلادهم وقالوا : لا خير لنا في قتال هؤلاء .

وفي تلك الأثناء ذهب يزدجرد فيمن معه من الفرس إلى مرو الشاهجان والأحنف لا يعلم به فتحصن منه حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج كوزاً كانت له فأعجل عنها . وأراد أن يستقل فأراد أهل فارس صرفه عن قصده وقالوا له : إن هذا رأى سوء ملك إنك إنما تأتى قوماً في مملكتهم وتدع مملكتك وأرضك وقومك ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنسألكهم فإنهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا . وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا ملكه من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما وفاؤهم . فأبى عليهم وأبوا عليه وقتلوه وهزموه وكاتبوا الأحنف بالخبر فاعترضهم المسلمون والفرس ينازعونه فأعجلوه عن الأثقال ومضى حتى قطع النهر إلى فرغانة والترك فلم يزل مقبلاً هناك زمان عمر . وأقبل أهل خراسان على الأحنف يصالحونه ودفعوا إليه الخزائن وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى وأعدل عليهم فاغتنبوا وغطوا .

ولما عاد رسول يزدجرد الذي بعثه إلى ملك الصين أخبره أنه أهدى إلهياً هدايا وأنه سأله عن القوم الذين غلبوهم على بلادهم وقال له : إنك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف مسكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم ، فقلت : سلى عما أحببت . فقال : أيفون باليهود ؟ قلت : نعم قال : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت بدعونا إلى واحدة من ثلاث : إمدانهم فإن أجبنهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمعة أو المنابذة . قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟ قلت : أطوع قوم لم رشدهم . قال :

فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته فقال: أيجرمون ما يحلون أو يحلون ما يحرمون؟ قلت: لا. قال فإن هؤلاء لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال: أخبرني عن لباسهم فأخبرته. وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها فقال نعمت الحصون هذه. ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق. وكتب مع الرسول إلى يزيد جرد أنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله يبرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق على ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسالك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سرّ بهم أزالوني ما داموا على ما وصف لي فسألهم وأرض منهم بالمساكنة ولا تبيجهم ما لم يبيجوك.

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد الفارسية - تونج - فتحها سارية بن زعيم الدؤلى - ثم فتح فساو دار بجرد - وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر - وفتح سهل بن عدى كرمان - وفتح عاصم بن عمرو سجستان - وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران.

قد نقل الأستاذ الخضرى حديثاً طريفاً هو حديث قيس بن سلمة وكان عمر قد ولاء قيادة جيش لمقاتلة الأكراد، فسار إليهم وهزمهم. ولما قسم على الجند النفل رأى شيئاً من حلية. فقال: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب نفوسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ومؤونة؟ قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا. فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه يوصل ذلك إلى عمر. قال الرسول: فأتيت إلى المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القطاع. فلما دفعت إليه قال: اجلس. فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة - طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس. قال يا يرفاً: ارفع قصاعك ثم أدبر، فاتبعته، فدخل داراً

ثم دخل حجرة ، فاستأذنت وسلمت ، فأذن لي فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من آدم مخشوتين ليفاً فبذ إلى ياحداهما فجلست عليها . فإذا بهو في صفة فيها بيت عليه سِتْر فقال : يا أم كلثوم غداً ، فأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا فتأكلين معنا من هذا ؟ فقالت إني أسمع عندك حس رجل قال نعم . ولا أراه من أهل البلد . قالت : لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته . قال : أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — ثم قال : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا — قال : فأكلت قليلاً وطعماً الذي معي أطيب منه وأكمل . فإرأيت أحداً أحسن أكلًا منه . ما يتلبس طعامه بيده ولا فقه . ثم قال . اسقونا . فجاءوا بس من سلت . فقال اعط الرجل قال : فشربت قليلاً ثم أخذه فشرب حتى قرع القدر جبهته ، فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس . قال : مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم ؟ فقلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم . قال : كيف أسعارهم ؟ قلت : أرخص أسعار ، قال : كيف اللحم فيهم ؟ فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها ، قلت : البقرة بكذا والشاة بكذا . ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختص بها سلمة . فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته . ثم قال : لا أشبع الله إذن بطن عمر ، ثم قال كيف ما جئت به ؟ أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقة . قال . فارتحلت حتى أتيت سلمة . فقلت : ما بارك الله لي فيما خصصتني به . أقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فاقة فقسمه عليهم .

هذه الحكاية لا نخبرنا بمحدث لا نعلمه عن عمر في زهده وتقشفه في منزله

وأخذه أهله بذلك ولكنها تنبئ عن زهد في الدنيا وقد عرضت عليه وخروجه منها وقد تلبست به وتشبثت بأهدابة وذلك ينبئ عن قوة إرادة لا تبلغ إلا بمعونة الله تعالى . فقد كانت الحلية حلاًّ بلاّله جاءت عن طيب خاطر من أصحابها رضية بها نفوسهم . ولكنه يرى القوم جند الإسلام وعزه فهو يريد توفير السعادة لهم وإيثارهم بالغنى إزدادوا رغبة فيما هم بسبيله وهو لا يريد تغيير حاله التي هو فيها لئلا تشغله الدنيا عنهم وتصدف به عن الالتفات إلى أحوالهم — وفوق ذلك فإنه يريد قطع مادة الطموح إلى غنائم المسلمين ونفلهم لئلا يكون أخذ مثل هذه اليوم بحق مدرجة لا امتداد يد غيره من بعده إلى أمثالها بغير حق متأولين في تناول ما يتناولون ما كان من عمر من أخذ بعض الغنائم ولا يبعد أن يتأولوا أن ذلك كان صفيّاً له . فيأخذوا بحقه ما هو باطل ويستحلوا ما هو محرم . فيكون ذلك مدرجة للفساد وفشو الطمع وحب الأثرة وفي ذلك هلاك الراعى والرعية .

وبما تقدم من الفتوح التي سردها سقطة مملكة فارس نهائياً بيد المسلمين وصار لهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات والخليج الفارسي ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية . وكان افتتاح ذلك كله في زمن لم يتجاوز سبع سنين ؛ وكان النصر لهم رفيقاً في كل الوقائع التي واقعوا فيها الفرس إلا قليلاً . وكان للمسلمين اسم جميل عند عامة الفرس لما رأوا فيهم من العدل والوفاء وحسن المصلحة . وكيف لا يكون ذلك رأبهم وعمر يواليهم بالنصائح والعظات ولا يترك فرصة تمر دون تذكيرهم بالوفاء والعدل وحسن السيرة فيما بينهم وفي أهل ذمتهم .

وقد كان شهربراز مع عبد الرحمن بن ربيعة وجاءت شهر راز ياقوته ثمينة ، فناولها لعبد الرحمن فنظر فيها ثم ردها إليه . فقال شهربراز وهو صاحب الباب : لهذه خير من هذا البلد — يعنى مدينة الباب — وأيم الله لا أتم أحب إلى مملكة

آل كسرى ، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها (الياقوتة) لاتزعوها مني وأيم الله لا يقوم لكم شيء ماوفيتهم ووفى ملككم الأكبر .

وإلى هنا ننقل الكلام إلى ما حصل في أرض الروم في عهد عمر رضي الله عنه .

الفتوح في بلاد الروم

لم يتفق المؤرخون على ترتيب الوقائع في مملكة الروم فبعضهم يقدم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حصول تلك الوقائع ونتائجها : والسبب في هذا الاختلاف تلاحق الوقائع وتواليها فيما بين السنة ١٢ والسنة ١٤ . فربما كان حصول واقعتين في وقت واحد فيذكر الراوى إحدى الواقعتين ثم يثنى بالآخرى فيتلقف الكاتب ذلك ويرتبهما على حسب ترتيبها في الذكر ويقدم إحداهما على الآخرى . فإذا جاء راو آخر وعكس الترتيب في الذكر تبعه مؤرخ آخر وصار على طريقته . وربما فتح البلد الواحد مرتين وفتح بلد آخر بينهما فيذكر الراوى الفتح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر — ثم يأتي راو آخر ويذكر فتح البلد الآخر ويذكر الفتح الثاني . وهكذا .

قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام: أما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد . فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل شرحبيل الأزدى ، ونزل عمرو ابن العاص العربى من فلسطين وكان يريد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع . فمن قائل إن أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ، ومن قائل غير ذلك . والذي قال بالأول بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا في البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجيوش استشاروا فأشار عليهم

بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا إلى أبي بكر فأمدّهم بخالد بن الوليد .
ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين فتأمر عليهم . إلى أن قال :

مع أن إمعان الأمراء بجيوش المسلمين في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي
من البلاد ووصول بعضهم إلى الأردن قرب طبرية والبعض الآخر إلى فلسطين
ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق
أم في اليرموك . كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك إنما كانت بعد وقائع كثيرة
كواقعة مرج الصفر وواقعة أجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر
رمق وواقعة العرب من فلسطين وغيرها ، وأن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد
قبل اليرموك صلحاً أو حرباً . ويؤيد هذا ما ذكرناه سابقاً عن البلاذري من أن
أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع
مع بقية الجيوش على اليرموك .

ويدل على أن لجيوش المسلمين مع بعض مدن الشام وبلاده وقائع قبل
اليرموك قول القعقاع بن عمرو وقد كان في جيش خالد الذي جاء من العراق :

بَدَأْنَا بِجَمْعِ الصَّفَرَيْنِ فَلَمْ نَدْعِ لِفَسَانِ أَنْفَاءَ فَوْقَ تِلْكَ الْمَنَاخِرِ
صَيْبِجَةَ صَاحِ الْحَارِثَانِ وَمَنْ بِهِ سَوَى نَفَرٍ نَجْتَذِثُهُم بِالْبَوَاتِرِ
وَجِئْنَا إِلَى بَهْرَمَى وَبَهْرَمَى مَقِيمَةٌ فَأَلَقَتْ إِلَيْنَا بِالْحَشَى وَالْمَعَاذِرِ
فَضَضْنَا بِهَا أَبْوَابَهَا ، ثُمَّ قَابَلَتْ بَنَا الْعَيْسِ فِي الْيَرْمُوكِ جَمْعَ الْعَشَائِرِ

فتح دمشق

قدمنا أن واقعة اليرموك كانت في أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
وأن الرسول جاء بموت أبي بكر وتولية عمر يوم الواقعة وأسرى خالد بالامر
وأن خالد أكرم الأمر إلى تمام الواقعة وانتهائها بالفتح .

فلما انتهى أمر اليرموك ، استخلف أبو عبيدة عليها بشير بن كعب الخيمري وسار حتى نزل بالصفير ، فأتاه الخبر بأن قالة الروم نزلوا بفحل وأن الروم توافى مددهم إلى دمشق ، فكتب إلى عمر بذلك ، فأمره عمر بأن يسير فيبد بدمشق فإنها حصن الشام ويبت ملكهم وأن يشغل من بفحل بخيل تكون يذاثهم حتى إذا فتح دمشق عاد إلى فحل فنازل من بها . وقد كتبت في سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) ما يأتي :

البدء بالقوة الكبرى تسير عليه قواد الجيوش وأهل الفنون الحرية في هذا الزمن . فقد كان من هم قواد الألمان في الحرب التي أثاروا عجاجها سنة ١٩١٤ والعالم لم يزل يصطلى بناوها إلى اليوم أن يبدؤا بالقوة الفرنسية وهي القوة الحرية الحقيقية في ذلك اليوم ليسحقوها غير حاسين للقوة الروسية التي كانت تتجمع في شرق مملكتهم حساباً لأنها بطيئة الحشد لقلّة المواصلات واحتياجها إلى الزمن الفسبح لتستكمل عدتها وتنبأ لخوض أهوال الحرب حاسين أنهم يفرغون من الجيش الفرنسي في زمن يسير ثم يتهاون للجيوش الروسية على هينهم فلما قامت الجيوش البلجيكية في سيلهم وصدتهم عن مباغته الجيش الفرنسي وعوقتهم نحو سبعة عشر يوماً فاستعد الجيش الفرنسي فيها استعداداً كاملاً وصار أداة حرب صالحة ولم يدركوا أربتهم منه ، ورأوا روسيا جادة في مفاجأتهم على حالهم تلك بجيشها العامل ، كفوا عن الإيغال وعمدوا إلى حرب الخنادق ثم وجهوا إلى الجيش الروسي الهائل جيوشاً نازلة وقهرته ثم صارت الحرب إلى الحال التي هي عليها الآن ونحن في يوم ه مارس سنة ١٩١٨ .

صدع أبو عبيدة بأمر عمر وهو أن يذهب إلى الشام أولاً فيبدأها فإذا فتحت سار إلى فحل فإذا فرغ من أمرها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرجيل بن حسنة وعمرأ بالأردن وفلسطين . فنزل جيش من المسلمين على فحل وخشى الروم أن يصل المسلمون إليهم فبثقوا الماء حولهم فوَحلت الأرض وحصروا أنفسهم

بأيديهم وسهلوا للمسلمين المقام على حصارهم وكانوا أول محصور
وقام أبو عبيدة عسكرياً بين حمص ودمشق لثلاثين يوماً المدد من حمص إليها وأرسل
جنداً آخر ليكون بين دمشق وفلسطين ليصد المدد إن جاء منها . ونزل
أبو عبيدة على ناحية من دمشق وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل
نازلاً قريب حمص .

حصر المسلمون دمشق على هذه الصورة وطمع أهلها في أن يمد لهم هرقل
بالجنود فصابروا المسلمين وصبروا على هذا الحصار الشديد سبعين ليلة والمسلمون
يزاحفونهم ويرمون عليهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث .
وأرسل هرقل لإنجادهم خيلاً فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص ويئس القوم
من المعونة .

كان خالد لا ينام ولا ينام ولا يبيت إلا على تعبئة ولا يخفى عليه من أمر
الروم بدمشق شيء وقد اتخذ حبلاً كثيفة السلايم وأوهاقاً . وقد علم أنه ولد
للبطريق الذي على دمشق مولود فصنع طعاماً ودعا إليه حماة المدينة فأكلوا
وشربوا وزالوا عن مواقعهم أمة منهم وثقة بمنعة حصونهم . فانهز خالد هذه
الفرصة ونهض فيمن معه من جنده . وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذهور
ابن عدى وأمثالهم وقالوا إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا
الباب . فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه رموا الشرف بالحبال وعلى
ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق . فلما ثبت لهم وهما تسلق القعقاع
ومذهور وأثبتا الأوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه . وكان المكان الذي
اقتحموا منه أحسن مكان يحيط بدمشق وأشدّه مدخلاً . ولما استولوا على السور
حذر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي مرتقامهم وأمرهم
بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال
جند كثير فارتقوا فيها . وانتهى خالد فيمن معه إلى أول من يليه فأناهمهم
وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما دهمهم واشتغل
أهل كل ناحية بمن يليهم خشية الاقتحام فلم ينجدوا أهل الناحية التي بها خالد

وأصحابه وكسر خالد ومن معه إغلاق الباب بسيوفهم وفتحوا للمسلمين وأعملوا سيوفهم في المقاتلة الذين في ناحية خالد فلم يبق منهم أحد إلا قتل .

لما شد خالد على من يليه وأدرك منهم ما أراد عنوة اجتمع من أفلت منهم إلى الأبواب التي تلي غيره . وكانوا قل ذلك قد أرسلوهم على المشاطرة فأبوا عليهم ذلك . فلم يدر أهل تلك الأبواب من المسلمين إلا بالروم قد ألقوا إليهم بأيديهم يبدلون ما امتنعوا من الإقرار به من قبل وهو الصلح على المقاسمة وهم لا يدرون سبباً لهذا الرضا بعد التأني والامتناع . فلما قبلوا منهم قالوا لهم : ادخلوا فامنعوا عنا من الجانب الآخر . فدخل أهل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى القواد في وسط دمشق هذا استعراضاً وانهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً . وأجروا ناحية خالد على صلح أهل الأبواب الأخرى . وكان صلح دمشق على المقاسمة في الدينار والعقار ودينار عن كل رأس . هكذا ذكر كثير من المؤرخين والظاهر أن رواية المقاسمة على العقار ليست صحيحة بدليل قول عمر لابن عبيدة : « وأما الخنطة والشعير التي وجدتوها في دمشق وكثر مشاجرتكم فيها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس » .

وبعد انتهاء فتح دمشق جاء أمر عمر لابن عبيدة يأمره بصرف جيش العراق إلى العراق فصرفه مع هاشم بن عتبة وأبقى خالد اضيافة .

غزوة فحل

لما فتح المسلمون دمشق كان وراهم جنود الروم في فحل ولا يتسنى لهم الإيغال في تلك البلاد ووراءهم في ذلك المكان قوة رومية لا يستهان بها . فقد قالوا إنهم كانوا ثمانين ألفاً قد حصرتهم المياه والوحول والمسلمون يذاثمهم

من ورائها ففصل أبو عبيدة بالجيش وخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق وعلى الناس شرحبيل بن حسنة لأنه ولي الحرب في الأردن . وجعل خالدا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرأ على المجنبتين ، وضرار بن الأزور على الخيل ، وعياض بن غنم على الرجل . ولما انتهوا إلى أبي الأعور السلمي وكان بين الأردن ودمشق ليصد المدد فقدموه إلى طبرية فحاصرها ونزل سائر الجيش على فيحل .

ولما رأى المسلمون أن الروم في حرز حرز من الوحل الذي جعل الوصول إليهم مستحيلا كتبوا إلى عمر ليأمرهم بأمره . والمسلمون ناعمون في ريف الأردن وخيراته والروم في حرزهم كأنهم دودة القز في برجها الحريري ، فهم محرومون من كل شيء فيه نعيم ولا يقدرون على الخروج إلا على غرر .

ضاقت على الروم المذاهب فرجوا أن يصيبوا من المسلمين غرة ويوقعوا بهم وظنوا بالمسلمين الغفلة فخرجوا بقيادة قائدهم سقلار غير أن شرحبيل كان حازماً شديد اليقظة فكان لا يبيت إلا على تعبئة واستعداد للحرب . فلما هجم الروم على المسلمين خارج الوحل والماء لم ينظرهم المسلمون بل بادروهم بالشدة وقتلهم أشد قتال ليلتهم ويومهم فلما جن عليهم الليل حار الروم وأرادوا الرجوع إلى مكانهم الأول فضلوا ولم يهتدوا إلى الطريق الذي خرجوا منه فانهمزوا حيارى وقتل قائدهم الأول (سقلار) وقائدهم الثاني فوقع فيهم الاختلاط وانهمزوا فأنهوا في هزيمتهم إلى الوحل الذي صنعوه بأيديهم ليتقوا به الموت فكان موتهم ذلك الذي جعلوه وقاية لهم . فإنهم لما تورطوا في الرداغ ركبهم المسلمون وهم لا يردون يد لأمس وكان الوحل الذي كرهه المسلمون أكبر عون لهم على الفتك بأعدائهم

ومن هنا وما كان باليرموك نعلم أن القيادة في جيوش الروم لم تكن من الحنكة والدربة على الحرب ومكائده في وزان القيادة في الجيوش العربية لأن النزول بهم على الواقعة كان أشد وبالا عليهم من سيوف أعدائهم .

وكذلك بثق الماء حول الجيش في فحل كان حصاراً لهم في مقامهم وشركا لهم
في حربهم والله يحكم لا معقب لحكمه .

الوقعة عرج الروم

علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والأردن وما عزم عليه أبو عبيدة من
قصد حمص فأراد أن يشغل المسلمين بجيش مع قائده ثيودور وآخر بقيادة
القائد شنس . ويظهر أن القائدين كانا على اتفاق فيما يصنعان بأن يقف
أحدهما لشغل جيش المسلمين في الوقت الذي يخالف الآخر إلى دمشق وهي
في قلة من الحامية ليأخذها وَيَنْقُصَ على المسلمين ما أبرموا .

وقد التقى الجيشان بجيش المسلمين في مرج الروم غربي دمشق فنزل
أبو عبيدة بإزاء شنس ونزل خالد بإزاء ثيودور . ولما أصبحوا نازلهم شنس
ولم يجد خالد لثيودور أثراً ، وعلم أنه قصد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً
بإقتفاء أثره .

وعلم يزيد بن أبي سفيان بمقدم جيش الروم فخرج لقتالهم . ولم يشعر
الروم بخالد ومن معه إلا وقد أتوهم من ورائهم فأخذوا من بين أيديهم ومن
خلفهم فلم ينج منهم إلا الشريد . ونازل أبو عبيدة ثيودور فقتله وهزم جيشه
وتبعهم المسلمون يقتلونهم ووصل فل ذلك الجيش إلى حمص .

تحقق هرقل أنهم بعد ذلك موافوه إلى حمص فينس من بقاء الشام في يده
فودعها الوداع الأخير بقوله (Adeiu Siria) وأمر عامله على حمص بالتحصن
وأن يطاول المسلمين حتى يأتي الشتاء وأن لا ينازلهم إلا في يوم بارد فلا يمر
الشتاء إلا وقد أهلكهم البرد .

فتح حمص

حمص مدينة بين دمشق وحلب .

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك وقدم إليها السمط بن الأسود الكندي وقدم خالد إلى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع . ونزل أهل بعلبك إلى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباً ثم توجه إلى حمص فنزل عابها وقتلهم قتلاً شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويرأو حوئهم في كل يوم شديد البرد ولقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار . ولما رأوا أن الشتاء قد انصرمت مدته ولم ينصرف المسلمون عنهم اشتد عليهم الأمر ورجعوا إلى ما كان يدعوهم إليه بعض مشايخهم وهم يابون منه وهو الصلح فطلبوا من أبي عبيدة ذلك فصالحهم على صلح أهل دمشق . ونزل بها السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية والاشعث بن مينا في السكون والمقداد في بلي ونزل بها غيرهم . وقد كان نزول المسلمين في كل مرفوض جلاً لأهله أو ساحة متروكة .

وقد بعث أبو عبيدة بالأنخاس والفتح إلى عمر مع عبد الله بن مسعود فكتب إليه عمر أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فإنني غير تارك البعث إليك بمن يكافئك إن شاء الله .

وغرض عمر من ذلك أن يكون أبو عبيدة في قوة ومنعة تكفي عادة الروم لأن بلده أقرب إلى بلادهم وهي مظنة لأن تكون غرضاً لهم ثم بعث أبو عبيدة خالداً إلى الحاضر - حاضر حلب - وكان أصناف من العرب ينزلونه وكان جمع من الروم عليهم مينا وهو أعظمهم بعد هرقل فلا قام خالد بالحاضر فهزمهم وقتل قائدهم ولم يفلت من هذا العسكر أحد .

أما عرب الحاضر فاعتذروا إلى خالد بأنهم حشروا كرها ولم يكن من نيتهم أن يقاتلوا فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال : أَمَرَ خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني . وقال في حقه وفي حق المثني بن حارثة : إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الساس عظموهما نخشيت أن يوكلوا إليهما .

ثم سار خالد حتى نزل على قنشرين فتحص أهلها منه فقال لهم : لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إليسا . فنظر القوم في أمرهم وعللوا أنهم لدسوا بأقوى من أهل الأمصار قبلهم ، فصالحوه على صلح أهل حمص .

ثم فتحت قيسارية على يد معاوية بن أبي سفيان .

ثم فتحت أجنادين على يد عمرو بن العاص وكان بها قائد يقال له أراطون هو أدهي الروم وأبعد رجالهم غوراً وأنكاهم فعالا - ولما بلغ عمر بن الخطاب قال : قد رمينا أراطون الروم بأراطون العرب فانظروا عم تنفرج . وكان الأراطون قد أراد تفريق جنود العرب فوضع بالرملة جنداً عظيماً ، وبإيليا جنداً عظيماً فكتب عمرو إلى عمر بذلك ووجه جنوداً إلى كل ناحية فيها جند الروم وكتب عمرو إلى يزيد أن يوجه معاوية إلى أهل قيسارية ليشغلهم عن عمرو بن العاص فافتتحها كما قدمنا . وتابعت الإمداد على عمرو فأرسل بمد من أقامهم بإزاء جنود الروم بالرملة وأيلة . ومكث مدة لا يقدر من الأراطون على سقطة ولا تشفيه الرسل . فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد .

وقع في نفس الأراطون أن الرسول عمرو بن العاص ، أو الرجل الذي يستشير عمر في أمر الحرب . فدعا رجل من جنده وأسرَّ إليه كلاماً . وفطن عمرو للأمر . فقال له قد سمعت مني وسمعت منك فأما ماقلت فقد وقع مني موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنسكاته

ويشهدنا أموره فأرجع فأتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى لقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمهم وكنت على رأس أمرك . فقال نعم . ودعا رجلا فساره وقال اذهب إلى فلان فردّه فرجع إليه الرجل وقال لعمر و انطلق فجيء بأصحابك ، فخرج ورأى أن لا يعود إلى مثلها . وبلغت عمر فقال غلبه عمرو ، لله عمرو — وقد استبعد الأستاذ الخضرى أن يغرر رجل حذور كعمرو بنفسه ويترك جيش المسلمين وهو قائده وروحه ويجعله تحت الخطر ، ولأنى أوافق وأقول ما كان ليفعل هذا التغير ووراءه رجل يقظ حذر كعمر .

أقتل الروم والمسلمون في أجنادين قتالا شديداً وكثرت بينهم القتلى حتى كان هذا القتال في شدته يشبه القتال في اليرموك ثم انهزم الأوطيون بجنوده حتى آوى إلى إيليا وأفرج له المسلمون الذين عليها حتى دخلها وأقام بها إلى أن فتحت ونزل عمرو أجنادين .

فتح بيت المقدس

لما انتهى عمرو من أمر أجنادين ترك أهل إيليا وهي بيت المقدس في الحصار وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها : ففتح غزة ، ولد ، ونابلس وبيت جبرين ، ومرج عيون ، ويافا — فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس والأوطيون ممتنع بها ، فأخذ يخاطبه في تسليم المدينة فأبى .

وقد جاء في الطبرى أن سمراً دعا برجل يعرف الرومية وأمره أن يأتى أوطيون بكتاب من عمرو فيه : جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة ، تجاهلت فضيلتى . وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد واستعدى عليك فلانا وفلانا . لوزرائه . وأمر الرسول أن يقرب ويتنكر

وقال استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت - فلما جمع أرطبون وزراره وقرأ عليهم الكتاب أغربوا في الضحك . وقالوا له : من أين علمت أنه ليس بصاحبها ؟ - فقال صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف . فكتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول إنني أعالج حرباً كثووداً صدوماً وبلاداً قد ادخرت لك فرأيتك في هذه الرواية غرابة ولا يمكن للتورخ أن يستند إليها لأنها لم تبين على أساس متين . والذي أراه أنصح ، رواية أخرى عن الطبري : هي أن أبا عبيدة حصر أهل بيت المقدس فطلبوا منه أن يصالحهم على أهل الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب . فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة ممدأ لهم بعد أن استخلف علياً عليها وقد قال له علي أين تخرج بنفسك إليك تريد عدواً كلياً . فقال : إنني أبادر بجهاد العدو موت العباس . إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل .

وكان خروج عمر إلى الشام في هذه المرة أول حرجة حرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويوافوه بالجاية فلقوه بها . وكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فلما رأى عمر ذلك كبر عليه أن يرى القوم في زينة وزخرف وهم فريبوا عهد برسول الله أو خاف عليهم أن يكونوا قد افتتنوا بالدنيا وزينتها - فنزل عن دابته وأخذ الحجارة ورماهم بها لا يحجزه عنهم ما لهم من مكانة شائخة وعز باذخ . وقال : سرع ما فُتِم عن رأيكم . إياي وتستقبلون بهذا الزى وإما شعبتم منذ سنين . سرع ما نددت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فلم يكن من القوم الا أن قالوا : يا أمير المؤمنين إنها بلامعة وإن علينا السلاح - قال فعمم إذن وركب حتى نزل الجاية وبينما عمر بالجاية إذ فزع الناس إلى السلاح فسأل عن شأنهم فقالوا : ألا ترى الخيل والسيوف فظفر فإذا

كردوس يلمعون بالسيوف ، فقال : هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم . فإذا هم أهل إيلياء قد جاءوا للصالح .

ذلك أن أهل إيلياء قد اشتد عليهم الحصار وصاروا به في ضنك شديد وأيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها أنهم مأخوذون ولا مطمع لهم في إنفاذ دولة الروم إياهم بعد أن دالت في هذه الناحية دولتهم وزالت عن البلاد سلطتهم وأشفقوا أن لا يعطيهم المسلمون ما أعطوا غيرهم من أهل المدن الأخرى من الأمان لما أسلفوا من شدة قتال وقوة مراس ، ولما بذله المسلمون في حربهم من الدماء . وربما كان القوم قد ظنوا أن المسلمين يَرَوْنَ أن مدينتهم بها البيت المقدس الذي يرى المسلمون تعظيمه . فخافوا أن يغلبوهم عليه ويزيلوا منه معالم الأديان الأخرى . فنزعوا منهم كنيساتهم العظمى وقبيلتهم المقدسة ويحرموهم ذلك بحق الفتح فأروا مؤكيداً للأمان وزيادة في توثيق عرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولما ورد أهل إيلياء إلى الجاية أخبروا أنهم نواب الصلح وأن أمير الجند الرومي قد لحقاً بمصر فصالحهم عمر على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها وكتب لهم بذلك كتباً . وكتب لأهل إيلياء كتاباً خاصاً وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص (وفي رواية اللصوص ولعلها الصحيحة) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله

حتى يبلغوا ما منهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبيهم حتى يبلغوا ما منهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (هكذا في جميع ما رأيت من التواريخ) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ هـ .

ولما بعث عمر بأمان بيت المقدس وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجاية وكان فرسه قد وحى فأتى بيرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج به قزل عه وضرب وجهه بطرف رذائه وقال لا علم الله من عليك هذا من الخيلاء . ودعا بفرسه فركبه حتى جاء إلى المسجد الأقصى ليلا فدخله وصلى في محراب داوود ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة وتقدم فصلى بالناس بسورة ص وصدر بنى إسرائيل ثم انصرف فقال : على بكعب (كعب الأحبار) فلما أتى به قال : أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال : إلى الصخرة - فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب . وقد رأيتك وخلعت نعليك . فقال : أحبيت أن أباشره بقدمي . فقال : قد رأيتك . بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبله مساجدنا صدورنا اذهب إليك فإننا لم نؤمر بالصخرة ولكننا أمرنا بالكعبة . ثم قام إلى كناسة كانت قد كانت الروم دفنت فيها بيت المقدس وهو الهيكل في زمان بنى إسرائيل وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وحثا في أصلها وحثا في قباء . وسمع تكبيرة من خلفه . فقالوا ما هذا : فقالوا كبر كعب فكبر الناس بتكبيره فقال : على به . فأتى فسأله عن

سبب تكبيره . فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبي منذ خمسمائة سنة ، وسرد له خبراً ذكره الطبري كله من الإسرائيليات التي ابتدعها هو وسواه ولا أصل لها .

إن كعباً — كسكل يهودى — فرح بدخول المسلمين إلى بيت المقدس وافتتاحه لأن ذلك يشفى بعض ما فى صدورهم من الغلة والحقده على المسيحية والقائمين بها ، وقد كان بيت المقدس محرماً عليهم دخوله والدنو منه . وهم بذلك الفتح ينالون حرية أداء العبادة فيه وهو معبدهم الأول وبلدهم العتيق فلا غرو أن كانوا أكثر الناس فرحاً بهذا الفتح الذى ينيلهم الحرية الدينية .

والعبرة من هذا الفتح تظهر جليلة واضحة من كتاب عمر بالآمان الذى حشوه الرفق والعدل والحرية وصيانة الدماء والحقوق فإن بيت المقدس لم يدخل مدينته أحد من الفاتحين كما دخلها خليفة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ خلقت إلى ذلك العهد . بل كان الفاتح يدخلها مخرباً مبيداً مدمراً عاتياً جباراً أسفاً كالآخرة عنده ولاشفقة عليهم لديه . فهذا يختصر فى الخراب الأول وطيطوس فى الخراب الثانى على رأس سبعين سنة ميلادية قد فعلا الأفاعيل وخربا المدينة والمسجد تخريباً . وأما عمر فقد دخلها كما وصفنا وأعطى أهلها من الآمان ما بينا .

ولما جاءها بعد ذلك (غودوفروا دويون) قائد الجيوش الصليبية استن بأهلها سنة وثني بابل ووثني رومة فخرب المسجد وأجزر السيف تسعين ألفاً من أهلها المسلمين .

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي وأخذها من الصليبيين دخلها دخولا عمرياً وأمن أهلها على نفوسهم وأولادهم ونسائهم وخرجوا منها على فداء طفيف يؤدونه . وقد تجاوز أخوه أبو بكر العادل عن ذلك المقدار لكثير من الفساء وكان الثناء عليه عاماً فى أوروبا وعلى أخيه صلاح الدين .

وفي سنة ١٧ هـ أراد عمر رضي الله عنه أن يزور الشام للمرة الثانية فخرج إليها ومعه المهاجرون والأنصار حتى إذا نزل بسرع على حدود الحجاز والشام لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان الطاعون بالشام . فقال عمر لابن عباس اجمع لي المهاجرين الأولين ، قال : فجمعهم فاستشارهم فاختلفوا عليه ، فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدق عنه بلاء عرض لك . ومنهم القائل : إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه . فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عني ، ثم قال لابن عباس اجمع لي مهاجرة الأنصار . فجمعهم له ، فاستشارهم فسلوكوا طريق المهاجرين فكأبما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله . فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني . ثم قال : اجمع لي مهاجرة الفتح من قريش ، فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء . فقال عمر يا ابن عباس اصرخ في الناس فقل إن أمير المؤمنين مصبح على ظهر ، وأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال : أيها الناس إني راجع فارجعوا . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرأى من قدر الله ؟ قال : نعم فرأى من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداهما خصبه والأخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصب بقدر الله ؟ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة . ثم خلا به بناحية دون الناس ، فبينما الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس . فلما أخبر الخبر قال : عندي من هذا علم ، قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق ، فإذا عندك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجكم إلا ذلك » ، فقال عمر : لله الحمد ، انصرفوا أيها الناس . فانصرفوا .

كان حصول الطاعون في ذلك الوقت بعد المجازر البشرية وكثرة القتل وتعفن الجو وفساده بتلك الجيف أمراً طبيعياً وبخاصة إذا عرفنا أن وسائل

الوقاية الصحية لم تكن معروفة في ذلك الزمن . على أن مجرى اجتماع الجيوش الكثيرة في مكان واحد داع إلى فشو الأمراض والأوبئة . وقد اجتمع في تلك البلاد كثير من الجنود بين روم وعرب فكان لا بد من حصول الأوبئة .

وبعد انصراف عمر حصل الطاعون الجارف المعروف بطاعون عَمَواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان ، والحارث بن هشام وقيل استشهد باليرموك . وسهيل بن عمر ، وعتبة بن سهيل وأشرف الناس . ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم : أيها الناس إن هذا الوباء إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه في الجبال . فخرج وخرج الناس فتنفروا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه .

أما السر في اشتداد الطاعون في دمشق دون سواها من بلدان سورية ، فهو أن أهل دمشق إنما يشربون من النهر (نهر بَرَدَى) وهو عرضة للتلوث بجراثيم الوباء ونقل العدوى بواسطته سهل جداً وانتشارها مضمون . أما بقية البلاد فيغلب أن يكون شربهم من العيون وهي أقل قابلية للتلوث ونشر المرض وتعميمه وهو السر أيضاً في أنهم لما ارتفعوا في الجبال كان ذلك سبباً لزوالة عنهم .

وأهل دمشق الآن لا يشربون من نهر بَرَدَى وإنما يشربون من ماء عين الفيحة ساقوه في الأنابيب إلى بلدكم وماء نهر بَرَدَى يدخل في جميع بيوتهم ولا ينتفعون منه بالشرب وإنما يستعملونه في غسل الملابس والأواني ونحوها .

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر في أمور الناس بعد هذا المصاب الذي دهمهم . فسار حتى نزل الشام ونظر في أمور الناس وولى الولاية وورث الأحياء من الأموات . ثم خطبهم خطبة قال : ألا وإني قد وليت عليكم وقضيت الذي على في الذي ولاني الله من أمركم . إلى أن قال فمن علم

علم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن . فأمره فأذن فما بقي أحد كان أدرك رسول الله وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بلّ لحيته وبكى من لم يدركه بيكائهم لذكره صلى الله عليه وسلم .

وفي عهد عمر رضي الله عنه فتحت حلب وفسرين كما قدمنا وأنطاكية وبلاد سواحل الشام كيروت وطرابلس وغيرها ، ودانت كل هذه البلاد لحكم المسلمين .

وفي عهده كان فتح مصر على يد عمر بن العاص السهمي . وسفردها بكلام خاص نستوفي الكلام على ذلك نتي جاء وقت ذلك :

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب - ومدته لا تزيد عن عشر سنوات . ففتحت فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوها في عصره . وفتحت بلاد الشام ومصر وأديرت هذه البلاد على مقتضى العدل الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابة .

ولما كانت حياة عمر بمتازة بكثير من الميزات التي جعلتها أساساً عظيماً لكثير من المدنية الإسلامية - حسن بنا أن نورد حملاً بتعرف منها مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب سياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس مناسياً في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

القضاء

قدمنا في الكلام على أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه لم يتخذ قاضياً في أيام خلافته ، بل كان القضاء في يده ، فكان الأمير والقاضي والمسد . وبعبارة أوضح كانت في يده القوات الثلاث : وهي القوة التشريعية ، والقوة

القضائية ، والقوة التنفيذية . وليس معنى قولنا إن القوة التشريعية في يده — أنه كان يأتي الناس بـشـرع جديد . وإنما معنى ذلك أنه الأمير الذي ينظر في الكتاب والسنة ويجتهد في الوقائع التي ليس فيها شيء من النص . وهو الذي يحكم بمقتضى ذلك فهو بهذه المثابة قاض ، ثم إنه يمتضى ذلك الحكم فهو منفذ .

وقد قدمنا أيضاً أنه كان يفوض إلى عمر النظر في الوقائع التي كان يدلي بها الخصوم إليه — غير أنه لم يختصه بذلك ويفرغه له ، ولم يكن لعمر اسم قاض في زمنه .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كان له في مسائل الفتوح وتدبير أمور الخلافة التي تشعبت ونمت نمواً عظيماً في عهده ، ما يشغله عن التفرغ للقضاء فرأى أن يفرغ نفسه وبعض أمرائه لما هم بصدد فعين قضاء مختصين بفصل الخصومات بين الناس فولى أبا الدرداء معه بالمدينة ، وولى شريحاً قضاء الكوفة وولى أبا موسى الأشعري بالبصرة وقيس بن أبي العاص السهمي قضاء مصر وهو أول قاض بها في الإسلام . أما بقية الأمصار والولايات فكان القضاء فيها إلى الأمير الذي عليها . وإنما كان عمر حريصاً على تفريغ نفسه وبعض أولئك العمال والأمراء لما قصده من تفريغ نفسه وذلك البعض للقيام بأعباء السياسة العامة وأشغالها الكثيرة من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة .

وقد كان شريح بن الحارث الكندي قاضى الكوفة من كبار التابعين ظل قاضياً بها خمسا وسبعين سنة لم يتوقف عن قضائه فيها سوى ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه . ومن طرف قضائه أن عدى بن أرطاة دخل عليه . فقال : إني رجل من أهل الشام . فقال : مكان سحيق . قال : تزوجت عدكم قال : بالرفاء والبنين . قال : وأردت أن أرحلها . قال : الرجل أحق بأهله . قال : وشرطت لها دارها . قال : الشرط أملك . قال : فاحكم بيننا . قال : قد حكمت .

وقد ساق صاحب العقد الفريد حكاية تزوجة بزيب بنت جرير من بني
تميم كيف اضطرته لأن يخطب ليلة زفافها عليه لما بدأت بالخطبة وأنه ظل معها
في أهأ عيش عشرين سنة لم يعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة - قال وكنت
لها ظالماً: أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صليت ركعتي الفجر وكنت أمام الحى
فاذا بعقرب تدب فأخذت الإناء فأكفأته عليها ثم قلت يا زيب لا تتحركى حتى
أتى . فلو شهدتى يا شعبي وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها
فدعوت بالكُسْت والملح فخلعت أمغث إصبعها وأقرأ بالحمد والمعوذتين .
وكان لى جار من كندة يُفزعُ امرأته ويضربها فقلت فى ذلك :

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى حين أضرب زيبنا
أأضربها فى غير ذنب أنت به فما العدل منى ضرب من ليس مدنيا
فزيب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تسد منهن كوكبا

أما أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه فكان من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

ومن أعرف من ولاهم عمر القضاء أبو موسى الأشعري ، وكان مع ذلك
ذا بلاء فى الحروب وقيادة الجند وله أثر جميل فى فتوح فارس . وقد كتب إليه
عمر رضى الله عنه كتابه المشهور فى القضاء يبين كثيراً من نظام القضاء وأصوله
وهو يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل القضاة بمقتضاها . وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عد الله بن
قيس . سلام عليك . أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة^(١)
فافهم إذا أدلى إليك^(٢) فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين

(١) يريد أن يبين له المادة التى يقضى بها وهى لا تعدو ما حده الله وهذا ما أشار إليه
بالريضة المحكمة وما بينه رسول الله وهى ما أشار إليه بقوله وسنة متبعة .

(٢) يريد أن يدل بحجة مهما كان مصيلاً وقوله حقاً واصحاً فإن كلامه لا يسمع إذا لم يكن
لكلامه نفاذ إلى قلب القاصى وذلك لا يكون إلا ما تنفذ لما يقوله المحصوم

الناس^(١) في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا^(٢) . لا يمنعك قضاء قضيتته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل^(٣) . الفهم الفهم فيما تلجأ في صدرك عما ليس في كتاب ولا سنة^(٤) . ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها . واجعل من ادعى حقا غائبا أمدا ينتهي إليه فإن أحضر بنته وإلا استحلت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى^(٥) . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولا . أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات

(١) هذا أساس المساواة التي جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضي إذا كان له صلح مع أحد الخصمين فشت قالة السوء فيه وإن نجا من عواقبها اليوم فليس بناج غداً .

(٢) هذا أمر يوافقه ما اعتقت عليه جميع القوانين من أن كل صلح يخالف فيه القانون العام فهو باطل لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام حق الجمهور .

(٣) يريد بذلك أن القاضي لا يتقيد بما فهمه من النصوص في قضية يحكم به . بل إذا ظهر له وجه الخطأ في حكمه الأول كان عليه أن يحكم بما ظهر له من الصواب فيما يكون لديه مما يشبه القضية التي حكم فيها خطأ أولاً . لأن الخطأ لا يكون قاعدة . ولأن عمر حكم في قضية يحكم ثم بدا له الصواب في قضية تشبهها فلم يغير الحكم السابق . وحكم على مقتضى الصواب في اللاحق ، وقال : ذلك على ما قضينا وهذا ما قضى

(٤) يريد بذلك بيان أصل ثلاث أحكام وهو القياس وهو أن يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من أحله شرح الحكم . ولهذا يكون من أوجب الواحات على القاضي أن يكون عارفا بأسرار التشريع حتى يتسنى له هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مختصداً لا مقلداً غيره في تفسير أو تأويل .

(٥) يشير بذلك إلى جوار التأجيل إذا ظله الخصم وكان لظله سبب معقول . والذي ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يطهر بهم حقه ثم تقييده بأمد ينتهي إليه إنما كان دوماً للمشقة التي تحصل لأحد الخصمين بطلب التأجيل من حصمه الآخر في كل جلسة ، فيظل أبداً الدهر تحت رحمة — لهذا قيده بأمد يستحل عليه القضية إذا لم يثبت حقه فيه .

والإيمان . وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتشكر عند الخصومات
فإن الحق في مواطن الحق يعظم به الله الأجر ويحسن به الذكر . فمن صحت نيته
وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه
ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظلك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن
رحمته . والسلام .

وهذا الكتاب قد اتخذته جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظمهم القضائية،
وهو كتاب جليل خليق بذلك .

لم يكن القضاء في زمن عمر لإسها بسيطاً مجرداً عن النظم الوضعية الكثيرة
ولم يكن للقاضي كاتب ولا سجل ولم توضع للرافعات أصول كالتي وضعت الآن .
فلم تكن الدعاوى بصيغة خاصة وأركان معينة ولا بد من سبق إعلان في مدة
خاصة إلى آخر ما وضع من الناس ثم صار عمدة في القضاء أكثر من الحكم
الشرعي المقصود .

سيرة عمر في عماله

معلوم أن الخليفة في الأمة قائم بين الله وبين عباده في إقامة العدل وتأيد
الحق وإقامة الدين وسياسة الدنيا به وإلزام كل إنسان حد ماله وما عليه دون بغى
عليه أو استظالة منه على سواه .

ولما كان القائم بالخلافة يستحيل عليه أن يباشر كل شيء من ذلك في البلدان
المختلفة والاصقاع النائية في ملك مترامي الأطراف كان لابد من تفويض
ذلك منه إلى عمال يقومون عنه بذلك الأمر في نواحيهم ويكونون بينه وبين
الرعية يظالعونه بأمورهم ويسوسونهم بسياسته .

ولا يعزب عنا أن عمر كان حريصاً على اتباع الكتاب الكريم فيما جاء

به والاستئنان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قول أو عمل يعلم أنه قاله أو عمله سائراً بسيرته بين الناس سائساً لهم بسياسته ومتحريراً لما أخذ به أبو بكر من ذلك . وقد كان حريصاً كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقاً لحسن ملكة الإسلام وسماحة الدين وعدله . ويعتد نفسه شريكاً للعامل في كل هفوة يهفوها قسيماً له في كل جريمة يقتربها ، إنما يأتي ذلك بماله من السلطان الذي يستمد منه ، ويرى نفسه مسؤولاً أمام الله عن ذلك .

قال الأستاذ الخضرى : كان عمر ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الأمراء . فكان الوالى في نظره فرداً من الأفراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس . فكان حب المساواة لا يعدله شيء من أخلاقه : إذا اشتكى العامل الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوى بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . وإنى أقول : إن هذا رأى الذى كان يراه عمر واستغرق وجدانه ومشاعره هو الرأى الذى ينص عليه فى قوانين أكثر الأمم عدالة وأسماهم حرية وأحرصهم على المساواة بين أفراد الأمة بعد أن أغرقوا فى العلم والمدنية وساروا فى الحضارة والفلسفة الاجتماعية شوطاً بعيداً وأجروا فى سبيل تلك الحرية والمساواة والعدالة أنهاراً من الدماء . وأزاروا المقابر عشرات الألوف فى سبيل تحقيق غرضهم وإن القوانين التى أخذت أخذ هؤلاء الناس واقتبست من قواعدهم ، ثم استثنيت بعض ذوى المقامات وأخرجتهم من حكم القانون العام تدل بأوضح دلالة على أن فيها عرقاً ينبض إلى الاستبعاد والاستبداد ، إن لم نقل إنها تميل إلى الاستنابات بجعل فريق من الناس فى نظر قليل منهم كأنواع الثبات التى ينصرف فيها مالكها بما يشاء ويهوى - وليس عمر بدعاً فيما كان يصنع : فقد كان مظهرأ لا مبتدئاً .

فقد تقرر ذلك بمقتضى قوله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وبمقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وإنما جعل هذا الخلق ظاهراً في عمر أن الفتوحات قد كثرت والمملك قد اتسع فكثرت العمال وطال زمن عمر وحدثت الأحداث وظهرت خطته في ذلك واضحة .

ومعلوم أن سواس الأمم يختلفون في شأن مؤاخذه العامل ذي السلطان بما يصدر منه من الهفوات ومجازاته بما يحترم من السيئات لأن فريقاً يرون أن التجاوز عن سيئاته وغيض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه في نظر الرعية . ومن هذا القبيل سياسة الدولة الإنجليزية مع عمالها في المستعمرات لا تكسرهم أمام المحكومين ولا تؤاخذهم بما يصدر منهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مدرجة لكثرة مطالب الرعية وكيدها للعمال وتجنّبها عليهم أما في بلاد الإنجليز أنفسهم فإن الحاكم إذا تعدى حد عمله وسام أحد الرعية بأذى فإن القضاء له بالمرصاد والقانون يوفيه جزاءه العادل . وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله في أيام أهل الردة وقيام الاضطراب في كل ناحية . وهي حال خاصة يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها . وكان عمر يخالفه في هذا النحو من السياسة ويشير عليه بالاعتصام من كل مخالف . وإن ما ذكرناه من إحضار سعد بن أبي وقاص من الكوفة لشكوى رفعها بعض من ألبوا عليه في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة إليه إذ كانت البعوث تضرب على الناس وهم في التهيؤ لمناهضة العجم الذين جمعوا الجوع لحرب المسلمين وإخراجهم من فارس فلم يكرهه ذلك ولم يشغله عن النظر في شكوى الشاكين وسعد من نفس عمر بالمنزلة التي دفعت به إلى جعله من أصحاب الشورى الذين ينتخب الخليفة منهم من بعده . وقد قال البوليين : إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد — يعنى الفرس — وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم ، . وقد كانت

مصلحة العامة عنده فوق كل شيء^(١).

كان عمر شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ولا يتركون خبر سوء يبلغه عن أحدهم دون تحقيقه والتثبت في شأنه تثبتاً لا يدع للشك مجالا ولا يغفل أن يرسل إليهم الأوامر تباعا أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغيوا ولا يغلروا .

ولما غدر الهرمزان بعد العهد خشي أن يكون ذلك من ظلم أصابه من المسلمين فاستقدم وفداً من البصرة فيهم الأحنف بن قيس وسأله عن غدره أعن ظلم ؟ قال : لا . فكتب إلى عتبة بن غزوان زيادة في الوصية ومبالغة في التوكيد : « اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وتناصرأ » .

وبلغه أن حرقوصا عامله على الأهواز نزل جبلا كؤوداً يشق على من راحه والناس يختلفون إليه فكتب إليه : « أما بعد : بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتي فيه إلا على مشقة . فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا . ولا تدركك فترة ولا عجلة فتسكدرَ دنياك وتذهب آخرتك » .

وخطب عمر فقال : « يا أيها الناس ، إني والله ما أرسل عملي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل فمن فعل به شيء سوى ذلك فليبرفعه إلي ، فوالذي نفس عمر بيده لا أقصه منه » ، فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، رأييت إن كان رجلاً من أمراء المسلمين على رعيته فأدب

(١) ومن ذلك أنه جلب أبا موسى من البصرة حين شكاه الرجل العمري .

بعض رعيته إنك لتُقَصِّه منه ؟ قال : أى والذى نفس عمر بيده إذن لا يَقَصِّه منه ، وكيف لا أقصُّه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ولا تجمّروهم فتفتنّوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله : اللهم إني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم . من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى . وعن أبي ربيعة قال : كتب عمر بن الخطاب إلى العمال : ، اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء ، قريبيهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبيهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار ، .

وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم ولا تجلدوا العرب فتذلّوها ولا تجمّروها فتفتنّوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها . جردوا القرآن وأقلّوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم .

وكان عمر يأمر عماله فى كل سنة أن يوافوه فى الموسم ومن كانت له شكوى أو مظلمة وافاه إلى موسم الحج ورفعها على العامل بحضرته . وهناك ترد إلى المظلوم ظلامته ويُشكّيه من خصمه . فكان العمال يخافون الافتضاح فى موقف الحج على رؤوس الأشهاد ويحدو بهم ذلك الخوف إلى الابتعاد عن الظلم .

ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم فى الفتوح وأثر كبير فى نصرة الدين . فهذا سعد بن أبي وقاص من أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوّخ الفرس ومحصر الكوفة ، اشتكى عليه بعض رعيته فأرسل محمد بن مسلمة يحقق الشكاية علنا وجاء بسعد وخصومه إلى عمر فوجده بريئاً من كل ما قرف به ولكنه عزله احتياطياً . وأوصى عد وفاته أن يولى لأنه لم يعزله لجنابة أو خيانة .

والمغيرة بن شعبة ، كان أميراً على البصرة وهو ذو بلاء وغناء في نصرته الدين وفتوح فارس وغيرها . اتهمه بعض من كان معه بتهمة شذیعة فلم يلبس . أن أرسل إليه كتاباً عاتبه فيه واستحثه وعزله وأمر غيره . وهو « أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً . فسلم ما في يدك والعجل العجل » . فقدم على عمر ومعه الشهود الذين شكوه فلم تثبت التهمة عليه وأقام عمر الحد عليهم بما فرضه الله لمثلهم .

وهذا عمار بن ياسر ، كان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين أنهى إلى عمر قوم من الكوفة أنه لا يحتمل ما هو فيه من الولاية عليهم وأنه ليس بأمر يقدر على هذا العمل . فأمره عمر بأن يقدم عليه في وفد من أهل الكوفة ، فسأهم عمر عما يشكون من عمار فقال قاتلهم . إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قاتل منهم : إنه لا يدرى علام استعمل ؟ فاخبره عمر اختباراً يدل على سعة علمه بفارس ونواحي الكوفة وتصوره موقع كل بلد . فلم يحسن عمار الإجابة في بعض ما سئل عنه فعزله . ثم دعاه بعد ذلك : فقال له أساءك حين عزلتك ؟ فقال : والله ما فرحت حين بعثتني ولقد سامني حين عزلتني . فقال : لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ،

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم : أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس ، إن فعلتم شيئاً من ذلك حلت بكم العقوبة .

أما انتخابه للأمراء وتحريه لأن يكونوا ذوي عفة وقناعة فكان على أتمه وقد تبسر له من هذه الطائفة ما لم يتيسر لغيره . وكان كثير من عماله ينهجون منهجه ويترسومون خطواته فمن عماله سلمان الفارسي على المدائن كان يلبس

الصوف ويركب الحمار بهرذعته بغير إكاف وبأكل خبز الشعير . ولما حضرته الوفاة بكى وقال له سعد بن أبي وقاص : يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا الخفقون . وأرى هذه الأساودة حولي . فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة وكوة ومطهرة . وكان أبو عبيدة بن الجراح عامله على الشام يظهر الناس وعليه الصوف الجاف . فعذل في ذلك فقال : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان عامله على حمص سعيد بن حذيم . فشكاه أهل حمص إلى عمر وسأله عزله . وكان عمر يعتقد أنهم ظالمون له فقال اللهم لا تقل فراسني فيهم وجمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه ؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول يا سعيد ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم . فأعجن عجبني ثم أجلس حتى يحتمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج إليهم . قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا . إني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال : ماذا تنقمون منه ؟ قالوا يوم في الشهر لا يخرج إلينا ؟ قال : نعم . ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسى . فقال عمر : الحمد لله لم يقل فراسني فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً . وبعث إليه بألف دينار يستعين بها فأبقى منها يسيراً وفرق سائرهما في البتاني والفقراء والمساكين ولم يغير من عادته .

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة في معصية لم يمهله أن يعزله . لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الإبقاء عليه مع ضرر الرعية . من ذلك أنه استعمل النعمان بن فضالة على ميسان من بلاد فارس وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء إن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتي دهاقين قرية وصناجة تشدو على كل مبسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأكبر المثلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادما بالجوسق المنهدم

فقال عمر أى والله إنه ليسوءنى ذلك . وعزله . فقدم على عمر وقال :
والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكنى كنت ، امرأ شاعراً وجدت فضلاً من
القول فقلت فيه الشعر . فقال عمر : والله لا تعمل الى عمل ما بقيت وقد
أشار المعرى إلى هذه الحادثة بقوله :

أنعمان ما سر ابن حنتمة الذى سررت به من شرب ما فى الخنائم

قال الأستاذ الخضرى ولم يمض حامل زمن عمر موثقاً به فى كل أيامه
إلا القليلين ، وفى مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

كان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشاً عاماً يرسله إلى كل بلد اشتكى
على أميره وكان عمر يثق به ثقة تامة وكان أهلاً لذلك منه . وقد كان من
رأيه أن يحقق الأمر تحقيقاً علنياً على ملا من الأشهاد إذ لا محل للتأثير فى
الشهود والخصوم لأن يد عمر كانت قوية جداً وقد زاد فى حرية الناس
كثيراً ، فما كان أحد يخشى أميراً ولا عمر بن الخطاب . اللهم إلا المريب
فإن عقابه عليه كان صارماً .

وبما ساس عمر به عماله أنه كان يحصى عبيهم أموالهم قبل توليتهم .
فإذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادرهم عليه كله أو بعضه — ذلك أنه كان
يرى أن لا يتناول العامل من مال الأمة فوق كفايته . فإذا تأمل مالا كان
بذلك إما مريباً أخذه من غير حله فبیت مال المسلمين أولى به وفيهم اليتيم
والمسكين والضعيف وذو الحاجة . وإما أن يكون راتبه فوق كفايته والمسلمون
أولى بما فضل عن كفاية العامل الذى يعمل بالأجر — فن ذلك أن عمر
استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال : ما هذا يا عتبة ؟
قال : مال خرجت به معى وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك فى هذا
الوجه ؟ فصيره فى بيت المال .

ومن ذلك أن خالد بن الوليد أدرب هو وعياض بن غنم إلى بلاد الروم - ثم انتجع الأشعث بن قيس خالداً من العراق فوصله خالد بعشرة آلاف درهم وكان عمر كما نعلم لا يخفى عليه شيء في عمله ، فكتب إليه بخروج من خرج من العراق إلى الشام وبجائزة من أجيز . فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ (يعنى المغنم) فإن زعم أنه من إصابة فقد أقر بخيانة . وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واظمم إليك عمله . فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر . فقام البريد فقال : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً . فقام بلال إليه فقل : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فمقله بعمامته فقال ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا . بل من مالى . فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بعمامته يده وقال : نسمع ونطيع لولا تنا ونفخم ونخدم مواليك . وأقام خالد لا يدرى أمعزول هو أم غير معزول ؟ وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكان عمر لما أبطأ عليه علم بالذى كان . فكتب إلى خالد بالقدوم عليه . فكتب خالد على أبي عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر . ثم إن خالداً قدم إلى المدينة على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك للمسلمين وبالله إنك في أمرى غير بمحل يا عمر . فقال عمر : من أين هذا الثرى ؟ قال من الأنفال والسهمان ما زاد على الستين ألفاً فهو لك . فقوّم عروضه فكانت ثمانين ألفاً أدخل منها بيت المال عشرين ألفاً . ثم قال : يا خالد والله إنك على لكريم وإليك إلى الحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . وكتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانه ولكن الناس فتوا به خفت أن يوكلوا إليه وأن ينتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنه . وبدل على أنه عمل ما عمل لا عن خيانة أو ريبة ، أن عمر قام يوماً خطيباً فقال من خطبته

« وإنى أعتذر إليكم من خالد بن الوليد فإنه أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فزعت وأمرت أبا عبيدة ، والذي أفهمه من قوله هذا أنه لو تحرى بالعطاء أهل الضعف والحاجة من المهاجرين ، ولم يضع عطائه في الأشعث بن قيس ونحوه ، لم يجد عمر عليه سبيلا .

ولقد سمع هذه الخطبة أبو عمرو بن حفص بن المغيرة — وهو ابن عم خالد — فقال : والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت رحماً وحسدت ابن العم . فقال عمر لآنك قريب القرابة حديث السن مفضضب في ابن عمك . ومن كلام عمر — وقد طعن — « لو أدركت خالد بن الوليد لوليته فإذا قدمت على ربى فسألنى من وليت على أمة محمد ؟ قلت أى رب سمعت عبدك ونيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين ، وما كان فإنى أفهم أن عمر كان متحاملا على خالد

وقد ورد أن عمر قاسم سعد بن أبي وقاص ماله وكذلك عمرو بن العاص . قد يجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ، ولكن عمر (كما قال الأستاذ الخضرى) كان يعرف من من عماله يستحق هذه العقوبة أن تقع عليه . إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها ؟ لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ، ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة .

معاملة عمر للرعية : كانت رافة عمر ورقته على عامة الناس في وزان ما كان عليه من الشدة على عماله فكان عمر شديد الاهتمام بأمر الرعية دائم العناية بما يصلحهم وكان يحس من ذلك بمسؤولية عظمى . فكان يقول لو أن جملا

هلك ضياعا بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب (يعنى نفسه)
وقد قال هشام الكعبى رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتبه
بقديد ، فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهن ، ثم يروح
فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضا حتى توفى . وقال الحسن البصرى : قال
عمر : لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع
دونى فأما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى ، فأسير إلى الشام
فأقيم بها شهرين . ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم فى كل منها شهرين (وقد حالت
منيته دون هذه السباحة) .

وروى أسلم : قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم ، حتى إذا
كنا بصرار إذا نار توثرت فقال : يا أسلم أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد
انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة
على النار وصبيانها يتضاغون . فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن
يقول النار) قالت المرأة : وعليك السلام . فقال أأدنو؟ قالت أدن بخير أودع فقال
ما بالكُم ؟ قالت قصر بنا الليل والبرد . قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟
قالت الجوع . قال وأى شيء فى القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا
وبين عمر . فقال : أى رحمك الله ما يدري عمر بكم . قالت يتولى أمورنا ويفعل عنا .
فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة
شحم فقال أحمله على . قلت أنا أحمله عنك قال أحمله على (مرتين أو ثلاثا) كل ذلك
أقول أنا أحمله عنك فقال آخر ذلك أنت تحمل عني وزرى يوم القيامة لا أم لك ،
فحملة عليه . فانطلق وانطلقت معه نهروا حتى أتينا إليها فالتى ذلك عندها وأخرج
من الدقيق شيئا وجعل يقول ذرى على وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر
وكان ذا لجة عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضح آدم القدر
وقال لا يغني شيئا . فأتته بصحفة فأفرغها فيها وجعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك

فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه . فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بالأمر من أمير المؤمنين . فيقول : قولى خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتهنى هناك إن شاء الله . ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مريض السبع . فجعلت أقول إن ذلك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يضطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحييت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم .

ومعلوم أن الحوادث الصغيرة كهذه الحادثة تدل على روح الرجل وأحواله النفسية وتنبئ عن شففته وخوفه أن يكون مقصراً في حق من وليهم من الرعية ونحن نخجل في عصرنا هذا ، لأننا لا نجد أميراً كبيراً من الناس يهتم بمروسته عشر معشار هذا الاهتمام ، ولو أن امرأة كهذه رآها مدير أو مأمور لكان أقرب شيء يعملها أن يكتب لها محضر تشرد ويقدمها للقضاء ليحكم عليها .

وخطب مرة فقال : أيها الناس إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهمنا محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف أخذها ، ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير ؟ وربى المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأيدته .

وكان رحمه الله ذا سياسة حسنة في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحبة الواضحة . جاء في كنز العمال من حديث عتبة بن مسعود قال سمعت : عمر بن الخطاب يقول : إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء والله يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة . فهو بهذه

المثابة يهديهم أمثل الطرق ويحذرهم المزال ويواليهم بالنصائح ويرشدهم إلى محجة الخير الواضحة ويبصرهم سنن السعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف ، وبخاصة قريش فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة فإنهم قدوة الناس وأئمة العرب .

أخرج الطبري عن ابن عباس أن عمر قال لئاس من قريش : بلغني أنكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ، من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس وأيم الله إن هذا لسريع في دينكم . سريع في شرفكم . سريع في ذات بينكم . ولكأنى بمن يأتي بعدكم يقول : هذا رأى فلان . قد قسموا الإسلام أقساما . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس اللهم ملوني وملئهم وأحسست من نفسي وأحسوا مني ، ولا أدري بأينا يكون الكون ؟ وقد أعلم أن لهم قبلا منهم فاقبضني إليك .

ومن جميل سياسته أنه كان لا يرضى من عماله الشدة في استيفاء الحقوق والتزيد على ما أمر الله أن يؤخذ الناس به ، بل كان يوصيهم بالرفق والأناة والعدل وعدم الإيغال في العقوبة .

عن ابن عمر قال : كنت مع عمر في حج فإذا نحن براكب ، قال عمر : أرى هذا يطلبنا . فجاء الرجل فبكى . قال : ما شأنك ، إن كنت غارما أعناك وإن كنت خائفا آمنك إلا أن تكون قتلت نفسا فتقتل بها ، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم ؟ قال : إني شربت الخمر وأنا أحد بني تميم . وإن أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي على الناس . وقال لا تجالسوه ولا تواكلوه فحدثت نفسي بإحدى ثلاث : إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فنحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفونني ، وإما أن ألحق بالعدو فأكل معهم وأشرب . فبكى عمر وقال : ما يسرنى أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا . وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية وإنها ليست كالزنا . وكتب إلى

أبي موسى ماصورته سلام عليك . أما بعد ، فإن فلان ابن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله إنى إن عدت لأسوءدّن وجهك ولاطوّفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول بعد ، فأمر الناس أن يحالسه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر وأعطاه مائتي درهم .

ومع أن عمر قد أرخى للناس طول الحرية وأجرهم رسن المساواة وفرش للعامّة صدره ، فقد كان مهيباً فيهم حتى امتلأت صدورهم بهيبته . لم يجرّد عليهم سيفاً ولم يرفع عليهم سوطاً وإنما كانت له درة وهي عصا صغيرة كالخصرة يستعملها في تأديب من استحق الأدب منهم وكانت في يده على الدوام أنى سار . وكان الناس يهابونها أكثر مما يخيفهم السبوف .

روى الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة خفقتى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى . فقال : أمط الطريق . فلما كان في العام المقبل لقينى . فقال : يا سلمة تريد الحج ؟ فقلت : نعم . فأخذ ييدى فانطلق إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك . قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها . قال : وأنا ما نسيته . فكان عمر مؤدباً حكماً . قال الخضرى : ولعل درته لم يسلم من خفقتها إلا القليل من كبار الصحابة .

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه . فعلاه عمر بالدرة . وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك . والذي حمل عمر على أن يأتى إلى سعد ما أنى ، غضبه منه لمزاحمته الناس مدلاً عليهم بفضله وسابقته وعمر يعشق المساواة ويكره الإدلال على الناس . وقد كانت الرعية كما قلنا تهابه مهابة شديدة .

روى أسلم أن نفرا من المسلمين كلوا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا . فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك ؟ والله لقد كنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ، ولقد اشتدّت عليهم حتى خشيت الله وأيم الله لأننا أشدّ منهم فرقا منهم منى .

عفة عمر عن مال المسلمين

كان عمر قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وحشونة العيش حتى ساوى البائس الفقير الذى إنما يعيش بما يتبلغ به بما يمسك الرمح ويدفع الجوع . لم تشره نفسه إلى رقيق العيش ونعيم الحياة الدنيا . ولم يهتم بمكاثرة الناس فى المال ويرى مال المسلمين مرتعا وبيلًا على من رعاه فقتر على نفسه تقيرًا جعله موضعاً للالتقاد واعتراض المعترضين — وقد بلغ من شدة احترازه عن أخذ مال المسلمين أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله . فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته . بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال فإذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه .

رأى بعض أصحاب رسول الله ما يعانیه أمير المؤمنين من جهد العيش فاجتمع نفر منهم وبهم عثمان وعلى وطلحة والزبير . وقالوا : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه . فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء . فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها بما اعتزموا عليه وأوصوها ألا تخبر بهم عمر . فلقية حفصة وقالت له فى ذلك فذهب وقال . من هؤلاء ؟ لأسوءهم . قالت لا سبيل إلى علمهم قال أنت بينى وبينهم . ما أفضل ما اقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملبس ؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما

للفرد والجمع، قال: فأى الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: حرقا من شعير فصبينا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها. قال: فأى مبسط بسط عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء تخين نربعه في الصيف فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدرنا بنصفه. قال: فأبلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية. وإنما مثلى ومثل صاحبي كشلاثة سلكوا طريقاً ففضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم أتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما.

كان عمر مع ذلك لا يسوغ أخذاً من أهل بيته أن ينتفع بشيء ليس له فيه حق. روى مالك في الموطأ أن عبد الله وعبيد الله ابني عمر خرجا في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة، فرحب بهما وسهل. ثم قال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به. ثم قال: بلى، ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكما فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح، فقالا وددنا ذلك. ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعاً فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال: أكل الجيش أسلفه؟ قالوا لا. فقال عمر بن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين أسلفكما، أديا المال وربحه. فأما عبد الله فسكت، وأما عبيد الله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه. فقال عمر أديا فسكت عبد الله وراجعاه عبيد الله. فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً. فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال. قالوا وهو أول قراض في الإسلام.

وقد ذكر الأستاذ الخضرى في محاضراته أنه — لما ترك ملك الروم الغزو

وكاتب عمر وقاربه وسير إليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحناش من أحناش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبهم وكاتبها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر . فلما انتهى به البريد إليه أمر يامساكه ودعا الصلاة جامعة . فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال : إنه لاخير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري . قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم . فقال قائلون : هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك . وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنسثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً ، فقال : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد يريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . اه . ولو أن عمر أرخى العنان لنفسه أو لأهل بيته لرتعوا ولرتع من بعدهم وكان مال الله تعالى حبساً على أولياء الأمور . ومن القواعد الطبيعية المؤيدة بالمشاهد أن الحاكم إذا امتدت يده إلى مال الدولة اتسع الفتق على الراتق واختل بيت المال أو مالية الحكومة وسرى الخلل في جميع فروع المصالح وجهر المستسر بالخيانة وانحل النظام .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً في حقوقهم دعاهم ذلك إلى محبته والرضا فيه . وإذا كان حاكماً حذبوا عليه وأخلصوا في طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم .

وقد كان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم يفعل به إلا أضعفت عليه العقوبة .

ما كان عمر مع ذلك الذي يضيق على العامة أو يأخذ الرعية بمذهبه بل كان

يرى أن يحملهم على الجادة الوسطى وأن يتنعموا بالطيبات وإنما كان يأخذ عماله بمذهبه . فقد كتب أبو عبيدة إلى عمر كتابا يخبره فيه بأنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها وخوف إخلاد الجند إلى الراحة . فكان من كتاب عمر إليه : وأما قولك إنك لم تقم بأنطاكية لطيب هوائها فإله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات . فقال تعالى في كتابه العزيز « يأياها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم » وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون الأبدان النضبة .

ميل عمر للاستشارة وقبوله النصيحة . كان عمر لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ولا يستبد عليهم في شأن من الشؤون العامة . فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويحيل الرأي معهم فيه ويستشيرهم . ومن مآثور قوله : لا خير في أمر أبرم من غير شورى . وكان مسلكه في الشورى جميلا . فإنه كان يستشير العامة أول أمره فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله وأصحاب الرأي منهم ثم يفضي إليهم بالأمر ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأى محمود ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه : وعمله هذا يشبه النظمات الدستورية في كثير من الممالك الظلامية إذ يعرض الأمر على مجلس (النواب) مثلا ثم بعد أن يقرر بالأغلبية يعرض على مجلس آخر يسمى في بعضها مجلس الشيوخ وفي بعضها مجلس اللوردات فإذا انتهى المجلس من تقريره أمضاه الملك . والفرق بين عمل عمر وعمل هذه الممالك أن هذا الأمر كان اجتهادا منه وبغير نظام متبع ، أو قوانين مسنونة . وأما في الممالك المتمدنة اليوم فالأمر يجري على نظام وقوانين . ومن قوله في الشورى : يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأي منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاء لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاء لهم . فهو

في قوله هذا قد جعل أولى الأمر منفذين لما رآه أولو الرأي والناس تبع للإمام فيما أخذ به من رأى أولى الرأي .

وكثيراً ما كان يجتهد في الشيء ويبدى رأيه فيه ثم يأتي أضعف الناس فيبين له وجه الصواب فيقبله ويرجع عن خطأ ما رأى إلى صواب ما استبان له .

رأى الناس بعد توالي الفتوح وكثرة الأموال لديهم قد غالوا في مهور النساء فلم يعجبه ذلك من أمرهم وعزم على أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس . فنادته امرأة من أخريات المسجد قائلة كيف : وقد قال الله تعالى : وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، فأنه يعطينا بالقنطار وأنت تمنعنا الدراهم يا عمر ؟ فقال . أصابت امرأة وأخطأ عمر . وكان يطلب من الناس أن يفضوا إليه ببصائحهم ويبينوا له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافاً عن القصد . قد ورد أنه قال مرة في خطبة : أيها الناس إن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوتوني ، فقال له رجل من أخريات المسجد : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . وفي المواقب عن الحسن رضي الله عنه قال : كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل : اتق الله . فقال رجل من القوم أتقول لأمر المؤمنين اتق الله ؟ فقال عمر دعه فليقلها لي . نعم ما قال . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها .

وقد كان لعمر خاصة من علية الصحابة وذوى الرأي . منهم العباس ابن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه في سفر أو حضر وعثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم . كان يستشيرهم ويرجع إلى رأيهم .

رأى عمر في الاجتماعات - كان عمر رضي الله عنه يرى أن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد لا يغشى تلك المجالس سواهم أمر غير لائق . لأنه كان يعتبر علية الناس وذوى فضلهم بمنزلة المربي للعامة يقتدون

بهم ويترسمون خطواتهم فإذا دفعت العامة عن غشيان مجالس أولى الفضل فانت الفائدة المقصودة ، ووجدت هوة بعيدة الغور بين الفريقين . ثم يتبع ذلك أن المجالس يدور فيها الكلام على أنحاء وفنون . فإذا نقل ما يدور فيها إلى الناس نقل على غير وجهه وصرف عن منجاء وظنت بالمجالس وأهلها الظنون . وكان ذلك أدعى إلى سقوط منزلتهم . وفوق هذا فإن ذلك يدعو إلى الاختلاف والتداب والتناكر لأن من يغشون مجلساً يدلون بعميد ذلك المجلس وكبيره . وذلك مؤد إلى النفاسة وقد نهى عمر عن ذلك ناساً من قریش فيما قدمنا عن ابن عباس . قال الأستاذ الحضري : والذي خافه عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيماً .

تدوين الدواوين وفرض العطاء

أترك الأستاذ الحضري يتكلم على تدوين الدواوين قال :

من البديهي أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان . وقد كانت دولة الإسلام في خلافة أبي بكر وصدرأ من خلافة عمر في مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التي كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء وأما الغنائم والنيء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التي يبعث بها للبدنية إلى صرف العناية وترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم . وإنما كانت العناية منصوفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية .

ولما توسع المسلمون بالفتح وانتشروا في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد اليء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ، ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها وتوزيع

الاعطيات على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدتها في قيود خاصة دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان فقال على بن أبي طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان : أرى مالا كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر وقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً فدون ديواناً وجند جنداً فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نهباء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتائب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بسماء بعد فأطلقوا على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ثم على المسكان الذى يكون فيه الديوان ديواناً .

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر إلى عهد عبد الملك بن مروان بالشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق ونقل عبد الملك في الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج في العراق إلى العربية .

الوصف على الجملة :

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويجب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلاً بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف أن يضع منه ماله كان حكيماً يضع الشيء في موضعه يشتد حياءً وبلين حياءً حسبما توحى إليه الأحوال التى هو فيها . عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذى لا تألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان ولذلك نقول : إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التى تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذى يفنى في مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كما لأدناهم مع تحمله مشقات

الحياة وأتعاها . العربي يستدعى سياسته حكمة عالية : فإنك إن اشتدت معه أذلته فهلك ، وإن لنت معه ليكون رجلاً نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ، ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه .

نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فرمى أهلك صاحبه لذلك نصح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول .

بيت عمر :

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مطلقون من بني جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرويل من خزاعة فأولدها عبد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية وتزوج قريية ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في الهدنة وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصم وهذه طلقها وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها وتزوج لبية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو .

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت : الأمر إليك : فقالت أم كلثوم : لا حاجة لي فيه . فقالت عائشة : ترغبن عن أمير المؤمنين ؟ فقالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته . فقال أكفيك فأتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين بلغني خبر . أعينك بالله منه ؟ قال ما هو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر ؟ قال : نعم أم رغبت بي عنها أم رغبت بها عني ؟ قال : لا واحدة .

ولكنها حادثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ومحن
نهايك وما تقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك
في شيء فسطوت بها كنت قد خلقت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك ؟ قال :
فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم
بنت علي بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم
وخطب أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابي ويمنع خير
ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

مقتل عمر

بينما المسلمون مغتبطون بما يفتح عليهم من الأمصار والمدن والممالك شرقي
بلاد العرب وغربها وشماليها إذ فوجئوا بأمير المؤمنين مضرجاً بدمه في محرابه
فتبدل صفوهم كدراً وسرورهم جزناً على هذا الخليفة الراشد العادل التقى .

إن رضى الخلائق غاية لا تدرك : فعمر وإن كان أَرْضَى بعدله الخلاق
سبحانه وتعالى وشمل عدله من قرب منه ومن نأى عنه من رعيته ،
ولكن قلوباً من غير أهل الإسلام كانت مشتملة على مطوية حقد له ، مفعمة
بالسخط منه .

كان بالمدينة ملك من ملوك الفرس قد أضاع ملكه وتاجه وعرف المسلمون
فيه نكث اليهود والخيس بالمواثيق والحنث بالإيمان . قد جمع إلى ذلك الحُب
والدهاء وقد أقام بالمدينة واحداً من الجمهور لا ميزة له على أحد من الناس بعد
ذلك العز الباذخ والسلطان العظيم . وهو يسمع بالفتح في بلاده الفارسية
يعقبه الفتح والنصر يحوزه المسلمون يتبعه النصر والغنائم يحوونها يمنة ويسرة
فيودع ذلك قلبه حسرة . وكان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذون
منهم الموالى وقد دفت منهم دافة إلى المدينة وأقاموا بها في أكناف ساداتهم
وخدمة مواليتهم وقد كان كثير منهم يختلفون إلى ذلك الملك الذي كان فيهم

وهو الهرمزان . وقد كان من سبايا فارس رجل يقال له أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة وكان حاقداً على المسلمين صنعهم بيلاده ويتمنى لو جعلهم الله في نفس واحدة ليشتنق منهم بالقتل دفعة واحدة . وكان لما ورد على المدينة سبايا جلولا ، يمسح رؤوسهم ويقول : أكل كبدي عمر . ذلك أن عمر هو الذي يزجي الجيوش إلى فارس ويصرفها إلى البلاد ، وأمرها إليه في الإصدار والإيراد .

وبينما عمر يطوف يوماً في السوق إذ جاءه فيروز الملقب بأبي لؤلؤة ، وكان نصرانيا ، فقال يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شعبة فإن على خراجاً كثيراً . قال كم خراجك ؟ قال درهمان في كل يوم . قال : وايش صناعتك قال : نجار نقاش حداد . قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال . قد بلغني أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح فعلت . قال : نعم . قال : فاعمل لي رحي . قال : لئن سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالشرق والمغرب . ثم انصرف عنه فقال عمر : لقد توعدتني العبد آتفا . ثم انطلق عمر إلى منزله . فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال : يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام ؟ قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله التوراة . فقال عمر : آله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحيلتك وإنه قد فني أجلك . وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً . فلما كان من الغد غدا عليه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان . ثم جاءه من غد الغد وقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها . ذلك أن كعباً رجل يهودي رأى الإسلام يعلو ويتزايد أمره ولم يقف في سبيل نموه شيء ولا دين في بلاد العرب وخارجها . فأسلم لشيئين أولهما أنه رأى اليهودية تضؤل وتضمحل أمام الإسلام في بلاد العرب والنصرانية ضاغطة عليها في سورية وبقية المملكة الرومانية . والتظاهر بالإسلام يكسبه عزاً لم يكن له في قومه ثانيهما أن الرجل

من اليهود أهل الكتاب الأول والعلم أيام جاهلية العرب . والتوراة بلسانه دون لسان العرب . وفي أسفارها من المعميات والألغاز ما لا يمكن أن يفقهه العرب ولو لقنوا العبرية فهي إذن مجال فسيح للكذب يلقيه إلى المسلمين ليفسد عليهم أمرهم ويعمى عليهم سبيل الهدى . فهو بذلك أراد أن يضرب عصفورين بحجر . وكذلك كان . فإن الرجل نال بين المسلمين مركزاً عظيماً . وقد كان كثير يرون أن التوراة فيها علم كل شيء وإنه صادق فيما يخبر به ، وبخاصة بعد أن تحقق قوله في عمر . والرجل قد أفاض على المسلمين ثروة واسعة من الإسرائيليات التي ندرى نحن حقيقتها وكان هو لا بدرى من حقيقتها شيئاً سوى أنه مبتدعها . وكان يسند كلامه إلى التوراة والتوراة خالية مما كان يموه به على الناس . وهذه التوراة بين أيدينا نقرأها وليس فيها شيء مما كان يقوله هذا الرجل لمعاصريه وهو بالأساطير أشبه .

بعد أن تمهد هذا أقول : إن حكاية إخباره بمصرعه على هذا الوجه المروى لو كانت صحيحة ، لم يبق عند الواقف عليها شك في أن هذا الرجل كان واقفاً على ما دبره فيروز أبو لؤلؤة من اغتيال عمر ، وأن خطة السير للوصول إلى قتله كان كعب الأحبار عارفاً بها واقفاً عليها وقوفاً تاماً . وإنما أراد بإخبار عمر على هذا الوجه ، أن تزيد منزلته عند المسلمين وينال الخطوة فيهم وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولا . ولو وجد بحقق ذكي وعرض عليه أمر كعب الأحبار وما أخبر به عمر قبل القتل ما نجا كعب من النكال ولعد شريكاً للجاني ولكان حقيقاً أن ينفذ فيه قانون الاتفاقات الخائنة الذي شرع في مصر سنة ١٩١٠

كان بالمدينة رجل من نصارى الأنباري أقدمه سعد بن أبي وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة اسمه جفينة . وناحية الأنبار كانت تابعة للفرس وللرجل بهم إلف ، فكان يجتمع بالهرمزان ، وفيروز أبي لؤلؤة وقد روى أن عبد الرحمن بن أبي بكر مر بالهرمزان وأبي لؤلؤة وجفينة

يتناجون وهم جلوس فلما رأوا عبد الرحمن قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذى قتل به عمر بعد ذلك .

من اجتماع هذه الأحوال والمناسبات أرى أنه لا يكون بعيداً من الصواب من بعد قتل عمر نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائى غمس يده فيه كل من (١) الهرمزان (٢) فيروز أبى لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة (٣) جفينة الأنبارى (٤) كعب الأحبار اليهودى . ولو كان المسلمون فى شريعتهم إيجاب العقوبة بالقرائن ووجد من يحقق مع من بقى منهم بعد مقتل عمر لكان من المحتمل جداً أن يعاقب كل منهم على ذلك الاتفاق الأثيم . لأنهم فى ذلك الوقت يعتبرون من الرعية المسلمين لا الأعداء المحاربين فليس لهم عذر ولا شبهة عذر فى تدبير ذلك الجرم الفظيع .

كيف قتل عمر ؟

قال الطبرى : فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالاً فإذا استوت جاء فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سترته وهى التى قتلته وقتل معه كليب بن أبى بكير اللبى وكان خلفه . فلما وجد عمر حراً السلاح سقط وقال : أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا . قال تقدم فصل ، فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح . ثم احتمل فأدخل داره فدعا عبد الرحمن بن عوف .

ثم نادى عمر ابنه عبد الله وقال اخرج فانظر من قتلنى فقال : يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فحمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله تعالى سجدة ثم قال : يا عبد الله ائذن للناس فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه فيقول : عن ملامنكم كان هذا ؟ فيقولون معاذ الله .

وقد دخل فى الناس كعب الأحبار فقال : الحق من ربك فلا تكونن من

المعترين ، قد أنبأتك أنك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب .

ويقال إنه لما نظر عمر إلى كعب قال :

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب

وما بي حذار الموت ، إني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فقال : أى الشراب أحب إليه فجىء له بنقيع التمر فسقاه
نخرج على حاله من الجرح ثم سقاه اثنين نخرج على حاله فأيقن أنه ميت ولم يجد
للقضاء حيلة . وقد توفي عمر ليلة الأربعاء لثلاث ليل بقين من ذى الحجة
سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه بعد أن استأذن
عائشة في ذلك عقيب أن طعن — ولما أدرج في كفه ابتدر على وعثمان الصلاة
عليه فقال عبدالرحمن بن عوف : إنكما حريصان على الإمامة . ليس لكما ذلك
وإنما هو لصيب لأنه قد أمره أن يصلي بالناس . فتقدم صيب فصلى عليه
ثم حمل إلى حجرة عائشة فووري التراب . وكانت مدة خلافته عشر سنوات
وسنة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ دى الحجة
سنة ٢٣ وكانت سنة حين قتل ٦٣ سنة كصاحبه في أشهر الأقوال .

أما أبو لؤلؤة فتمد جهد الناس أن يقبضوا عليه فأصاب منهم ثلاثة عشر
رجلا بجراحات وأعيام أمره فجاء رجل من بني تيم وألقى عليه ردا ، فلما علم
أنه مأخوذ قتل نفسه .

كيف انتخب عثمان ؟

لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قيل له : يا أمير المؤمنين
لو استخلفت . قال من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته فإن
سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى

أبى حذيفة حياً استخلفته . فإن سألتى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إن سالماً شديد الحب لله - فقال له رجل : أدلك عليه . عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله . والله ما أردت الله بهذا . ويحك . كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ؟ لا أرب لنا فى أموركم . ما حدثها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شراً فشر عنا إلى عمر . بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر لى لسعيد . وأنظر فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولن يضيع الله دينه فخرجوا .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يقضى عمر نوبة بدون استخلاف فينتشر أمر المسلمين لتطلع كثير من الصحابة إلى هذا الأمر فتكون فتنة فى الأرض وفساد كبير ، فراحوا إلى عمر كره أخرى ، وقالوا : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً . فقال كنت أجمعت بعد مقاتلى لكم أن أنظر أولى رجلاً أمركم هو أحراركم أن يحملكم على الحق (وأشار إلى على) ودهمتنى غشية فرأيت رجلاً دخل جنة قد غرسها فجمل يقطف كل غضة ويأنة فيضمه إليه وبصيره تحته فعلت أن الله غالب أمره ومتوف عمر فما أريد أن أنحملها حياً وميتاً ، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنة ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله ولكن الستة : على وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزيير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله . فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوا واليا فأحسنوا موازرتة وأعينوه وإن ائتمن أحداً منكم فليؤد إليه أمانته . وخرجوا . ولقى العباس علياً فقال له لا تدخل معهم . قال أكره الخلاف . قال : إذا ترى ما تكره .

والذى أراه أن العباس غلب على ظنه أن القوم يفضلون اختيار غير على

فإذا حدث ذلك وهو واحد منهم كان عليه في ذلك غضاضة ورأى ذلك غصة لا يسبغها على إلا على ألم ، ولكنه إذا نقض يده من الأمر واختير واحد من جماعة ليس على واحداً منهم لم يكن الإيثار ظاهراً ولا غضاضة عليه في ذلك فأراد أن يحطاط لابن أخيه هذا الاحتياط .

فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام . فقال : إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض . إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا رجلاً منكم . ثم قال : لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريباً . ثم وضع رأسه وقد نزفه الدم . فدخلوا فتناجوا ، ثم ارتفعت أصواتهم . فقال عبد الله بن عمر . سبحان الله . إن أمير المؤمنين لم يمت بعد ، فاسمعه فانتبه . فقال : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيبي . ولا يأنين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر وطلحة شريككم في الأمر . فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فأقضوا أمركم . ومن لي بطلحة ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله فقال عمر : أرجو أن لا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين : علي وعثمان ، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين . وإن ولي علي ففيه دعاة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق . وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستن به الوالي . فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ونعم ذوى الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة ، إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء

الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتهم في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم . وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم . وأحضر عبد الله بن عمر وقيم على رؤوسهم . فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبي واحد فأشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبي اثنان فاضرب رأسهما بالسيف . فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر . فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر . فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا ! الباقي إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

انتخاب خليفة عمر

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وهم خمسة ، معهم عبد الله بن عمر وطلحة غائب ، وأمروا أبا طلحة أن يجيهم . وجاء عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب . فأقامها سعد وقال : تريدان أن تقولاً حضرننا وكنا في الشورى . فلما أخذوا في إجابة الرأي بينهم تنافسوا في الخلافة وكثر بينهم الكلام . فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها ، لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ماذا تصنعون ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أياكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فقال عثمان : أنا أول من رضى فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أمين في الأرض أمين في السماء . فقال القوم : قد رضينا وعلى ساكت . فقال : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال : لنؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تحض ذا رحم ولا تألوا لأمه . فقال عبد الرحمن : أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله .

تقلد عبد الرحمن الأمر على أن يختار أفضل أهل الشورى ، وخلا بعلي وقال له : إنك تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقربتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد . ولكن ، أرايت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال : عثمان ثم خلا بعثمان فقال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه لى سابقة وفضل - لم تبعد . فلم يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : على ثم خلا بالزبير فنكلمه بمثل ما كلم به عليا فقال : عثمان ثم خلا لسعد وقال له مثل ذلك فقال : عثمان . فلقى على سعدا فقال له : واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ، أسألك برحم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم أمى حمزة منك أن لاتكون مع عبد الرحمن لعثمان على ظهيرا فأبى أدلى بما لا يدلى به عثمان .

لم يقتصر عبد الرحمن على ما قدمنا فى الاستشارة فى هذا الأمر بل دار ليلاليه يلقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان . حتى إذا كانت الليلة التى ينتهى فى صبيحتها الأجل أتى دار المسور بن مخرمة وهو ابن أخته فأيقظه عبد الرحمن وقال له : ألا أراك نائما ولم أذق فى هذه الليلة كثير غمض انطلق فادع الزبير وسعدا فدعاهما . فبدأ بالزبير فى آخر المسجد فى الصفة التى تلى دار مروان . فقال للزبير : خل ابني عبد مناف وهذا الأمر . قال نصيبي لعلى . وقال لسعد : أنا وأنت كلاله : فاجعل نصيبك لى فأختار ، قال . إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى ، أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا فقال عبد الرحمن يا أبا اسحق إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار لى لم أردها ، قال : لا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد .

ومن هذا نرى أن الزبير وسعد حالا عن رأيهما الذى قالاه لعبد الرحمن أولا لأنهما كانا قد أشارا عليه بعثمان لو لم يحضر كل منهما الأمر ، وإنى لا أدرى السبب

في هذا العدول وغاية ما يمكنني أن أقوله أن كلا منهما راجع فكره ونظر إلى مصلحة المسلمين ، فرأى أن عليا يكون في سيرته أقرب إلى منهاج عمر من القوة على الحق والبعد عن الانغماس في الدنيا والاعتزاز بزيقتها ، وأن عثمان فيه رقة ورأفة وقد أخذت منه الشيخوخة مأخذها ومن كان كذلك كان أقرب إلى استكفاء غيره والركون إلى مشورة سواه وهم لا يدرون من يكون ذلك الكافي ؟ ولا يثقون بمنهج المشير — أو يكون على قدر كلام علي في سعد — ثم أرسل السور إلى علي فجاء فناجاه طويلا ، ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح وكان علي لا يشك في أن الأمر له — فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد — فاجتمعوا حتى النج المسجد بأهله ، فقال : أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا . فقال أشيروا على بغير هذا . فقال عمار : إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا فقال المقداد بن الأسود صدق عمار إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقال عبد الله ابن أبي سرح : إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله ابن أبي ربيعة صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا ، فشم عمار ابن أبي سرح ، وقال : متى كنت تنصح المسلمين ؟ فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ فقال رجل من بني مخزوم : لقد عدوت طورك يا ابن سُمَيَّة وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ، فقال سعد ابن أبي وقاص : يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتن الناس ، فقال عبد الرحمن إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لنعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان . فقال

له مثل ما قال لعلي ، قال : نعم فبايعه . فقال : على حَبْوَتِهِ حَبْوَةَ دَهْرٍ ، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون : والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك والله كل يوم هو في شأن ، فقال عبد الرحمن يا علي لا تجعل على نفسك سبيلًا ، فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج على وهو يقول : سيبخ الكتاب أجله . فقال المقداد : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال : يا مقداد ، والله لقد اجتهدت للمسلمين .

قدم بعد ذلك طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان ، فقبل له : بايع عثمان فقال : أكل قريش راض به ؟ قالوا : نعم فأتى عثمان ، فقال له عثمان : أنت على أمرك إن أبيت رددتها قال : أتردها ؟ قال : نعم ، قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم ، قال : رضيت لا أرغب عما قد أجمعوا عليه وبإيع . وقد ورد أن المغيرة بن شعبة قال لعبد الرحمن أصبت إذ بايعت عثمان ، وقال لعثمان لو بايع غيرك ما رضينا فقال له عبد الرحمن : كذبت يا أعور والله لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة .

وروى الطبري في خبر أن عليا تلسكأ في بيعة عثمان فقال عبد الرحمن ابن عوف : ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خدعة وأيما خدعة .

الحالة العامة في عهد عمر

إن الحالة العامة للمسلمين على عهد عمر بن الخطاب تختلف عنها في عهد أبي بكر فقد تقوى في عهد عمر الدين وصارت كلمته العليا في جزيرة العرب وتوطد الملك للمسلمين وشيدت دعائم الدولة ونسى العرب ما كان بينهم في الجاهلية من الانقسام والتفرق ومحاربة بعضهم بعضاً وزالت عن أعينهم غشاوة الجهل بأمور الدول وتجردوا عن كثير من تلك السذاجة التي كانت فيهم ،

وصارت الأمة الإسلامية سائسة ملك وربة سطوة ومؤسسة دولة ومقننة قانون وصاحبة دين أهاب بها إلى الجدد وحملها على مزاحمة أمم التاريخ بالمناكب حتى وسمت بأنها أعظم الأمم .

في عهد عمر كانت حياة الأمة نامية نمواً عجيباً يتدفق فيضها الحيوى في جميع عناصرها وأعضائها تدفقا ينبعث كل جزء من أجزائها وينمى ذلك الجسم نمواً سريعاً يؤذن بانقلاب في العالم تهتز له أعصاب دول الأرض ويتناول أهل المشارق والمغارب — فاندفعت الأمة في عصره بما استحدثه فيها الدين من الاتحاد القومى وما رسخ في اعتقادهم من أنهم الأمة الوارثة للأمم ، وأن الله تعالى سيمكن لها في الأرض ويجعل أهلها أئمة ويجعلهم الوارثين . فسال سيلهم على أطراف الممالك المجاورة لهم وهم الفرس والروم ، فزلزلوا سلطان فارس وتغلغلوا في أحشائها وطم سيلهم على بلادها وطغى على ما جاورها من البلدان النائية والأمصار المترامية ووطئت خيلهم بلاداً لم يمر اسمها على خاطرهم وشردوا حامل تاج ملك فارس وألوا عرشه وأزعجوا القواد والرؤساء حتى درس ذلك الملك وعيروا تلك الدولة الساسانية تاريخاً يعبر كأن لم تغن بملوكها البلاد ولم تكن لهيبتهم وجوه العباد .

وأما الدولة الرومانية فقد انتقصوا أطرافها وقلصوا ظلها عن الجزيرة وسورية وجزء من أرمينيا وجميع مصر وبرقة . وفي كل آن لهم غارات في قراهم وفتكات في جنودهم وأحشاء بلادهم وبلغزونهم في عقر دارهم وبمراى ومسمع من عاصمة ملكهم ومستمر عزهم ، بجنود أقل من جنودهم عدداً وعدة ، وهم في كل مرة يوانتهم الظفر ويسعفهم النصر .

كانت الممالك المجاورة للعرب قد تأصلت فيها جذور الاستبداد ورثم أهلها الاستعباد وقد نسي الرومان معنى الحرية التي جاهد آباؤهم في سبيل إحرازها جهاد الأبطال وانتزعوا حريتهم من أيدي الأباطرة انتزاعاً — وقد بئس الفرس بنفوسهم للبلوك والرؤساء واستعبدوا لأشراف البلاد . وقد تساوى الفرس والروم في فقدان مبدأ الاعتماد على النفس وحب الاستقلال

الذاتي في أصول حياتهم وفروعها — ولكن العرب الذين جاسوا خلال ديارهم وألقوا رحالهم بينهم جاءوا إليهم حاملين للحرية التي امتزجت بدماهم وخالطت جواهر نفوسهم . حتى بلغ من أمرهم أنهم لا يطبقون من أميرهم أن يتفوق عليهم في شيء من الأشياء . وقد شكوا بعض العرب أبا موسى أمير البصرة لأن له جارية يقال لها عقيلة يرفع لها جفنة لغداؤها وجفنة لعشائهما وهم لا يقدرّون على مثل ذلك — وقد كان من ورائهم عمر بن الخطاب يُقيدُ العامة من الأمراء — ويقول بملء فيه على المنبر : من ظلمه أميره فلا إمرة له عليه دوى .

نفث العرب الفاتحون في روع أهل البلاد المفتوحة روحا جديدة وذوقهم حلاوة الحرية الشخصية . وأشعروا نفوسهم أنهم بشر لا ينحطون في الحقوق العامة عن مرتبة الأمراء ، حتى بلغ من أمر أحد المصريين أنه لما أدين من ابن عمرو بن العاص أمير مصر شخص إلى مقر الخلافة يشكو ابن الأمير . فأقاده عمر منه دون محاباة ولا مجاملة لأبيه ولا مراعاة لمكانته وسابقته وحسن بلائه .

عدل شامل ينعم به الموالي ، ويغضب به العدو ويفيضه عمر على الرعية ما بين برقة ونهر جيحون غربا وشرقا ، وما بين القوقاز والآناضول شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا ، لا يشعر أحد من الرعية بتميز أحد عليه إلا بالتقوى وحسن البلا .

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة فأشعرت قلوبهم لزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة كما هي سنة الوجود . وليس في أيديهم من أدوات تلك الحياة سوى الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر . والشرع الإلهي الذي أطلق عقولهم من أسر التقليد وأخرجهم من الظلمات إلى النور . فأخذوا بحكم الطبيعة يقلدون مجاورهم في العادات وبدأوا يبارونهم في مضمار الحياة . وكان أول شيء طمحت نفوسهم إليه تقليد مجاورهم في فنون القتال ومحاذاة الروم وفارس في استصناع الآلات الحربية ليقابلوا القوة بمثلا ويعدوا للمفوح عدتها — ثم تطرقوا إلى الأمور

السياسية والإدارية يتحدثون مثلهم فيها ويترسمون خطواتهم في العمل بها . فوضع عمر التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما كان موجوداً عند الدولتين : الفارسية والرومية . ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ، وفرض العطاء وقرر مصرف النية في غير سرف ولا تقتير ، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف في حقوق الرعية ولا غبن على الدولة . فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران في أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة إلى الراحة والنعم مع الأخذ على الشكاكم والتحوشن بعض الشيء في الماء كل والملبس ، والتوسط في العيش ، والقصد في الإنفاق وعدم التبسط في البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر ، كما يتبين ذلك من صنعه مع خالد إذ أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف . فكان ذلك سبباً لا اعتقاله بفضل عمامته وتقريره عن الدراهم التي أجاز بها ؛ أمن إصابة أم من ماله وعزله على كل حال إذ أقامه عمر بين الخيانة والإسراف وكل لا خير فيه .

ومن جهة أخرى فإن عمر لم يدع للعرب في مدته فرصة تمكنهم من الإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل النعم والسكون تحت كنف الأمصار . والتبسط في نعيم الحياة وزخرف العيش . بل دفع بهم في معترك الحياة الحضرية وزج بهم في معترك الحروب في وقت واحد . وكانت الحروب أكبر همهم والتغلب على العدو أثر شيء لديهم فشغلهم عن النعم والرفاهة بالفتوح وألهام بادخار الغنائم عن التمتع بها . وأرجأوا ذلك ريثما يفلوا من غرب الدول المجاورة لهم ويأمنوا غائلة الأمم المغلوبة وانتقاضها عليهم .

استفاد العرب من هذه السياسة العمرية في أحوالهم الاجتماعية فلم يسمع في زمنه ناعق بفرقة ولا صائح بانقسام ولا داع إلى تناور وتدابير ولا هاتف بعصية بل كان حزام من يفعل ذلك الضرب بالسيف — ولكن اندفاع القوم إلى الفتوح وتفرقهم في أنحاء الممالك وتمعجلهم الظهور قبل تأصل الدين فيهم وتمكنه من نفوس عامتهم . نشأ عنه بعد ذلك تشويش في الدين والملك — ومن

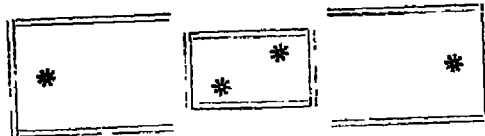
ذلك عدم الإجهاز على الوثنية ومحو أثرها من البلدان المفتوحة مع دخول كثير من أهلها في الإسلام . فاختلفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر كرة ثانية مصطبغة بصبغة أخرى نتج عنها تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين وبخاصة بين الأعاجم من المسلمين أو الذين ظهروا بمظهر الإسلام واتسموا بسمته .

ومن المعلوم أن الإسلام طم على البلاد بسرعة مدهشة فائقة الوصف . والشئ إذا سار بسرعة لم يكن طروء الخطأ والفساد فيه مأموناً . كالمضاعفة النار بشئ تريد نضجه فإنه وإن نضج ظاهره في وقت قريب فإن باطنه لم يزل فجاً لا أثر للنضج فيه . ولهذا كانت سرعة تأخر الأمة العربية في الحضارة والرقى بمقدار تقدمها في ذلك وسرعة فتحها للبلاد .

والذى يمكن أن يكون عذراً لعمر أن سياسته في تعجل الفتح أول الأمر كان لها فائدة جلية في ذلك الحين . وذلك أنه دفع بالقوم إلى الفتح في إبان الظهور وانتقاد حمرة الحماسة في النفوس قبل أن تطفأ تلك الوقدة وتتحل عقدة الإخاء بين قبائل العرب وتتراخى أسباب الألفة فأراد أن يساجل القوم قبل أن يلتئم شملهم ويكاثروا العرب بما لا قبل لهم به — فلما نال القصد وأدرك الغاية عمد إلى الإبراء عليهم وهم بأن لا يرخى لهم طول الفتوح وأن يقنعوا بما أحرزوا ولكن القوم أخطروه بما كان يبدو منهم من الانتقاض ونكت العهود إلى الإذن للمسلمين بقطع مادة الفساد .

وما يدل على أن عمر كان يسوق الأمة إلى المدنية سوقاً تدريجياً ، ولم يكن يريد بهم الاقتحام في تيارها ما كان منه حين ورد عليه الأحنف بن قيس في وفد من أهل البصرة فتكلم عنهم فقال : ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك بما فيه صلاح العامة . وإنما ينظر الوالى فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بأذنانهم وإنما لم تنزل منزلاً بعد منزل حتى أرزنا إلى البر . وإن إخواننا

من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب
والجنان الخصاب فتأتيتهم ثمارهم غضة ولم تحضد. وإنا معشر أهل البصرة
نزلنا سريخة هشاشة زعقة نشاشة طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر
الاجاج يجرى إليها ماء جرى في مثل مريء النعامة دارنا نخمة ووظيفتنا ضيقة
وعددنا كثير وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا
صغير، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين
وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها فقال عمر. هذا الغلام سيد أهل البصرة.
وأمسكه سنة لثلا يحمل الناس على فضل عقله. فيطلب منهم مثل ما عنده
فيورطهم. وكذلك فعل مع زياد حين أوفده عليه أبو موسى واحتبسه. فسأله
زياد عن السبب. فقال: كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك.



ترجمة عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي ، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف . يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو ، وثانينهما أشهرهما ، ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل . وأمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف . وأما اليضاه أم حكيم بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان عثمان تاجراً وقد ذهب إلى الشام مرة في تجارته . وقد أدرّ الله تعالى عليه أخلاف الخير فقد كان واسع الثروة كثير المال - وقد شبّ على كريم الشيم وحسن السيرة عفيفاً حياً محبباً في قومه مأموناً عندهم أثيراً لديهم . أخرج ابن عساکر عن الشعبي قال : كان عثمان في قريش محبباً يوصون إليه ويعظمونه . وإن كانت المرأة من العرب لترقص ولدها وهي تقول :

أحبسك والرحمن حب قريش عثمان

أجاب عثمان إلى الإسلام بدعوة من أبي بكر وكان إسلامه مع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . فهو من السابقين الأولين الذين أحرزوا فضل سبق ونفخ القيام بنصرة الدين . وقد روى ابن الأثير في أسد الغابة عن ابن عباس أن قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) نزلت في عشرة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود .

كان عثمان في صحبته محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كريماً عليه وقد أصر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته رقية بعد إسلامه . ولما ناله الأذى من قريش في الإسلام هاجر بها إلى الحبشة . وفي ذلك قال رسول الله

• صحيحهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط ، يشير إلى قوله تعالى
• فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ، ثم رجع من الحبشة إلى مكة . فلما
كانت الهجرة إلى المدينة هاجر إليها — وهي الهجرة الثانية — وقد بقيت رقية
معه إلى أن توفيت بالمدينة في اليوم الذي أظفر الله المسلمين على مشركي قريش
ببدر . ولم يشهدا عثمان لأنه كان قائماً على تمرير زوجته . ولكن رسول
الله أسهم له مع الغامين فعد بدرياً .

شهد عثمان مع رسول الله جميع مشاهده إلا بدراً كما قدمنا وقد زوجه
رسول الله بابنته أم كلثوم : ولهذا كان يلقب بذي النورين لأنه كان ختن
رسول الله في ابنتيه رقية وأم كلثوم إلى أن توفيت في السنة التاسعة من الهجرة
وفد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن لنا ثلاثة أزواجنا . وهذا يدل
على شدة حب رسول الله له وثقته به وسمو مكانته عنده .

ولما كانت بيعة الحديبية كان عثمان سفير رسول الله إلى قريش فلما شاع
أن قريشاً غدرت بعثمان بايع أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان ثم علم
حينذاك أن عثمان حى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن عثمان في حاجة الله
وحاجة رسوله ، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال بيده اليمنى :
• هذه يد عثمان ، فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

كان عثمان كريم النفس جواداً بماله يخفى اليد في طاعة الله عز وجل وإعلاء
دينه حتى أنه بدل في تجهيز جيش العسرة من ماله ما لم يبذله أحد فقد جهز
ذلك الجيش بألف بعير وخمسين فرساً — وقد أخرج الترمذي عن أنس
والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبي صلى الله
عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة ونثرها في حجره فجعل رسول
الله يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم ، مرتين .

ومن مسارعته إلى البذل ابتغاء وجه الله تعالى أن يثر رومة كانت ركية

ليهودى يبيع المسلمين ماءها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائلهم وله بها مشرب في الجنة فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها . فاشتري نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان : إن شئت جعلت على نصيبي قرنين وإن شئت فلي يوم ولك يوم قال بل لك يوم ولى يوم . فجعل المسلمون إذا كان يوم عثمان استقوا ليومين . فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت على ركبتي فاشتر النصف الآخر . فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم وصارت كلها للمسلمين .

ومن هذا القبيل أن رسول الله قال : من يزيد في مسجدنا ؟ فاشتري عثمان موضع خمس سوار فزاده في المسجد .

وكان عثمان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لآبى بكر ثم لعمر أمينا كاتبيا يستشار في مهام الأمور ويؤخذ رأيه في جلائل الأعمال ولما قتل عمر رضى الله تعالى عنه كان أحد الستة الذين قال فيهم عمر : إن رسول الله مات وهو عنهم راض وإنهم رؤساء الناس والناس لهم تبع . وكانت استشارة عبد الرحمن بن عوف للناس في شأن من يلى الخلافة تتجلى في الغالب عن أن أكثر المشيرين يطلبون تولية عثمان وقد بويغ بالخلافة بعد ذلك فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م) .

أول قضية نظر فيها عثمان

قدمنا أن أبا ثؤلوة فيروز الفارسى غلام المغيرة بن شعبة هو الذى قتل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وقد قتله رجل من بنى تيم أو قتل نفسه لما أعيا القوم القبض عليه ، وقد قتل رجلا من المسلمين وجرح ثلاثة عشر رجلا — فلما كان ذلك جاء عبد الرحمن بن أبى بكر وأخبر أنه رأى أبا ثؤلوة قبل قتل عمر بيوم ومعه جفينة وهو رجل نصرانى من أهل الأنبار جاء به سعد بن أبى وقاص

ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة الكتابة ومعهما الهرمزان ذلك الملك العارسي - وحاله كما وصفنا - وهم نجي فلما زهقهم عبد الرحمن قاموا وسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ثم قال فانظروا بأى شيء قتل فقاموا بالخنجر الذي قتل به عمر فإذا هو بالصفة التي وصفه بها عبد الرحمن . سمع ذلك عبيد الله بن عمر فاعتقد أن أباه قتل بمائة هؤلاء الثلاثة وأنهم شركاء في دمه . فأمسك حتى إذا مات عمر - اشتمل عبيد الله على سيفه فأتى الهرمزان فقتله فلما عضه السيف قال لا إله إلا الله ثم مضى حتى أتى جفينة فعلاه بالسيف فصلب بين عيذه ثم قتل ابنة أبي لؤلؤة . ولما علم صهيب بذلك بعث إليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول السيف : بأبي وأمي . حتى ناوله إياه وناولوه سعد بن أبي وقاص وجذبه من شعره وأخذ به حتى جاء به إلى صهيب فحبسه في دار سعد بن أبي وقاص حتى إذا انتهى عثمان من البيعة دعا بعبيد الله بن عمر . وقال لجماعة المهاجرين والأنصار وهو جالس في ناحية المسجد أشيروا على في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق . فقال على أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي .

إن عبيد الله يعتبر من الوجهة الشرعية قاتلاً قتل عمداً ولا يمكن أن يعتبر عمله هذا قصاصاً لأنه قتل غير القاتل ومن قتلهم لم يثبت عليهم الاشتراك في الجناية ثبوتاً شرعياً ولا يتولى القصاص إلا بعد الحكم ولو ثبت اتفاقهم على هذه الجناية لم يكن الحكم الشرعي مبيحاً لقتل من قتل والشرع لا يأخذ في الحدود والعقوبات بالقرائن التي من هذا القبيل فكان عبيد الله مستوجبا للقصاص بلا شبهة - ولم يكن ما أشار به عمرو بن العاص من أن ذلك الأمر حدث في غير سلطان عثمان كافياً في نجاته من العقاب ولو أن عمر كان حياً وقد صنع ابنه ما صنع لأمضى فيه حكم الله - غير أن عثمان رأى ما رآه بعض المهاجرين من استفطاع

على أثر مقتل أبيه وأن يكون بدمه خلافته إدخال المصيبة على آل الخطاب خاصة من بين المسلمين فرأى للخروج من هذا المازق أن يجعلها دية في ماله وهو تخلص حسن - وكان رجل من الأنصار يقال له زياد ابن لبيد البياض إذا رأى عبيد الله يقول :

ألا يا عبيد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دما والله في غير حله حراما وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قاتل أتتهمون الهرمزان على عمر؟
فقال سفيه والحوادث جمّة نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلبها ، والأمر بالأمر يعتبر
شكا عبيد الله زياد بن لبيد إلى عثمان فنهاه فقال :

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه وأسباب الخطأ فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق فمالك بالذي تحمكي يدان
فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشده به .

إن الهرمزان وجفينة قتلا مظلومين شرعا ولكن الظروف التي وجد فيها
الهرمزان وما يحتف بسيرته من الغدر المتكرر ومارواه عبد الرحمن بن أبي بكر
لا توجد في القلب موصعا للأسف لما لقيه وعندي أنه لو وجد محقق ماهر
لأثبت اشتراك الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة وكعب الأحبار في المؤامرة
لاغتيال عمر .

أول خطبة لعثمان

قال الطبري - لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو اشدّهم كآبة فأق
منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى
على النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار
فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتم صبيحتكم أو مسيتكم ألا وإن
الدنا طويت على الغرور فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور .

واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رضى الله بها . واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا والذي هو خير فقال عز وجل : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ، - وذكر غير الطبرى أنه ارتج عليه .

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

لما ولي عثمان الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار كتاباً عاماً صورته :

« أما بعد . فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذى تقاتلون فاستفتحوا عليهم بالوفاء . »

وكتب إلى أمراء الأجناد بالشعور « أما بعد . فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغيب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه . »

وكتب إلى عمال الخراج (أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق واعطوا الحق به . والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم .

والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم .

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار ، أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالافتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل الدعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والآعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه :

- (١) مكة ، وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي .
- (٢) الطائف ، وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي .
- (٣) صنعاء ، وأميرها يعلى بن مُنبه حليف بني نوفل بن عبد مناف .
- (٤) الجند ، وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة .
- (٥) البحرين وما والاها ، وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي — وهذه الخمس في جزيرة العرب .

- (٦) الكوفة ، وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي .
 - (٧) البصرة ، وأميرها أوموسى عبد الله بن قيس الأشعري .
- وهاتان بالعراق :

- (٨) دمشق ، وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي
 - (٩) حمص ، وأميرها عمير بن سعد .
- وهاتان بالشام .

- (١٠) مصر ، وأميرها عمرو بن العاص السهمي .

الفتوح في زمن عثمان

إن جنود الإسلام كانت في زمن عمر قد فتحت المملكة الفارسية جميعها وبلاد سورية كذلك ومصر . غير أن بعض ما فتح لم يكن الأمر فيه موطداً توطيداً تاماً : بل كان أهله يجيئون كل داع إلى شق العصا وخلع اليد من الطاعة فكانت الجنود الإسلامية تقوم بردهم إلى الطاعة في زمن عثمان وتثبت حكم الإسلام فيها — ولهذا يكون إرجاع تلك البلاد إلى الطاعة فتحاً على التحقيق وللمسلمين في عهد عثمان فتوح في بلاد لم تطأها أقدام جنود الإسلام من قبل وسنذكر ذلك إن شاء الله .

إن صديقنا الفاضل رفيق بك العظم لم يمر في كتابه (أشهر مشاهير الإسلام) بروايات المؤرخين في الفتح الإسلامي مروراً بسيطاً بل وقف وقفة المدقق الباحث وقد تسنى له الوقوف على تواريخ الأمم التي كان الفتح الإسلامي في زمن عثمان موجهاً إليها . وقد أتبع له تحقيق واف شاف في فتوح بلاد أرمينيا أحببت أن ألم به وأجعله عمدة كلامي في هذا الباب سواء كان ذلك بأخذ العبارات بنصها أو تلخيصها بحسب ما أراه .

فتح أرمينيا والقوقاز في عهد عثمان

نجد أرمينيا شمالاً بالبحر الأسود وكرجستان . ومن الشرق بكرجستان أيضاً وجزء من بلاد فارس . ومن الجنوب بكرجستان والجزيرة . ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود أرمينيا الآن — والعرب كانوا ينوسعون في هذا الاسم . فربما أدخلوا في أرمينيا قسماً من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو « أران » المشتمل على مقاطعة أريوان وتفليس . وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالاً إلى داغستان . وشرقاً إلى أذربيجان وبحر الخزر . وأما من جهة الجنوب فكانوا يدخلون فيها قسماً من كردستان وهو عمالة بتليس

وربما جعلوها من أرمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة . ولهذا لم يذكر مؤرخو العرب فتح القوقاز على حدة . بل جعلوه مضمونا إلى فتح أرمينيا .

قال : وقبل أن أبسط الكلام في جغرافية القوقاز أذكر هنا بعض الأماكن الشهيرة في أرمينيا زيادة في الإيضاح .

فن مدن أرمينيا الشهيرة : خلاط . وقاليقلا — (التي هي أرزروم أو أرزن الروم كما يقول أبو الفداء) وإلى جهة الغرب منها أرزنجان . ثم أرجيش على بحيرة وان . ووان — وهي في الطرف الشرقي من البحيرة المسماة باسمها . وفي الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الحودي — أواراط الذي استوت عليه سفينة نوح ومن أنهارها الفرات وأراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب أرزروم ويمر في مقاطعتي القارس وأرزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كور الآتي من أعلى القارص وتفليس ويصبان في بحر الخزر .

أما بلاد القوقاز — حالا — فتحد شمالا ببلاد روسيا (ونحن الآن لا ندرى أى حكومة من الحكومات الروسية تجاورها من الشمال بعد أن انقسمت روسيا إلى حكومات عديدة ، والحدود لم تحدد إلى الآن ولم ترسم خريطة للممالك ، وقد دخل في تركيبها بعض هذه البلاد فقد استولت على باطوم والقارص وأردهان ، ودخل في حكمها مدينة باكو على بحر الخزر ، وإلى الآن في يوم ١٢ مارس سنة ١٩١٨ لم تجل الحال تماما) وجنوبا العجم وتركيا وآسيا (وعلى ما قدمنا تكون أرمينيا القوقازية التابعة لتركيا) وشرقا بحر الخزر الذي يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغربا البحر الأسود . ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أَرَان) من تسمية الكل باسم الجزء .

فن أقسام البلاد الجنوبية أيريا أو كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور

وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالا إلى داغستان^(١) ويظهر من سياق خبر الفتح في تاريخ البلاذري أن العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وأنه يمتد غربا إلى آسيا الصغرى — ومن مدن الران الشهيرة الروان، وفيها كنيسة كبرى للأرمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردة والباب. أو باب الأبواب (دربند) والبيلقان. قال الإصطخرى: ليس في اران مدينة أكبر من بردة والباب وتقليس. ومن أقسامه الشمالية — بلاد الجركس. ويجرى فيها نهر قوبان الذي يصب في البحر الأسود ونهر كوما — وترك (تهرك) اللذان يصبان في بحر الخزر. ومن أقسامه داغستان على بحر الخزر، وفيها يجري نهر سمور في السهول الواقعة شمال داغستان. ومن مدنها الشهيرة باكو التي فيها منابع النفط (ولعلها التي يسميها القرماني في جغرافيته. باكوية.) — ودربند على شاطئ بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه إلى السهول الشمالية حيث قتل على نهر. ترك. الذي يسميه العرب نهر بلجر.

لا خلاف بين المؤرخين في أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين أولاهما على عهد عمر بن الخطاب والثانية على عهد عثمان بن عفان. وقد أيد هذا الكلام تواريخ الأرمن وأشار إليه القس جبرائيل الخابجي في مختصر تاريخ الأرمن وإن لم يذكر أسماء الغاتحين في المرتين ولم يعين السنين بالضبط. أما ديفرچی فقد عين مدة الخليفة فأخطأ: والثابت عند مؤرخي العرب أن فتح تلك البلاد في عهد عمر كان سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م وأما فتحها في عهد عثمان فكان في سنة ٢٦ هـ ٦٤٦ م — كما يعلم من مقارنه التواريخ وجعل الطبري ذلك سنة ٣١.

كان بكير بن عبد الله وعنه بن فرقد قد فتحا في خلافة عمر بلاد أذربيجان الواقعة شرقي بلاد أرمينيا — فكتب بكير بالفتح إلى عمر. فكتب عمر

(١) تكتب في الزكية بالطاء وتطلق دالا معجمة

إلى سراقه بن عمرو بغزو الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى مجنبيه ابن أسيد الغفاري وبكير بن عبد الله المتقدم ، وعلى المقاسم سليمان بن ربيعة — وكتب إلى حبيب بن سلمة الفهرى أن يمد سراقه وهو يومئذ بالجزيرة . فلما نهض سراقه من البصرة لوجهه ، تقدم عبد الرحمن إلى أرمينيا الشرفية وفتحها حتى وصل إلى الباب « دربند » ، على شط بحر الخزر وعليها شديار فسكاته واستأمنه « كما قصصنا ذلك من قبل » ، — ولما فرغ سراقه من الباب بعث الأمراء والقواد إلى ما يليه من بلاد أرمينية . فأرسل بكير ابن عبد الله إلى موقان وحبيب بن سلمة إلى تفليس عاصمة كرجستان . وحذيفة ابن اليمان إلى بلاد جبال اللان « القوقاز » ، فاشتبكت جيوده في أرمينيا وأطرافها مع الأمير أوهان بن كامساركان — وأخيه ديران — وقتلا وتشنت جندهما بخيانة أحد قواد الأرمن المسمى ساحور ، فإنه خان أوهان ، وانضم بجيشه إلى العرب ، كما يقول ديفرجي وصاحب تاريخ الأرمن .

أما حبيب بن سلمة الفهرى الذي قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فهض له ثيودور أحد أمراء البلاد ، وكانت البلاد منقسمة على بعضها ، وبذلك سعى في جمع كلمة الأمراء في أرمينيا ودحو لهم تحت لوائه لصد المسلمين ففشل فيما حاول وكان البطريك استراس يؤازره ويعضده — فلما رأى أن الأمر على غير ما يشتهي أصابه الغم الشديد ومات غماً وكداً .

بينما الأرمن مهتمون في إقامة بطريك — غير استراس إذ فاجأهم المسلمون بقيادة حبيب بن سلمة وحاصروا مدينة ، دوفان ، أو — تفين — وفيها كرسى البطريك ويقول ديفرجي : إن حصارها بدأ في نوفمبر سنة ٦٣٩ ذى القعدة سنة ١٨ هـ واستمر إلى اليوم السادس من يناير سنة ٦٤٠ م ٥ المحرم سنة ١٩ هـ ففتحها حبيب ثم أخذ في إتمام فتح أرمينيا وكرجستان ، ففتح وان ، وبخشوان ، وسيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون « أراس وأراكس » ، — ثم سار إلى أرمينيا الغربية ثم عطف على إبيريا (١٨ — ملحقاً)

التي هي جزء من كرجستان الحالية وأخذ عاصمتها وسائر مدنها الكبرى — وفي أثناء ذلك مات سراقه واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر على ثغر الباب وأمره بغزو الترك ، فسار شمالاً مجتازاً مدينة الباب وبلادها بعد أن استخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شاطئ بحر الخزر وكان سكانها على جانب عظيم من التوحش والجهالة . وبعد أن اجتاز الباب أوغلت خيله في السهول الشمالية إلى مائتي فرسخ من بلنجر (تهر ك) ثم عاد ولم يبق له أحد من أهل تلك الناحية . وقد حكى الطبري : أن أهل تلك الناحية كانوا يعتقدون أن هؤلاء العرب يموتون ولا يقطع فيهم السلاح . فكانوا يهربون منهم في الآجام والغياض ، ثم عاد عبد الرحمن إلى الباب . وجعل يردد غزواته في تلك الناحية إلى أن جرب أحد أهل تلك البلاد قتل المسلمين بأن كمن في إحدى الغابات ورمى رجلاً منهم فقتله . فأحبر قومه بأن هؤلاء المسلمين كالناس يقتلون ويموتون . فطمعوا في المسلمين واجتمعوا لقتالهم . وقد قتل عبد الرحمن بن ربيعة في إحدى الوقائع في بلادهم زمن عثمان . وقد قال الطبري : إنهم احتفظوا بجسم عبد الرحمن يتبركون به ويستسقون ويستنصرون به إلى الزمن الذي أدركه الطبري وكان على نهر (تهر ك) وأخذ الزاية أخوه سليمان وخرج بالأسلح فسلك طريق جيلان إلى جرجان بأن دار على شواطئ بحر قزوين — وبعضهم سلك طريق الباب إلى أرمينيا .

فكان فتح عبد الرحمن قد بلغ إلى شمال بلاد القوقاز في شرق أرمينيا مما يلي بحر الخزر . وأما حبيب فقد بلغ في فتوحه شمال القوقاز أيضاً مما يلي البحر الأسود كل ذلك في خلافة عمر فيما بين سنتي ١٨ و ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح لم يكن إلا فتحاً هيناً غير موطن الدعائم . بل كان فتحاً على الجزية — ولم يكن عند المسلمين من الجند العدد الكافي لسد هذه الثغور وتوطيد الأمن فيها وتثبيت كلمة المسلمين في نواحيها المتناحية وأطرافها المترامية . وقد كان عمر

يظن ذلك كما روى ذلك العلامة ابن خلدون . وقد صدق ظنه — فقد قال ديفرچى : إن المسلمين قد اضطروا عقب ظهور الخزر على نهر ترك — إلى الجلاء عن كل أرمينيا ثم عادوا إليها بقوة أعظم سنة ٦٤٦ - سنة ٢٦ هـ وهى السنة التى وجه فيها عثمان حبيبا وسلمان إلى استرداد البلاد وفتح أرمينيا والقوقاز ففتحهاها وكان الفتح الأول تمهيدا للفتح الثانى الذى صارت به البلاد تابعة للدولة الإسلامية ولم تنتقض إلا فى فترات قليلة ثم استتب فيها الأمر للمسلمين .

وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الأرمن إلى تسليم الأرمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد سنباط بن فارازديروس الذى كان واليا من قبل قيصر القسطنطينية إذ كان الأرمن طلبوا واليا من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التى كانت متسلطة عليهم ، وزار سلطانها بعد أن بدأت حروبها مع المسلمين فولى الإمبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مدة سنة ومات وخلفه ابنه سنباط .

فى خلافة عثمان انتقضت أرمينيا ، والظاهر أن ذلك كان لضعف حاميتها وقلة عددهم وكثرة أهل البلاد ورغبة كبرائهم فى التخلص من أيدي المسلمين ، وساعد على ذلك بعد البلاد عن مركز قوة المسلمين وإبطاء النجدة عنهم ، وكان عثمان قد جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها ، وأمره أن يغزو شمشاط وهى أرمينيا الرابعة أو يغزيها ، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهرى قد فتحها مع عياض بن غنم فى خلافة عمر فوجهه معاوية فى ستة آلاف مقاتل لفتح أرمينيا فهض إليها حتى أناخ على قاليقلا سنة ٢٦ هـ وأقام عليها حتى خرج إليه أهلها طالبين الصلح على الأمان والجزية فأجابهم إلى ذلك وجلا من جلا وأقام من أقام .

أقام حبيب بقاليقلا بعد افتتاحها ، وبلغه أن الموريان بطريق أرمينيا قد جمع جموعا عظيمة وانضمت إليه أهل اللان وأنخاز وسمدر من الخزر - فكتب إلى عثمان يسأله المدد - فكتب عثمان إلى معاوية أن يمدّه بقوم من أهل

الشام والجزيرة ممن يرغب في الجهاد فأمدّه بألوف رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها . وكتب عثمان أيضا إلى سعيد بن العاص أمير الكوفة أن يمد حبيب بن مسلمة بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وكان غزاه صاحب إقدام ومكيدة في الحرب . فسار إليه سلمان بستة آلاف من جند الكوفة وأقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات . وقد أبطأ على حبيب المدد ، ورأى حبيب أن يبني أعداءه على ما يجنده من قلة عله أن يصيب منهم غرة قبل أن يقووا عليه ، فبيتهم واجتاحهم وقتل قائدهم .

وبما يؤثر من شجاعة النساء . وقوة جيش بعضهن ، أن أم عبد الله الكلبيّة زوج حبيب قالت له ليلة أن قام لتبيت جند الروم : أين موعذك ؟ قال : سراق الطاغية (يعنى الموران) أو الجنة . فلما انتهى إلى السراق وجدها عنده ولما ورد سلمان بجنوده وقد فرغ حبيب من أمر عدوه أراد سلمان أن يتأمر على حبيب ومن معه من الجند كما جرت به العادة من أن هذه الناحية كان غزوها لأهل الكوفة والأمير منهم من قبل ، فأبى عليه حبيب ذلك حتى قال أهل الشام : لقد هممنا بضرب سلمان ، فقال أوس بن مغزاه وهو من جند سلمان :

فإن تضربوا سلمان بضرب حبيبتكم وإن ترحلوا نجو ابن عفان نرحل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير في الكنائس مقبل
ونحن ولادة الثغر كما حماه ليسالى نرمى كل ثغر وتشكل

ومن ثم افترق القائدان ، فأخذ حبيب في افتتاح أرمينيا العربية ، وسلمان في افتتاح أرمينيا الشرقية .

فسار سلمان إلى أران وفتح مدينة البيلقان (بيتقران) صلحا واشترط على أهلها الجزية والخراج . ثم أتى بردعة وعسكر على نهر الثوتر ، على فرسخ منها فامتعت عليه وعاناه أيا ما فصالحه أهلها على صلح أهل اللقان . وفتحوا له

أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق في أران - ودعا أكراد البوسنجان (أو اللاسجان) إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى البعض الصدقة بمن دخلوا في الإسلام ثم سار إلى مجمع نهر الكرّ (كور بالكاف الثقيلة) والرس (أراس) فعبّر الكرّ ففتح قبالة، وكل البلاد التي على الضفة الشماليه من نهر الكر - ويسمى بها ديفرجي بلاد سشاكى - ثم دخل بلاد سشيوان ، وصالحه صاحب سكن وشيران والباب . ومن هنا اختلف المؤرخون فبعضهم يقول : إن سلمان انتهى إلى مدينة الباب ولم يتجاوزها ، ومن هذا الفريق ابن خلدون وهو الظاهر . لأن ما وراء الباب أمم كثيرة قوية وإنما كان خوفهم من المسلمين واعتقادهم أنهم لا يموتون لأن الملائكة تؤبدهم وتعينهم هو الذى يدفعهم إلى الحرب من أمامهم . فلما أنسوا بهم وعرفوا أنهم يموتون اجتمعوا واءتزموا على قتالهم ولم يكن مع سلمان سوى ستة آلاف وهو عدد قليل إذا أو هنه بالغزو فيما وراء الباب لم يؤمن أن يعود القوم إلى حالهم من الانتقاض

أما حبيب بن سلمة فسار من قاليقلا بعد وصول المدد إليه ونزل (مربالا) فأتاه بطريق خللاط بكتاب عياض بن غنم الذى أمانه به على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على أتاه فأنفذه حبيب له ، ثم نزل منزلا بين الهرك ودشت الورك ، فأتاه بطريق خللاط بالمال وهدية فلم يقبلها . ونزل خللاط ، ثم سار إلى الصيانة فلقبه صاحب مكس وهى ناحية من نواحي البسفرجان فقاطعه على بلاده وكتب له كتاب صلح وأمان . ووجه إلى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم اجتاز نهر الرس وأتى مرج ديبيل وغلب على جميع تلك النواحي . حتى بلغ سراج طير وبفروند . فأناه بطريق ديبيل فصالحه عنها على إتاهة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقراهم ومعاونتهم على أعدائهم وكتب لهم .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن سلمة الفهرى لنصارى

أهل ديل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم إني آمنتكم على أنفسكم وأموالكم
وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وقيتم
وأديتم الجزية والخراج . شهد الله وكفى به شهيداً ، وختم حبيب بن مسلمة .
وأناه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وقصد السيسجان فخاربه
أهلها فزهمهم وغلب عليهم ثم سار إلى جرزان فأناه رسول بطريقها وقدم له
هدية وسأله كتاب صلح وأمان . فكتب :

« أما بعد : فإن نقلي « نقولا » رسولكم قدم عليّ وعلى الذين معي من
المؤمنين فذكر عنكم أننا أمة أكرمنا الله وفضلنا . وكذلك فعل الله . وله الحمد
كثيراً وصلى الله على محمد نبيه خيرته من خاقه وعليه السلام — وذكرتم أنكم
أحببتم سلمنا . وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً
واشترطت فيه شروطاً فإن قبلتم ووفيتم به وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله
والسلام على من اتبع الهدى . »

وقد كان أمراء الإسلام لا يقبلون الهدايا وإنما يحسبونها لأهل الذمة من
جزيتهم ولم يقبلها من أهل الذمة إلا عبد الله بن عامر وهو أمير على الكوفة ،
فقالوا فيه : ضمها القرشي وكان مضياً .

ثم أن حبيباً سار إلى تفليس عاصمة كرجستان فصالحه أهلها وكتب لهم :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس
من منجليس من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم
وصلواتهم ودينهم على إقرار بالصغار والجزية على أهل كل بيت دينار وليس
لكم أن تجمعوا بين أهل البيوت تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفرقهم استكثاراً
منها ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم
وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب . وإن انقطع
رجل من المسلمين عنكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين إلا أن
يحال دونهم ، وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فيخوانا في الدين وإلا فالجزية عليكم .

وإن عرض المسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذین بذلك ولا هو
ناقض عهدكم : هذا لكم ، وهذا عليكم . شهد الله وكفى به شهيداً .

ثم إن حبيباً صار يفتح في بلاد أرمينيا الغربية مما يلي البحر الأسود حتى
اتهى إلى بلاد القوقاز في شمال أرمينيا كما انتهى إلى مثل ذلك سلمان في شرقها
مما يلي بحر الخزر .

تتمة فتح بلاد فارس

إن بلاد الفرس أو المملكة الفارسية كانت في أيام العرب تشتمل على
بلاد وأرض أوسع مما نسميه اليوم بلاد الفرس ، فقد كان يدخل فيها بلاد
البلوجستان ، وبلاد الأفغان وأقليم أذربيجان وكردستان وبعض أرمينيا وهو
الجزء الشرقي منها مما يلي بحر قزوين . وفي مدة عمر بن الخطاب قد فتح المسلمون
أكثر ذلك كله . غير أن بعض هذه البلاد قد توطد فيه ملك المسلمين
وهو ما يلي ناحيتهم ، وبعضه لم يتوطد فيه الملك وهو ما بعد عنهم كجهاث
المروين وطخارستان وبلخ وسجستان وبعضها لم يكن فتح من قبل .

وقد كان العرب يقسمون المملكة الفارسية إلى أقسام كثيرة
يسمونها كورا .

د فالقسم الشمالى منها ، مما يلي أرمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة
أذربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز ، وزنجان ، والبر ، والموقان ، والطيلسان .
وإلى الشرق منها قزوين الواقعة شمال بلاد الجبل ، وكانت تسمى بلاد الديلم .
ثم إلى شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر قزوين ، طبرستان وجرجان .
ومن مدنها ، الشهيرة دماوند — أودناوند — وابسترا باذ والدامغان .

وقومس في جهة الجنوب أبيورد ، ونسا ، وسرخس ، ومرو الشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم . والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران .

« والقسم الغربي منها ، يعرف بالعراق العجمي وخوزستان ، وبلاد الجبل — ومن مدن العراق العجمي الشهيرة : المدائن ، والنهروان على نهر دجلة ، ومناذر ، وقصر شيرين ثم نهاوند . وقاشان ، وأصفهان من بلاد الجبل ، والآهواز ، ورامهرمز والسوس وجند يسابور من خوزستان .

« والقسم الجنوبي منها ، يعرف بفارس وكرمان ومكران أو كورة السند » تعرف الآن ببلوچستان ، وسجستان وهي بين مكران وخراسان — ومن مدن فارس الشهيرة : اصطخر ، وپسا ، ودار ايجرد ، وكازرون ، وجور ثم جيرفت ، وهميد ، والسيرجان من مدن كرمان ، ثم مكران ؛ وقندابيل ، وقزبور ، وأرمائيل ويرون ، والدليل « ثغر على المحيط الهندي من كرمان أو السند » ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان « لعلها صحراء لوط ، وزرنج التي يؤخذ منها إلى وادي سناروز ، والكش من ناحية الهند رشت ، وناشروزر من سجستان .

« والقسم الشمالي الشرقي ، يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان ، وهذا القسم أكثره واقع في أفغانستان الآن ، وكان العرب يقسمونه إلى أقسام كثيرة أو كور فمنها . كورة مرو ، وهراة ، وطوس ، ونيسابور من ولاية خراسان ، وغزنة وكابل من زابلستان . وبلخ من طخارستان ، وأشهر مدن جراسان : نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية ، ومن خراسان وطوس إلى الشمال منها أيضاً . ومن مدن نيسابور وزام ، وبشت ، وباخرز ، وجوين ، وأبرشهر ، وبهق ، واسفرائن ، وأرغينان وغيرها . ثم هراة ، ومرو الروذ في الجهة الشرقية من خراسان ، ومدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وطاغون ، وسنج ، وغيرها . أما طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان

وجنوب الصاغانيان فإن من مدنها الشهيرة : بلخ وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التاتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون . والجورجان . والقارياب والطاقان . وغيرها . وأما زابلستان : فمن مدنها . كابل وغزنة .

وقد تقدم الكلام في فتح الجزء الأكبر من هذه الجهات في خلافة عمر ابن الخطاب .

في السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان انتقضت آمد وبلاد الأكراد . فعزم أبو موسى الأشعري والى البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم إلى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد أن كان يحض الناس على الجهاد والنهوض إليه مشياً . فتألب عليه أهل البصرة . وذهب منهم وفد إلى عثمان فاستعفوه من أبي موسى وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبي . فقال عثمان : من تحبون ؟ فقال غيلان : في كل أحد عوض عن هذا العبد الذي أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . وقال إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مُهْتَرَأً كان فيه عوض منه ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه . وقال : أما منكم خبيس فترفعوه . أما منكم فقير فتجبروه يا معشر قريش ؟ فعزله عثمان ، وولى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشي . وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص من عمان والبحرين . فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأُتِخَنَ فيها حتى بلغ فرغانة . ولم يدع كورة إلا أصلحها . ثم ولى عليها في السنة التالية أُمَيْنُ بن أحرر البشكري وعلى كَرْمَانَ عبد الرحمن بن عبيس . واستعمل على سجستان عبد الله بن عمير الليثي فأُتِخَنَ فيها إلى كابل . ثم عمران بن الفضيل البُرْهَمِي وعلى مُكَرَانَ عبيد الله ابن معمر فأُتِخَنَ فيها حتى بلغ النهر .

ثم إن أهل فارس ، ثاروا وانتقضوا على عبيد الله بن معمر فسار إليهم والتقى

معهم على اصطخر فقتل عبيد الله . وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاصي وعلى مجنبيه أبو بركة الأسلمي ومقل بن يسار . وعلى الخيل عمران بن حصين . وكلهم له صحبة . فلقيته جموع الفرس يا اصطخر فهزمهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وأخذ المدينة عنوة . ثم قصد إلى دار أجرد ثم إلى مدينة جور وكان هرم بن حيان على حصارها فلما جاء ابن عامر فتحها ورجع إلى اصطخر وقد انتقضت ثانياً فحاصرها حصاراً طالت مدته ورمأها بالمجانيق وافتتحها عنوة وأوقع بأهلها وقعة شديدة وهلك فيها أكثر أهل البيوت والأساورة لأنهم كانوا قد لجأوا إليها ووطئ عبد الله ابن عامر أهل فارس وطأة صاروا منها في ذل . وكتب إلى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حسان الشكري وهرم بن حيان العبدى والخزيت بن راشد والمنجاب بن راشد والترجمان الهجيمي . وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف بن قيس على المروين . وحبيب ابن قره اليربوعي على بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وأمين بن أحمر على طوس . وقيس بن هيرة السلمي على نيسابور . ثم إن عثمان رضى الله عنه قبل موته جمع هذه الولاية لقيس بن هيرة ، واستعمل أمين بن أحمر على سجستان .

ولما رجع بن عامر إلى البصرة بلغه نقض أهل خراسان للذمة ونكثهم للعهد . فجاءه الأحنف بن قيس وقال له . أيها الأمير إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فإن الله ناصرك ومعز دينه . فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وتقدم هو إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبيين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير أمراه إلى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت - ثم تقدم وقد سير عبد الله بن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة كذلك وأعمالها .

وقد سير عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فأتى سوانجرود فصالحه أهلها على ثلثمائة ألف درهم ثم مضى إلى مرو الروذ فقاتله أهلها ثم صالحوه وسير سرية فاستولت على رستاق « بلخ » فعظم الأمر على أهل طخارستان فاجتمع لقاتله أهل الجوزجان والطاقان والفارياب ومعهم ملك الطاغيان من (تركستان الشرقية) فقاتلهم الأحنف قتالا شديداً حتى هزمهم وقل جموعهم وفتح تلك الناحية — ثم سار إلى بلخ وهي عاصمة طخارستان ففتحها — ثم قصد خوارزم على نهر جيحون (في تركستان الغربية) فاستعصت عليه فعاد إلى بلخ .

أما مجاشع بن مسعود السلمي فتوجه إلى كرمان فأتى في طريقه هيد فافتتحها ثم قصد السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم فتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار في نواحي كرمان ومدنها وقراها فدوخ أهلها وافتتح تلك المدن وأخضع أهل تلك النواحي وقد هرب كثير من أهل كرمان إلى مكران وسجستان فأقطعت العرب أرضهم فعمروها واحتفروا لها القنى وأدوا العشر عنها .

وأما الربيع بن زياد الحارثي الذي سار إلى فتح سجستان ، فإنه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهي غير قوهستان) فأتى حصن زالو وأغار على أهله فأسر دهقانها فافتدى منه بأن غرز عنزة (أطول من العصي وأقصر من الرمح) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح أهل فارس — ثم فتح كركويه - ثم أتى روست بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها — ثم أتى ناشر واذ ثم زرنج فناوله أهلها وقتلوه فهزمهم وصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب إلى وادي سناروز ثم رجع وأقام في زرنج سنة وعاد إلى ابن عامر بعد أن استخلف عليها عاملاً . فأخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا — فولى ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة ابن حبيب عبد شمس على سجستان فخرج إليها وحاصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند،

وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوان . ولما انتهى إلى الدوان حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للرزبان ذونك الذهب والجوهر . وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع — وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غزنة ، ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أمين بن أحر وانصرف فعاد القوم إلى العصيان .

ولما تم لابن عامر هذا الفتح العظيم قيل له : لم يفتح لأحد ما فتح عليك . قال لا جرم ، لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرماً من موقفي هذا . فأحرم بعمره من نيسابور وقدم على عثمان . واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم وخرج ابن عامر منها في سنة ٣٢٠ لجمع قارن وكان من كبار قواد الفرس جمعاً كثيراً من ناحية الطبرسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين ألفاً — فقال قيس لعبد الله بن خازم : ما ترى ؟ قال أرى أن تخرج من البلاد وتخليها فإني أميرها إذا كانت حرب وأخرج كتاباً من عبد الله بن عامر قد افعله فسكره قيس مشاغبه وخلاه والبلاد وذهب إلى ابن عامر فلامه واعتذر قيس بما كان من أمر الكتاب .

أما عبد الله بن خازم فسار إلى قارن في أربعة آلاف وأمر الجند أن يحملوا الودك . فلما قرب من عسكر قارن قال ليدرج كل منكم على زج رحمه ما كان معه من قطن أو خرقة أو صوف ثم أوسعوه من الودك من دهن أو زيت أو إهالة أو سمن وسار حتى إذا أهسى قدم مقدمة ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح وجعل يقتبس بعضهم من بعض . فأتوا عسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهم آمنون من البيات فرأوا النيران يمتد ويسرعة ترتفع وتنخفض وتميل في كل ناحية فقاموا على دهش فهاجوا وهالهم الأمر وتقدمت المقدمة تناوشهم ثم غشيمهم ابن خازم في جنده فقتل قارن وانهزم جنده فتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا وغنموا عسكرهم وسبوا سبياً كثيراً وكتب بالفتح إلى ابن عامر فرضى وأقره وما زال بها إلى أن انتهت وقعة الجبل .

كانت هذه المواحي مغازى أهل البصرة

وأما أهل الكوفة فكانت مغازيهم بناحية أدريجان وأرمينيا كما قدمنا . وفي
ناحية طبرستان — فإن سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة ٣٠ سار
يريد حراسان بجيش فيه جماعة من أبناء أصحاب رسول الله منهم حذيفة بن اليمان
والحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص
وعبد الله بن الزبير وغيرهم وكان ابن عامر قد خرج من البصرة يريد حراسان أيضاً
فلما وصل سعيد إليه وجده قد نزل أبر شهر . فنزل قومه وهي صالح صالحهم عليها
حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنقض وأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف
درهم — ثم إلى طيعة وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر
الخرز فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى وصل صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد
أحد المشركين على جبل عاتقه بالسيف فخرج من تحت مرفقه . وحاصروهم فسألوا
الإمان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان وديناوند وأعطاه أهل الجبال مالا
— ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها . فربما أعطوا الإتاوة
عفواً وربما منعوا فلم يعطوا إلا بعد قتال . وظل أهل بلاد جرجان وطبرستان
على شيء من الاستقلال والنزوع إلى الشغب والإباء عن الخضوع لدولة الخلافة
مدة الخلفاء الراشدين وصدر من الدولة الأموية حتى أخضعها يزيد بن المهلب في
خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

والذي يظهر للمطلع على التاريخ أن جيوش المسلمين فيما يلي فارس أو
المملكة الفارسية كانت قد صخمت وكثرت كثرة غير متناسبة مع عددهم عند
ابتداء الفتح أيام القادسية يدل على ذلك ما أورده الطبري من أبيات لابن
جعيل مدح بها سعيد ابن العاص أمير الكوفة لما عاد من غزوة في حمات
حرجان وطبرستان يقول فيها :

معهم الفتى اذ حال جيلان دونه وإد هبطوا من دستي ثم أهرأ

تعلم سعيد الخير إن مطيتي إذا هبطت أشفقت من أن تعقرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية تجرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذى ماساس قبلك واحد ثمانين ألفاً دارعين وحسرا

الفتح فى مملكة الروم زمن عثمان

كانت دولة الرومان على أشد الحذر من جيوش المسلمين ناظرة إليهم فى كل حين من عهد اقتطاعهم سورية ومصر من جسم سلطنتهم . وقد عرف قواد المسلمين ذلك الحذر منها فاتجه تيار فتوحهم إلى جهات فارس وأرمينيا فترة من الزمن . إلى أن جاءت سنة ٢٥ و ٢٦ — فعقد معاوية بن أبى سفيان عزيمته على مازلة دولة الروم فى إقليمى قبادوكيا فى الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلى أرمينيا — وفريجيا من المقاطعات الوسطى من آسيا الصغرى فأخذ وعمورية ، من مدن فريجيا الكبرى على حدود غلاطية ولم يؤغل فيما وراء ذلك . ولعل السبب فى عدم إيغاله فى تلك الاصقاع عليه بشدة حذر الروم واستعدادهم للدفاع عن بلادهم بالقوى الكبيرة مع قرب تلك النواحي من عاصمة ملكهم وسهولة حشد الجيوش عليهم . فهو إذا أقدم فى ذلك الزمن كان ثمن الفتح غالياً — وقد قدمنا ما كان من إرساله حبيب بن مسلمة إلى أرمينيا .

كان معاوية ذا شغف زائد بالإجهاز على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية وهو يعلم شدة حذر الروم ويقظتهم ويعلم ما عليه بلاد الأناضول من كثرة الجبال ووعورة الطرق . فبلوغ غرضه من طريق البر دونه أهوال مصاعب لا قبل للجيوش الشام فى ذلك الحين بتذليلها ، فاتجه تيار تدبيره إلى البحر يريد أن يبلغ حاجته فيه بعمل المسلمين على إثباجه والاستيلاء على المراكز المهمة والنقط النافعة فى الغزو البحرى تمهيداً للقيام بعمله الهائل .

كانت هذه الفكرة تهجس في خاطر معاوية من أيام عمر بن الخطاب فكتب إليه يرغبه في أن يأذن له في فتح قبرص ويذكر له قربها من الساحل وسهولة ذلك عليه وقال : إن قرية من قرى حمص لبسمع أهلها نباح كلابهم (أهل قبرص) وصباح دجاجهم^(١) فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر ولكنه انهمه وكتب إلى عمرو بن العاص - أن صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه - فكتب إليه عمرو : - إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزعج العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق ، فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية : - إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شئ . على الأرض يستأذن الله في كل يوم ليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمل الجود في هذا الكافر المستعصب . وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم . فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك . وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك .

سكت معاوية بعد كتاب عمر على مضض في النفس إلى أن كان زمن عثمان فاستأذنه . وبعد لآى ما أذن له في غزو الروم في البحر وذلك سنة ٥٢٧ ، وشرط عليه عثمان أن يندب الناس للغزو ، وأن لا ينتخبهم ولا يقرع بينهم . فمن انتدب جهزه وأعانه فأعد معاوية لذلك أسطولا في سواحل الشام وأرسل إلى عبد الله بن أبي سرح عامل مصر يومئذ أن يجهز أسطولا آخر ففعل واجتمع الأسطولان على قتل أهل قبرص . وبعد أن دافع أهلها دفاعاً شديداً وقاتلوا المسلمين أشد قتال صالحوا على سبعة آلاف دينار في كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم . وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم . ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم . وليس لذلك معنى سوى أن قبرص صارت بذلك محطة حربية ومسنداً للمسلمين في البحر الأبيض المتوسط ونقطة اتصال بين أهل الشام وبين أساطيلهم التي ابتدأت تمخر في ذلك البحر

(١) الحريرة التي بسمع ذلك منها إمامي جريرة ادواد .

وتلجأ إلى تلك الجزيرة عند الحاجة . وكان الفتح سنة ٢٨ وحضره من أصحاب رسول الله جماعة منهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت سلمان . ومن هذا التاريخ صارت دولة الإسلام دولة بحرية كما هي دولة برية وذلك أمر طبيعي للمملكة أحرزت من الشواطئ الواسعة ما أحرزت دولة الخلافة . فإنه قد صار لها شواطئ سورية ومصر وبرقة إلى إفريقية (تونس) في هذا الزمن القليل . وهذه الشواطئ تحتاج إلى الحماية من غارات الأعداء من الرومان وهم أمة عريقة في البحرية وقيادة الأساطيل .

وقد كان أمير البحر الذي قاد الأساطيل لمعاوية عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر . ولم يفرق فيه أحد ولم ينكب . وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده وأن لا يبتليه بمصائب أحد منهم وقد أجاب الله تعالى دعوته في جنده دونه .

وقد طار لعبد الله بن قيس ذكر في سواحل الروم وشواطئ البحر الأبيض المتوسط واشتهر شهرة عظيمة جداً — حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعة فاتته إلى المرقى من أرض الروم وعليه سؤل يعترون بذلك المسكان فتصدق عليهم . وكان معطاء كريماً فتم عليه جود كفه — فإن امرأة من السؤل رجعت إلى بيتها فقالت للرجال : هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : في المرقى . قالوا : أى عدوة الله ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبختهم وأعلنتهم أنها سألته فأعطاهم عطاء ملك ولم يكن عطاء تاجر . فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه ، فجأؤا حتى أرقوا والخليفة منهم عن قيس سفيان بن عوف الأزدي فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يبعث بأصحابه وبشتمهم فقالت حارية عبد الله : راعبد الله ، ما هكذا كان يقول حين يقاتل . فقال سفيان وكيف كان يقول ؟ قالت : الغمرات ثم ينجلينا ، فترك ما كان يقول إلى ما قالت ، وأصيب في المسلمين ناس يومئذ .

وقد ذكر سيديو في تاريخه أن معاوية فتح سنة ٢٩ هـ جزيرة إقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ، ولم يقل بذلك مؤرخو العرب والظاهر أن هذه الجزر فتحتها معاوية في خلافته أيام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لأسطولها العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتى خبر ذلك كله فى سيرة معاوية اه ، من أشهر مشاهير الإسلام .

مقتل يزدجرد

من الأحداث فى عهد عثمان مقتل يزدجرد و انتهاء الملك فى فارس .

اضطربت كلمة المؤرخين فى مقتل يزدجرد ملك الفرس ورويت فى ذلك روايات عديدة رواها الطبرى وتابعه عليها ابن الأثير . أقربها أن يزدجرد عزم على قصد خراسان ليجمع الجوع ويسير بهم إلى العرب فسار إلى مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين ومعه فرخزاد أخورستم . فلما اعتزم القدوم إلى مرو كاتب ملك الصين وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم .

وكان الدهقان بمرو ماهويه أبو براز وقد جعل ماهويه ابنه محافظاً للبدية وقد أراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه إلى ابن أخيه سنجان وشعر بذلك ماهويه فأسر إلى ابنه بمنع يزدجرد عن دخول مرو وأخذ ماهويه فى العمل على إهلاك يزدجرد فكتب إلى نيزك طرخان من ملوك الترك يدعوه إلى الاتفاق على قتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه ويضمن له ألف درهم فى كل يوم إن أعانه على ما طلب . فأجاب نيزك إلى ذلك وكاتب يزدجرد يئذ له المعونة والنصرة إذا نحى عنه فرخزاد وجنده . واستشار يزدجرد أصحابه فكل أشار برأى فتنحى عنه فرخزاد وجنده وجاء نيزك فى جند واستقبل الملك

ماشياً فامر له بفرس ودخل عسكر نيزك في موكب حافل تعزف فيه الموسيقى . فلما توسط الملك عسكر نيزك قال له فيما يحدثه : زوجني إحدى بناتك حتى أناصحك في قتال عدوك . فغضب منه يزدجرد وسبه . فعلاه نيزك بمقرعة فقر منه وقتل أصحاب نيزك أصحاب يزدجرد وانتهى الفرار بالملك إلى بيت طحان أو صانع أرحاء على نهر المرغاب (نهر الطير) فمكث عنده ثلاثة أيام لا يأكل والطحان أو صانع الأرحاء لا يعلم من أمره شيئاً . فقال له : أخرج أيها الشقي فكل طعاماً فقد جعت . فقال : إني لا أصل إلى ذلك إلا بزمزة وهي أدعية وصلوات يقوم رجال الدين من المجوس بتلاوتها على الطعام قبل الأكل فأحضر له رجلاً فزمزم له ، وأكل . فلما رجع المزمزم سمع الناس يتحدثون بهرب يزدجرد واختفائه فسأل عن حليته فوصف له فأخبر الناس بمكانه وانتهى الخبر إلى ماهويه أبو براز فأرسل أحد الأساورة ليقتله . فأنكر الطحان أن يكون عنده . وقال رجل : إني أشم هاهنا ريح المسك ودخلوا بيت الطحان فإذا يزدجرد قد نزل في النهر فجروا طرف ثوبه فأخرجوه . فأراد أن يفتدى من قاتله بخاتمه ومنطقته وفيهما غنى الدهر لمن أخذهما فلم يقبل وطلب منه أربعة دراهم على أن يتركه فلم يجدها فطلب أن يذهب به إلى الدهقان أو إلى العرب فإنهم يستبقونه فلم يقبل منه وقتله وألقاه في المرعاب .

ويقول سيديو في تاريخه : إن ملك الصين المسمى تائي تسنغ أمد يردجرد بالجنود وأنه هو الذي سلط عليه من قتله على شاطئ المرغاب . وانقضت بقتله الدولة الساسانية التي استمرت زاهية وأعلامها خافقة على تلك الممالك نحو تسع وعشرين وثلاثمائة سنة . وقال ابن الأثير : وسمع بقتله مطران كان بمرور جمع النصاري وبنوا له ناووساً وأخرجوه من الماء وكفنوه . وكان ملكه عشرين سنة : منها أربع سنين في دعة وست عشرة سنة في تعب من

محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه ، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك ، وصفا الملك بعده للعرب وذلك سنة إحدى وثلاثين هـ .

اجتماع أعمال سورية كلها لمعاوية

كان معاوية بن أبي سفيان عاملاً على الأردن في عهد عمر بن الخطاب وكان أخوه يزيد بن أبي سفيان أميراً على دمشق فلما مات نعاه عمر إلى أبي سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاوية . فقال : وصلتك رحم . ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردن .

وقد كان عياض بن غنم خال أبي عبيدة بن الجراح ومن أبناء عمومته وكان في عهد عمر بن الخطاب قد ولي عملاً بالجزيرة وكان شجاعاً وقائداً بارعاً . فبلغ عمر عنه إتلاف للمال فأحضره عمر وألبسه جبة صوف وأعطاه عصي وجاءه بصرمة من الغنم وقال له : ارع فإن أباك كان راعياً . وبعد مدة صرّفه إلى الشام فلحق بأبي عبيدة وكان جواداً كريماً مشهوراً لا يلبق شيئاً ولا يمنع أحداً سأله معروفاً . فلما حضر أبو عبيدة استخلف عياضاً على عمله فأقره عمر . وكلم عمر في ذلك وقيل له عزلت خالداً أو عبت عليه العطاء . وعياض أجود العرب وأعطاهم لا يمنع شيئاً يسأله . فقال عمر عياض في ماله حتى يخلص إلى مالنا وإنني مع ذلك لم أكن مغيراً أمراً قضاه أبو عبيدة . ومات عياض بعد ذلك . فولى عمر مكانه على حصص سعيد بن جذيم الجمحي ثم مات فولى مكانه عمير بن سعد الأنصاري وتوفي عمر وهو على حصص ثم إن عمير بن سعد مرض مرضاً شديداً وأضنى فاستعفى عثمان واستأذنه في الرجوع إلى أهله فأذن له ، وضم عمله إلى معاوية فكان له حصص ويتبعها قنسرين ودمشق والأردن .

وكان عبد الرحمن بن علقمة بن مجزر الكنائى على فلسطين . فلما مات في أيام عثمان ضمت فلسطين إلى معاوية وبذلك اجتمعت له كل ولايات سورية وكان معها جزء من الجزيرة .

الفرقة العرية وأسبابها ونتائجها

لا بد لمن يريد أن يتكلم على الأمور التي كانت سبباً لتفريق وحدة المسلمين وتشعب آرائهم في السياسة ، ولم تقتصر على ذلك حتى أنبت لهم شعباً في الدين ومزقتهم كل ممزق . أقول : لا بد لمن يريد ذلك من السير بالأمور من مبدئها والإتيان عليها واحدة واحدة . وأن يبدأ ذلك بأحوال المسلمين في أمصارهم ومنشأ ما كان بينهم وبين ولائهم وما لهجوا به في حقهم وما عابوه عليهم ليكون ملأً بالأحوال بدأ ونهاية — هذا وقد أسهب المؤرخون وأصحاب السير والأخبار في أسباب الفتن والفرقة إسهاباً كثيراً . وقد جاء الطبرى بالكثير من ذلك في أخبار مفرقة . ونسق العلامة بن خلدون أحوال الأمصار وأسباب الفتنة ومبادئها نسقاً بديعاً في تاريخه وألم بشيء من ذلك في الجزء الأول . وقد حذا حذوه الأستاذ الخضرى وجاء في محاضراته من ذلك بالكثير الطيب . وكذلك صاحب أشهر مشاهير الإسلام فقد جمع في هذا الباب شيئاً كثيراً وأبدى آراء سديدة . وقد جاء ابن الأثير في هذا الباب أيضاً بشيء كثير . وهذه الكتب التي اخترتها مادة لما أورده في هذا الباب وعمدة أرجع إليها وأنقل عنها ما يبدو لي من التعديل أو التحوير أو الزيادة أو نحو ذلك والله المستعان .

هل كان عثمان مسيئاً إلى الناس أو نقص عنهم الرزق في عهده ؟

روى الطبرى عن الحسن البصرى قال : كان عمر بن الخطاب قد حجز على أعلام قریش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل . فشكوه . فبلغه . فقال : « ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جدعا ثم

ثَنِيًّا ثُمَّ رُبَاعِيًّا ثُمَّ سَدِيسًا ثُمَّ بَارِلًا . أَلَا فَهَلْ يُنْتَظَرُ بِالْبَازِلِ إِلَّا النِّقْصَانُ .
أَلَا وَإِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَزَلَ . أَلَا وَإِنْ قَرِيشًا يَرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ
مَعُونَاتٍ دُونَ عِبَادِهِ . أَلَا فَأَمَّا وَابْنُ الْخَطَّابِ حَى فَلَا . إِنْى قَاتِمٌ دُونَ شَعْبِ
الْحِرَّةِ آخِذٌ بِحُلَاقِيمِ قَرِيشٍ وَحِجْزِهَا أَنْ يَتَهَاوَتْ إِلَى النَّارِ ، فَلَمَّا وَلَّى عُثْمَانُ
لَمْ يَأْخُذْهُمْ بِالَّذِى كَانَ يَأْخُذْهُمْ بِهِ عَمْرُ . فَانْسَاحُوا فِي الْبِلَادِ . فَلَمَّا رَأَوْهَا وَرَأَوْا
الدُّنْيَا ، انْقَطَعَ مِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَوْلٌ وَلَا مَزِيَّةٌ فِي الْإِسْلَامِ فَكَانَ مَغْمُومًا فِي
النَّاسِ وَصَارُوا أَوْزَاعًا لِلَّهِمْ وَأَمْلُومٌ وَتَقَدَّمُوا فِي ذَلِكَ . فَقَالُوا يَمْلِكُونَ فَتَكُونُ
قَدْ عَرَفْنَاكُمْ ، وَتَقَدَّمْنَا فِي التَّقَرُّبِ وَالْانْقِطَاعِ لِلَّهِمْ . فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ وَهْنٍ
دَخَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَوَّلَ فِتْنَةٍ كَانَتْ فِي الْعَامَةِ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ لَمْ يَمُتْ عَمْرٌ حَتَّى مَلَكَ قَرِيشٌ وَقَدْ كَانَ حَصْرَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ فَامْتَنَعَ
عَلَيْهِمْ وَقَالَ : إِنْ أَخُوفٌ مَا أَخَافُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ انْتِشَارَكُمْ فِي الْبِلَادِ . فَإِنْ
الرَّجُلُ لَيْسَتْ أَذَنُهُ فِي الْغَزْوِ — وَهُوَ عَنِ حَبْسٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَلَمْ يَكُنْ فَعَلَ ذَلِكَ
بِغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ — فَيَقُولُ قَدْ كَانَ لَكَ فِي غَزْوِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَبْلُغُكَ . وَخَيْرٌ لَكَ مِنَ الْغَزْوِ الْيَوْمَ أَلَّا تَرَى الدُّنْيَا وَلَا تَرَكَ .
فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ خَلَى عَنْهُمْ فَاضْطَرُّوا فِي الْبِلَادِ وَانْقَطَعَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ فَكَانَ أَحَبَّ
إِلَيْهِمْ مِنْ عَمْرٍ — وَرَوَى الطَّبْرِيُّ بِسَنَدِهِ قَالَ : لَمْ تَمُضْ سَنَةٌ مِنْ إِمَارَةِ عُثْمَانَ
حَتَّى اتَّخَذَ رِجَالٌ مِنْ قَرِيشٍ أَمْوَالًا فِي الْأَمْصَارِ وَانْقَطَعَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ .

وَالْمُطَّلَعُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ يَرَى أَنَّ رَأْيَ عَمْرِى فِي الْحَجْرِ عَلَى قَرِيشٍ أَوْثَقُ مِنْ
رَأْيِ عُثْمَانَ فِي إِرْخَاءِ الْحَبْلِ لَهُمْ . ذَلِكَ أَنَّ قَرِيشًا (كَمَا قَالَ الْأَسَازُ الْخَضْرَى)
كَانَتْ بِحَسَبِ الْقَاعِدَةِ الَّتِي كَانَتْ مُتَّبِعَةً كَأَعْضَاءِ الْأَسْرَةِ الَّتِي لَهَا الْأَمْرُ . كِبَارُهَا
مُرْتَحُونَ لِأَنَّهُ يَلُوكِ الْخِلَافَةَ يَوْمًا مَا وَلِيَسَ هُنَاكَ نِظَامٌ يَعِينُ سَابِقَهُمْ وَلَا حَقَّهُمْ
وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُتَبَاعِدُونَ الْعِشَائِرَ . وَحَيْطُ الْمَدِينَةِ ضَيْقٌ عَنْ تَدْيِيرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ
يَخْتَلِجَ فِي النُّفُوسِ مِنَ الشُّغْبِ عَلَى الْخَلِيفَةِ . أَوْ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَهُ آتٍ لِإِفْسَادِ
ذَاتِ الْبَيْنِ .

وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : أجمع الرواة وأهل الإخبار على أن عثمان قضى الشهر الأكبر من خلافته وهو أحب إلى الناس من عمر لشدة ورأفة عثمان وليته . وإقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء أيديهم من المغنم . لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته . فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالأموال الكثيرة فانحرفت عنه من أجل ذلك القلوب ونظرت إليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الأمصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت تقيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوة والآثرة على الملك إلى اليوم .

أخرج ابن عساکر عن الحسن أنه قال : أدركت عثمان — على ما تقدموا عليه — قل ما يأتي على الناس يوم إلا ويقسمون فيه خيراً ، فيقال لهم : يا معشر المسلمين أغدوا على أعطيائكم ، فياخذونها وافرة ، ثم يقال : أغدوا على أرزاقكم فياخذوها وافرة . ثم يقال على السمن والعسل . الإعطيات جارية والأرزاق دارة والعدو منفي وذات البين حسن والخير كثير : ومأمون يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان : ألفته ونصيحته ومودته . قد عهد إليهم أنها ستكون أثره فإذا كانت أن تصبروا . قال رسول الله لأبي بن حنيفة : ستلقون بعدى أثره ، قال فما تأمرنا ؟ قال تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، قال الحسن : لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بأمر الله ورسوله لو سمعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير . قالوا لا والله ما نصبرها فوالله ما ردوا ولا سلموا . والآخرى كان السيف مغمداً عن أهل الإسلام ، ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسلم عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلواً إلى يوم القيامة اهـ

لم يكن عثمان بالذي ينتهى عند حد الإذن لقريش بالانسياح في البلاد بعد الحجر الذي ضربه عليهم عمر ، بل ساعدتهم على ذلك حاسباً أنه يجمع بهم الفتنة

ويحمد بهم نار الفرقة إذا شبت ويثبت بهم أركان الدولة فكانوا أول نجان عليه
اجتهاده ، ذلك أنه في سنة ثلاثين أنبأه سعيد بن العاص بأحوال الكوفة وما يشبهه
في أهلها من بوارق الفتن واستعدادهم للشر ، فكان فيما قاله عثمان لأهل المدينة
أن الناس يتمخضون بالفتنة وإنى والله لا تخلصن لكم الذى لكم حتى أنقله إليكم
إن رأيتم ذلك . فهل ترونه ؟ حتى يأتى من شهد مع أهل العراق الفتوح فيقيم
معه فى قلاده : فقام أولئك وقالوا : كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين
يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نبيعها عن شاء بما كان له بالحجاز . ففرحوا وفتح الله
عليهم به أمراً لم يكن فى حسابهم . فاغتنم بعض قريش ذلك وتأثلوا العقار
والمزدرعات وبادلوا من لم يهاجر على سهمانهم بالعراق بما لهم بالحجاز .

ومن ذلك أن طلحة بن عبيد الله جمع ماله من سهمان خيبر وغير ذلك مما له
بالحجاز واشترى به من نصيب من شهد القادسية والمدائن ولم يهاجر إلى العراق
التشاسنج . واشترى مروان بما كان أعطاه عثمان نهر مروان وهو يومئذ أجمة ،
واشترى رجال من القبائل بالعراق بأموالهم التى لهم بجزيرة العرب من أهل
المدينة ومكة والطائف ، فهذا سبب أيضاً من الأسباب التى وجد بها رجال قريش
سبيلاً للوجود فى الأمصار . روى الطبرى بسنده قال : اشترى هذا الضرب
رجال من كل قبيلة ممن كان له هناك شيء فأراد أن يستبدل به فيما يليه ، فأخذوا
وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق .

إلا أن الذين لا سابقة لهم ولا قُدْمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقُدْمة فى
المجالس والرياسة والحظوة ثم كانوا يعيبون التفضيل ويعملونه جفوة وهم فى
ذلك يخنفون به ولا يكادون يظهرونه لأنه لا حجة لهم والناس عليهم فإذا لحق
بهم لاحق من ناشئ أو أعرا بى أو محرر استحل كلامهم ، فكانوا فى زيادة
وكان الناس فى نقصان حتى بلغ الشر

كان المسلمون في أيام عمر لا يعرفون للشقاق معنى ، ولا يختلفون فيما بينهم على شيء لفقدان الدواعي إلى ذلك ، وأكبر دواعي نزوع العرب إلى الشر اختلاف رؤسائهم وتنازع كبرائهم ، ثم لا توجد يد قوية شديدة البطش تقف بالمتنازعين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه . وقد كان عمر ذلك الخليفة الحازم ، لا تفرعه الأهوال ، ولا تسكاه الكوارث ولا يهاب عظماء لعظمته . ولا يحجم عن اجتثاث الفتنة من أصولها ويضرب على يد النازع إليها ولو كان أثر الناس لديه وأكرمهم عليه . فكانت روحه تخيف الرؤساء وذوى المطامع . فلا يجد أحد منهم سبيلاً إلى نزاع أو شر - هذا إلى ما وقر في أنفس القوم من الآلفة التي عقدها الإسلام بينهم وانشغال أكثر الناس بالجهاد والفتح الذي تنوال أخباره . ومعلوم أن مسائل الحرب تصرف أفكار الناس إلى التحدث بها والنظر في نتائجها وعواقبها . إلى ما يتبع ذلك من بسالة الجند وبراعة القواد . وبخاصة إذا كان الجيش منتصراً ظافراً . فإن تلك الأحوال تميم الشقاق ولا تحييه . ولو كان عثمان من ذوى السياسة العالية لرمى بالجنود وكثيرى الكلام في حرب ضروس يوجه بهم إليها ، ويشغلهم بأنفسهم عنه .

وقد قال العلامة ابن خلدون : لما استكمل الفتح واستكمل للملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتراء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم . وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصلبة بمكان إلا قليلاً منهم . وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الدهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة

فلما انحصر ذلك العباب وتنوى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار وقریش وسواهم فأنفت نفوسهم منه . ووافق ذلك أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار والمؤاخذه لهم باللحظات والخطوات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجنى بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر فلم يجدوا أثراً للظلم ولا ظلاً لعسف أو جور .

قد آن لنا أن نلم بأحوال المسلمين في الأمصار وما كان يعمل فيهم من العوامل التي أدت إلى إشعال نار الفتنة وتأريث جاحمها حتى تأججت وأكلت كل أخضر ويابس وأعيا إطفائها وتنج عنها أشأم ثورة ثارت في الإسلام والمسلمون ينجون منها اليوم شر ما ينجى ويقاسون أشد ألم من جرائها .

الكوفة

إن الكوفة أول مصر نزع الشيطان بين أهله في الإسلام . وكان بدء ذلك أن سعد بن أبي وقاص كان أمير الكوفة في خلافة عثمان بوصية من عمر وكان عبد الله بن مسعود أمين بيت المال فاستقرض سعد من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا . فلما جاء الأجل أتى ابن مسعود إلى سعد وقال له : أد المال الذي قملك . فقال له سعد : ما أراك إلا ستلقى شرا هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل ؟ فقال : أجل ، والله إني لابن مسعود وإنك لابن حمنة فقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص : أجل ، والله إنكما لصاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم يُنْظَرُ إِلَيْكَما . فطرح سعد عوداً كان في يده — وكان رجلاً فيه حدة — ورفع يده وقال : اللهم رب السموات والأرض . فقال عبد الله ويلك قل خيراً ولا تلعن . فقال سعد : أما والله لو لا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك . فولى عبد الله سريعاً حتى خرج . ولم يتيسر لسعد الإسراع بأداء المال فاستعان عبد الله بأناس على استخراج المال من سعد واستعان سعد بأناس على استنظاره . وافترقوا وبعضهم يلوم سعداً وبعضهم يلوم عبد الله ووصل الخبر بذلك إلى عثمان فغضب عليهما وهم بهما ثم ترك ذلك . وعزل سعداً وأخذ ما عليه وأقر عبد الله بن مسعود وتقدم إليه في ذلك .

ولما عزل عثمان سعداً ولى الوليد بن عقبة الكوفة — وكان قبل ذلك عاملاً على الجزيرة من عهد عمر — فلما قدم الوليد كان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم . فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب .

حدث في أثناء ولاية الوليد أن شباباً من شباب الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعى داره وكاثروه ونذر بهم نخرج إليهم بسيفه فلما رأى كثرتهم استصرخ وكان أبو شريح الخزاعى جاراً له وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل أهله من المدينة إلى الكوفة ليكون قريباً من الغزو . فلما سمع استصراخ ابن الحيسمان أطل هو وابنه فإذا هو بأولئك الشباب يقولون لجاره لا تصح فإنما هى ضربة حتى نريحك وضربوه فقتلوه وأبو شريح يصيح بهم وأحاط الناس بهم فأخذوهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع ابن أبي مورع الأسدي وشبيل بن أبي الأزدي في عدة فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه فقتله بعضهم . فكتب الوليد إلى عثمان فيهم وارتحل إليه أبو شريح ونقل أهله إلى المدينة ولهذا الحديث لما كثر أحدثت القسامة وأخذ يقول ولى المقتول ليفطم الناس عن القتل عن ملأ من الناس يومئذ وقال عثمان القسامة على المدعى عليه وعلى أوليائه يقسم منهم خمسون رجلاً إذا لم تكن بيته فإن نقصت قسامتهم أو إن نكل منهم رجل واحد ردت قسامتهم ووليها

المدعون فإن حلف منهم خمسون استحقوا وقد ثبت القتل على هؤلاء النفر .
فكتب فيهم الوليد إلى عثمان فكتب إليه في قتلهم فقتلوا على باب القصر في
الرجبة — وقد قال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي :

لا تأكلوا أبدا جيرانكم سرفا أهل الدعارة في ملك ابن عفان
وقال : إن ابن عفان الذي جربتموا فطم اللصوص بمحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً في كل عنق منهم وبنان
ولما قتل هؤلاء الرهط قصاصاً بمن قتلوا اضطغن آباؤهم على الوليد لذلك
وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به — وكان للوليد سمار يسمرون عنده
ومنهم أبو زيد الطائي كان رجلاً نصرانياً معروفاً بشرب الخمر . قد عرفه الوليد
أيام نصرانيته وكان مقامه في تغلب أخواله أيام كان الوليد أميراً عليهم
بالجزيرة وكان يغشى الوليد بالجزيرة أيام كان فيها وبالمدينة إذ كان بها . فلما
جاء الوليد الكوفة قدم عليه أبو زيد وكان للوليد عنده يد حين أسلم إذ
اضطهده أخواله كراهة لدخوله في الإسلام فأخذ له الوليد بحقه فشكرها له
أبو زيد وانقطع إليه وجاء إليه الكوفة مسلماً معطماً على مثل ما كان يأتيه
بالجزيرة والمدينة وقد حسن إسلامه فاستدخله الوليد وكان عريياً شاعراً . فأتى
آت أبا زئب وأبا مورع وجندبا وهم يحقدون عليه مذ قتل أبناءهم ويضعون له
العيون . فقال هل لكم في الوليد يشارب أبا زيد ؟ فثاروا في ذلك وقالوا
لأناس من أهل الكوفة هذا أميركم وأبو بكر زبيد خيرته وهما عاكفان على
الخمر فقاموا معهم إلى منزل الوليد وليس عليه باب واقتحموا عليه فلم يفجأ إلا
بهم فحنى شيئاً فأدخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره فإذا
طبق عليه تفاريق عنب وإنما نحاه استحياء من أن يرى طبقه وليس عليه إلا
تفاريق عنب فأقبل الناس على المرجفين بسيفهم ويلعنونهم : وأقبل آخرون
يقولون فيه . فدعاهم ذلك إلى التجسس والبحث .

ستر عليهم الوليد وطوى ذلك عن عثمان ولم يشأ أن يدخل بين الناس في ذلك

بشيء فسكت وصبر . وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا: الوليد يعتكف على شرب الخمر . فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره ونمى كلامه إلى الوليد فعاتبه : وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت على ؟ أى شيء استتر به ؟ إنما يقال هذا للريب . فتلاحيا وافترقا على تفاضب . وأذاع المرجفون بعكوفه على الخمر وطرحوه على ألسنة الناس .

وقد أتى الوليد بساحر وهو على الكوفة . فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حده فقال : وما يدريكم أنه ساحر ؟ قالوا يزعم ذلك . قال أساحر أنت ؟ قال : نعم قال وتدرى ما السحر ؟ قال نعم وثار إلى حمار فجعل يركبه من قبل ذنبه ويريههم أنه يدخل من فيه ويخرج من أسته ويدخل من أسته ويخرج من فيه . فقال ابن مسعود مفاقتله . فانطلق الوليد ، فادوا في المسجد أن رجلاً يلعب السحر عند الوليد .

جاء جندب — واغتنمها — يقول أين هو حتى أريه فضربه فقتله ، فاجتمع عبد الله والوليد على حبسه وكان جندب يعتذر بأنه ما كان يعلم أن الوليد سيقم الحد على ذلك الساحر وأنه ظن أنه عطل حده فأراد أن يستوفيه . وكتب الوليد إلى عثمان فأجاب : أن استخلفوه بالله ما علم برأيكم فيه وأنه لصادق فيما ظن من تعطيل حده وعزروه وخلوا سبيله . وتقدم إلى الناس في أن لا يعملوا بالظنون وأن لا يقيموا الحدود دون السلطان وإنما نقيد المخطئ ، وتؤدب المصيب .

فعل به الوليد ما أمر به عثمان ، وغضب لجندب أصحابه ، واتفقوا فيما بينهم على الكيد للوليد بالذهاب إلى المدينة وشكوى الوليد إلى الخليفة واستعفائه منه . فجاءوا عثمان فقال لهم تعملون بالظنون وتخطئون في الإسلام وتخرجون بغير إذن ، ارجعوا . فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبق موتور في نفسه إلا أتاها ، فاجتمعوا على رأى فأصدروه ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الأزدي وأبو مورع الأسدي وبقياء معه إلى أن نام فسلا خاتمه من أصبعه وهو نائم . فلما لم يجد خاتمه بعد أن استيقظ . سأل جاريتين له فقالتا

جاءك رجلان وأحدهما كانت يده على بذك ثم حلتاهما له فعرف أنهما
أبوزينب وأبومورع وقال : قد أرادا داهية فليت شعري ماذا يريدان وطلبهما
فلم يجدهما . وكان وجههما المدينة فقدموا على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان
من قد عزل الوليد عن الأعمال فقال من يشهد قالوا أبوزينب وأبومورع .
وكاع الآخران فقال كيف رأيتهما ؟ قال كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو
يقى الخمر . وفى رواية اعتصمناهما من لحيته وهو يقيها . فقال : ما يقى الخمر
إلا شاربها . فبعث إليه فلما قدم الوليد رآهما عند عثمان فقال :

ما إن خشيت على أمر خلوت به فسلم أخفك على أمثالها حار
وحلف الوليد وأخبره خبرهم فقال عثمان نقيم الحدود ويؤى شاهد الزور
بالنار فاصبر يا أخى . وأمر سعيد بن العاص بجلده أربعين فأورث ذلك عداوة
بين ولديهما والصحيح أن الذى جلده عبد الله بن جعفر إذ أبى الحسن أن
يتولى ذلك . وعزله عثمان عن الكوفة - وقد كان الوليد مظفراً فى الغزو
ما قصر فيه ولا انتقص عليه أحد حتى عزل وكان بما زاده عثمان بن عفان
على يده أيام ولايته على الكوفة أن رد على كل مملوك بها مبلغاً يستعينون به
من غير أن ينقص مواليتهم من أرزاقهم . وأورد الطبرى أن الوليد أدخل
على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الأحرار
والمماليك كانت تسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن :

يا ويلنا قد عزل الوليد وجاءنا مجوعاً سعيد

ينقص فى الصاغ ولا يزيد فجوع الأماء والعبيد

وقال بعض شعراء الكوفة :

فررت من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا

بلىنا من قريش كل يوم أمير يحدث أو مستنار

لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ولى عثمان بعد الوليد سعيد بن العاص وكان بقية العاص بن أمية وكان

أهله كثيراً تتابعوا وكان يتيماً نشأ في حجر عثمان فلما فتحت الشام قدمها على معاوية فسأل عنه عمر فيها يتفقد من أمور الناس . فقالوا : يا أمير المؤمنين هو بدمشق عهد العاهد به وهو مأموم بالموت . فأرسل إلى معاوية : أن ابعث إلى سعيد بن العاص في منقل فبعث به إليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى عوفى من مرضه . فقال له عمر : يا ابن أخى قد بلغنى عنك بلاء وصـلاح فازدد يزدك الله خيراً . ثم قال له : هل لك زوجة ؟ قال لا . فقال لعثمان : يا أبا عمرو ما منعك من هذا الغلام أن تزوجه ؟ قال : قد عرضت عليه فأبى . وبعد ذلك خرج عمر يسير في البر فأتتهى إلى ماء فلقى عليه أربع نسوة . فقمّن له فقال : ما لكن وما أنتن ؟ فقلن بنات سفيان بن عوف . وقالت أمهن : هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء فضعن في أكفائهن . فزوج سعيد بن العاص إحداهن وعبد الرحمن بن عوف الأخرى والوليد بن عقبة الثالثة . ثم أتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلى فقلن هلك رجالنا وبقي الصبيان فضعننا في أكفائنا فزوج سعيد بن العاص إحداهن وجبير بن مطعم الأخرى وقد كان عمومته ذوى بلاء في الإسلام وسابقة حسنة وقُدْمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس .

قدم سعيد أميراً على الكوفة . ومعه أولئك نفر الذين كادوا للوليد . ومنهم مالك المعروف بالأشتر النخعى . وأبو خُشة الغفارى وجُنْدُب بن عبد الله وأبو مصعب بن جثامة . فصعد سعيد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره ولكنى لم أجد بداً إذا أمرت أن آتمر . ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها والله لأضربن وجهها أو تعيننى ، وإني لرائد لنفسى اليوم — ونزل . وسأل عن أهل الكوفة ، فأقيم على حالها وما عليه أهلها . فكتب إلى عثمان بالذى انتهى إليه : إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمة — والغالب على البلاد روادف ردت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى

شرف وبلاء من نازلتها ولا نابقتها . فكتب إليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسبيهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا ثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل . فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل أيام القادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبيء عن الجسد . فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة . وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره . فكأنما كانت الكوفة يدياً شملت نار . فانقطع إلى ذلك الضرب حزبهم وفشت القالة والإذاعة . وذلك أمر طبعي . لأن أوائلك الشاغبين الذين أزالوا سلطان الوليد كانوا يرون أقل جزاء لهم من سعيد أن يشركهم في سلطانه ولا يصدر إلا بإذنهم ولا يورد إلا عن رأيهم . فلما فاتهم ما أملوا في سلطانه عادوا سيرتهم الأولى .

كتب سعيد إلى عثمان بأمرهم . فلما وصل إليه كتابه نادى مناديه : الصلاة جامعة . فاجتمعوا فأخبرهم بالذي بلغه سعيد من أول ولايته وبما كتب به إليه وبما جاءه من القالة والإذاعة . فقالوا أصبت فلا تسعفهم في ذلك ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل . فإنه إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها . وقد أشار عثمان على من بالمدينة أن يستبدلوا بأموالهم في الحجاز وجزيرة العرب أموالاً بنواحي الكوفة وفارس على النحو الذي أوردنا . وقصده من ذلك أن يوجد في هذه الأمصار قوماً من أهل السابقة والفضل ليسكونوا سادتهم وقادتهم وتنقطع أطباع غيرهم في السياسة والرياسة . فلم يجد ذلك نفعا . بل زاد الأمر ونما غرس الفساد .

كان سعيد بن العاص لا يغشاه إلا نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسية والقراء والمتسمتون . وكان هؤلاء دخلته إذا خلا فإذا جلس مجلساً عاماً دخل عليه كل أحد . فجلس للناس يوماً ، وبينما هم جلوس يتحدثون قال حبيش الأسدي : ما أجود طلحة بن عبيد الله . فقال سعيد : إن من له مثل

التشاسنع لحقيق أن يكون جواداً ، والله لو أنى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً ، فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث : والله لوددت أن هذا الملطاط لك — يعنى ما كان . لآل كسرى على الفرات الذى بلى الكوفة — قالوا : فض الله فاك والله لقد هممنا بك ، فقال : أبوه حبيش : غلام فلا تجاوزه . فقالوا : يتمنى له من سوادنا ؟ فقال . ويتمنى لكم أضعافه . فقالوا : لا يتمنى لنا ولا له فقال ما هذا بكم ؟ فقالوا أنت والله أمرته بها وثار إليه الأشر وابن ذى الحنكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكيل وعمير بن ضابئ فأخذوه وهب أبوه لينعه منهم فضربوها حتى غشى عليهما وجعل سعيد يناشدهم وهم لا يلتفتون إليه حتى اشفوا منهما . وسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا وفيهم طلحة فأحاطوا بالقصر وكثرت القبائل . ففزع الضاريون إلى سعيد وقالوا أفلتنا وتخلصنا ، فخرج سعيد إلى الناس ، فقال : أيها الناس قوم تنازعوا وتهاووا وقد رزق الله العافية ثم قعدوا وعادوا في حديثهم وتراجعوا وسألهم وردم ولما أفاق الرجلان قال لهما : أبكما حياة ؟ قالا : قتلنا غاشيتك ، وقال : لا يغشونى والله أبدأ فأحفظا على ألسنتكما ولا تجرئنا على الناس . ففعلا . وحفظ عن سعيد أنه قال : إنما هذا السواد بستان قريش ، وكان حاضراً مالك بن كعب الأرحبي والأسود ابن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان ومالك الأشر وغيرهم فزادوا عليه وأسأوا إلى صاحب شرطته فمنعهم سعيد أن يسمروا عنده .

ولما انقطع رجاء أولئك النفر من غشيان مجلسه وقعدوا فى بيوتهم أقبلوا على الإذاعة وشتم عثمان وسعيد حتى لامة أهل الكوفة فى إرخاء الحبل لهم والسكوت عنهم على ما بهم من شر وكتب سعيد وأشرافهم إلى عثمان فى إخراجهم من الكوفة فكتب إليهم : إذا اجتمع ملاكم على ذلك فالحقوهم بمعاوية . فأخرجوهم إليه فذلوا وانقادوا وخرجوا حتى أتوه . وقد كتب عثمان إلى معاوية . أن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة فزعهم وقم عليهم فإن آنت منهم رشداً فأقبل منهم وإن أعينك فارددهم عليهم . فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم وأجرى

عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق وجعل يتغذى معهم ويتعشى كذلك وطمع في أن يكون إكرامه لهم قد أصلح من شأنهم . فقال لهم يوماً : إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتهم مراتبهم وموارثهم . وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً . وإن قريشاً لو لم تكن عدتكم أذلة كما كنتم . إن أئمتكم لكم اليوم جنة ولا تفترقوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤنة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم . فقال رجل من القوم وهو صعصة : أما ما ذكرت من قريش وإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمتعها في الجاهلية فتخوفنا أما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا احترقت خلص إلينا . فقال معاوية عرفتمكم . الآن علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلاً أعظم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرني الجاهلية وقد وعظتك وتزعم لما يحجيك أنه يخترق ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة أخزى الله أقواماً أعظموا أمرهم ورفعوا إلى خليفكم . افقهوا ولا أظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل ولم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ولكم كانوا أكرمهم أحساباً وأحضرهم أساباً وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا بالله الذي لا يستذل من أعز ولا يوضع من رفع فبواهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عرباً أو عجماً سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمة بدولة إلا ما كان من قريش فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله حده الأسفل حتى أراد الله أن ينتفذ من أكرم وتنع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك حير من خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خبارهم قريشاً ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله فتراه لا يحوطهم (٢٠ - الخلفاء)

وهم على دينه وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم ؟ أف لك ولاصحابك . ولو أن متكلما غيرك تكلم ، ولكنك ابتدأت .

وأما أنت يا مصصعة فإن قربتك شر قرى عربية أنقنها نباتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر والامها جيراناً . لم يسكنها شريف قط ولا وضع إلا سب بها وكانت عليه هجته ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً والامه أصهاراً نزاع الأمم ، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس . حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ونكبتك دعوته وأنت نزع شطير في عمان لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأنت شر قومك حتى إذا برزك الإسلام وخطك بالناس وحملك على الأمم التي كانت عليك أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع إلى اللامة والذلة ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولا يمنعهم من تأدية ما عليهم إن الشيطان عنكم غير غافل قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس وهو صارعكم . لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء قضاء الله ولا أمراً أراد الله ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى . ثم قام وتركهم .

سمع القوم قوله فتذمروا وتقاصرت إليهم نفوسهم . ثم جاءهم معاوية فقال : لا والله لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره ولا أتم رجال منفعة ولا مضرة ولكنكم رجال نكير . وبعد فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليستعكم ماوسع الدهماء ولا يبطرنكم الأنعام فإن البطر لا يعترى الخيار اذهبوا حيث شئتم فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم .

ولما أرادوا الخروج دعاهم وقال لهم : إني معبد عليكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره ثم استخلف أبو بكر فولاني ثم استخلف عمر فولاني ثم استخلف عثمان فولاني فلم أَلْ لأحد منهم ولم يولني إلا وهو راض عني وإنما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها . وإن الله ذو سطوات ونفحات يمكر بمن مكر به فلا تعرضوا

لأُمُور وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدى للناس سرائركم وقد قال عز وجل : ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون .

ثم كتب معاوية إلى عثمان يقول : إنه قدم على قوم ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل . لا يريدون الله شئ ولا يتكلمون بحجة إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ويختبرهم ثم فاضحهم وعزيبهم وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فإنه سعيدا ومن قبله عنهم فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير .

خرج بعد ذلك القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا إلى الكوفة فإهم يشمتون بكم ويميلوا بنا إلى الجزيرة ودعوا العراق والشام فأووا إلى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وكان على حصص فدعا بهم وقال يا أله الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً . قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط . خسّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم . يامعشر من لا أدرى أعرب أم عجم لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجات . أنا ابن فائق الردة . والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . فأقامهم شهراً كلها ركب أمشاهم . فإذا مر به قال يا ابن الخطيئة أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ؟ مالك لا تقول ما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية ؟ فيقول ويقولون . نتوب إلى الله . أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم . وسرح الأشتر إلى عثمان بالتوبة والدم والنزوع عنه وعن أصحابه وقال لهم : ما شئتم فأخرجوا .

وجاء الأمر من عثمان بإعادتهم إلى الكوفة ولكنهم أشفقوا من ذلك فبقوا في الجزيرة .

وفي تلك الأثناء فرق سعيد العمال والأمراء فيما يليه من فارس فخلت الكوفة من الرؤساء والأشراف وأهل السابقة . وكان سعيد قد خرج إلى

عثمان فلم يفتجأ الناس إلا بهم قد عادوا إلى بغيهم وفسادهم . فلما أراد سعيد العودة إلى الكوفة تلقوه من الجرعة وردوه لا يريدون دخوله عليهم أميراً . فعاد إلى عثمان . فلم يغير من إرادة القوم وأرادوه على أن يولى عليهم أبا موسى الأشعري فنزل عند ما يريدون وولى عليهم أبا موسى وعرف سعيداً عنهم .

هكذا كانت الحال في الكوفة : غلب فيها الغوغاء على أهل الحلم ، وضعف سلطان الأمراء ، وقلت الطاعة ولم يبق لها في قلوب القوم من أثر .

البصرة

البصرة هي الحاضرة الثانية للعراق ولم تكن الحال فيها بأحسن من الحال في الكوفة ، فقد أوردنا فيما سبق تجنيهم على أبي موسى وعيبتهم له حتى عزل واستبدل به عبد الله بن عامر . فكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من إمارته وقد بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حُكَيْم بن جبلة وكان حكيماً رجلاً لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فساداً ، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويعيث في الأرض ويصيب ماشاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى عبد الله بن عامر يأمره بحبس حكيماً ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرج منها حتى تأتسوا منه رشداً . فكان لا يستطيع أن يخرج عنها . فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يطرح للناس ولا يصرح ويلقى إليهم تعاليم خبيثة . وأصل هذا الرجل يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم : عجيب ممن يقول برجة المسيح ولا يقول برجة محمد . فيقبل منه الناس ذلك لأنهم من الجهلة الذين لم يتحققوا بالدين ولم ينلهم تهذيب الصحة ولم يروضوا أنفسهم على الاقتداء . ثم يقول لهم عجبا لكم أيها المسلمون ! يكون فيكم أهل بيت نبيكم يقصون عن أمركم ؟ إلى مايمائل هذا الكلام الذي يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ما هو قريب من

ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته . فنعى إلى ابن عامر شيء من خبره . فأحضره وسأله من أنت ؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك . فقال ما يبلغني ذلك فأخرج عني . فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى الشام ثم إلى مصر . وهناك وجد مهاداً وطيباً وجواً صالحاً وثرى ثرياً يجود فيه نبات بذره . بعد أن نفث مانثت بالعراق فنها زرعها وأينع .

كان حمران بن أبان تزوج امرأة في عدتها فسكل به عثمان وفرق بينهما وسيره إلى البصرة فلزم عبد الله بن عامر فتذاكروا يوماً الركوب والمروءة بعامر ابن عبد قيس وكان رجلاً عابداً منقبضاً عن الناس على جانب من الصلاح والخير . فقال حمران : ألا أسبقكم فأخبره ؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف ، فقال : الأمير أراد أن يمر بك فأحببت أن أخبرك ، فلم يقطع قراءته ولم يقل عليه . فقام من عنده خارجاً . فلما انتهى إلى الباب لقيه ابن عامر فقال : جئتك من عند امرئ لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلاً . واستأذن ابن عامر فدخل عليه وجلس إليه فأطبق عامر المصحف وحدته ساعة . فقال له ابن عامر : ألا تغشانا ؟ فقال : سعد بن أبي العوجاء يحب الشرف : فقال : ألا نستعملك ؟ فقال : حصين ابن أبي الحري يحب العمل . فقال : ألا نزوجك ؟ فقال : ربيعة بن عسل يعجبه النساء . فقال ابن عامر : إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلاً ؟ فصفح المصحف ، فكان أول ما وقع عليه وافتتح منه : إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، فلما رُدَّ حمران إلى المدينة تنسح ذلك منه فسعى به وشهد له أقوام . فسيره عثمان إلى الشام ، وكان ما سعوا به عند عثمان أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة وكان مع عامر انقراض وكان عمله كله خفية . فلما قدم على معاوية وافقه وعنده ثريدة فأكل أكلاً عربياً ، فعرف أن الرجل مكذوب عليه . فقال معاوية : يا هذا هل تدري فيم أخرحت ؟ قال : لا . قال : أتبلغ الخليفة أنك لا تأكل اللحم وأبتك وعرفت أن قد كذب عليك ، وأنتك

لا ترى التزويج ، ولا تشهد الجمعة . قال : أما الجمعة فإني أشهدها في مؤخر المسجد ثم أرجع في أوائل الناس ، وأما التزويج فإني خرجت وأنا يخطب علي . وأما اللحم فقد رأيت ولكنني كنت أمرأ ألا آكل ذبائح القصابين منذ رأيت قصاباً يجر شاة إلى مذبحتها ثم وضع السكين على مذبحتها فما زال يقول التفتاق حتى وجبت . فقال : فارجع . فقال : لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا ، ولكنني أقيم بهذا البلد الذي اختاره الله لي .

مصر

أما الأمر في مصر فكان أشد منه في العراق . فإن عبد الله بن سبأ لما جاء إليها ألقي بذور فتنه وأذاع بين الناس تعاليمه ، بعد أن استفسد كثيراً من أهل البصرة والكوفة ، وخاب أمه من أهل الشام ، فكان يقول لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع والله تعالى يقول : وإن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبل ذلك عنه وبذلك وضع لهم الرجعة فتكلموا فيها بالأخذ والرد طبعاً . ثم قال لهم بعد ذلك أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان على وصي محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر الأمة ؟ ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدعوا بالظعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر . فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه . ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم . وجعلوا يكتبون إلى الأمصار يكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر ما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون . فيقول أهل كل مصر

إننا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إننا لفي عافية مما فيه الناس .

المدينة مجتمع المهاجرين والأنصار ومركز الخلافة ، ووجوه أهل الأمصار إنما تنبج بالشكاية في المهمات إليها ويعولون على أهلها في إزاحة ما بهم من غمة وتفريج ما لحقهم من كرب ، وأهل المدينة يحسون بذلك من أنفسهم ومن أهل الأمصار . فلا غرو أن حرك ذلك من نفوسهم ودفعهم ذلك إلى مخاطبة أمير المؤمنين عثمان بما دخل على الناس من عماله مما شرحته الشكوى من كل ناحية وصوب - فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس ما يأتينا ؟ قال : لا ، والله ما جاءني إلا السلاعة . فقالوا : إننا قد جاءنا كيت . وكيت وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم . فقال : أتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا على . فقال نشير عليك أن تبعث رجلاً بمن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

رأى عثمان صواب ما أشاروا به . فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر وعبد الله بن عمر إلى الشام وفرق رجلاً سواهم في جهات أخرى ، فذهب كل رجل لطيته ثم رجعوا جميعاً قبل عمار وقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم . وقالوا جميعاً : الأمر أمر المسلمين . إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم . واستبطن الناس عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل . فلم يفاجأهم إلا كتاب من عبد الله بن أبي سرح يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه . منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر . وكان كنانة من المؤلّين على عثمان .

أقول : أما أشد المؤلّين على عثمان بمصر . فهما رجلان : أحدهما محمد بن أبي حذيفة ، وكان الذي أغراه بذلك أنه كان يتيماً في حجر عثمان فكان عثمان وإلى أهل بيته ومحتمل كلهم . فسأل محمد عثمان العمل حين ولي ، فقال : يا بني لو كنت رضا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فأذن لي

فلأخرج فلاطلب ما يقوتني . قال اذهب حيث شئت . وجهزه من عنده وحمله وأعطاه . فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير على عثمان أن منعه الولاية . ولا يبعد أن يكون لتولية عبد الله بن عامر أثر في زيادة حقه على عثمان وإيغاله في بغضه والسكيد له .

ثانيهما محمد بن أبي بكر — ومحمد بن أبي بكر من الإسلام بالمكان العظيم غير أنه قد غره أقوام فطمع وكانت له دالة بمكان أبيه من رسول الله وسابقته وخلافته وأخوة عائشة أم المؤمنين . فلزمه حتى فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع محمد بن أبي حذيفة إلى محمد بن أبي بكر وقد ألف بينهما بغض عثمان ومكن بينهما الصداقة .

وأول ما ظهر ذلك منهما حين ركب الناس البحر سنة ٣١ في غزوة ذات الصواري وسيأتي خبرها . إذ صلى عبد الله بن أبي سرح بالناس العصر ، فكبر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً رفع صوته به حتى فرغ عبد الله بن سعد من صلاته فقال له : ما هذه البدعة والحدث ؟ فقال محمد بن أبي حذيفة : ما هذه بدعة ولا حدث وما بالتكبير بأس . فقال : لا تعودن . فلما صلى المغرب عاد فكبر بصوت أرفع . فارسل إليه : إنك لغلाम أحمق ، أما والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوطك (يريد تقييده) . فقال محمد بن أبي حذيفة : والله مالك إلى ذلك سبيل ولو هممت به ما قدرت عليه . قال فكف خير لك . وركب محمد في مركب ليس فيه معه مسلم وإنما فيه القبط وركب معه فيه محمد بن أبي بكر .

فلما أذن الله بهزيمة الروم ورجع المسلمون جعل محمد بن أبي حذيفة يقول للرجل أما والله لقد تركنا خلقنا جهادا . فيقول الرجل وأى جهاد ؟ فيقول : عثمان بن عفان فعل كذا وكذا . وأظهر هو ومحمد بن أبي بكر عيب عثمان وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر وإن دم عثمان حلال . ويقولان : استعمل عند الله بن سعد رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما وأدخلهم .

ونزع أصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر — وكانا حين التقى الجمعان أنسكل المسلمين في القتال . فقبل لهما في ذلك . فقالا كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه ؟ عبد الله بن أبي سرح أستعمله عثمان وعثمان ففعل وفعل . فأفسدا أهل الغزاة . وعلم بذلك عبد الله بن سعد فأرسل بينهما أشد النهي .

أما سبب ميل عمار بن ياسر إلى المؤلبين على عثمان والطاعين فيه فإنه كانت عنده مودة على عثمان . سببها أنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام أدى إلى تقاذفهما . فضرهما عثمان على ذلك . وقليل من كان في قلبه مودة على إنسان ثم لا يصيخ إلى القول فيه والعيب له .

الشام

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن منها في هذه الأمصار التي ذكرنا — ذلك أن معاوية من الحزم والضبط بالسكان الذي لا يجهل . ومثل بضاعة ابن السوداء لا تجد نفاقاً تحت رعايته وإذا وجدت فإنه يعاجل الداء بحسمه .

كان بالشام حادثة استغلها الثوار المؤلبون في التشجيع على عثمان والتاريخ له ولعماله غير أن معاوية استأصل الداء من ناحيته ونحى عنه ما ابتلى به غيره من العمال . ولذلك بقي أهل ولاياته الوسعة على طاعته والولاء له ملقين إليه بالمقاليد يصرفهم كما يهوى وهم لا يخالفون عن أمره ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ولم تخبت نفوسهم بما خبثت نفوس الناس في الأمصار .

ذلك أن ابن السوداء لما جاء إلى الشام وهو من الخبث والدهاء بحيث يعرف مآتي الأمور ويأتي إلى كل شيء من بابه ويفضي إلى كل رجل بما يغلب على ظنه أنه يوافقه . فهو إنما يجيء إلى الناس بدسائسه من الجانب الضعيف الذي يأنسه فيهم — ومعلوم أن أبا ذر رضي الله عنه كان رجلاً صالحاً تقياً متقشفاً لا يحب الإمساك ولا يميل إلى الادخار ذا شفقة على الفقير والمسكين . فجاء إليه ابن السوداء وقال له : يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال

مال الله — ألا إن كل شيء لله . كأنه يريد أن يحتججه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين . لجاء أبو ذر إلى معاوية فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله ؟ والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله . قال : فإني لا أقول أنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين . وأتى ابن السوداء أبا الدرداء — فقال له : من أنت ؟ أظنك والله يهوديا — فأتى عبادة بن الصامت . فتعلق به وأتى معاوية . فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر . وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأجبهوه على الأغنياء . وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون من الناس .

فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من أمره كيت وكيت . فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها فلم يبق أن تثب فلا تنكأ القرح . وجهز أبا ذر إلى وابعث معه دليلا وزوده وارفق به وكفكف الناس نفسك ما استطعت . فإنما تمسك الأمر ما استمسكت فبعث بأبي ذر ومعه دليل . فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع . قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكر . ولما دخل على عثمان قال له : يا أبا ذر . ما لأهل الشام يشكون ذربك . فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله . ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا : فقال : يا أبا ذر ، على أن أقضى ما على . وأخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال أفأذن لي في الخروج . فإن المدينة ليست لي بدار قال أو تستبدل الأشرأ منها ؟ قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا سلعا . قال فأنفذ ما أمرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الربرة فخط بها مسجداً وأقطع عثمان صرمة من الإبل . وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كل يوم عطاء وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرايا — وذلك أنه كان الأمر

في المسلمين على أن من سكن المدينة حرم التبدي لما في ذلك من تقليل سواد المسلمين وهجر العلم بالدين والانغماس مع الأعراب الجفافة الغلاظ الأكباد مع بعدهم عن الدين ومذاهبه وجهلهم بحلاله وحرامه وقد مكث ذلك الأمر دهرأ طويلا يرون ذلك . ولولا ما رواه أبو ذر من حديث رسول الله لم يرخص له عثمان في ذلك .

وقد روى الطبري سوى ما قدمنا أن أبا ذر كان يختلف إلى المدينة من الربة مخافة الأعرابية وكان أبو ذر يحب الوحدة والخلوة . فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار . فقال لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للودى الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات . فقال كعب الأحبار : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه ، فقال له أبو ذر : يابن اليهودية ما أنت وما هاهنا ؟ والله لتسمعن مني أو لأدخلن عليك . ورفع محبته فضر به فشجه ، فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك .

إن الناظر إلى أبي ذر . وهو أول قائل بالاشتركية في الإسلام يراه قد أوغل فيها شوطاً بعيداً وانتظم ما بين بابها ومحرابها في خطوة واحدة . قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : على أن التوسط في هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين في حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا أعز الأمم جانباً وأسعداً حالاً . إذ خلق التعاون على البر إذا نشأ بنشوء الأمة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملائكة راسخة في الصدر تنمو بنمو الحياة القومية اهـ . والذي أراه أن أبا ذر عمد إلى طريقته الاشتراكية غير مبين حدودها ولا معالمها - وطريقة كهذه ربما كان إثمها أكبر من نفعها . لأن أصحاب الجدد والعمل يسعون ويكدون ويتعبون أجسامهم وعقولهم ثم لا ينالهم من عملهم إلا كما يناله الكسول المريح ، لا يمكن أن يقبل هذا عاقل ولا يرتاح له نفس عمراني .

وقد جاء في شيوخ أبي ذر من الشام إلى المدينة ثم إلى الربة روايات

أضرب الطبري وابن الأثير عن روايتها وسار على ذلك محققو المؤرخين علما منهم بضعف تلك الروايات - وقد توفي أبو ذر رضى الله عنه بالربذة سنة ٣٢ هـ وكان قد أقام بها ثلاث سنين وقد حضر دفنه جماعة من أصحاب رسول الله فيهم ابن مسعود .

أما الحال في المدينة فقد كانت أشد . فإن تلك الكتب التي كان يرسلها السبئيون كانت سبباً لكثرة الحديث في شأن عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيهم الحاقد على عثمان لأسباب تخصه والكاره لمكانه . حتى كأن هذه الكتب كانت النار وافقت الحلفاء وقد بلغ الأمر ببعضهم أن واجه عثمان بما يسوءه فكان يتجاوز لهم عن ذلك ويصبر وسيمر بنا شيء من ذلك .

ابتداء العمل في الفتنة

كان ماتقدم إذاعة باللسان وإشاعة بالسوء بالمسكاتبات بين الموتورين والساخطين والموضعين في الفتنة ، فلما اختمرت فكرة الشعب في النفوس بدأت تهر بالعمل . وكان بدء ذلك أن سعيد بن العاص ذهب من الكوفة إلى المدينة وقد تسر ، رؤساء الناس وأشرفهم في بلاد فارس إلى أعمالهم وحث الكوفة منهم فاتنيزيد بن قيس ذلك وحاء المسجد وهو يريد خلع عثمان فانقض عليه القعقاع بن عمرو فأخذه ويزيد يقول : إنما نستعفي من سعيد ، فقال هذا ما يعرض لكم فيه لا تجلس لهذا ولا يجتمعن إليك واطلب حاجتك فلعمرى لتعطينها . فجلس في بيته واستأجر رجلاً وأعطاه بغلاً وكتب إلى القوم الذين بالجزيرة - لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا . فأبوا في أول الأمر حتى خرج مالك ابن الحارث الأشتر عاصياً إلى الكوفة . فلما رأوا ذلك منه لحقوا به يريدون الكوفة فقدمها قبلهم ولم يشعر الناس إلا وهو على باب المسجد في يوم الجمعة يقول : أيها الناس إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركته سعيداً يريد على نقصان نساتكم إلى مائة درهم ورد أهل البلاد منكم إلى ألفين ، ويقول ما بال

أشراف النساء وهذه العلالة بين هذين العدلين ؟ ويزعم أن فياً كم بستان قريش . وقد سائرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقتة يقول :

ويل لأشراف النساء منى صحصح كأتى من جن

فاستخف الداس بذلك وجعل أهل الحجبى والرأى ينوهم فلا يسمع منهم وأمر يزيد بن قيس منادياً ينادى : من شاء أن يلحق سعيد بن قيس لرد سعيد وطالب أمير غيره فليفعل .

وقام عمر بن حريث خليفة سعيد يعظ الناس ويسكنهم فلم يسمعوا لقوله وقال له القعقاع ابن عمرو . أترد السيل عن عبابه ؟ فاردد الفرات عن أدراجه هيات ، لا والله لا تُسَكِّن الغوغاء إلا المشرفة ويوشك أن تنتضى ثم يعجون عجمج العمدان ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً .

خرج القوم إلى الجرعة كما قدمنا ثم قدم سعيد ومعه مولى له فوجد القوم يناهزون الألف . فقالوا له : لا نريد أن تدخل علينا والياً . فقال لهم : هل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد ؟ إنما كان يكنى أن ترسلوا لى رجلاً وإلى أمير المؤمنين رجلاً واحداً ثم رجع وقد قتلوا مولاة . وأخبر عثمان بالذى كان منهم فقال : فمن يريدون ؟ قال : أبا موسى . فقال : قد أثبتنا أبا موسى عليهم والله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة وانصبرن كما أمرنا حتى تبلغ ما يريدون .

وفى رواية للطبرى : أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه . فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمى الذى يعرف بعامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه وقال : إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليه وانزع عنها . فقال عثمان : انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم يجيئ فيكلمنى فى المحقرات فوالله ما يدرى أين الله . فقال عامر : أنا لا أدرى أين الله ؟ قال : نعم والله ما تدرى أين الله . قال عامر : بلى والله إنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك

بعد ذلك أرسل عثمان إلى عماله وبعض من معه من غيرهم ليؤامروهم في هذه الإذاعات التي أزجته وصيرت أهل المدينة بين المقيم المقعد - فاستقدم معاوية ابن أبي سفيان وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وسعيد بن العاص (كان بالمدينة) وعبد الله بن عامر . وعمر بن العاص (وكان بالمدينة) فجتمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه . وما بلغه عن عماله منهم - وقال لهم : إن لكل امرئ وزراً ونصحاء وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم . وقال عبد الله بن عامر : رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همّة أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقل فروته (ونعم الرأي رأيي) . ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له : ما رأيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف واعمل برأيي تصب . قال وما هو - قال إن لكل قوم قادة متى تهلك بتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (يريد أن ينكل برؤوس أهل الفتن) فقال عثمان : هذا هو الرأي لولا ما فيه . ثم قال لمعاوية ما رأيك ؟ قال يا أمير المؤمنين ما أرى أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي . ثم قال لعبد الله بن سعد ما رأيك ؟ فقال : أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم (وهو حق لو اتسع له بيت المال) ثم قال لعمر بن العاص : ما رأيك ؟ قال : أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون . فاعتزم أن تعتل فإن أبيت فاعتزم أن تعزل . فإن أبيت فاعتزم عزما وامض قدماً - فقال عثمان مالك قل فروك ، أهذا الجدمنك ؟ فسكت عمرو عنه حتى إذا تفرق القوم قال له : لا والله يا أمير المؤمنين لأنك أعز علي من ذلك ولكني علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا . فأردت أن يبلغهم قولي فيشقوا بي . فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً . والذي أعتقده أن مبدأ إحساس القوم بضعف عثمان الكتاب الذي كتبه

إلى أهل الكوفة حين استعفوه من سعيد بن العاص وردوه من الجرعة وقتلوا مولاه وطلبوا أبا موسى والياً عليهم فكشب إليهم عثمان «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد . فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد . والله لا فرشكم عرضي ولا بذلن لكم صبري ولا استصلحكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتوه ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة ، وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار وهي نعمة جديدة لم يسمع الناس مثلها من عمر بن الخطاب جاءت على إثر شكوى وتذمر . قد تؤثر في الكريم ولكن اللئيم يعتدها ضعفاً يزيد ضراوة على الفتنة ولوعاً بإشاعة السوء وإذاعته فهو زلة من عثمان يغفر الله له — وكتاب مفتوح يعلن فيه ضعفه ووهن قوته فلا غرو أن اجتروا عليه بعده بما اجتروا .

قبل سرد ما حصل في شأن الفتنة مما سأرده أحب أن أدلى بكلمة تنير الموضوع وتلقى عليه شعاعاً من الجلاء والوضوح :

مما جرت به سنة الوجود أن أى بلد من البلاد أو مصر من الأمصار لا يخلو من أناس محدودين مغموسين في الناس لم يتها لهم الظهور ولم يوقفوا لأن يكونوا من أرباب الثراء وهم يزنون أنفسهم بغير ميزانهم ويقدرّون لأنفسهم ثمناً لا يسومهم الناس بعشر معشاره فهم راضون عن أنفسهم كل الرضا ساخطون على من عداهم يتبرّمون بالفلك ويتسخطون على القدر . ولا ينسبون تأخرهم لعيب فيهم أو نقص في استعدادهم لتسهم المعالي . ولكنهم يعمدون إلى الدولة والقائمين بها يستذنبونهم في تأخرهم ويلزمونهم جناية فقرهم وعدم مواتاة الجدد لهم . فهم يتمنون تغيير الدولة ويستبطنون أحداث الاستبدال من أهلها ويتكهنون حؤول الأحوال ويوقتون لذلك المواقيت ويتربصون نزول الدوائر لأنهم يستروحون ربح الفرج من ناحية التقلبات ويرون أن حظهم لا يطلق من وثاقه إلا إذا سقط الأمير القائم وقام غيره ممن يمتون إليه بالوسائل قبل الولاية .

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه يرجى سواها فهو يهوى انتقالها
ومن كانوا كذلك يكون لهم ولوع بإشاعة الإشاعات الرديئة وإذاعة أنبا
السوء وتثبيت الظنون وتوهين اليقين واستفزاز من يمكن استفزازه إلى إحداث
الفتن وتعجيل التغيير والتقرب إلى من يظن فيه القدرة على ذلك .

ولا يخلو الحال من أن يكون بالمدينة قوم على هذه الشريطة ينفخون في
كل نار ، كلما خبت زادوها سعيراً . ويزيد نيران حقدهم اشتعالا ما يروونه من
اختصاص ذوى السلطان غيرهم من أهل البلاء والغناء في نظرهم بالتأثير على
الأمصار وتقليد العمال وهم قابعون في أكسار بيوتهم . وقد كان لهم في
بعض ما يؤخذ على عثمان حجة يستترون وراءها .

إذا تمهد هذا فليس من البعيد أن تكون إذاعات هذا الضرب من الناس
وإشاعاتهم قد بلغت من الكثرة في المدينة حداً غير قلوب أصحاب رسول
الله على عثمان حتى تكاتبوا مع الخارجين عن المدينة يقولون لهم: أن اقدموا
علينا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه
أقبح ما نيل من أحد ، وأصحاب رسول الله يرون ويسمعون وليس فيهم أحد
ينهى ولا يذب إلا نفراً : زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك
وحسان بن ثابت . فاجتمع الناس وكلوا على بن أبي طالب . فدخل على عثمان
فقال : الناس ورائي وقد كلبوني فيك . والله ما أدري ما أقول لك وما أعرف
شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما يعلم . ما سبقناك إلى
شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغك وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت
وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره وما ابن أبي قحافة
بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت
اقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً . ولقد نلت من صهر
رسول الله ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شيء . فالتفت الله في نفسك فإنك والله
ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وأن الطريق لواضح بين وأن أعلام

الدين لقائمة . تَعَلَّمْ يا عِثْمَانُ أَنْ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ هُدًى وَهَدًى فَأَقَامَ سَنَةَ مَعْلُومَةٍ وَأَمَاتَ بَدْعَةَ مَتْرُوكَةٍ ، فَوَاللَّهِ إِنْ كَلَّا لَبَيِّنٌ ، وَإِنْ السَّنَنُ لِقَائِمَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ، وَإِنْ الْبَدْعُ لِقَائِمَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ، وَإِنْ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلٌّ بِهِ فَأَمَاتَ سَنَةَ مَعْلُومَةٍ وَأَحْيَا بَدْعَةَ مَتْرُوكَةٍ . وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يَوْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ لَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ فَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ فَيَدُورُ كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَطِمُ فِي غَمْرَةِ جَهَنَّمَ ، . وَإِنِّي أَحْذَرُكَ اللَّهُ وَأَحْذَرُكَ سَطْوَتَهُ وَنَقْمَاتَهُ فَإِنْ عَذَابُهُ شَدِيدٌ أَلِيمٌ ، وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : يَقْتُلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ . فَيَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَلْبَسُ أُمُورُهَا عَلَيْهَا وَبِتَرْكِهِمْ شَيْعاً فَلَا يَبْصُرُونَ الْحَقَّ لَعَلَّوْا الْبَاطِلَ يَمْوِجُونَ فِيهَا مَوْجاً وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً .

سمع عثمان ذلك الكلام فقال : قد والله علمت ليقولن الذي قلت . أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتلك ولا عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً . ووليت شيها بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمة وقرابته ؟ قال . على : سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يظأ على صماعة . أن بلغه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لا تفعل — ضعفت ورققت على أتربائك — قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافة كلها . فقد وليته . فقال علي : أنشدك الله : هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال علي : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية . ثم خرج علي من عنده .

إذا كان ما في رواية هذا الحديث صحيحاً (وهي رواية الواقدي نقلها الطبري وتابعه عليها ابن الأثير) فإن عثمان لاحتجة له فيما يقول — ذلك أن الولاية إنما يقصد بها مصلحة المسلمين وكفاية المهمل من أمورهم في الناحية (م ٢١ — الخلفاء)

التي يكون بها الوالى . أما كون الولاية يقصد بها صلة الرحم وسد خلة ذى الخلة وإيواء الضائع من أقارب الخليفة وذوى رحمه . فلا يمكن أن يوافق عليها أحد ، ولقد كان فى بنى عدى ومنهم من ذوى أنساب عمر دنيا ضائعون وذوو خلة لهم رحم ماسة وعرق واشجة ، فلم يشأ عمر إيثارهم لقرابتهم أو رحمهم ولا لآى اعتبار آخر ، وهؤلاء عمال رسول الله ما كان يختارهم من ذوى قرابته ولا يؤثرهم ابتغاء صلة الرحم فى الأعمال — التى يشترط فيها قبل كل شئ الكفاءة — ولست بهذا أقصد عيب العمال فى أعمالهم أو أنتقص من كفائتهم . وإنما أحاكم جواب عثمان لعل فيما أجاب به فإنه جواب أراه غير سديد .

ولا يفوتنى قبل أن أترك هذا المقام أن أذكر ما يحتاج نفسه أمام هذه العوامل التى كانت تأخذ عثمان من كل ناحية — ذلك أن عثمان كان رجلاً سليم القلب طاهر الضمير بعيداً عن الحُب والنفاق وسوء الظن بالناس . فكان حسن الظن بأقاربه وذوى رحمه ثم انضاف إلى هذا رقة قلبه وشدةحنانه عليهم وجه لنفعهم واستيقانه بأنهم يعاونونه على أمره ويؤازرونه على سياسة الرعية وأنهم خير من يقوم له بذلك لحبهم له وعطفهم عليه — كان منه ذلك فى الوقت الذى خمدت فيه جمره الشباب وانطفأت وقدة الحداثة وقد رهقه ضعف الشيخوخة واستولى عليه تهاون أهل الهرم وتسامحهم واستصغارهم الأمور وإن جلّت . فأورث ذلك فى أنفس الناس شيئاً كثيراً .

فإن الصحابة كانوا يرونه يتخطى رقابهم بالأعمال ويولها ذوى قرابته وفيهم الأحداث ومن لم تقدمهم السن . وفى أبناء الصحابة وأهل السابقة من يرى لنفسه ويرى له أبوه وغير أبيه الأولوية على من يقدم من أقاربه : فأحفظ ذلك عليه القلوب وسهل على الناس سماع الإذاعات وتصديق الإشاعات . فكانت عصارة ذلك ازدياد الجرأة عليه وعيهم له جهاراً بعد أن كان ذلك خفية . ولم يكن لعثمان جواب مسكت فيما يرد به عن نفسه فكان احتجاجه لعمله ودفاعه عنه داعية زيادة الاضطغان عليه لأنه غير كاف ولا شاف .

خرج عثمان على أثر خروج علي بعد انتهاء الحديث الذي قدمنا لجلس علي المنبر ، فقال : أما بعد فإن لكل شيء آفة ، ولكل أمر عاهة ؛ وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون إيرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون ، أمثال الغنم يتبعون أول ناعق ، أحب مواردها إليها البعيد . لا يشربون إلا نغصاً ولا يردون إلا عكراً لا يقوم لهم رائد وقد أعييتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب . ألا فقد والله عبتم علي بما أقرتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم يده وقمعكم بلسانه فدمتم له علي ما أحببتهم أو كرهتم - ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقن ، إن قلت لهم أني إلى . ولقد أعددت لكم أفرانكم وأفضلت عليكم فضولاً وكشرت لكم عن نابي وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به . فكفروا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيكم علي ولا تكم فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيت منه بدون منطقي هذا . ألا فما تفقدون من حكمكم ؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي وهن لم تكونوا تختلفون عليه فضل فضل من مال . فإلى لا أصنع في الفضل ما أريد ؟ فلم كنت إماماً ؟ فقام مروان فقال : إن شتم حكمتنا والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون في دمن الثرى
فقال عثمان اسكت لا سككت ، دعني وأصحابي ما منطقتك في هذا ؟ ألم أتقدم إليك أن لا تنطق . فسكت مروان .

وقد أورد الطبري من رواية سيف عن شيوخه أن معاوية قال لعثمان غداة ودّعه وخرج : يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي . قال فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لئلا ينابئ المدينة

أو إياك . قال أنا أفتر على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق
بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟ قال والله يا أمير
المؤمنين لتغتالن أو لتغزين . قال حسبي الله ونعم الوكيل .

فلما خرج معاوية يريد السفر ، فإذا هو بنفر من المهاجرين فيهم طلحة
والزبير وعلى . فقام عليهم : متوكلنا على قوسه وبعد أن سلم قال : إنكم قد علمتم
أن هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال فلم يكن منكم أحد إلا وفي
فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤمره حتى
بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأكرم به من اتبعه فكانوا
يرأسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والأقدمة
والاجتهاد فإن أخذوا بذلك وأقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم
وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى من كان
يرأسهم . وإلا فليحذروا الغير فإن الله على البدل قادر وله المشيئة في ملكه
وأمره : إني قد خلفت فيكم شيخا فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد
منه بذلك . ثم ودعهم ومضى . فقال على ما كنت أرى أن في هذا خيراً . فقال
الزبير والله ما كان أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة .

دور الشدة في الفتنة

كان تصميم السبئية من أول الأمر أن يشعروا بالأمصار على أثر خروج
العمال إلى الموسم ، فلم يتهأ لهم ذلك ولم ينهض في هذا الأمر سوى أهل
الكوفة فإنهم خرجوا بحجة الاستعفاء من سعيد كما قدمنا ، وقد ردوه من
الجرعة وهي مكان في طريق الذهاب من المدينة إلى الكوفة .

فلما رجع الأمراء إلى أمصارهم لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج . فكتبوا
أشباعهم من أهل الأمصار وتواعدوا على أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما
يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويسألون

عثمان عن أشياء لتسير في الناس وتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث : الكوفة والبصرة ومصر حتى قاربت المدينة . فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين من بني مخزوم ليعلموا علم القوم . وكان الرجلان ممن نالهم أدب من عثمان فاصطبرا ولم يطمعنا . فلما رآهما أولئك القادمون استرسلوا إليهما وباحوا لهما بذات نفوسهم ، فقالوا إننا نريد أن نسأله عن أشياء زرعتها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أننا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب . ثم نخرج كأننا حجاج ثم نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبي قتلناه . وكانت إياها . فرجعا إلى عثمان بالخبر فضحك وقال اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا . وقد أخبر أهل الأمصار أن ثلاثة من أهل المدينة معهم على رأيهم وهم : عمار ومحمد بن أبي بكر وابن سهلة (لعله محمد بن أبي حذيفة) — فكان من قول عثمان : أما عمار فحمل على عباس بن عتبة بن أبي لهب وعركه فأدبته ، وأما محمد بن أبي بكر فإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه ، وأما ابن سهلة فإنه يتعرض للبلاء . ثم أرسل عثمان إلى الكوفيين والبصريين ونادى : الصلاة جامعة وهم عنده في أصل المنبر . فأقبل أصحاب رسول الله حتى أحاطوا بهم . فحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم . وقام الرجلان وأخبرا بما سمعاهم . فقالوا جميعاً أقتلهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا أحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم . فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ونبصرهم بمجهودنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفرأ . ثم أخذ يذكر الأمور التي تقوموا عليها وأذاعوها ويجب عن كل مسألة . فقال : إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوا على عند من لا يعلم :

١ — قالوا أتم الصلاة في السفر (في المزدلفة) وكانت لا تتم . ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين . أو كذلك هو ؟ قالوا : نعم . — وذلك أنه أتم الصلاة في المزدلفة وهي تقصر في ذلك الموطن ولو كان مؤديها مقيماً هكذا كان يرى غير عثمان من فقهاء الصحابة .

٢ — وقالوا حميت حمى . وإني والله ما حميت حمى . قبلى والله ما حموا شيئاً لآحد ما حموا لآما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا رعيه آحداً . واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لثلا يكون بين من يليها وبين آحد تنازع ثم مامنعوا ولا نأخوا منها آحداً إلا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ناغية ولا راغية . وإنى قد وليت وإنى أكتر العرب بعيرا وشاة فالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى . أ كذالك هو ؟ قالوا : اللهم نعم .

٣ — وقالوا كان القرآن كتباً فتركها إلا واحداً - ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء . أ كذالك هو ؟ قالوا : نعم .

٤ — وقالوا قدر ددت الحكم . وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ، ورسول الله رده . أ كذالك هو ؟ قالوا : نعم

(٥) وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا بآجتماعاً محتملاً مرضيا ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه . وهؤلاء أهل بلده . ولقد ولى من قبلى آحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة . أ كذالك هو ؟ قالوا : نعم .

(٦) وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه . وإنى إنما نسفّلته خمس ما أفاء الله عليهم من الخمس وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم . أ كذالك هو ؟ قالوا : نعم .

(٧) وقالوا إنى أحب أهل بيتى ، وأعطيهم . أما حى فإنهم لم يمل معهم على جور بل أحل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم : فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لفسى ولا لآحد من الناس . ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح ، أأحين أتيت على أسنان أهل بيتى

وفى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا؟ وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم على إلا الأخماس، ولا يحل لى منها شيء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا نفلت من مال الله بفلس منها فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى.

(٨) وقالوا أعطيت الأرض رجالا وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له، فنظرت فى الذى يصيبهم بما أفاء الله عليهم فيحتة لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى. وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه. فبدأ بنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف وأعطى بنى عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب.

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف الذين خرجوا للكيد له وأبى المسلمون إلا قتلهم وأبى هو إلا العفو والصفح عنهم فرجعوا إلى بلادهم على الأمر الذى خرجوا به.

ظن عثمان أن ما أدلى به من الحجج قد أصاب من نفوسهم، وأن عفوه عنهم يطفىء جمره اضطغانهم عليه فاكتمى بما قال. ولكن القوم تواعدوا على الشخوص إلى المدينة فى شوال سنة ٣٥ لإنفاذ ما اعتزموا عليه من محاصرة عثمان وخلعه أو قتله إن أبى نفرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء — المقل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف. وقادتهم هم عبد الرحمن بن عديس البلوى وكنانة بن بشر الليثى وسودان بن حمران السكونى وقتيرة السكونى. وعلى القوم جميعاً الغافقى بن حرب العكي. وأشفقوا أن يعلموا الناس بخروجهم للشغب والحرب. وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء. ولو أنصح للقوم رجل يقرأ ما فى الضمير لقرأ لهم آيات الفرح والسرور الذى لا يعادله

سرور أحد في العالم واضحة على صفحات قلب ابن السوداء الذى استطاع أن يسخر هؤلاء القوم لتنفيذ مآربه في أئمة الإسلام والكيد لدينهم . وقد تسنى له أن يشغل القلوب في الأمصار المترامية وفي مدينة الرسول وهو جالس في مصر .

يدبر الشر من مصر إلى يمن إلى العراق فأرض الروم فالنوب والذى اعتقده أنه قد كان داعية جمعية تمدد وتوازره وتعينه قد اختارته لتنفيذ مآربها في الإسلام لتفسد ما تقدر عليه كما أفسد بولس دين المسيح . وخرج أهل الكوفة في أربع فرق وقادتهم : زيد بن صوحان العبدى . والأشتر النخعى . وزباد بن النضر الحارثى . وعبد الله بن الأصم العامرى من عامر بن صعصعة وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعاً عامر بن الأصم . وخرج أهل البصرة في أربع فرق . وقادتهم : محكم بن جبلة العبدى وذريح بن عباد العبدى وبشر بن شريح القيسى وابن المحرش الحنفى . وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدى .

وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاث مختلفة غير متفقة ، فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون علياً لما بثه فيهم ابن السوداء ومحمد بن أبى بكر فإنه كان ربيبا لعلى تزوج أمه بعد أبى بكر وحذب عليه ، وقد وافقه على ذلك محمد بن أبى حذيفة ، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون أن يكون الخليفة طلحة بن عبيد الله ، وأهل الكوفة كان هوام فى الزبير بن العوام فخرجوا وهم على الخروج جميع وفى الأهواء شتى وكل فرقة لا يشك أحد منها فى أن الفلج فى جانبها وأن أمرها سيتم دون الآخرين . وصار كل فريق حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب . وتقدم ناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذى الروة . ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم ، وقالوا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه قد بلغنا أنهم قد عسكروا لنا . فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا

قتالنا ولم يعلموا علينا فهم إذا علموا علينا أشد وإن أمرنا هذا لباطل . وإن لم يستعدوا لنا ولم يستحلوا قتالنا ووجدنا ما بلغنا باطلا لئرجعن إليكم بالخبر .

فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلياً وطلحة والزبير وقالوا : إنما نأتى هذا البيت ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك وأستأذناهم للناس فى الدخول فكلهم أبى وقال بيض ما يفرخن . وهذا ما آخذه أمارة على وهن عثمان واقتطاع الناس الأمر دونه إذ يطلب الإذن من غيره بدخول المدينة ولو كان عمر ما قدر أحد منه على مثل ذلك .

رجع الرجلان إلى القوم فأتى من مصر نفر فأتوا علياً ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير وقال كل فريق منهم إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ومزقنا جماعتهم ثم كررنا حتى نبغتهم فجاء المصريون إلى على وعرضوا له بالأمر فاتهم وطردهم وكذلك فعل الزبير مع أهل الكوفة وطلحة مع أهل البصرة وأغلظوا لهم فى القول . وكان كل من على والزبير قد سرح ابنه إلى عثمان ، وطلحة قد سرح ابنه كذلك .

خرج القوم بعد سوء الرد من على وطلحة والزبير وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم على ثلاث مراحل من المدينة كي يفرق أهل المدينة ثم يكروا راجعين . فلما افرق أهل المدينة لرجوعهم وظنوا أن الأمر قد انتهى . لم يفجأ أهل المدينة إلا بالقوم يكبرون فى نواحيها ، قد كروا عليهم فبغتهم ونزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم .

جاء على إلى أهل مصر فقال : ما ردكم إلينا ؟ فقالوا أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا . وقال أهل البصرة لطلحة مثل ذلك . أى أن أهل مصر قد أخذوا بريداً بقتلهم ، وكذلك أهل الكوفة للزبير . وقال أهل الكوفة وأهل البصرة : جئنا ننصر أخواننا ونمنعهم جميعاً . فقال على : كيف علمت يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لى أهل مصر وقد سرتهم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة . فقالوا : ضموه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل ليعزلنا .

وكان عثمان في ذلك الوقت يخرج إليهم ويصلي بهم ويصلون خلفه ولا يمنعون أحداً من الاجتماع به ولا يمنعون أحداً من الكلام ، ولكنهم كانوا يسرون زمراً أشبه بالدوريات في طرق المدينة يمنعون الناس من الاجتماع .

وكتب عثمان إلى الأمصار يستمدهم (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً فبلغ عن الله ما أمر به ثم مضى وقد قضى الذي عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه . ثم أدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة . ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب منى ولا محبة فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع متبعاً غير مبتدع مقتدياً غير متكلف . فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجماع ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر . فعابوا على أشياء مما كانوا يرضون وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها فصبرت لهم نفسى وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله عز وجل جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمة وأرض الهجرة وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون ، فن قدر على اللحاق بنا فليلحق) .

أتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعوبة والذل . فأرسل معاوية ابن أبي سفيان حبيب بن سلة الفهرى بعد تريت . وبعث عبد الله بن أبي سرح من مصر معاوية بن حديج السكونى وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو وقام في كل بلد محضون يحضون الناس على إغاثة أهل المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان غير أن هؤلاء المغشين لم يدركوا لأن الغزاة أنفذوا أمرهم قبل الغوث .

جاء القوم إلى على وقالوا له : إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل . قم معنا

إليه فقال : والله لا أقوم معكم . قالوا فلم كتبت إلينا . فقال علي : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط فنظر بعضهم إلى بعض .

والذى يظهر من ذلك . أن من كان بالمدينة ردها لأهل الفتنة كانوا يكتبون إلى أهل مصر بأن علياً معهم في الرأي وأن التدبير بإذنه وعلمه فكان المفسدون يتذرعون باسمه لتهيج الناس وإشغال قلوبهم بالخاسة فيما هم بصدده ، ولا يعد أن تكون الكتب ترسل باسمه إلى مصر ولا يعلم .

وقد كان عمرو بن العاص بالمدينة يؤلب علي عثمان ، وقد جاءت رواية عنه أنه كان يؤلب عليه حتى الراعى في غنمه في رأس الجبل . فلما كان أول الحصار خرج من المدينة إلى فلسطين في ناحية السبع حتى جاءه حبر قتل عثمان .

دخل المصريون على عثمان ومعهم الكتاب الذى زعموا أن فيه قتلهم . فقالوا : كتبت فيما بكدا وكذا فقال : إنما هما اثنتان : أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبت ولا أملك ولا علمت . وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم . فقالوا قد والله أحل الله لنا دمك ونقضت العهد والميثاق .

عمل على وعمل مروان مع الخليفة عثمان

كان لما جاء القوم لأول مرة وخشى عثمان شرهم شاع أنهم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع . فجاء إلى علي بن أبي طالب فقال : يا ابن عم ، إنه ليس لى مترك وإن قرابتي قريبة ولى حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم وتردهم عنى فإنى لا أحب أن يدخلوا ، فإن ذلك جراءة منهم على ويسمع بذلك غيرهم . فقال علي : علام أردهم ؟ فقال : على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيت لى ، ولست أخرج من يدك . فقال علي : إني كلنتك مرة بعد مرة ونقول ونقول وكل ذلك فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية

أطعتم وعصيتني . قال فإني أعصيه وأطيعك . فركب على وركب معه المهاجرون والانصار وما زالوا بالقوم حتى رجعوا كما قدمنا وأبى عمار أن يخرج مع من خرج . فلما رجع القوم عاد على إلى عثمان وكلبه كلاماً في نفسه وقال له تكلم كلاماً يقره الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإناة فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركبا آخرين يقدمون من الكوفة فنقول يا على اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً ، ويقدم آخرون من البصرة إلخ ، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحلك واستخففت بحمك .

فخرج عثمان فخطب خطبة نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة فقال : أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ولكن مننتي نفسي وكذبتني وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من زل فليتب ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة إن من تدامى في الجور كان أبعد من الطريق . فأنا أول من اتعظ . استغفر الله بما فعلت وأتوب إليه . فثلى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لاستتن بسنة العبد ولا ذلن ذل العبد ولا كون كالمرقوق ، إن ملك صبر وإن أعتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه . فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلى لئن أبت يميني لتابعن شمالي — فرق الناس له وبكوا — فلما نزل وجد في منزله مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية ولم يكونوا شهدوا الخطبة : فقال مروان يا أمير المؤمنين أتكلم أو أسكت ؟ فقالت نائلة زوج عثمان بل أسكت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه إنه قد قال مقالة لا ينبغي أن ينزع عنها . فقال عثمان تكلم . فقال مروان بأبي أنت وأمي لوددت أن مقاتلك هذه كانت وأنت تمتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطيبين وخلف السيل الزبي وحين أعطى الخطبة الدليلة الدليل . والله لإقامة على معصية تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عايبها وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة وقد اجتمع إليك على الباب أمثال الجبال

من الناس . فقال عثمان اخرج إليهم فكلهم فإني أستحي أن أكلهم .

عند ذلك خرج مروان إلى الباب فقال ماشأنكم ، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شأنت الوجوه . كل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا . أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدون غب رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا .

سمع الناس ذلك فرجعوا وذهب بعضهم إلى علي وأخبره الخبر فجاء مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرّكك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظليّة يقاد حيث يصار به ، والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا في نفسه ، وأيم الله لأراه سيوردك ثم لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعانتك ، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك - فلما خرج علي دخلت على عثمان نائلة زوجه فقالت أتكلم أو أسكت ؟ قال بل تكلمى ، فقالت قد سمعت قول علي لك وإنه ليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء قال فما أصنع ؟ قالت تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع من صاحبيك من قبلك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك الناس لمكان مروان فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى - فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه وقال : قد أعلمته إنى لست بعائد - وبلغ مروان مقالة نائلة فيه ، فجاء إلى عثمان وقال - بعد أن أذن له - إن بنت الفرافصة فقال عثمان لا تذكرها بحرف فأسوء لك وجهك فهي والله أنصح منك - وخرج عثمان بعد ذلك حتى أتى علياً وسأله أن يؤازره ولا يخذله لما له من حق القرابة والنصرة فأبى عليه على ذلك وذكره بما كان منه من عصيانه والإصغاء إلى مشورة مروان فقام عنه عثمان منكراً يقول : خذلتنى وقطعت رحى .

وقد قدمنا أن العائدين من أهل الشغب من الأمصار الثلاث لما عادوا دخل

المصريون المدينة وغلبوا أهلها على أمرهم وكان عثمان يخرج من بيته فيصلي بهم لا يمنونه ذلك - فلما جاءت الجمعة بعد دخولهم المدينة ودخول المصريين بها خرج عثمان فصلي بالناس وكأنى به في ذلك الوقت قد أراد أن يظهر من الضعف قوة ومن الوهن جلدأ ليقذف الرعب في قلوب المشاغبين فقام على المنبر وقال يا هؤلاء العدى . الله الله . فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاحموا الخطايا بالصواب فإن الله عز وجل لا يمحو السىء إلا بالحسن فقام محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك - فأخذه 'حكيم' بن جبلة فأقعدته . فقام زيد بن ثابت فقال ابغنى الكتاب . فسار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيبة فأقعدته وقال فأفطع . وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس وحصبوا عثمان حتى صرعوه عن المنبر مغشياً عليه فاحتمل حتى أدخل داره . وكان المصريون لا يطعمون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر وهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر . وشمر ناس من المسلمين فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن علي فأرسل إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا ، فانصرفوا ، وأقبل علي ، حتى دخل على عثمان يعوده من صرعته ، وفعل مثل ذلك طلحة والزبير .

ومكث عثمان يصلي بهم إلى عشرين يوماً من نزوله عن المنبر في رواية الحسن ، وإلى ثلاثين يوماً على رواية سيف عن مشايخه ثم إنهم منعه الصلاة فصلي بالناس أميرهم الغافقي . دان له المصريون والكوفيون والبصريون وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم وكان الحصار أربعين يوماً . وفيه كان القتل ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفون .

من ذلك كله نجد أن عثمان كان في أخريات أيامه كالميت في يد الغاسل بين يدي مروان وبطانته من بنى أمية . فكان إذا أعطى الناس من نفسه ووعدهم بالإقلاع عما نعموا منه والنزول عند ما أحبوا وعاد إلى بيته ، فثله مروان في الذروة والغارب حتى يرده عما بسط آمالهم فيه وقبض يده عما بذل لهم من

المعدله وإزاحة العلل . وكان بنو أمية ومنهم مروان يشقون بالمغيثة من الأمصار ويريدونه على مطاولة القوم حتى يأتى المغيثون ويستأصلوا أهل الفتنة ويلتمسون الوسائل للمطاولة جهد استطاعتهم . وكان استبطانه لهؤلاء الرهط من بنى أيبه يثير عليه النفوس ويزيد فى الاضطغان عليه . فكان على الحقيقة موجوداً بين عدوين : عدو داخلى يدفعه إلى المكاره وركوب المركب الخشن بغير رفيق ولا شفقة وعدو خارجى لا يرضى منه بالمعاذير ولا يقنعه إلا نفض يده من الخلافة وتركها شورى بين المسلمين ليختاروا لأمرهم من أحبوا - أو أن يسلم إليهم بعض بطائنه وخلصائه من ذوى قرابته ليشتفوا منه بالجزاء الذى يستحقونه على جناية يزعمون أنها وقعت من ذلك البعض - وهو مروان بن الحكم - يزعمون أنه افعل كتاباً من عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح يأمره بضرب بعض رؤساء المصريين أو جلدهم والتثيل بهم وفى ذلك هلاك مروان إذا استمكنوا منه . والثالثة دمه يريقونه .

وكان بنو أمية يرون الشر مقبلاً عليهم ونازلاً بهم والموت برقب شيخهم مصبحه وممساه وأهل الفتنة غير تاركيه وأهل المدينة بين مؤلب وساكنت وخاذل وهم مع ذلك لا تأخذهم الرأفة بهذا الشيخ الفانى ولا يريدونه على استبقاء حياته والعمل لما فيه حقن دمه، مع توفر الذرائع وإمكان الوسائل لو أرادوها . ولعل ذلك كان ضعفاً فى رأى واغتراراً باسم الخلافة وما كان له من الروعة والحرمة فى سالف الزمن ، غافلين عن أن اسم الخلافة فى أخريات أيام عثمان صار حامله من المهانة والذلة بحيث لا يدفع عن نفسه ولا يقوم بالذنب عنه أحد . ومن الخذلان الاغترار بذلك بعد أن بصرع الخليفة عن منبر رسول الله بأيدى الغوغاء والمفتونين ولا يغير ذلك المهاجرون والأنصار .

الحصار وما كان فى أيامه

لا شبهة فى أن الحاصرين ما كانوا يريدون فى بدء أمرهم من عثمان سوى أن ينزع من الخلافة يده لتفضى بعد ذلك إلى من يريدون ، ولو أن عثمان طابت نفسه ببيعيتهم لانصرفوا إلى أمصارهم مغتبطين بما أدركوا - ولعلمهم كانوا

لا يتوقعون من عثمان الاستمسك بالأمر إلى الحد الذي انتهى إليه - ولعلمهم كانوا يظنون أيضاً أن أعلام أصحاب رسول الله بالمدينة كانوا يبادرون إلى حسم مادة الفتنة بحمل عثمان على الخروج من الأمر تلافياً للفرقة وتحاشياً من سفك الدماء . فكان الأمر على غير ما قدروا وطالت مدة الحصار .

إن أمور الفتن إذا دُبرت لا يجهر مدبروها بأسرارهم ولا يذيعونها على الجمهور وهم في الغالب يسترون ما أجنشوا ويغشون الدعوة بغشاء جميل والمصريون الذين دبروا هذا الشغب ، وكذلك بقية أهل الأمصار ، قد ألبسوا دعوتهم لباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أمر يلذ سماعه لأهل التقوى وتُسْتَفَزَّ به قلوب أهل الصلاح وهم في الغالب أهل طهارة أخلاق وسلامة ضمير فيندفع كثير منهم في غمار الناس ولا قصد لهم إلا التعاون على البر والتقوى . ومن هذا القليل كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع المصريين مثل عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نزل القوم ذا خشب في قدمتهم الأولى كان فيها كتبوا به إلى عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإله الله ثم الله الله . فإنك على دنيا فاستم إليها معها آخرة ولا تَكْبِسْ نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . واعلم والله أنا لله نغضب وفي الله نرضى وأنا لن نضع سيفنا عن عواقبنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مُجَلَّحة مُبْلَحة فهذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك . والسلام . »

وقد علمنا أن القوم حين ردوا إلى أمصارهم عادوا إلى المدينة على حين غفلة من أهلها . وقد ذكر صاحب أشهر مشاهير الإسلام وغيره أن المصريين زعموا أن عبد الله بن سعد كان قد ضرب رجلاً ممن كانوا شكوه إلى عثمان حتى قتله . فلما جاءوا في قدمتهم الأولى شكوا ذلك إلى عثمان وإلى أعلام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه أمهات المؤمنين وقد ألحوا على عثمان

بأنصافهم فقال: اختاروا رجلاً أوله مصر عوضاً عن عبدالله بن سعد فاختاروا محمد بن أبي بكر فولاه عثمان مصر كما طلبوا . فلما خرج علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لرد أهل الأمصار إلى أمصارهم بالوعد من الخليفة أن يفعل ما يحبون ويرجع عما يكرهون سار جمعهم ثلاثاً ثم كروا راجعين إلى المدينة محتجين بأنهم (المصريين) أخذوا بريداً إلى عبد الله بن أبي سرح بقتلهم أو جلدهم إلى آخر ما ذكروا ، وإن البريد علام عثمان على جله وإن الخط خط كاتبه وإن الختم ختمه وإنه بذلك قد أحل لهم دمه وإن أهل البصرة قد رجعوا لنصرة إخوانهم المصريين ومنعهم وشد أزرهم .

وإذا صحت هذه الرواية وأنهم وجدوا البريد على الصفة التي قالوا ، فإني لا أستبعد أن يكون مدبروا الفتنة من المصريين قد وجدوا في أثناء مقامهم بالمدينة من يستدخلونه على بطانة عثمان بن عفان ويتدسس لهم حتى كتبوا هذا الخطاب وأوردوا به البريد ، وعلم كل هذه الحركات والسكات كان عدم سر ذلك عند إخوانهم من أهل المصريين فلما تلقفوا الكتاب الذي دبروه عادوا وفي أيديهم حجة قوية تبرر ما يطلون ويتقنون بها لوم اللاتمين .

قال الطبري في رواية : وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما لزمه من حق الله ، فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته . فقال لهم : قد صنع ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟ فأشار عليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب يطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليرضيهم حتى تأتيه أمداده . فقال : إن القوم لن يقبلوا التعليل - وهي محمل - وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان فمتى أعطيهم ذلك يسألوني الوفاء به . فقال مروان : يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكائرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنهم بغوا عليك فلا عهد لهم .

أرسل عثمان بعد ذلك إلى علي . فلما جاء قال : يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي . فقال له علي : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وإن أرى قوما لا يرضون إلا بالرضى . وقد كنت أعطيهم في قدمتهم الأولى لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشيء من ذلك . فلا تغرنى هذه المرة من شيء فإنني معطيهم عليك الحق . قال : نعم ، فأعطيهم فوالله لأفنين لهم ، فخرج علي إلى الناس فقال : أيها الناس ، إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه . إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون ، فاقبلوا منه ووكدوا عليه ، فقال الناس قد قبلنا فاستوثق ، نه لنا فإننا والله لا نرضى بقول دون فعل ، فقال : ذلك لكم . ثم دخل عليه فأخبره . فقال : اضرب يدي وبينهم أجلا يكون لي فيه مهلة ، فإنني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد . فقال علي : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك . قال : نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام . قال علي : نعم . وخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك . وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار .

فكف القوم عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه . وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جنداً من رقيق الخنس . وخرج عمرو ابن حزم الأنصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خُسب حتى قدموا المدينة . فأرسلوا إلى عثمان : ألم تفارقك على أنك زعمت أنك تائب من أحداثك وراجع عما كرهنا منك وأعطينا على ذلك عهد الله وميثاقه ؟ قال : بلى ، أنا على ذلك . قالوا : فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبت به إلى عاملك ؟ قال : ما فعلت ولا علم لي بما تقولون . قالوا : بريدك على جملك

وكتاب كاتك عليه خاتمك . فقال : أما الجبل فمسرور وقد يشبه الخط الخط والخاتم ينقش على الخاتم . قالوا : فإننا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك . فاعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظلمتنا . فقال عثمان : ما أراى إذا فى شىء . إن كنت أستعمل من هو يتم وأعزل من كرهتم ، الأمر إذا أمركم . قالوا : والله لنفعلن أو لنعزلن أولتقتلن ، فانظر لنفسك أو دع . فقال : لم أكن لأخلع سربالا سربليه الله . اهـ .

والظاهر أن اختلاف القوم إليه وعرضهم المطالب عليه فى مدة الحصار كان كثيراً ، وكذلك اختلاف الصحابة وإعلامهم إليه وعرضهم مطالب القوم عليه والأخذ والرد فى ذلك كان كثيراً متكرراً . دعا عثمان فى تلك المدة بالاشتراك فقال : يا أشر ما يريد الناس منى ؟ قال : ثلاثاً ليس من إحداهن بد . قال ما هن ؟ قال يخبرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فنقول هذا أمركم فاختروا له من شئتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك . فقال : أما من إحداهن بد ؟ قال : ما من إحداهن بد فقال : والله لأن أئدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أخلع قميصاً قصنيه الله وأترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض . وأما أن أقص من نفسى ، فوالله لقد علمت أن صاحبي بين يدي كما يعاقبان ، وما يقوم بدنى بالقصاص . وإما أن تقتلوني . فوالله لئن قتلتموني لاتحابون بعدى أبداً ، ولاتصلون جميعاً أبداً ، ولاتقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً .

كان على حين رجوع الشاغبون إلى المدينة وقد قال لعثمان وقال له ، تبرم عثمان بمكاهه . فخرج على من المدينة إلى خيبر فأقام بها ، فلما رأى عثمان شدة القوم عليه وعجز بنى أمية عن مدافعتهم عنه وأن أهل المدينة خاذلوه عول على استقدام على فكتب إليه بما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، وهو : أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطيين وبلغ الأمر بي أشده ، ثم تمثل بهذا البيت :

فإن كنت ما كولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق
وقد رأيت لخطابه صورة أخرى وهى : أما بعد فقد بلغ السيل الزبى ،
وجاوز الحزام الطيين وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره . وزعموا أنهم
لا يرضون دون دمي وطمع فى من لا يدفع عن نفسه

وإنك لم يفجر عليك ككفاجر ضعيف ولم يغلك مثل مغلب
وقد كان يقال : أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل على أولى -
وفي رواية فأقبل إن صديقاً كنت أو عدواً -

فإن كنت ماكولاً فكن خيراً آكل وإلا فأدركني ولما أمزق
وكان طلحة قد تألف الناس في غيبة علي ، وهم يصدرون عن أمره سرّاً .
فلما جاء علي وطلب إليه صرف الناس عنه . ذهب إلى طلحة في خلوة من الناس ،
وقال له : يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ؟ فقال يا أبا الحسن بعد مامس
الحزام الطيبين . فأنصرف علي إلى بيت المال وأعطى الناس . فأنصرفوا عن طلحة
وانفضوا من حوله وسر عثمان بذلك ، وجاء طلحة إلى عثمان نائباً فقال : والله
ما جئت نائباً ولكن جئت مغلوباً ، فالله حسبك يا طلحة .

اشتد الحصار على عثمان حتى منعه الماء ولما أجهده العطش أرسل إلى علي
وأزواج رسول الله وإلى غيرهم فحاولت أم حبيبة زوج رسول أن تخلص إليه
بماء فلم تقدر على ذلك . ولما سألوها عن دخولها على عثمان ، قالت : إن وصايا
بني أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال
أيتام وأرامل ، فقالوا : كاذبة ! وأهروا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت
بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتملقوا بها وأخذوها وقد كادت
تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها . وتجهزت عائشة للحج هاربة واستتبت أخاها
فأبى . فقالت : أما والله إن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن . ولام
حنظلة الكاتب محمد بن أبي بكر في أن تدعوه عائشة أخته إلى الحج فيأبى ويجيب
ذؤبان العرب ويتبعهم إلى مالا يحل فقال ما أنت وذاك يا ابن التيمية . فقال :
يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف ،
وأنصرف وهو يقول .

عجبت لما يخوض الناس فيه يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً

وكانوا كاليهود أو النصارى سواء. كلهم ضلوا السبيلا
ولحق الرجل بالكوفة ، وقد كانت عائشة ممتلئة غيظاً على أهل مصر^(١) . وهي
وإن كانت ممن يقول في عثمان وكانت تغضب لما يلقيه الشاغبون وتأتى به
الإشاعات إلا أنها لم تكن تظن أن الأمر يبلغ إلى هذا الحد . وجاءها مروان
ابن الحكم فقال : يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل .
فقلت : أتريد أن يصنع بي كما صنع بأُم حبيبة ثم لا أجِد من يمنعني ؟ لا والله ، ولا
أعير ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

أما على فلما رأى عثمان قد منع من الماء فجاء إلى القوم في الغلس وقال : يا أيها
الناس ، إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين . لا تقطعوا عن
هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض لكم
هذا الرجل فيم تستحلون حصره وقتله ؟ قالوا لا والله ولا نعمة عين لا تركه
بأكل ولا يشرب فرمى على بعمامته في الدار ليعلم عثمان أنه قد نهض فيما
أنهضه . وقد علم طلحة والزبير بما لقى على وأُم حبيبة فلزما بيتيهما ولم يحاولا
إيصال شيء من الماء إليه .

وفي أثناء الحصار أرسل عثمان عبد الله بن عباس ليحج بالناس . ثم أرسل
إليه بكتاب يقرأ على الناس يوم الحج الأكبر يعلمهم بما هو فيه من الحصار
الشديد وأن الناس يطلبون دمه ولا يرضون بدونه ويستنهض من يريد نصرته
على اللحاق بالمدينة لتفريج كربهم ، ففعل . وجعل عثمان لا يجد إلا قليلاً من
الماء يؤتى به إليه من دار آل حزم في غفلات ، لأن القوم كانوا يرقبون
دار آل حزم .

أشرف بعد ذلك عثمان على الناس لما منعه من الماء وسلم على الناس فلم
يرد أحد عليه سلامه . فقال أنشدكم بالله هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة
من مالي يستعذب بها فجعلت رشائي منها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قالوا نعم .
قال فما يمنعني أن أشرب منها ؟ ثم قال : أنشدكم بالله هل علمتم أني اشتريت كذا

(١) والذى أطمه اها أحست ميل بعض أهل الشعب إلى على ، فخرمت عنكهم كرامة لعل .

وكذا من الأرض فزدته في المسجد ؟ قيل نعم . قال : فهل علمتم أحداً من الناس منع الصلاة فيه قبلي ؟ ثم ذكر لهم أموراً أخرى كانت من رسول الله له فجعل الناس يقولون مهلاً عن أمير المؤمنين . وكانوا إذا سمعوا الموعظة لأول مرة رقت قلوبهم فإذا تكررت لم تكن لتؤثر فيهم .

استمر الحصار مشتداً إلى أن علم القوم أن الحاج كادوا يعودون ووصل إليهم فصول من أهل الأمصار لنصرة عثمان وكان أهل الشام قد اتسألوا قليلاً فأشفق أهل الفتنة أن يفجأوا بالمغيثة قبل أن يخلصوا إلى أمر وأيقنوا أنهم إن انصرفوا عنه دون أن يفوزوا بطلبهم فقد استهدفوا للبلاء وتعرضوا للحتوف فجذبوا في أمرهم وأرادوا قتل عثمان فدافعهم من كانوا في الدار : الحسن بن علي ، وعبد الله بن الزبير وابنا طلحة وغيرهم من وطنوا أنفسهم على نصرة عثمان . فأحرقوا باب الدار وكف عثمان من معه عن القتال وعزم على كثير منهم في الانصراف إلى بيوتهم فانصرف أكثرهم وكانت مناوشات بين بعض من في الدار وبين المشاغبين كروان وعبد الله بن الزبير وغيرهم . وأراد القوم المعاجلة فدخلوا على عثمان من دار جيرانه آل حزم وكانوا جماعة فيهم محمد بن أبي بكر الذي تقدم إليه مريداً قتله فأمسك بلحيته يؤنبه ويحركها في يده ، فذكره عثمان بأبيه وأنه ما كان أبو بكر ليجلس هذا المجلس من عثمان . فلم يصع شيئاً . وتقدم الغافقي فضربه بحديدة كانت معه . وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت عليه زوجته نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها . فتعمدها ونفخ أصابعها فأطن أصابع يدها . ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه — ثم قالوا ما كان دمه ليحل لنا دون ماله فانتهبوه وأداعوا حرقه بالمدينة وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله ثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤم

هذا وقد قدما أن مدة الحصار كانت أكثر من هذا ، ولعل ما هناك عدد للحصار على عمومهم ، وأما عده اثنين وعشرين يوماً فهو شدة الحصار

ما قعد بأهل المدينة عن نصر عثمان

أليس عجيباً أن يأتي جماعة من أمصار مختلفة إلى عاصمة الخلافة ودار الهجرة وجوار رسول الله يتألبون على الخليفة ثم يحصرونه وينتهي الأمر بقتله ولا ينتطح في هذا الأمر عنزان ! مع طول مدة الحصار وانفساح أجله وامتداد الزمن واتساعه لعمل ما يمكن ؟ فما الذي قعد بالمهاجرين والأنصار عن نصرته ، والعمل على كف الأيدي عنه ؟ .

والذي أقوله إن عثمان قد جراً القوم على نفسه وأطمعهم في جانبه بما كان عنده من الرأفة واللين وما رهقه من ضعف الشيخوخة وبما كان منه من الأمور التي خالف بها الخليفين قبله . ولا يجد عنها جواباً مرضياً ولا مقنعاً - وقد كان في مقدور المهاجرين والأنصار لو كانوا راضين عنه أن يمنعه من أراد به بسوء ويبددوا جموع المصريين الذين تولوا كبر هذا الحادث المشؤم ، وما كان المصريون - وهم لا يزيدون عن ألف - ليعجزوا أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين والأنصار لو كانت قلوبهم مع عثمان .

لا يعزب عنكم ما قدمته من أنه كان في المدينة قوم يريدون الظهور على حساب العتق والتقلبات ، وآخرون من دونهم يرون الخليفة حائلاً بينهم وبين الأعمان والإمارة ، وبرونه يتخطاهم بها إلى ذوى رحمه وقرابته ممن لم تقدمهم ولم تكن لهم سابقة ولاقدمة .

أضف إلى ذلك أموراً : منها أن عثمان لم يستن بسنة عمر في الاستشارة وأخذ رأى أعلام المهاجرين والأنصار في كل جليل ودقيق من أمور المسلمين العامة ، بل كان عثمان يفضي بنصيحته واستشارته إلى بنى أمية وهم مسبوقون غير سابقين ويقتدى بأرائهم وينتهي إلى مشورتهم . فلما رأى أعلام الصحابة وأهل الرأي أنه أخرهم وفيهم أضراجه ومن لا يرون له عليهم فضلاً ، وأنهم صاروا عنده كقدح الراكب ، أشفقوا أن يكون الأمر إثرة واحتكاراً وأن يجعل أمر المسلمين إلى بنى عمومته من بعده فاضطغت لذلك القلوب عليه وارتخت الأيدي عن نصرته .

كان أعلام الصحابة يرون أنه يفرض الولاية على أهله دونهم ودون أبنائهم وإن تفضيل قرابته إنما كان لقرابتهم منه ، ويرويه يصل رحمه على حساب المسلمين ويجعل الأمر دولة في بني أبيه . ويرون أنه يختصهم بالنقل من الأخماس ولا يفعل ذلك مع غيرهم . ويعطى مروان الآلاف من مال المسلمين ولا يفعل ذلك مع أحد سوى قرابته . وهو في كل ذلك لا يرد الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين كما كان يفعل عمر .

لهذا كله كان أهل المدينة — إلا نفرًا منهم — يصيخون بأذانهم إلى شكاية الشاكين وصخب الصاخبين ويميلون إلى موازرتهم على ما يشكون منه ولا ينكرون عليهم شكواهم . وكثير منهم كانوا يقعون في عثمان وفي بني أبيه من بني أمية ويجهرون له بذلك ويتوعدونه بالنكال . وكانوا يلمزونهم باللقاب تحقيرًا له فكانوا يسمونه نعثل ، وهو اسم رجل قبضي طويل اللحية كان بالمدينة . فكانوا يشبهون عثمان به في طول لحيته تحقيرًا له .

مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو في ندى قومه وفي يد جبلة جامعة فسلم فرد القوم إلا جبلة ، فقال جبلة : لم تردون على رجل فعل كذا وكذا . ثم قال يانعثل والله لا تقتلك ولا أحملك على قلوب جرباء ولا طرحن هذه الجامعة في عنقك أولتتركن بطانتك هذه . فقال عثمان : أى بطانة ؟ فوالله إني لا تخير الناس . فقال : مروان تخيرته ومعاوية تخيرته وعبد الله بن عامر تخيرته وعبد الله بن سعد تخيرته ، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، فأنصرف عثمان وقد اجترأ عليه الناس بعد ذلك . قال الطبرى : ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأزله .

وقد خطب عثمان في بعض أيام الفتنة . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت نهاير وركبتنا معك فتب تنب . ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس فقام إليه جهجاه الغفارى فصاح : يا عثمان ألا إن هذه شارف قد جئنا بها ، عليها عبادة وجامعة فانزل فلندركك العبادة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشارف ولنطرحك في جبل الدخان . فقال عثمان : قبحك الله وقبح ما جئت به . وكان ذلك عن ملأ من الناس .

وكان الشاغبون يحتجون على عثمان بأمور ذكرنا بعضها ضمن رد عثمان ونورد هنا أشهرها مجتمعا ليكون القارئ على ذكر منها :

- (١) إقامة الصلاة في منى وعرفة مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه كانوا يصلونها على القصر (٢) زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة (٣) إخراج أبي ذر من الشام والمدينة إلى الربذة (٤) سقوط خاتم رسول الله من يده في بئر اريس (٥) إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية وما كان من الوليد بن عقبة من شرب الخمر (٦) صلته لأهله وبني عمه بالأموال وإقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس (٧) استنثاره برأيه ورأيهم وترك المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم (٨) أنه أعطى مروان خمس غزوة إفريقية (٩) أنه وصل عبد الله بن خالد بن أسيد بأربعمائة ألف درهم (١٠) أنه أقطع الحارث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين (١١) أنه أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف درهم (١٢) أنه زوج الحارث بن الحكم بنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال (١٣) أنه حمى الحمى حول المدينة إلا عن بني أمية (١٤) أنه رد الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم (١٥) مجاوزته الخيزران إلى السوط وهو أول من استعمل السوط وضرب به ظهور الناس (١٦) تطاوله في البنيان حتى عدوا سح دور بناها بالمدينة : لئالة زوجه دار ولعائشة بنته دار ، ولغيرها من أهله وبناته كل دار (١٧) ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من أضلاعه .

ولا شك في أن هذه الأمور بعضها كان يحقده عليه المهاجرون والأنصار وأهل المدينة وقد ولع به الشاغبون وأتوا الناس من الناحية التي يحبون سماع القول منها وكان ذلك سبباً لخذلان أهل المدينة إياه .

إن عثمان له عذر في كل شيء أحذوه عليه غير أن من الأعذار ما يكون وجهه واضحاً بيناً ، ومنها مالا تقبله النفوس إلا على مضض وهم إنما كانوا

يريدون منه في كل ما انقموا عليه أن يسير فيهم بسيرة عمر بن الخطاب وأبي بكر حتى لقد نصحته أم سلمى زوج رسول الله بكلام طويل فقال لها : يا أمنا قد قلت فوعيتُ ونصحتُ فاستوصيتُ . إن هؤلاء النفر رعا غثرة تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح الدلاء وتلدت لهم تلدد المضطر فأرانيهم الحق إخواناً وأراهموني الباطل شيطاناً . أجزرت المرسون منهم رسنه وأبغلت الرائع مسقاه فانفروا على فرقات ثلاثا فصامت صمته أنفذ من صول غيره ، وساع أعطاني شاهده ومنعني غائبه ، ومرخص له في مده رينت على قلبه . فأنا منهم بين ألسن لداد وقلوب شداد وسيوف حداد . عذيري الله ، ألا ينهى منهم حلیم سفيها ولا عالم جاهلا والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيتعذرون . وعلى الجملة فإن قلوب أهل المدينة كانت عامرة بغيضه ولولا ذلك لوجد من يجيد الطعان ، ويغضب لأمير المؤمنين أن يعتريه بالأذى هؤلاء الفجار الأشرار .

غير أن نفسى غير مطمئنة إلى أن يبلغ الغيظ بأصحاب رسول الله من عثمان عليه أن يخلوا بينه وبين الشاغبين يريقون دمه ويتذامرون عليه بالإثم والعدوان تذامر الإيسار على الجزور . وأن الأمر لكما قال عثمان لعلي : « لولا أن الأمر أمر الجاهلية فقط ولم يكن الإسلام والأخوة لكان حقا عليك أن تنصرني ولا تخذلني » .

فعثمان وقع بين عوامل كثيرة : (١) الشاغبون وهم لا يتركون ما في رؤوسهم دون إنفاذه لأن فشلهم خطر عليهم (٢) أهل المدينة وهم بين خاذل وساكنت راض ومسيل منهم يؤلبون ويعاونون عليه (٣) بنو أمية وهم يريدونه على المطاولة إلى أن يصل المغيثون ويحملونه على نقض ما أبرم ، وكلما رأى طريقا للتفريج لا يحبونها حملوه على سدها (٤) عثمان بمطاوعة بطانته وإحجامه عن إعطاء القوم ما أرادوا وإبائه عن النزول عن الخلافة وإلقاء الأمر يدبرونه كما يشاءون وكان في ذلك صيانة دمه — ولقد كان له فيما أشار به عليه المغيرة بن شعبة مناص مما لقي لو قدر الله له ذلك ، فإن المغيرة

ابن شعبة لقي عثمان وهو محصور ، وقال له : يا أمير المؤمنين إنك أمام العامة وقد نزل بك ما ترى . وإنى أعرض عليك خصالا ثلاثا اختر إحداهن : إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل . وإما أن تحرق لك بابا سوى الباب الذى هم عليه ، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها . وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان : أما أن أخرج فأقاتل ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بسفك الدماء . وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني بها فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ، فلن أكون أنا . وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فلن أفارق دار هجرتى ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إجمال الأسباب التى أدت إلى قتل عثمان

بعد ذلك التمهيد الذى قدمناه بين يدي قتل الخليفة عثمان بن عفان وشرحنا به أحوال الأمصار الإسلامية التى كانت سبيل تلك الفتنة أو كان السببى يستندون إلى شيء كان فيها ، أرى أن أجمل أسباب قتل عثمان التى يمكن أن تستنتج من الحوادث والوقائع والأحوال التى قدمنا ليسكون القارىء على ذكر منها .

السبب الأول من الأسباب التى أفضت إلى قتل عثمان اختلاف رؤساء المسلمين فيما بينهم وتطلع الباقيين من أهل الشورى كل ليجذب الأمر إلى نفسه ، واختياره عمن عداه بسبب ما وجدته كل واحد منهم من شيمة تؤيده وتحطب حبله وتريده عليها فلم يدفعوا عنه دفاعاً صحيحاً ولم يخذلوا عنه ، بل كان الساكن منهم يقرأ القارىء فى طي هذا السكوت منه كتباً مطولة - ولم يكونوا على اتفاق فيما بينهم وبين عثمان ولا على اتفاق فيما بينهم وبين بعضهم . ومعلوم أن الأمم والجماعات إنما تدار أمورهم العامة برؤوس قليلة وبقية الناس لهم تبع - فإذا لم تكن هذه الرؤوس متحدة فى المبدأ والغاية صدرت الأعمال متنافضة متعاكسة بعيدة عن النفع والعلاج

وأن اختلاف رؤساء المسلمين وعدم الاخلاص فيما بينهم هو الذى أفسح مجال الدسائس والسعيات ، فإن إخلاص الرؤساء بعضهم لبعض وتعاونهم فيما بينهم على قضاء المصالح العامة يقطع على مريد السوء والفساد طريق الفتن والثورات فأما إذا انصدع الشمل وتحولت القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر ، انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كانت الحال فى المدينة وهى حاضرة الخلافة ومجتمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فإن من وقف على أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة فى حق عثمان سواء فى وجهه أو فى غيبته يحكم صادقا أن النفوس كانت منطوية على الضغن له . لذلك أفسحوا للأقوال فى عثمان المجال ولم ينه بعضهم بعضاً عن ذلك وكان بعضهم يكتب السبينة وأهل الشغب ويستقدمهم إلى المدينة . وما كان يليق بأمثالهم أن يجعلوا معولهم على أهل الشقاق دون الأعلام من أصحاب رسول الله الذين فى الأمصار . ولكن الذين كتبوا يستقدمون أهل الشقاق إنما آثروهم لأنهم يعلمون أن أعلام أصحاب الرسول فى الأمصار يكونون أكثر تثبنا وأقل أقداما على ما يحل . وهم وإن كانوا يكتبون فى الكتب الاستغاثة بأصحاب رسول الله غير أن كتبهم إنما كانت ترد على فئة خاصة مشافة قلما يكون فيها واحد أو اثنان من أصحاب رسول الله .

ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن حويطب بن عبد العزى قال أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدالى أن أتهم نفسى لهؤلاء فأت عليا وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم تولوه واهضعوا فيه ما شئتم . فخرجت حتى جئت عليا فوجدت بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد . ثم انصرفت فأتيت الزبير فوجدته فى منزله ليس ببابه أحد فأخبرته بما أرسلنى به عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين هل جئت عليا ؟ قلت نعم فلم أخلص إليه . فقمنا جميعا فأتينا طلحة بن عبد الله فوجدناه فى داره . وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين . هل جئتم عليا ؟ قلنا نعم فلم نخلص إليه ، فأرسل طلحة إلى الأشر

فأتاه فقال أخبره فأخبرته بما قال عثمان . فقال طلحة - وقد دمعت عيناه - قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين . فقام الأشتر فقال : تبعثون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا . فأخرج كتابا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين . أما بعد أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها . فإن كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت وأحكام الخليفين قد بدلت فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلا أقبل إلينا وأخذ الحق لنا وأعطاناه فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذى فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء . غلبنا على حقنا واستولى على وينا وحيل بيننا وبين أمرنا وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة وهى اليوم ملك عضوض من غلب على شيء أكله ، أليس هذا كتابكم إلينا ؟ وقال الطبرى إن عثمان رعى توصيته إلى الزبير فأخذها وانصرف - وفى الزبير خلاف هل أدركه مقتل عثمان أو خرج قبله - وقال عثمان : يا قوم لا يجرمكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم يبعيدو يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه أن رضى رحيم ودود - اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشباعهم من قبل . وبعثت ليلى بنت عميس إلى محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فقالت : إن المصباح يأكل نفسه ويضئ للناس . فلا تأثما فى أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما . فإن هذا الأمر الذى تحاولون اليوم لغيركم غدا . فاتقوا الله أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم . فلجأ وخرجا مغضبين يقولان لا تنسى ما صنع بنا عثمان - ونقول ما صنع بكما إلا ما ألزمكما الله فلقبها سعيد بن العاص وكان يبه وبين محمد بن أبى بكر شيء فأنكر حين لقيه خارجا من عند ليلى فتمثل له فى تلك الحال بيتا :

استبق ودك للصديق ولا تكن فيثا يعرض بخاذل ملجأحا

فأجابه سعيد متمثلا :

ترونها إذا ضربا صميما من الذي له جانب ناء عن الجرم معور
ولما قدم السابق من الحاج بسلامة الناس . أخبر أن الناس جميعا يريدون
المصريين وأشياءهم وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك إلى حجهم . فلما أناهم ذلك
مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار أعلقهم الشيطان . وقالوا لا يخرجنا مما
وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا ولم يبق خصلة يرجون
بها النجاة إلا قتله فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن
طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام
معهم واجتلدوا فناداهم عثمان : الله الله أتم في حل من نصرتي فأبوا ففتح الباب
وخرج ومعه السيف والآنس لينهزمهم ، فتراجعوا وعظم على الفريقين وأقسم
على الصحابة ليدخلن . فأبوا أن ينصرفوا فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين .
وقد كان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حج ثم تعجل في نفر حجوا معه
فأدرك عثمان قبل أن يقتل وشهد المناوشة ودخل في الدار فيمن دخل وجلس
على الباب من داخل وقال : ما عذرنا عند الله أن تركناك ونحن نستطيع أن لا
ندعهم حتى نموت . فاتخذ عثمان القرآن تلك الأيام نجيا يصلى وعنده المصحف
فإذا أعيأ جلس فقرأ فيه ، وكانوا يرون فيه القراءة في المصحف من العبادة .

وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة ، كما قدمنا . كل
ذلك يقال ويفعل من غير بيان للأسباب التي أدت بهم إلى مثل ذلك بيانا
شافيا ومن غير نظر إلى ما تحدته كلماتهم بين العامة وبخاصة إذا صادفت آذانا
مصغية من مهيجين مشيرين .

السبب الثاني - يقول زهير بن أبي سلمى :

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وقد كان عثمان رجلا قد استولى عليه من الأخلاق الحياء واللين : أما
حيأوه فكان مشهورا به في الجاهلية والإسلام ، وقد قال في حقه رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ، ومعلوم أن

خلق الحياء يحمل صاحبه على الاغضاء عن كثير مما يكره وأما اللين فدعاه إليه أنه يحب السلامة والعافية ويكره العنت ويخاف أن يكون فاتح بابها على الأمة ويتشامم من كل أمر يظلم مؤديا إليها . وهو في كل كتبه وخطبه يحذر الناس الفتنة ويأمرهم بتوقي أسبابها وينهاهم عن التورط في حباتها : حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل عن ذكر الفتنة ومغباتها وما تستعقب من وبال والتحذير من ذلك .

أما الخلق الأول وهو الحياء فدعاه إلى التسامح مع من يناله بالأذى أو يقصده بالسوء فلا يوجه إلى أحد من المعتدين كلمة تسوءه . لأن صاحب هذا الخلق يخجل أن ينسب إليه قبيح ولو كان دفاعا ويجب أن يؤثر عنه الجميل من القول والعمل وكم من مرة قد جهد عثمان أن يخرج نفسه عن سيرته الأولى ليكم الناس عنه ويسابوا جانبه ولكن تأبى الطماع على الناقل ، وهذا الخلق الكريم لا يحسن إلا بالمتسمتين وفلاسفة الأخلاق ومن نصبوا أنفسهم ليكونوا قدوة للناس في العفو والصفح . وأما أهل الحكم والسلطان والقول الباقى فى الرعية فإنهم يحتاجون إلى هبة تملأ القلوب وتقف بالناس عند حد الإجلال لهم والإعظام لشأنهم والإكبار لمقامهم .

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادى تحمى صفوه أن يكدرها هذا عمر بن الخطاب — قد جاء سعد بن مالك وهو يقسم العطاء ينحى الناس ويفرقهم حتى خلص إليه مدلا بماله من سابقة وحسن بلاء فلم يحجز ذلك عمر أن خفقه بالدرّة وقال له : جئت لانتهاك سلطان الله فأحييت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك . فالسلطان أحوج الناس إلى قوة تنحى عنه الضعف وتنكب به عن الذلة . وعثمان لم يكن له حظ من القوة اللائقة بسلطان الخلافة

أما خلق اللين فقد قبض يده عن زعماء المفسدين وقادة المشاكين الذين رفعوا إليه وثبت عليهم أنهم إنما قدموا للمشاقة والفتنة فلم يتناولهم بعقاب بين آثار ذنوبهم على صفحات جوبهم . وقد كان فى مقدوره أن يقطع أعناق الفتنة بنكالهم وقد أمكه الله من نواصيهم . ولما أراد مشاورة ولاته فى تلافى الخطر

أشاروا عليه بما في بعضه مقنع وحسم لمادة الداء لو أخذ الأمر بالحزم ولم يمل إلى جانب العجز . فلم يعبأ بالقول . ولم يفر ما خلقوا من خطة الجد . بل اختار جانب اللين خشية أن يكون فاتحاً باب الفتنة التي كان شبحها يخيفه في كل حركته وسكنته - واجتزأ من نكال محركي الفتنة ومثيري عجاجها بأن احتج لنفسه وأبدى عذره في كل أمر جاءوا لإثباته عليه في حين أهم جماعة قد بينوا الأمر واختمر في نفوسهم زمناً . والجماعة لا يمكن أن تؤثر في نفوسهم الأقوال المعقولة والبراهين القاطعة إذ الجماعات في العين شخص أص . عن الموعظة مصغ إلى التهييج متلب لفعل الشر . والجماعات إنما تهاب القوة وتخضع للقسر وأتقهر فهي معبودها الأول ودينها الذي تدين له . فها زاد عثمان الأمر باعتذاره إلا فساداً وقوى فيهم الجرأة عليه والإقدام على مساخطه . والقوم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة على المحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه كلما أعجزهم باب التمسوا غيره . فضعفه هو الذي جرأهم عليه

السبب الثالث : — ما خالف به عثمان صاحبه عمر في أعلام قریش : فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يفارقوها إلا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك . وكان هذا مما حبه إليهم أكثر من عمر — ولكن هذا السماح قد جنى على عثمان وترتب عليه ما كان يحذره عمر . فإنه قد اجتمع إلى أعلام قریش أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقرّبوا إليهم مقدرين أنه إذا أفضى الأمر إليهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فبه بذلك ذكرهم وطار لهم صيت وجرت أسماؤهم على الألسنة .

يشهد لذلك أن أهل البصرة كانوا يحطّبون في جبل طلحة ويجهدون في أن يلب الخلافة بعد عثمان ، وكان أهل الكوفة يريدون الزبير بن العوام . ولولا اضطراب هؤلاء الرهط في الأمصار أيام عثمان ما كان لواحد منهم شعبة في بلد من البلدان لا شك في أن علياً لم يهبط إلى مصر ولا إلى غيرها من البلاد . غير أنه كان له دعاة متطوعون بالدعوة يشيدون بذكره ويروجون أمره فيها وهم عبد الله بن سبأ

الذى استفسد الناس باسمه وأدخل على الأمة ضرباً من الإلحاد على حسابه .
ومحمد بن أبي بكر ريبه فإن أسماء بنت عميس زوج أبي بكر تزوجت بعد بعلي بن
أبي طالب وابنها محمد بن أبي بكر صغير فربى في حجرها ورباه على فكان له كالوالد .
فلما سقط إلى مصر آوى إلى محمد بن أبي حذيفة وعنده من الخنق على عثمان ما أكل
صدره ومحمد بن أبي بكر مورتور من عثمان لما قدمنا واتحادهما في عداوة عثمان يوحد
وجهتهما فكانا على الخط على عثمان وتمهيد امر على ولا يبعد أن يكونا أو أحدهما قد
استعمل اسم على في التآليب على عثمان وإثارة الثائرين عليه وعلى لا يعلم ذلك ، فقد
حلف أنه ما كتب للمصريين كتاباً ولا دعاءم . ولما قدمنا كان هوى أهل مصر في
على بن أبي طالب فلم تكن مطالب أهل الأمصار إلا نتيجة لازمة لما سمع به عثمان
وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أو إلى من هو بسبيل منهم رجاء أن يكون
لهم شأن نابه وصيت طائر إذا انتقلت الخلافة من عثمان إلى صاحبهم .

لهذا لما تم الأمر لعلي بن أبي طالب صاحب المصريين ولم يتم للأخرين اجتماعاً
عليه وحارباه وجهداً في نقض بيعته والتآليب عليه . وقد قال الأستاذ الخضرى :
لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التى سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قریش
تطلعهم إلى ولاية الأمر - ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقى
مع المتآمرين - والذى يؤخذ عليهم « هو حوادثهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة
المسلمين واسترسال بعضهم فى الأقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الإلزام
وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع - هذا السبب أسوقه عن محاضرات الأستاذ الخضرى مع
ما يمكن أن يعرض من استدراك أو توضيح مما أراه :

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل ما يهون وما يحبون . وهم فى هذا
الحال لا يصطبرون حتى يثبتوا بما يلقي عليهم . بل سرعان ما يصدقونه ويأمنون
له إن كان مؤملاً ويسرون إن كان ساراً . وقد كان الناس ، مسلمين يحبون نبينهم
أكثر مما يحبون أنفسهم ، عرباً يحبون العدل والمساواة ويظربون لذكرها .

وقد ذوقهم عمر حلاوة ما يعشقون من الحرية والعدل والمساواة وقوى ذلك في نفوسهم فجاء ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ إلى القوم من الجهة التي يالفونها وهي نقطة ضعفهم وصار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسوبهم على بن أبي طالب ووسمه بأنه وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لكل نبي وصي . وأنه من الحق الواجب أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم . ثم أخذ يذيع ما يدسه مدحاً لعل ابن أبي طالب حتى سما به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه وتخطى به طوره إلى أن وضعه موضع الألوهية . وغير هذا الأمر الأخير من الكلام يسهل إدخاله في القلوب وبخاصة إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة . ولذلك نرى هذا الرجل كان يقتبع من أصابه من ولاية عثمان أذى في نفسه أو ماله ، ويفضى إليه بما رتبته من القول وهياه من الإذاعة . ثم جاءهم من قبيل العدل والمساواة وهي كلمات طنانة يؤلفها الجمهور ويصغى إليها الناس . حتى إذا ما أيقن أنه استهوى القوم بما نفت من الرقي ، أخذ يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شيان . ومرة بأنهم من ذوى قرباه ، وأخرى بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً .

والموتورون — الذين كانوا يوازرونه ويؤيدونه لأغراض في أنفسهم — تلقفوا الأمر بحذق : واشتغلوا به بمهارة . فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات التي يتزايدون فيها ما شاءت لهم ضغائنهم وأهواؤهم ، فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ، ويقولون : نحن في عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس . وهم لا يعلمون أن إخوانهم بالمصر الآخر يتوجعون لهم ويحمدون الله على العافية مما أصيبوا به . بذلك كله تهيأ لهم أن يوغروا صدر العامة بمن يجتمع عليهم ، وليس لشيء مما يكتبون صحة . فقد كانوا يعيرون معاوية . وهذا لم يوجد عثمان بل ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه أبو بكر ولاه عمر . ولم نر من العمال من استمر موثقاً به

من عمر حياته كلها إلا أفراداً قليلين منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان والياً من أول حياة عمر إلى آخرها .

وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها . وإنى لم أقف لهم في معاوية على عيب أو عمل منتقد إلا ما قالوه في مسألة أبي ذر . والنصف يرى أن عمل أبي ذر وقوله فيما دعا إليه لم يكن فيه مصيباً ، بل هو يدعو إلى الشقاق والخلاف والتكالب على الدنيا والإسهام في المال لمن لا يستحق . وكانوا يعيرون عبد الله بن أبي سرح لا لأنه ظالم أو جائر ولكن لأمر آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أهدر دمه يوم الفتح لما كان من رده ثم استوهه منه عثمان وأتى به ثائباً مسلماً فمعا عنه . ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عفا فإمّا أسبل على الذنب ستراً لا يكشف وليس عبد الله بن سعد فيما أتى بأكثر من العدد الجهم من الشاغبين إذ ارتدوا مع قبائلهم عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم يعيرون عليه شيئاً أحدث عهداً به منه . وكانوا يعيرونه بتولية الوليد بن عقبة ، وعثمان لم يبتدىء بتوليته ولكنه كان والياً لعمر من قبله على الجزيرة وإنما نقله عثمان منها إلى الكوفة فلما جاء كان أحسن وال سيرة إلى أن شغبوا عليه وشهدوا عليه بشرب الخمر شهادة لا يعلم إلا الله إن كانوا قد برؤا بها أو فجرؤا لحده وعزله عنهم . وقد استضعف على رأى من عد ذلك على عثمان . وقال ما معناه لا تكن كمن يطعن نفسه ليصل بالطعنة إلى رديفه ليقته ! ما لعثمان وللوليد ؟ وما ذنبه إن عثمان قد ولى الوليد ؟ فلما استوجب الحد حده وعزله فما ذنبه فيما كان عن ملاءمنا ؟ وكانوا يعيرون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل الكوفة من أجود العمال في عمله وأشدّهم تحرياً للعدل والقسط فلم تكن هذه المذام والأمور التي يتجنون بها على العمال موجهة بحق لرفع جور أو إزاحة حيف ، وإنما كان يقصد بها التأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذه الأقوال دون احتياج إلى دليل أو برهان لأن الأدلة والبراهين والحجج العقلية والنتائج المنطقية لا تؤثر في عقول الجماعات ولا تنفق معها .

وقد ساعد على استفحال الشر أولياء الأمر وأصحاب الرأي في الأمصار إذ لم يبادروا الشر قبل استفحاله ويأخذوا الحيلة من تفاقم الفتنة - لأن أمراء الخليفة لم يكن لهم مثل هذا السلطان . والخليفة أخذ على أيديهم مشفق أن يبسطها فيفتح عليه باب الفتنة الذي يسعى إلى سده جهده حذراً من أن يأمر بذلك ، فضاعت مصلحة الأمة . وإذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعه أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعه في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك التجنى .

هذا رأى الأستاذى الحضرى ومن رأى أن عثمان يحمل قسطا ليس بالقليل في شأن تلك الجناية لأنه إذا كان قد عرف من نفسه الرقة واللين فكان الأجدر به أن يترك الأمر لغيره ولا ينكب الأمة بقتله ولا يفجعها هذه الفجعة الحارة المرة .

وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام : « وأما إفضاؤه إلى بنى أمية بأمرهم دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة واقتطاعهم الأمور دونه فهو الأمر الذى اهتزت له أعصاب المهاجرين وحذر عاقبته عقلاء المسلمين خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الأموية . . ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته وإن أكثر ما هاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالأمر الذى لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين لا سيما أولى السابقة منهم والمهاجرين . فقد كان حريصا على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتصق الأمة (من الظلم أن نقول الأمة ولكن الأولى أن يقال أهل الفتنة) فيهم . وليس لهذا الإصرار على ما يظهر لنا من سبب إلا أحد أمرين : إما لأن قومه استلنوا جانبه واستضعفوا فغلوا على رأيه فيهم وإما لأنه أحس منذ عهد عمر الستة ووقوع الاختيار بفسادهم تحزب بين الشعب وتشيع يجر إلى الاختلاف عليه والسكيد له . نخشى إن هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته أن يتوئب عليه عمال الأمصار فلا يجد

دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوى قرابته وولاهم على الأمصار ، فلما كثر الإرجاف بهم والظعن عليهم ورغب إليه الناس في عزهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في الشيع فولى شكائهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوى قرابته وركن إليهم واعتمد في الأمور عليهم فكانت له ولهم إثرة أنكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الإنكار وتدرع الشائرون عليه بتلك الأحداث إلى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الأثرة هي السبب الأول في استفحال أمر الفتنة التي لما اشتدت نارها واشتعل أوارها أصبح إطفائها خارجاً عن طوق كبار الصحابة وقادة الناس . وربما ندموا حينذاك على ما تقدم ولات ساعة مندم . أخرج ابن عساكر عن الأوزاعي أنه قال : قيل لعلي بن أبي طالب : أقتل عثمان منافقاً ؟ قال لا ولكنه ولي فاستأثر وجزعنا فأسأنا وكل سيرجع إلى حكم عدل . فإن تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فما شاء الله ، هـ .

ومن الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والásنة ، وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي دائماً بعداء ونفور . وليس ذلك إلا لأن المسألة ألأبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يشته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا . خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سىء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصلوه وقتلوه بشكل وحشى لا يتفق مع أصول الإسلام . ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيماً ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم يمكننا الانتقام منه أسوء قصده أو نبين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة بما كان ، فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية .

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنها وتهيجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع

كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح . وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها يذنبها شديداً . وهم في كل زمن كثيرون ففاظلك بالآمة إذا كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر بإغضائه وتهاونه . إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً وسيمر بنا في التاريخ من ذلك شيء كثير

قبل الحصار

ألخص هنا رواية الطبري إلى محمد بن مسلمة - قال : خرجت في نفر من قومي إلى المصريين . وكان رؤساؤهم أربعة : عبد الرحمن بن عديس البلوي . وسودان بن حمران المرادي ، وعمرو بن الحق الخراعي - وقد كان هذا الإسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الحق - وابن النباع . فدخلت عليهم وهم في خباء لهم أربعتهم . ورأيت الناس لهم تبعاً . فعظمت حق عثمان وما في رقابهم من البيعة . وخوفتهم الفتنة . وأعلمتهم أن في قتله اختلافاً وأمرأ عظيماً . فلا تكونوا أول من فتحه . وأنه ينزع عن هذه الخصال التي نقمت عليه فيها وأنا ضامن لذلك . قال القوم : فإن لم ينزع ؟ قلت : فأمركم إليكم . فانصرف عن القوم وهم راضون .

رجعتُ إلى عثمان فقلت : اخلني . فأخلاقى ، فقلت : يا عثمان ، اتق الله في نفسك . فإن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك . وأنت ترى خذلان أصحابك لك . لا ، بل هم يقوون عدوك عليك . فأعطاني الرضا . وجزاني خيراً . أقمت ما شاء الله أن أقيم . وقد تكلم عثمان برجوع المصريين . وذكر أنهم جاءوا الأمر فبلغهم غيره فانصرفوا . فأردت أن آتبه لأعفه ثم أمسكت . فإذا قائل يقول : إن المصريين قدموا وهم بالسويداء . فأرسل إلى عثمان فقال : يا أبا عبد الرحمن هؤلاء القوم قد رجعوا فما الرأي فيهم ؟ قلت لا أدري إلا أني أظن أنهم لم يرجعوا لخير . قال : فارجع إليهم فارددهم . قلت : لا والله ما أنا بفاعل . قال : ولم ؟ قلت لأنني ضمننت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف منها . فقال : الله المستعان .

جاءني ابن عديس ومعه سودان بن حمران وصاحباہ، فقالوا: يا أبا عبد الرحمن ألم تعلم أنك كلمتنا، ورددتنا، وزعمت أن صاحبنا نازع عما نكره؟ قلت بلى. فإذا هم يخرجون إلى صحيفة صغيرة في قصة من رصاص يقولون وجدنا جملاً من إبل الصدقة عليه غلام عثمان، فأخذنا متاعه ففتشناه، فوجدنا فيه هذا الكتاب. فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم». أما بعد، فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فأجلده مائة، واحلق رأسه ولحيته، وأطل حبسه، حتى يأتيك أمرى. وعمر بن الحق فافعل به مثل ذلك. وسودان بن حمران مثل ذلك. وعروة بن النباع مثل ذلك. قلت: وما يدريكم أن عثمان كتب هذا؟ قالوا: فيفتات مروان على عثمان بهذا؟ فهذا شر. فيخرج من هذا الأمر، ثم قالوا: انطلق معنا إليه، فقد كلمنا علياً ووعدنا أن يكلمه إذا صلى الظهر. وذكروا أنهم كلموا ناساً من أصحاب رسول الله فأبوا أن يكلموا عثمان

قال محمد بن مسلمة: ثم دخلت عليه أنا وعلى، فقلنا: إن هؤلاء المصريين بالباب، فأذن لهم ومروان عنده جالس. فقال: دعني جعلت فداك أكلهم. فقال عثمان: فض الله فاك، وما كلامك في هذا الأمر؟ فخرج مروان، وجعل على يخبره ما وجدوا في كتابهم. فجعل عثمان يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شور فيه وصدة محمد بن مسلمة، فقال على: فأدخلهم ليسمعوا عذرک، ثم أقبل عثمان على علي يقول له: إن لي قرابة ورحماً، والله لو كنت في هذه الحلقة لجللتها عنك، فأخرج إليهم فكلهم فأنهم يسمعون منك، فأبى على، ودخلوا فقالوا: سلام عليكم ولم يسلّموا عليه بالخلافة. ثم قدموا في كلامهم ابن عديس، فذكر ماصنع ابن سعد بمصر. وذكر تحاملاً على المسلمين وأهل الذمة. وذكر استشاراً منه في غنائم المسلمين، فإذا قيل له ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين إلى.

ذكروا مع ذلك أشياء مما أحدث بالمدينة وما خالف به صاحبيه، وأنهم رحلوا من مصر لا يريدون إلا دمه أو ينزع، وأن محمد بن مسلمة ردهم وضمن لهم النزوع عن كل ما تكلموا فيه. (وصدقهم محمد بن مسلمة). قالوا: ثم رجعنا إلى بلادنا نستظهر بالله عز وجل عليك ويكون حجة لنا من بعد حجة، حتى إذا

كنا بالبويب . أخذنا غلامك : فأخذنا كتابك وخاتمك إلى عبد الله بن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا والمثل بنا في أشعاره وطول الحبس لنا ، وهذا كتابك قال عثمان : والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت . قال محمد بن مسلمة : فقلت وعلى جميعاً : قد صدق . فأتراح لها عثمان . قال المصريون : فمن كتبه ؟ قال : لا أدري . قالوا : أفيجتراً عليك ، فيبعث غلامك ، وجمل من صدقات المسلمين ، وينقش على خاتمك ، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم ؟ قال نعم . قالوا فليس مثلك بلى . اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعتك الله منه . قال : لا أنزع قبصاً ألبسنيه الله عز وجل وكثرت الأصوات واللغط . فما كنت أظن أنهم يخرجون حتى يواثبوه . وقام على نخرج وخرجت معه وقال للبصريين : اخرجوا فخرجوا . ورجعت إلى منزلي ورجع على إلى منزله . فما برحوا محاصريه حتى قتلوه .

إذا سلطنا رواية محمد بن مسلمة هذه جاءتنا أمور وهي محل العجب وموضع الغرابة .

هذا غلام عثمان حاضر بالمدينة ، وجمل الصدقة الذي وجده المصريون والغلام عليه موجود . فما بال عثمان لا يسأل الغلام عن الشخص الذي سلم إليه الكتاب أو الظرف وهو فيه ؟ وما باله لا يسأله عن أمره بالمسير إلى مصر . وعن الذي أعطاه جمل الصدقة . وما باله لا يسأل القيم على إبل الصدقة عن أخذ ذلك الجمل . ولم أخرجه منها بدون إذن أمير المؤمنين ؟ في هذه الحال كان يتبين الذي افعل الكتاب . والذي وجه بالغلام إلى مصر . وحينئذ يعرف المصريون أين ثأرهم وحينئذ يقع عليه الجزاء العادل . ويعاقب بنفس العقاب الذي تضمنه الكتاب .

غير أن عثمان لم يفعل ، وحينئذ يكون معذوراً من يثمه بالتهاون .

كيف قتل عثمان ؟

رأى الشاغبون أنه لا مفر لهم من أحد أمرين ليأمنوا على أنفسهم . أحدهما أن يخلع عثمان نفسه من الخلافة فيكون ذلك سبباً لعزل عماله من الخليفة

المجديد حتى لا يصطلبهم العمال إذا رجعوا إلى بلادهم : ثانيهما : قتله وذلك يستتبع تغيير عماله قطعاً فينجو كل واحد من العقاب . فلما طالت مدة الحصار ولم يجدهم الاحتجاج على عثمان والتردد عليه مرة بعد مرة أخرى وأحسوا عودة الحاج وفصول من فصل من الأمصار لإغائته وأن ذلك متى تم خرج الأمر من أيديهم ، وفي ذلك نكالهم ، هموا بالدخول عليه واقتحام داره من بابها ، فاحرقوا الباب وقتلهم من كانوا بالدار لحماية عثمان غير مصغين لنيه إياهم عن القتال ، وكان منهم المغيرة ابن شريك والحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله ابن الزبير ومروان وأبو هريرة وغيرهم وكان بين الفريقين قتلى وجرحى على باب الدار .

رأى أولئك المحاصرون أن اقتحام الدار من بابها يكلفهم ثمناً غالياً فافتحموا دار عثمان من غير بابها . بل تسوروا عليه من دار ملاصقة لداره وهي دار عمرو بن حزم حتى ملأوا الدار ولا يدري من الباب . فدخل عليه رجل فقال اخلعها وندعك فقال ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولست خالماً قيصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء . فخرج عنه . ومعنى عبارة أنه لم يفعل ما يوجب إراقة دمه ولا يكون بسبيل ذلك . ثم دخل عليه ناس رجعوا ولم يمسوه بأذى آخرهم محمد بن أبي بكر . فقال له عثمان : ويلك أعلى الله تفضب ؟ هل لي إليك جرم إلا حقه أخذته منك . فأخذ محمد لحيته وقال : قد أخزأك الله يانعتل (اسم رجل قبطي كانوا يشبهون عثمان به لعظم لحيته) فقال : لست بنعتل ، ولكني عثمان وأمير المؤمنين . فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ؟ وقبض على لحيته فقال : يابن أخى ما كان أبوك ليقبص عليها . فقال : لو رأيك أبى تعمل هذه الأعمال لأنكرها عليك . والذي أريد بك أشد من قبضى عليها . فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به . فتركه وخرج .

هذا هو الصحيح من أمر محمد معه .

ثار بعد ذلك قتيبة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وضرب المصحف الذي كان عثمان يقرأ فيه برجله فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فأكبت عليه نائلة لتقيه ، فنفعها بالسيف فأطن أصابع يدها وولت . وهنا اختلف فيمن ضربه الضربة التي كان بها قتله ففي رواية أنه سودان بن حمران وفي رواية أنه كنانة ابن بشر التجيبي . وفي ذلك الوقت دخل غلثة من غلبان عثمان مع القوم لينصروه فلما ضربه سودان ضرب بعض أولئك الغلبان سودان على رقبته فقتله ووثب قتيبة على الغلام فقتله وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى : عثمان ، وسودان ، وغلثم عثمان .

لما خرج القوم من الحجرة التي ترك فيها عثمان قتيلاً ، وثب غلام لعثمان على قتيبة فقتله وثار القوم فأخذوا ما وجدوه في الدار حتى ما على النساء . وأخذ كلثوم التجيبي ملامة من نائلة فقتله غلام لعثمان . ودخل عمرو بن الحق على عثمان وبه رمق فوثب على صدره وطعنه تسع طعنات ؛ وأرادوا قطع رأسه فصاح بهم النساء فقال ابن عديس اتركوه . وأقبل عمير بن ضائب فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال : سيجت أبي حتى مات في السجن . وماج الناس وتنادوا : أدركوا بيت المال ولا تسبقوا إليه فهرب حارساه ، واتهب الناس غاراتين مملوءتين فضة كانتا فيه : وكان قتله لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، يوم الجمعة

أما مدة خلافته فهي اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً ، واختلف في سنه فالقل يقول خمسا وسبعين سنة والمكثري يقول تسعين سنة

وسبب اضطغان عمير بن ضائب على عثمان حتى كسر ضلعه بعد قتله أن أباه ضائباً استعار أيام ولاية الوليد بن عقبة الكوفة من قوم من الأنصار كلباً يدعى قرحان يصيد الطباء فحبسه عنهم ، وانتزعوه منه قهراً فهجاهم بقوله :

تجشم دوني وفد قرحان خطاة تفضل لها الوجناء وهي حسير
فباتوا شباعا طاعمين ، كأنما جباهم بيت المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الأمهات كبير

فاستعدوا عثمان عليه ، فحبسه ومات في سجنه ، وقال وهو في السجن .
هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت . على عثمان تبكى حلاله
وقائلة قد مات في السجن ضائي . إلا من الخصم لم يجد من يحاوله
لهذا صار ابنه عمير سبئيا
وقد اتفق رأى كميل بن زيادة وعمير بن ضائب على الفتك بعثمان في حياته
فقدما المدينة ، فأما عمير فنكل وتقدم إليه فثاوره فوجأ عثمان وجهه فوقع
على أسته ، فقال : أوجعتني يا أمير المؤمنين ، فقال أولست بفاتك ؟ قال :
لا والله ، فقال استقد مني ، فعفا عنه ، وبقي الرجلان إلى أيام الحجاج فقتلها
وسيجىء ذلك

دفن عثمان

رويت في دفن عثمان روايات أدناها إلى الإنسانية رواية جاء بها ابن
الأثير أنه شهد جنازته على وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من
ثم من أصحابه .

وهناك رواية تقول : إن عثمان بقي ثلاثة أيام لا يدفن ثم إن حكيم بن
حزام القرشي وجبير بن مطعم كلما علياً في أن يأذن بدفنه ففعل . فلما سمع
بذلك أولئك الثوار قعدوا له في الطريق بالحجارة ليرجموه إذا مر . وسمع على
بذلك فأرسل يمنعهم وخرج به ناس يسير عددهم من أهله وغيرهم فيهم الزبير
والحسن وأبو الجهم بن حذيفة ومروان بن المغيرة والعشاء فأتوا به حائطاً من
حيطان المدينة خارج البقيع يقال له حش كوكب فعلى عليه أحد الحاضرين
وجاء أناس من الأنصار لينعوا من الصلاة عليه ثم تركوا ذلك خوف العقبة
ثم دفن في ذلك الحائط . فلما كانت أيام خلافة معاوية وصل ذلك الحائط
بالبقيع وأمر الناس بالدفن حول قبر عثمان . وهناك روايات أخرى أقطع .
فإذا لم تصح الرواية الأولى فإن القوم يكونون قد استعملوا مع عثمان من
الوحشية ما يقبح استعماله مع الكفار وعبداء الأوثان ولا يليق صدوره من
إنسان فضلاً عن مسلم .

على بن أبي طالب

كيف انتخب ؟ إن الأحوال التي احتفت ببيعة على بن أبي طالب والمناسبات التي حصل فيها انتخابه لم يكن لها نظير في انتخاب الخلفاء الذين تقدموه ولا بيعتهم فإن بيعة أبي بكر كانت عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمع مجتمع وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار شهود يرون ويسمعون لهم أن يبرموا ما اجتمعت عليه الكلمة وأن ينقضوا ما لم يرضوا به . فلم يكن ثمة غير يسير اختلاف ثم ثابت الأحلام وفات السكينة وتم الأمر لأبي بكر . ولم يتخلف عن البيعة سوى على بن أبي طالب أياماً أو نحو سبعين ليلة على خلاف في ذلك ، وسعد بن عباد من الأنصار وقليل من بني هاشم تأخروا ثم بايعوا . ومن عدا هؤلاء فقد أعطى يده بالطاعة عن رضى .

وأما عقب وفاة أبي بكر فلم يكن ثم مجال للخلاف . لأن أبا بكر كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته والالتناء إلى ما صنع . وكان أعلام الصحابة كذلك شهوداً - وعند وفاة عمر كان أعلام قريش والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار شهوداً . وعمر لم يترك الأمر بين القوم فوضى بل كان قد سن لهم قانون الشورى على علانته ، فأصاب الانتخاب عثمان بن عفان وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر ليعينوا واحداً منهم للخلافة ، وقد بين لهم جزاء المخالف منهم وهو القتل .

أما عند موت عثمان بن عفان ، فقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غير شاهدين للأمر وكثير منهم أبي عن بيعته ولم يرضوا بالدخول في طاعته ولم يكن الأمر على حال هدوء وسكون بل كانت الكلمة العليا للثوار على عثمان والأمر الناقد لهم ومن كان مقيماً من أعلام الصحابة فقد نفضوا أيديهم من الأمر بغضة لعثمان وسرهم أن يكفهم أمره أولئك الثارون وهم شذاذ من الآفاق وأوزاع متفرقون من أمصار مختلفة وقبائل متباينة

لا سابقة لهم ولا قدمة ولا أثر خير في الدين - وهم وإن كثروا بالنسبة إلى أهل المدينة خاصة فابسوا بالشئ الذى يؤبه له بالقياس إلى أهل الأمصار ومن يتبعهم من مرابطة الثغور وأجناد الأفطار - أضف إلى ذلك أنهم أهل شغب وفتنة قد عرف رؤوسهم بذلك وشهروا بالشريين قبائلهم وأمصارهم .

لم يكن فى نظر جمهور السبئية أليق للخلافة من على . خصوصاً والذى تولى كبر هذه الثورة هم المصريون وهم شيعة على وهوامم معه فكانت كلمته غالبية على سائرهم وكان أهل المدينة كانت أحلام أكثرهم شاردة عنهم فثابت ، وقد ظلل عثمان جلال الموت فاجتمع الناس فى المسجد وكثر الدم والتأسف على عثمان وسقط فى أيديهم وأكثر الناس على طلحة والزبير وانهموها بقتله وقال الناس لهما : أيها الرجلان قد وقعتما فى أمر عثمان غفيلاً عن أنفسكما فقام طلحة فقال : أيها الناس انا والله مانقول اليوم إلا ما قلناه أمس ، إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتله وسرنا وأن نكفاه وقد كثر فيه اللجاج وأمره إلى الله . ثم قام الزبير فقال : أيها الناس إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فابيعوه . وأما قتل عثمان فإننا نقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان . وكان ذلك من الزبير ليدفع عن نفسه لوم اللأئمين كيلاً يقال إنه كان يسعى فى هذا الأمر لنفسه ولكى يكافئه على بدفعها عن نفسه كما دفعها هو . فقام الناس وأتوا علياً وقالوا له نبايعك فأنت احق بها . فقال ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر فمن اختاروه فهو الخليفة فنجتمع وننظر فى هذا الأمر فانصرفوا عنه ثم خلصوا نجياً وقال بعضهم لبعض : يمضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بوبع لأحد بعده فيثور كل رجل منهم فى ناحية فارجعوا إلى على فلا تتركوه حتى يبايع فيسير مع قتل عثمان بيعة على فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا إلى على وحاء الأشر فقال لعلى : أسط يدك نبايعك . فقال له كما قال لهم أولاً ، فقال والله لنمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عيبك عليها نالته ولم نزل به يكلمه ويخوفه الفتنة ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه

فقد يده فبايعه الأشر ومن معه ومسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به فبايعه ، وقد كان من المهم عند على أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه - وإذا كان أحد أصحاب الشورى يطمح بنظره إلى الخلافة فهما . وقد كانا يوضعان في الأمر ولكل منهما شيعة من الثائرين تويده وتوازره ، غير أن شيعة على كانت أعلى صوتاً وأفوى يداً لجاء القوم إلى طلحة فأرادوه على البيعة لعلى فأبى . إلا اجتماع بقية الشورى فأتوا به يلبسونه حتى بايع . روى الطبري عن الزهري أنه دعاهما إلى البيعة (طلحة والزبير) فتلكأ طلحة . فقال مالك الأشر - وسل سيفه - والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروى أن علياً قال لهما : إن أحبيتما بايعتكما فقالا بل نبايعك ، وقالوا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا بمعنى أنه عرض البيعة عرضاً سارياً من باب المجاملة لأعلى سبيل الجدد . وجيء بسعد بن أبي وقاص فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك مني بأس فقال خلوا سبيله . وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع ، فقال لا أبايع حتى يبايع الناس ، فقال اتقني بحميل ، قال : لا أرى حميلاً . فقال الأشر : خل عني اضرب عنقه ، فقال على : دعوه أنا حميله إنك والله لسيء الخلق صغيراً وكبيراً ، وتخلف عن بيعة على جمع من الأنصار منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة ونعمان ابن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضلة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانيه يميلون إلى عثمان ، وهرب قوم إلى الشام ولم يبايعوا علياً ، وهم عامة بني أمية ومن معهم ، ولم يبايعه عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان ومسلمة ابن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة وقد بايعه المغيرة من قريب .

(ترجمة على) هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق والده . وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة بأحدى وعشرين سنة أو أكثر . ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على مراهقاً وكان مقبلاً مع الرسول في بيته تخفيها

على أبيه أبي طالب . فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وقد أدرك الشرف العظيم يبذله نفسه فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ببياته على فراشه ليلة خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة حتى لا يرتاب الرماصدون في وجوده في بيته وذلك ليلة هموا بقتله واتعدوا لذلك ليلتهم ثم هاجر إلى المدينة بعد أن أدى الودائع التي كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهلها . وبعد أن هاجر زوجه النبي صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة . وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله سوى غزوة تبوك فقد خلفه في أهله بالمدينة . وقال المنافقون : إنما خلفه استثقالا له وزهادة فيه نخف إلى رسول الله بأكيا فطبيب خاطره ورده وقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى فرضى بذلك . وقد كان في كل غزواته ومشاهده مظفراً منصوراً ذا بلاء وغناه له الأثر المحمود والمقام الذي لا يجهل ، شجاعاً مقداماً على الغمرات لا تكرهه شدة ولا يبالي بمصارعة الموت . وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما لحق الرسول بربه كان على يرى نفسه أحق بالخلافة وأولى بمن عداه بأن يلي أمر المسلمين وكان يظن أن الأمر يأتيه عفواً صفواً وأن المسلمين لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربي والسابقة والصر . فتلث عن طلب البيعة حتى يقوم بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتفرغ للأمر فلم يفجأ إلا بالمسلمين قد بايعوا أبا بكر وأبي علي عن بيعته وقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبياعكم وأوتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الانتصار واحتججتم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم وتأخذونه منا أهل البيت غصباً؟ أستمزعمتم للانتصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الانتصار ، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا إن كنتم تؤمنون إلى آخر ما قال في ذلك . ومكث مدة لم يبايع ثم بايع ولما مات أبو بكر بايع عمر لاستخلاف أبي بكر له وفي نفسه شيء من ذلك . ولما طعن عمر أراد أن يستخلفه وكان يود تقديمه على غيره ويرى أنه جدير بأن يحمل الناس على الطريقة المثلى ، غير أنه لم يرد أن يحمل

تبعة الأمر فجعله شورى بين ستة هو واحد منهم وكان أكبر ظن عمر في علي أن يكون الأمر إليه غير أنها صرفت عنه إلى عثمان فبايع ولم يخالف . وكان في مدة أبي بكر بعد البيعة موضع ثقة الخليفة وكان في عهد عمر كالمستشار له يستشير به عمر ويستفتيه في الأحكام الشرعية ويستدخله في مهام الأمور ، فكان من خاصته وبطانته الذين يستنصحهم ويستنزل رأيهم وينتهي إلى مشورتهم — وقد كان كذلك لعثمان رضي الله عنه صدرأ من خلافته ثم تغير له في أواخر حياته ولم تكن علاقتهما حسنة في الظاهر وبخاصة في أيام الفتنة فإن استبطن عثمان لبني أمية كان يفسد على علي كثيراً عما كان علي يراه نافعاً له . وكانوا يزهّدونه في علي ويخوفونه جانبه .

أورد صاحب الإمامة والسياسة أن عثمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس . فقال عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى أشتى موتك أم أشتى حياتك ، فوالله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنى لا أجد منك خلفاً ولئن بقيت لا أعدم طاعياً يتخذك سلماً وعضداً يعدك كهماً وملجأ لا يمنغى منه إلا مكانه منك ومكانك منه (ولعله يريد محمد بن أبي بكر) فأتت منى كالابن العاق من أبيه . إن مات فجّعه وإن عاش عقه . فأما سلم ففسالم وإما حرب فنحارب . فلا تجعلنى بين السماء والأرض فإنك والله إن قتلتنى لا تجد منى خلفاً ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ولن يلى هذا الأمر باديء فتنة . فقال علي إن فيما تكلمت به لجواباً ولكنى مشغول بوجعى فأنا أقول كما قال العبد الصالح : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . فقال مروان : إنا والله إذاً لنكسرن رماحنا ولنقطعن سيوفنا ولا يكون في هذا الأمر خير لمن بعدنا . فقال عثمان : امسكت ما أنت وهذا ؟

وقد استعمل المؤولون اسم علي للتغريز بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم . وأدى ذلك إلى أن خاطبه أهل مصر قائلين : إن لم تقم معنا فلم كتبت إلينا ؟ فنبأ من الكتابة إليهم وحلف على ذلك . ولما انتهى أمر عثمان على الحو

الذى يبتنا ببيع له بالخلافة بالصورة التى وصفنا ، راتنى الامر على ذلك بعد خمس ليال قضاها الناس فى أخذ ورد وتردد فى الامر إلى أن انتهى .

خطته السياسية

أول خطبة لعلى - صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : - إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه وتعالى يؤدكم إلى الجنة . إن الله حرم حرما غير مجمولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق . ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة . وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما من خلفكم الساعة تحذوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخرام اتقوا الله عباد الله فى عباده وبلاده إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض .

والذى تشف عنه خطبته أنه يريد أن ينصرف الناس إلى ما هو مهم لهم ويكفوا عن الخوض فى الشأن الذى كان . وأن يستقبلوا نمطا من الحكم جديدا . كله إقبال على الآخرة وزهد فى الدنيا وقيام بحدود الله وطاعته فيما أمر به والابتغاء عما نهى عنه . ولو شئنا أن نلخص خطته التى يريد أن يرسمها لهم . لقلنا : يريد أن يقول لهم ارجعوا إلى العهد الذى كنتم عليه أيام رسول الله ، وأقبلوا على الآخرة بكلينكم وأعرضوا عن الدنيا وولوها ظهوركم .

وكان على قد دخل على نائلة زوج عثمان بعد أن لطم ابنه الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير لظنه الإهمال منهم والتقصير فى الذب عن عثمان . وسأل نائلة من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدرى ، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وحوهم وكان معهم محمد بن أبى مكر . فدعا على محمد ابن أبى بكر وسأله عما ذكرت نائلة فقال : صدقت ، قد والله دخلت عليه فذكر

لى ابى فقامت عنه وأنا نائب إلى الله تعالى . والله ما قتلته ولا أمسكته فقالت :
أصدق ولكن هو أدخلهم .

وكتبت نائلة زوج عثمان إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان وأخذه
المصحف ليتحرم به وما كان من صنع محمد بن أبى بكر وأرسلت بقميص عثمان
مضرجا بالدم ممزقا بالخصلة التى נתفها محمد بن أبى بكر من لحيته فعمدت الشعر
فى زر القميص وأصابها ثم دعت بالنعمان بن بشير الأنصارى فبعثته إلى معاوية .
فلقى يزيد بن أسيد أرسله معاوية عمداً لعثمان فى أربعة آلاف فأخبرهم بقتل عثمان
فانصرفوا إلى الشام .

طلب الصحابة القود من قتلة عثمان

ولما تمت البيعة لعلى جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له : إنا قد اشترطنا إقامة
الحدود وأن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم .
فقال لهم : إنى لست أجهل ما تعلون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا
نملكهم . ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم
خلا لكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء بما تريدون ؟
قالوا لا . قال فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . إن هذا الأمر
أمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط
فيبرح الأرض من أخذ بها . أن الناس من هذا الأمر - أن حرك - على أمور ،
فرقة ترى ما ترون : وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى
تهداً الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق . فاهداً وأعنى وانظروا
ماذا يأتىكم ثم عودوا .

ثم إن علياً اشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج من المدينة وإنما
هيجه على ذلك هرب بنى أمية . وتفرق القوم وبعضهم يقول والله لئن زاد
الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار . لترك هذا إلى ما قال على
أمثل . وبعضهم يقول : نقضى الذى علينا ولا تؤخره . والله إن علياً لمستغن

برايه وأمره عنا . لانراه إلا سيكون على قریش أشد من غيره .

ولما بلغ علياً مقالة القوم قام فحمد الله وأثنى وذكر فضلهم وحاجته إليهم وقال لهم خيراً وأثنى عليهم وتألفهم جهده ثم قال : لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته ، دفاعهم بأيديهم وألسنتهم . هم أعظم الناس حيلة من ورائه وإليهم سعيه وعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور . ومن يقبض يده عن عشيرته فإنه يقبض يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة . ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له في آخرته . واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للبر في الناس خير له من المال . فلا يزدادن أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه . واعلموا أن الدنيا قد أدبرت والآخرة قد أقبلت . ألا وإن المضمار اليوم والسبق غداً ، ألا وإن السهقة الجنة والغاية النار . ألا إن الأمل يُشهي القلب ويكذب الوعد ويأني بغفلة ويورث حسرة فهو غرور وصاحبه في عناء فافزعوا إلى قوام دينكم وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم والنصيحة لإمامكم وتعلموا كتاب الله واصدقوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم وأدوا الأمانات إذا اتعنتم ، وارغبوا في ثواب الله وارهبوا عذابه واعملوا الخير تجزوا بالخير يوم يفوز بالخير من قدم الخير . ثم نادى : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه .

انتمرت السبائية والأعراب وقالوا : لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء . ثم خرج على في اليوم الثالث . فقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهم . فأبى السبائية وأطاعهم الأعراب ودخل على بيته وجاء طلحة والزبير وجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهم على : دونكم ثأركم فاقتلوه . فقالوا : عتوا عن ذلك . فقال : هم والله بعد اليوم أعنى وأبى . ثم قال :

ولو أن قومي طاوعتني سرائهم أمرتهم أمراً يديح الأعدايا

وقال طلحة : دعني فلات البصرة . فلا يفجأك إلا وأنا في خيل . وقال
الزبير : دعني فلات الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل . فقال : حتى أنظر
أما على ، فقد صر فهما على زعم أن ينظر ، وأحسبه كان يتخوف جانب
الرجلين ويخشى أن يعيذاها عليه جذعة ويستنا به سنة أهل مصر بعثمان ويكون
له معهما يوم كيوم الدار

نتيجة الفتنة وقتل عثمان في زمن علي

كان المسلمون قبل انبثاق هذا البثق واشتعال جاحم الفتنة أمرهم مجتمعاً
وحالمهم حسنة يغبطون عليها من كل الأمم : جيوش منتصرة في جميع الأرجاء
وبلاد تفتح وعدل شامل وشمل جامع وبسطة في الغنى والثروة وسطوة مرهوبة ،
فلما ربي هذا الأمر حتى صار أمراً ووقع هذا الحادث الجلل الذي اصطلم به
خليفة المسلمين ظلماً وعدواناً . كان أول وهن دخل على المسلمين وأول أمر
فرق كلمتهم وأوقع بينهم الشحنة وأورثهم البغضاء وصيرهم فرقا متنافرة وفئات
متدبرة يضرب بعضهم وجوه بعض هو قتل عثمان بن عفان

يدل على هذا الافتراق أن الأمة قبل قتل عثمان كانت على قلب رجل واحد
ووجهتهم واحدة لا يفترون في شيء . فلما قتل ظهرت الشيعة وصاروا أشبه
بهئة معترف بها من الأمة غير خفية ، قام في مقابلتها الناصبة أو العثمانية في الشام
وأقليات في الأمصار ، وهم الذين ينزعون إلى تأييم علي في شأن عثمان ويحملونه
تبعة قتله . وأقلهم طعنا عليه من يقول أنه تهاون في شأن قتله فلم يتناولهم
بالقصاص الواجب شرعاً .

لم يلبث الأمر طويلاً حتى قام الخوارج ، وهم الذين ينقمون في باطن
أمرهم ولاية قريش ويظهرون الغيرة على الدين والحجة للشيعة ، وهم حرب
لعلي ومعاوية معا . ثم افترق هؤلاء الخوارج فرقا فكان منهم : (١) الأزارقة
(٢) والنجدات (٣) والعطوية (٤) والأباضية وغيرهم وغيرهم إلى
ما يربو على سبعين فرقة . ولم يلبثوا أن صاروا أصحاب مذاهب في العقيدة

ويكفرون المسلمين من أهل السنة والجماعة . بما قصه وشرحه ابن حزم في كتابه الفصل والشهر ستاني في الملل والنحل ، والمقریزی في خططه ومحمد بن يزيد في كامله . ثم كان انقسام الشيعة إلى طوائف وأصناف كالزيدية والكيسانية والامامية إلى رافضة وغالية وإلى إسماعيلية وهكذا .

ولا ريب عندی فی أن هذه الفتنة وما تلاها بما كان بين علي وبين عائشة وطلحة والزبير من الحرب ثم يسه و بين معاوية ثم بين الخلفاء والخوارج وغيرهم من الطوائف التي نبتت وشبوت الثورات بعد الثورات كل ذلك كان بمثابة مرض عضال طرأ على الأمة وهي في عنفوان شبابها وميعة فتوتها فوقف فيضها الحيوى وعاقها أن تقوم بما يجب لمثلها من النمو وصددها عن استكمال شبابها على الحال اللائقة بها . وعلى الجملة فإن هذه الفتنة كانت شللاً في حياة الأمة الإسلامية ومصدراً لانحراف مزاجها وثلة تعرض منها جسم تلك الأمة لمختلف الأمراض والعلل . ولولا تلك الفتنة وما نتج عنها لتغير وجه التاريخ ولكان الإسلام قد سال سبله على الأمم في جميع الأقطار والأصقاع ، ولرأينا الأمم التي هي من أعدى أعداء الإسلام اليوم واشدهن نكاية به أعظم من يطريه ويتعصب له ويغلو الغلو كله في إعلاء قدره والإشادة بذكره .

أول عمال على

إن الأيدي التي بايعت علياً بالأمس كانت ملوثة بدم الخليفة المقتول وكان أكبر ما يزعمونه من الحجج على قيامهم هذا واجترأ ما اجترأوا من الإثم عماله الذين ملأوا الدنيا عجباً بالشكوى منهم وأذاعوا قالة السوء عن كل أمير منهم في مصره . فإذا أقر على أولئك العمال على أعمالهم إلى أن يستوثق له الأمر في الخلافة وتنسق له الأحوال كان ذلك منه إقراراً للظلم الذي استفزهم الألم منه وأحققهم الإقرار عليه . وكان بذلك قد سجل على السبئية أنهم قاموا لسلب الخلافة من صاحبها الشرعى لا لسبب سوى الإقصاء بها إلى علي .

بهذا يمكننا ان نفهم السرعة الغريبة التي كانت منه في مبادرة جمع عمال عثمان بالعزل حتى كان ذلك أول أعماله ، ولم يتربص بالأمر وصول البيعة إليه من أهل الأمصار ولم يصغ إلى تحذير المحذرين ولا نصيح الناصحين . بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إباء تاماً كأنه قد تر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملاً نقص في دينه . ولو أنه اتأد في الأمر وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاة شيء . لأن الخليفة هو الذي يعطى الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله .

يعجب بعض ذوى البصائر من أهل النقد والرأى الراجح من مبادرته إلى عزل عمال عثمان مع رضاه بتأخير إقامة الحد على قتلته . أما تعليل ذلك التعجيل في أمر الأمراء فقد بينته آنفاً . وأما تأخير الحد على القتلة فقد بينه على نفسه إذ أوضح لطلحة والزبير وأصحاب رسول الله حين طالبوه بإقامة الحد على من شرك في دم عثمان فيبين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم وقد ثارت إليهم العبدان وقامت إليهم الأعراب وبأيديهم الحول والطول بالمدينة . وأهلها لا يقدرّون منهم على شيء . وطلب إليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم .

دخل المغيرة بن شعبة على عليّ وكان داهية أريباً فقال : إن لك على حق الطاعة والنصيحة وإن الرأى اليوم تحرز به ما في غد وأن الضياع اليوم تضيع به ما في غد أقرر معاوية على عمله وأقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت . قال : حتى أنظر . وعاد إليه من الغد فقال إني أشرت عليك بالأمس برأى ، وإن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره وتستقبل أمرك ثم خرج . وتلقاه ابن عباس - وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان - فقال : رأيت المغيرة خرج عن عندك فقيم جارك ؟ قال : جاءني أمس بذيئة وذيئة وجاءني اليوم بذيئة وذيئة . فقال : أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك . فقال له عليّ : ولم نصحنى ؟

فقال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا فتى تشتم لا يزالون بمن ولى هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك ويستقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع إنى لا آمن طلحة والزبير أن يكررا عليك . فقال على أما ما ذكرت من أقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا ولا صلاحها وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمل عثمان فوالله لا أولى أحداً منهم أبداً فإن أقبلوا فذلك خير لهم وإن أدبروا بذلت لهم السيف . قال ابن عباس : فأطعنى وادخل دارك أو الحق بمالك بينع فإن العرب تجول وتضطرب عليك فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً . فأبى على وقال لابن عباس : سر إلى الشام فقد وليتسكها . فقال ابن عباس : ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ولست آمن أن يضرب عنق بعثمان وأن أدنى ما هو صانع أن يحبسنى ويتحكم على . فقال على : ولم ؟ قال لقراءة ما بينى وبينك وأن كل ما حمل عليك حمل على . ولكن اكتب إلى معاوية فسته وعده . فأبى على .

فرق على عماله على الأمصار : فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة ، وعمارة ابن شهاب إلى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر ، وسهل بن حنيف إلى الشام .

فأما سهل بن حنيف فسار حتى أتى توك فلقبته خيل فسألوه من أنت ؟ فقال : أمير على الشام . فقالوا : إن كان عثمان بعثك لخيلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع . قال : أو ما سمعتم بالذى كان ؟ قالوا : بلى فارجع إلى على فارجع . وأما قيس بن سعد ، فإنه سار حتى أتى أيلة فلقبته خيل فقالوا : من أنت فعمد إلى الخيلة وقال : أنا من فالة عثمان فأنا أطلب من آوى إليه واتصربه . قالوا : من أنت ؟ قال قيس بن سعد . فقالوا امض . فمضى حتى أتى مصر وأظهر أمره فيها فافترق أهل مصر ورقا : فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتوا وقالوا . إن قتل قتلة عثمان فمن معكم وإلا فنحن على حديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا . وفرقة قالوا . نحن مع على ما لم يقد إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة . وكتب قيس إلى على بذلك .

وأما عثمان بن حنيف فسار إلى البصرة فلم يردّه أحد عن دخولها ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأى ولا حزم ولا استقبال بحرب . وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا .

وأما عمارة بن شهاب فأقبل حتى إذا كان بزُباله لقي طليحة الأسدي وقد خرج يدعو إلى الطلب بدم عثمان فقال لعمارة : إرجع فإن الناس لا يريدون بأمرهم بدلا وإن أبيت ضربت عنقك فرجع وهو يقول : احذر الخطر ما يماسك . الشر خير من شر منه .

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن أمية كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال .

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل على على وأتاه ما لم يكن يحتسب فأرسل يثبت أبا موسى على الكوفة فجاءه ببيعة أهلها وبين له من أبي البيعة وسخط لما كان ، حتى كأن عليا ناظر إلى أهل الكوفة وقد افترقوا على مثل ما افترق عليه أهل البصرة . ودعا على طلحة والزبير فقال : إن الذي كنت أحذركم قد وقع يا قوم وإن الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار كلما سُعُتْرت ازدادت واستثارت . فقالا له فأذن لنا أن نخرج من المدينة فإما أن نكابر وأما أن تدعنا فقال سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجِدْ بدأ فأخّر الدواء السكي . والذي يظهر أن اعتياص الأمور على على كان مما يسرهما . وأن الأمر إذا اضطرب عليه وأُعييت مذاهبه ونقض يده من الإمارة طوعا أو كرها أفضى الأمر إلى واحد منهما . وإذا اشترك اثنان أو جماعة في بغض سلطان ذي سلطان فإنهم لا يحسون بما بينهم في أشخاصهم من الكراهة والبغض . وإن اشتراكهما في كراهته يؤلف بينهما ويكون كَلْحَمَة النسب ولا يلتفت واحد منهم إلى ما بينه وبين الآخرين إلا إذا فرغوا من العدو المشترك . وكأني بعلى كان يقرأ

ما يجوز في ضمير كل من طلحة والزبير ولكنه لا يريد أن يفتح باب فتنه جديدة تكون أقرب إليه من سواها .

أرسل على بعد إرسال سهل بن خنيفة إلى معاوية سيرة الجهنى يطلب إليه أن يبايع فقدم عليه ، فلم يرُدّ معاوية جواباً ولم يجبه وجعل كلما تنجز جوابه لم يزد على قوله :

ادم ادا مه حصن أوحد يدي حرباضرو سانشب الجزل والضرم
في جاركم وبكم إذا كان مقتلة شعاء شيتبت الاصداع واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم يوجد لها غيرنا مولى ولا حكا

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر دعا معاوية برجل من بني عبس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوما عنوانه (من معاوية إلى علي) وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول وسرح رسول علي وخرجا فقدموا المدينة في ربيع الأول لغرته . فلما دخلوا المدينة رفع العباسي الطومار كما أمره وخرج الناس ينظرون إليه . فنفروا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ومضى الرجل حتى دخل على علي فدفع إليه الطومار فقبض خاتمه فلم ير في جوفه كتابة فقال للرسول ما وراءك . قال آمن أنا ؟ قال نعم فإن الرسل آمنة لا تقتل . قال ورائي أني تركت ستين ألف شيخ يكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . فقال مني يطلبون دم عثمان ؟ ألسن موتوراً كثرة عثمان ؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان إلا أن يشاء الله . فإنه إذا أراد أمراً أصابه . أخرج . قال وأنا آمن ؟ قال وأنت آمن . فخرج العباسي ، وصاحت السبائية وقالوا هذا الكلب وافد الكلاب اقتلوه . فنادى يال مضر يال قيس : الخيل والببل إني أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب . وتعاونوا عليه ومنعته مضر ويقولون له أسكت ، فيقول : لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً فلقد أتاها ما يوعدون ، فيقولون أسكت فيقول لقد حل بهم ما يحذرون انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم ، يقول فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم

(استئذان طلحة والزبير)

جاء طلحة والزبير واستأذنا علياً في العمرة فأذن لهما وهو يعلم أنهما لا يريدان ذلك وأنهما خرجا كراهة لأمره .

إن الرجلين قد بايعا مكرهين وكان لسكل منهما شيعة تريده على الخلافة . وقد أراد كل منهما أن يظهر الزهادة في الولاية حتى لا يتهم بالشركة في دم الخليفة المقتول وحتى لا يؤخذ عليه أمر أو يقول له قائل إنه كان يريد بها . ولكن السبائية قد غلبوا على الأمر وكانت الأنظار متجهة إلى علي أكثر منهما . فلما فاتهما أمر الولاية العظمى طمعا في أن يوليهما ويكونا على انتظار ما يأتي به القدر بعد ذلك .

قال ابن قتيبة : إنهما قالا لعلي : هل تدري يا علي علام بايعناك ؟ قال : نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتما أبا بكر وعمر وعثمان : فقالا لا ولكن بايعناك على أنا شريكك في الأمر ، قال علي لا ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأود قال : كان الزبير لا يشك في ولاية العراق وطلحة في اليمن . فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئا أظهرتا الشكاة في الزبير في ملا من قريش فقال : هذا جزاؤنا من علي قننا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفى الأمر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا . فقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدهما وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . وأنهى قولهما إلى علي فدعا عبد الله بن عباس وكان استبطنه فقال : قد بلغك قول هذين الرجلين قال نعم بلغني قولهما قال فأتري ؟ قال : أرى أنهما أحبا الولاية . فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة . فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان ، فضحك علي ثم قال : ويحك إن العراقيين بهما الرجال والأموال ومتى تملك رقاب الناس يستميلان السفه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ويقويان على القوى

بالسلطان ولو كنت مستغملاً أحد الضرة أو نعمه لاستعملت معاوية على الشام . ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى . قال . ثم أتى طلحة والزبير إلى علي فقالا يا أمير المؤمنين ائذن لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وأن تسر نسمعك . فظن إليهما وقال : نعم ، والله ما العمرة تريدان ، امضيا إلى شأنكما فضيها .

أحب أهل المدينة بعد ذلك أن يعلموا رأى علي في معاوية وانتفاضه ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه . وقد بلغهم أن الحسن ابن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس . فدسوا عليه زياد بن حنظلة التيمي وكان منقطعاً إليه ، فدخل عليه ثم قال له علي : يا زياد : تيسر . فقال : لأي شيء ؟ فقال : تغزو الشام . فقال زياد : الأناة والرفق أمثل . وقال :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل علي وكأنه لا يريد :

متى تجمع القلب الدكي وصارما وأنفاً حياً تجتنبك المظالم
فخرج زياد على الناس وهم ينظرونه . فقالوا له : ما وراك ؟ فقال :
السيف يا قوم فعرفوا ما هو فاعل . ودعا علي ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء
وولى عبد الله بن عباس ميمته وعمر بن سفيان ميسرته وأبا ليلى عمر بن
الجراح مقدمته واستخلف على المدينة قثم بن العباس . وخطب أهل المدينة
فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة وقال : إن الله عز وجل بعث رسولا
مهديا بكتاب ناطق في أمر قائم واضح ، لا يهلكه إلا هالك . وأن المبتدعات
والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله وإن في سلطان الله عصمة أمركم
فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها . والله لتفعلن أو ليقلن
الله عنكم سلطان الإسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها .
انهضوا إلى القوم الذين يريدون يفرقون حماعتكم لعل الله يصلح بكم
ما أفسد أهل الآفاق :

بينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وتنام على خلاف ، وإن القائم في ذلك طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين . فقام في الناس وأعلمهم بما حدث من الفرقة في مكة وأنبأهم بأنه سيمسك عنهم ويصبر ما لم يخف على جماعة المدينة وأنه يكف إن كفوا واقتصروا على ما بلغه عنهم . وبلغه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح ، فتعبي للخروج إليهم وقال : إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه . فاشتد الأمر على أهل المدينة واثقلوا .

وكان على أراد أن ينهض معه عبد الله بن عمر ليكون للناس به أسوة فقال : أنا رجل من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد . قال : فأعطني بذلك زعيما فأبى . ورجع إلى المدينة والناس يقولون : لا والله ما ندرى كيف نصنع فإن الأمر لمشتبه علينا ، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر .

وقد قام على في أهل المدينة ووجوها واستنهضهم في القيام معه فنهض معه من أهل بدر ستة نفر .

فأنتم ترون أن الأمور تتعسر عليه من أول يوم ، وأصحابه لم يكونوا على بينة من أمرهم . أما معاوية فلم يتعسر عليه شيء من ذلك ، بل تأتي لأموره بالحزم والصبر والتأني واستدخال أولى الرأي ، حتى استقام أمره ولم يحدث له ما حصل لعلي .

أمر عائشة

لما قتل عثمان هرب بنو أمية فلاحقوا بمكة قبل أن يبيع الناس علياً ، وكان تساقط الهرب إليها وعائشة مقيمة بها ، فاستخبرتهم ، فأجابوها بأن قتل عثمان ولم يجبهن إلى التأخير أحد فقالت عائشة : ولكن أكياس . هذا غيب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح . فلما قضت عمرتها وخرجت وانتهت إلى سرف لقيها رجل من أخوالها بني ليث وكانت واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبد الله بن أبي سلة ويعرف بأمه أم كلاب فقالت : مهم ؟ فاصبر

ودمدم . فقالت : ويحك علينا أو لنا ؟ فقال : لا ندرى قتل عثمان فبقوا ثمانيا . قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ فقال : أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على علي والقوم الغالبون على المدينة . فرجعت إلى مكة وهي لا تقول شيئا حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت به . واجتمع الناس إليها فقالت : أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا . إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمي حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم فلم يجدوها حجة أو عذراً فلبجوا ويادروا بالعدوان ونبأ فعلهم عن قوهم ففسكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاء من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشردم من بعدهم . والله لو أن للذي اعتدوا عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء . فقال عبد الله بن عامر : ها أنا ذا لها أول طالب . وكان أول مجيب ومتدب .

لو أن عائشة كانت تقول مثل هذه الخطبة بالمدينة قبل أن تخرج للحج لكان الأمر أرجى للقبول منها . ولكنها إنما ترهب من هذا الأمر كله خلافة علي . ولو أن الخليفة كان طلحة أو الزبير لكان في ذلك رضى لها لأن طلحة يسمى من قومها والزبير زوج أختها .

والذى أحفظها على علي وجعلها تكره إمرته أنه كان بينها وبينه في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء من يوم حديث الإفك إذ تحدث الناس وكثر الكلام واغتم رسول الله لذلك . فقال له علي : لن يضيّق الله عليك والنساء غيرها كثير ، ولو سألت بريرة لصدقتك عنها . فكان قول علي هذا بما غير قلب عائشة عليه وجعلها لا تذكر اسمه . حتى أنها لما ذكرت أن رسول الله خرج وهو مريض إلى المسجد قالت خرج يتهاذى بين العباس ورجل آخر تبنى علياً . وروى أنها لما بلغها مقتل علي قالت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرعنا بالإياب المسافر
وكانت إجابة عبد الله بن عامر أول ما تكلم به الناس بالحجاز ، فرفع بنو
أمية رؤسهم . وقام معهم الوليد بن عقبة وسائر بني أمية وعبد الله بن عامر
أمير البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن وطلحة والزبير من المدينة واجتمع
ملأوم بعد مراجعة طويلة على البصرة . وقالت عائشة : أيها الناس إن هذا حدث
عظيم وأمر منكر فانفضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه فقد
كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللسلبيين بثأرهم .

وروى الطبري أن أول من أجاب إلى أمر عائشة عبد الله بن عامر وبنو أمية
وكانوا قد سقطوا إليها بعد مقتل عثمان وقد قدم ابن عامر أولاً ثم قدم يعلى
ابن أمية فاتفقا بمكة ومع يعلى ستائة بعير وستائة ألف فأناخ بالأبطح معسكراً
وقدم معها طلحة والزبير فلتقيا عائشة فقالت ما وراءكما ؟ فقالا ورائنا أنا نخملنا
بكليتنا هرباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون
حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم . قالت : فاتمروا أمراً ، ثم نهضوا
إلى هذه الغوغاء ، ثم تمثلت :

ولو أن قومي طاوعتني سرائهم لانقذتهم من الحبال أو الخبل
وقال القوم فيها اتمروا به : الشام . فقال عبد الله بن عامر قد كفاكم الشام
من يستمر في حوزته . فقال طلحة والزبير : فأين ؟ قال البصرة فإن لي بها صنائع
ولهم في طلحة هوى . قالوا قبحك الله فوالله ما كنت بالمسلم ولا بالمحارب ، فهلا
أقمت كما أقام معاوية فكنتي بك ونأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟
فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً . حتى إذا استقام لهم الرأي على البصرة قالوا :
يا أم المؤمنين ، دعى المدينة فإن من معنا لا يقرنون تلك الغوغاء التي بها .
واشخصى معنا إلى البصرة فإننا نأتى بلداً مضيعاً وسيحتجون علينا في بيعه على
ابن أبي طالب فتنهضهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدن فإن أصلح الله الأمر
كان الذين تريدن وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله
ما أراد فلما قالوا ذلك لها ولم يكن ذلك مستقيماً إلا بها قالت نعم . وقد كان أزواج

النبي صلى الله عليه وسلم على قصد المدينة ، فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك ، وانطلق القوم إلى حفصة فقالت : رأيي تبع لرأي عائشة حتى إذا لم يبق إلا الخروج قال لهم يعلى بن أمية . معى ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها . وقال : ابن عامر معى كذا وكذا فتجهزوا به فإدى المنادى : إن المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . فحملوا ستمائة رجل على ستمائة من الإبل سوى من كان له مركب وكانوا ألفاً . وتجهزوا بالمال ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين . وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله بن عمر - وكان شخص إلى مكة بإذن على معتمراً - فطلب إليها أن تقعد فقعدت وبعثت تقول لعائشة : عبد الله حال بيني وبين الخروج فقالت يغفر الله لعبد الله ، وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يدعى ظفراً ، فاستأجرته على أن يطوى ويأتى علياً بكتاب كتبت به إليه .

وسار معهم مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا سائرين حتى قاربوا البصرة . كان الزبير وطلحة قد كاتباً ناساً من أهل البصرة ليدخلوهم فيما اعتزما عليه وما جاء مع عائشة له ، فكتبوا إلى سعد بن سوره أما بعد فإنك قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فأغضب له من القتل والسلام ، فأجابهما : أما بعد : فإننا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان فجاء أمر الغير فيه بالسيف . فإن يك عثمان قُتِلَ ظالماً فالسكا وله ، وإن كان قتل مظلوماً فغير كما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل ، وكتابا إلى الأحف ابن قيس ، أما بعد فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق وقد بلغك مصاب عثمان ونحن قادمون عليك والعيان أشقى لك من الخبر والسلام ، فأجابهما : أما بعد فإنه لم يأتنا من قلسكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان . وأتم قادمون علينا فإن يك فى العيان فضل نظرنا فيه ونظرتم وإن لا يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة والسلام ، وكتبا إلى المنذر بن الجارود . أما

بعد فإن أباك كان رئيسا في الجاهلية وسيدا في الإسلام . وإنك من أهلك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . وقد قتل عثمان من أنت خير منه وغضب له من هو خير منك والسلام ، فأجابهما المنذر : أما بعد — فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر . وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس . وقد كان بين أظهركم نخذلتوه . فتي استنبطتم هذا العلم ، وبدأ لكم هذا الرأي ؟

وقد ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن القوم في مسيرهم إلى البصرة نزلوا بأوطاس من خيبر ، فأشرف عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة ، وقال لعائشة أين تريدان يا أم المؤمنين ؟ قالت أريد البصرة . قال وما تصنعين بالبصرة ؟ قالت أطلب بدم عثمان . قال فهؤلاء قتلة عثمان معك . ثم أقبل على مروان فقال له : وأنت أين تريد أيضا ؟ قال البصرة . قال وما تصنع بها ؟ قال أطلب قتلة عثمان . قال فهؤلاء قتلة عثمان معك . إن هذين الرجلين قتلا عثمان (طلحة والزبير) وهما يريدان الأمر لأنفسهما . فلما غلبا عليه قالوا : نغسل الدم بالدم والحوبة بالتوبة ثم قال المغيرة بن شعبة : أيها الناس ، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيرا لكم . وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان . وإن كنتم تقمتم على شيئا فبينوا ما تقمتم عليه . أنشدكم الله . فتذنين في عام واحد ؟ فأبوا إلا أن يعضوا بالناس . فلحق سعيد بن العاص باليمن ولحق المغيرة بالطائف ، فلم يشهدا شيئا من حروب الجمل ولا صفين . أقول إن الخبر على هذا الوجه غريب وإن من طبيعة الجماعات أنهم لا يطبقون الكلام على مثل هذا الوجه فإننا من هذا الخبر في شك

ولما دنوا من البصرة وعلم بقدمهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل على ندب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي ، ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم . ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراهما عن قدمهما فقالت لهما : إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وأووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة

رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراس والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرّون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراونا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا — وقرأت : لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، نُفِهُسُ في الإصلاح من أمر الله عز وجل ورسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى . فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ؛ ومنكر تنهاكم عنه ونحشمكم على تغييره . ثم سألا طلحة ما أقدمك ، فقال المطالبة بدم عثمان ، قال ألم تباع عليا ؟ قال بلى واللج على عنقي وما أستقبل عليا إن هو لم يحمل بيننا وبين قتله عثمان . ولقيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة ، ثم عاد الرجلان إلى عثمان بن حنيف بما سمعا

عزم عثمان بن حنيف على منع القوم من البصرة ، فنخطب في الناس فقال أيها الناس إنما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديكم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ، والله لو علم على أن أحدا أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لباع من بايعوا وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من أصحاب رسول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنهم ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله . فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة والولادة قبل الحمل وطلبا ثواب الله من العباد . وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين فإن كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولوا : ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة والعامة على بيعة علي ، فأتروا ؟ فقال حكيم بن جلة العبدى : نرى إن دخلا علينا قاتلتناهما وإن وقفنا تلقيناها . والله ما أبالي أن أقاتلها وحدي وإن كنت أحب الحياة . وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيره ولا غشا

ولا سوء منقلب إلى نعت . وإنما لدعوة قتيلا شهيد وحيها فائز والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا ، وهذه ربيعة معك لم يكن أهل البصرة على رأى واحد . فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من هم على مثل رأيهم .

وكان عثمان حين أراد أن يقوم على أمره ويحمد في رد أصحاب الجمل أتاه هشام ابن عامر وقال له : يا عثمان إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر ، فإصحهم حتى يأتي أمر على ولا تحاذهم . فأبى ونادى في الناس بالتهيو ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع وأقبل عثمان على الكيد . فكاد الناس لينظر ما عندهم . ودس إلى الناس رجلا كوفياً قديساً . فقال : أيها الناس . أنا قيس بن العقدية الحميري . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم . إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاؤا من المكان الذى يأمن فيه الطير وإن جاءوا يطلبون دم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤا . فقام إليه الأسود ابن سريع السعدي فقال : أوزعوا أنا قتلة عثمان رضى الله عنه ؟ فإنما فرعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فإن كان القوم قد أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم أن يخرجوا ؟ الرجال أو البلدان ؟ فخصبه الناس فعلم عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم . ففكره ذلك

أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلا وأمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان ومن كان معه . وجعلوا يتوافدون حتى غص بالناس فقام طلحة في ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان في ميسرة . فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه ودعا إلى الطلب بدمه وقال : إن في ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فهو حد من حدود الله وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يكن لكم سلطان ولم يقيم لكم نظام . وتكلم الزبير بمثل ذلك فقال من بالميمنة : صدقا وبراً ، وقال من بالميسرة : فجراً وغدراً وقالوا الباطل وأمرأ به قد بايعائهم جاء يقولان ما يقولان وتحاثا الناس بالتراب

وتحاصبوا ومرج أمرهم . فتكلمت عائشة وكانت جهورية الصوت يعلو صوتها كثرة كأنها صوت امرأة جليلة . فحمدت الله عز وجل وأثنت عليه وقالت : كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه وبزُرُون على عماله ويأتونا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسنا من كلامنا في صلاح بينهم فننظر في ذلك فنجده برياً تقياً وفيما ونجدهم فجرة غدره كذبة يحاولون غير ما يظهرون . فلما قوا على المكابرة كاثروه فاقحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمسال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . ألا إن مما ينبغى ولا ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه . وإقامة كتاب الله ليحكم بينهم . فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين : فرقة قالت صدقت وبرت وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبت والله ما نعرف ما تقولون فتحاثوا وتحاصبوا وأرهبوا فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان إلى موضع في المربد وبقي أصحاب عثمان يتدافعون حتى تحاجزوا - ومال بعضهم إلى عائشة ، وأخذ عثمان ومن معه على طريق المسجد أقبل جارية بن قدامة السعدي فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك . إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت خرجت طائعة فارجعي إلى منزلك . وإن كنت أتيتا مستكرهة فاستعيني بالناس . وخرج شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك . وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما ؟ قالوا : لا . قال : فما أما منكما في شيء . واعتزل وقال

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم	هذا لعمرى قلة الإنصاف
أمرت بجر ذبولها في بيتها	فهوت تشق اليد بالإيجاف
عرضاً يقاتل دونها أبناؤها	بالنبل والخطى والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها	هذا المخبر عنهم والكافي

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة - وكان محمد رجلاً عادياً - فقال : أخبرني عن قتلة عثمان . فقال : نعم ، دم عثمان على ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة الهودج (يعنى عائشة) وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعنى أباه طلحة) وثلث على علي بن أبي طالب . فقال الغلام : لا أراى على ضلال . ولحق بعلي وقال :

سألت بن طلحة عن هالك بجوف المدينة لم يقبر
فقال ثلاثة رهط هم أماتوا ابن عفان واستعبر
فلك على تلك في خدرها وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبي طالب ونحس بدويّة قرقر
فقلت صدقت على الأولين وأخطأت في الثالث الأزهر

ولما تم أمر الفريقين على النحو الذى وصفنا . أقبل حكيم بن جبلة وهو على الخيل فأنشب القتال وأشرع أصحاب عائشة رماحهم وأمسكوا ليمسكوا فلم يثبته ولم يثب . فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم . وهو يذمر خيله ويقول : إنها قریش ليردنها جنبها والطيش واقتلوا وأشرف أهل الدور . بمن كان له فى أحد الفريقين هوى فكانوا يرمون مخالفهم بالحجارة . وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن وثار إليهم الناس حتى حجزهم الليل . ثم جاء أبو الجرباء التميمى فأشار على طلحة ومن معه بمكان أمثل من مكانهم . فساروا إلى مقبرة بنى حصن وباتوا يتأهبون للحرب وأصبح عثمان ومعه جبلة خارجين للحرب وجبلة يسب عائشة . ولامه رجل وامرأة فقتلها . والتقى الفريقان وقتل من أصحاب عثمان خلق كثير وفشت الجراحات فى الفريقين ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون إلى أن زالت الشمس وعصمتهم الحرب ومسهم الشر . نادوا أصحاب عائشة . . إلى الصلح فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يسعوا رسولا إلى المدينة ليستخبر أهلها . فإن كان طلحة والزبير أكرها على بيعه على خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير

عنها وهذا هو الكتاب بالصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اصطلاح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين . إن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده وإن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين كعب بن سور من المدينة ولا يضار واحد من الفريقين الآخر في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة . بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما ، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيئته وإن شاء دخل معهما . وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة علي وإن شاء خرجا حتى يلحقا بطيئتهما والمؤمنون أعوان الفالج منها ، فخرج كعب بن سور حتى قدم المدينة يوم الجمعة واجتمع الناس لقدمه فقال : يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم أكره هؤلاء الرجلان على بيعة على أم أتياها طائعين ؟ فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قال : اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان : فوائبه سهل بن حنيف والناس حتى خشى عليه أصحاب رسول الله القتل فقاموا لينعوه وفيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة وصدّقوا قوله ومنعوه ، وقال له محمد بن مسلمة أما وسعك ما وسعنا من السكوت قال : لا والله ما كنت أرى الأمر يتراعى . ثم رجع كعب بما وقف عليه بالمدينة .

من تمام الأمر بالصورة التي وصفنا نعلم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثا في يد علي والحال تسير على غير نظام . فإن عثمان بن حنيف لم يوله على ذلك المصير ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ولم يأخذ عليه العهد بأن يذل الشروط التي تقضى إلى ضياع الأمصار . وقد كان الرجل على غير ما يجب في أمثاله من الأرب وقوة الحجة . ولو كان على شيء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة علي ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هي للإمام ولا ينبغي التهور إلا في

طاعة لإمام وهم قوم نزاع لا إمام لهم ومن كانت في عنقه بيعة فإنه خارج على إمامه وكان في وسعه أن يلزم القوم التريص حتى يؤامر علياً . ومن الخرق في الرأي أن يرخص لحكيم بن جبلة في القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه في ذلك وإن الإمساك كان أحسن في العاقبة وأرجى في العافية .

بلغ علياً الخبر الذي كان بالمدينة على يد كعب بن سور فبادر بالكتاب إلى عثمان يعجزه ويقول له : والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا وجاء كتاب علي ورجع كعب بن سور قاضي البصرة بما رأى في المدينة فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلاح ، فقال عثمان : أنا لا أخرج واحتج بكتاب علي وقال : هذا أمر آخر غير ما كنا فيه فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء . وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان بن حنيف فقدهما عبد الرحمن بن عتاب للصلاة ، فشهر أصحاب ابن حنيف السلاح فقتلوا ودخلوا على عثمان بن حنيف فضربوه أربعين سوطاً واتفقوا شعر لحيته ورأسه وحاجبه وشعر عينيه وحبسوه ثم أمرت عائشة أن يترك يسير حيث يشاء فترك البصرة وذهب إلى علي .

وأصبح حكيم بن جبلة فيمن تبعه يريدون الحرب وكان أتباعه ممن لهم شركة في فتنة عثمان وعللوا أنهم مقتولون إذا قعدوا . فلما أنشبوا الحرب ونادى منادى عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليتكف عنا فإننا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نريد أحداً

واقتل الفريقان أشد قتال وضرب رجل حكيماً فقطع رجله فجا إليها وأخذ وضرب بها ضاربه فصرعه ثم جا إليه حتى قتله . واتسكا عليه وجاء رجل من أصحابه فقال له من قتلك ؟ قال وسادتي وكان يقف على رجله في ذلك اليوم ويخطب ويحتج على طلحة والزبير — إلى أن انهزم حرقوص بن زهير في نفر من بقي فليجأوا إلى قبائلهم . فنادى طلحة والزبير ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجاءوا ببقيتهم يسوقونهم كما

تساق السكلاب فقتلوا ولم ينج أحد من عزا المدينة من أهل البصرة سوى حرقوص بن زهير السعدي أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه - وجاء طلحة والزبير وأعطوا أهل السمع والطاعة من بيت المال وفضلهم ومنعوا غيرهم فخرجت عبد القيس وكثير من بكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول وبادروا بيت المال ودافعهم الناس وأصابوا منهم . وخرج القوم وأقاموا على طريق علي . وأقام طلحة والزبير ليس معهم بالبصرة نار إلا حرقوص . وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه فقالوا - إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والضيع والكثير والقليل - حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك - فبايعنا أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا نأخذ أم المؤمنين رهينة أن أمرتهم بالحق وحشتم عليه فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا إلى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر لا حرقوص بن زهير والله تعالى مقبده إن شاء الله وكانوا كما وصف الله عز وجل وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلا نهضتم يمثل ما نهضنا به فلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا . وبعثوا به مع سيار العجلي وكتبوا إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتابا طولته وحشتم على متابعتها .

وكانت الموقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦ .

العجب كل العجب من طلاب دم عثمان سواء كانوا من بني أمية أو من غيرهم كطلحة والزبير فإن هؤلاء القوم إنما كانوا يريدون أن يقتلوا كل من ورد المدينة مع المؤلبيين لا يستثنون أحدا منهم . وهم بذلك يريدون أن يقيدوا بدم عثمان من ثلاثة آلاف من أهل القبلة : إذا راعينا من نار إليهم من أهل المدينة وعبدانهم وأهل المياه لبلغ المؤخوذون بدم عثمان الذين يجب قتلهم من خمسة آلاف إلى ما يزيد على عشرة آلاف . وذلك أمر لا يرضاه الله تعالى ولا تأمر به الشريعة . والله تعالى يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل . وهذا نهاية الإسراف ، ورجوع بالمسلمين إلى أمر الجاهلية

ولو نفذنا رأيهم لكان بين الآخذين بثأره العدد الكثير ممن في أعناقهم دمه كطلحة والزبير وعائشة . لأن كلماتهم التي كانت تصدر منهم في حق عثمان بالمدينة تعد مدداً للثوليين وعونا لأهل الفتنة . وقد كان في حكم الانصاف أن يعمدوا إلى رؤساء أهل الفتنة وقادتهم ويقتلوهم أو يقاتلوهم .

يؤيد قولي في طلحة والزبير وعائشة ما روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال : لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت يا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك إلى زورك إن كرهت شيئاً فاجلس . فقال يا علقمة ابن وقاص بينما نحن يد واحدة على من سوانا إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً أنه كان مني في عثمان شيء ليس توبى إلا أن يسفك دمي في طلب دمه . فقلت : فرد محمد بن طلحة فإن لك ضيعة وعيالا فإن نابك شيء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخف في هذا الأمر فامنعه . فأبيت محمد بن طلحة فقلت له : لو أقت فإن حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعة . فقال ما أحب أن أسأل الرجال عنه .

وفي الطبري أن ابن أم كلاب حين أخبر عائشة ببيعة على قالت : ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك ، ردوني . وانصرفت إلى مكة وهي تقول قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه . فقال لها ابن أم كلاب : ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت . ولقد كنت تقولين اقتلوا نعتلاً فقد كفر . فقالت إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي اليوم خير من قولي الأول . فقال أبياتا منها .

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فها أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر

فهؤلاء الرهط لم يقوموا للطلب بدم عثمان في الواقع ولكن - كل إلى حيزه يجذب .

وإذا صح أن طلحة كان ناماً على ما كان منه في حق عثمان فليس السبيل

إلى تكفير خطيئته أن يقاتل علياً بل كان يصبر حتى تجتمع كلمة الأمة ثم يغمد إلى أصحاب رسول الله ويدعوهم إلى مؤتمر يديرون الرأي فيه كما يجب أن يصار إليه في أمر القتلة ورؤوس المؤلّين .

لما بلغ علياً نبأ مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة عدل عن المسير إلى الشام ورأى أن يرتق هذا الفتق وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا إليها . فغلبا انتهى إلى الربرة . أتاه عندهم أنهم قد أمعنوا . فصرى عنه وقال إن أهل الكوفة أشد إلى حبا . وكتب إلى أهل الكوفة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبيكم لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فمن جامنى ونصرنى فقد أجاب الحق وقضى الذى عليه ، .

وأرسل إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن عوف — وفى رواية محمد ابن جعفر — ففضيا وبقي على بالربرة ينهياً وأرسل إلى المدينة فليحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره وخطب الناس وقال : إن الله أعزنا بالإسلام ورفعتنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعده فخرى الناس على ذلك ما شاء الله . الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب لإمامهم . حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزع بين هذه الأمة إلا أن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن . ثم عاد ثانية فقال : ألا إنه لا بد مما هو كائن أن يكون ألا إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى ، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم واتبعوا سنته واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما نكر فردوه ، وارضوا بالله عز وجل رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن حكماً وإماماً .

ثم سار والناس من القبائل يلاحقون به حتى نزل على ذى قار وقد وافاه

عثمان بن حنبل وبلغه ما صنع حكيم بن جبلة وما كان من شأن عثمان فقال :
الله أكبر ما ينجيني من طلحة والزبير إذا أصابا ثأرهما أو ينجيهما وقرأ
« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل
أن نبرأها » وأقام يتلوم بذى قار حتى يأتيه أمر عن رسوله إلى الكوفة .

أما رسوله فقد وردا الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب على ، وقاما في
الناس بأمره فلم يجابا إلى شيء . فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجى على
أبي موسى يستشيرونه . فقالوا : ماترى في الخروج ؟ فقال : كان الراى بالأمس
ليس باليوم . إن الذى تهاوتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ماترون
وما بقى . إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا .
فاختاروا ، فلم ينفر أحد فغضب محمد ومحمد . وأغلظا لأبي موسى . فقال :
والله إن بيعة عثمان لفي عنقى وعنق صاحبكما فإذا كان لابد من قتال . لا نقاتل
أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا فانطلقا إلى على بذى قار وأخبراه الخبر
فأرسل ابن عباس والأشتر إلى الكوفة ليجمعا الناس على أمره ، وكان يأمل
أن ينال ما يرجو بالأشتر لمكانه من أهل الكوفة . فقدموا على أبي موسى
واستعاناه عليه بناس ، فقام أبو موسى فقال للكوفيين في خطبة له : أيها الناس
إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله عز
وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقاً فأنا
مؤدبه إليكم كان الراى أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تهترئوا على
الله عز وجل . وكان الراى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة
فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ولا تكلفوا
الدخول في هذا ، فأما إذ كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان .
واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من
الراكب فكونوا جرئومة من جرائيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا
الأسنة وقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر
وتنجلي هذه الفتنة .

عاد بعد ذلك ابن عباس والأشتر بالخبر إلى علي فأرسل ابنه الحسن وعمار
ابن ياسر إلى الكوفة . فلقيهما مسروق بن الأجدع فأقبل علي عمار وقال :
يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان ؟ فقال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا .
فقال والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين . وخرج
إليهما أبو موسى فضم الحسن إليه وقال لعمار : يا أبا اليقظان أعدوت علي
أمير المؤمنين فيمن عدا فأحلت نفسك مع الفجار ؟ فقال لم أفعل ولم تسؤني
وقطع عليهما الحسن الحديث وقال : يا أبا موسى . لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله
ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين بخاف على شيء . فقال صدقت
بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول إنها ستكون فتنة . وقد جعلنا الله عز وجل لإخواننا وحرَم
علينا أموالنا وأدماءنا . وقال يا أيها الذين آمنوا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل...
ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ، وقال عز وجل : ومن يقتل مؤمناً
متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، الآية . فغضب عمار وقال . يا أيها الناس إنما
قال له خاصة أنت فيها قاعداً خير منك قائماً . ورد رجل على عمار رداً فيصيح
وجاء زيد بن صوحان بكتب عائشة فقرأها على الناس وقال : إنها أمرت
بالقرار في بيتها وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة وهي تنهانا عن
القتال . ورد عليه شبيب بن ربعي بأنها إنما تأمر بالخير والإصلاح . وتهاوى
الناس بعضهم إلى بعض وجعل أبو موسى يكفكفهم ويأمرهم بالسكون
وينصح لهم بأن يتجنبوا الفتنة ولا يدخلوا فيها ويرد عليه زيد بن صوحان بأن
ذلك لا يكون حتى يرد الفرات عن سبيله ويتلو : ألم أحسب الناس أن يتركوا أن
يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، وقام الفقعاق فقال : إن رأى الأمير هو
الرأى لو وجد إليه سبيل وإن زيد بن صوحان لا يؤخذ برأيه لأنه من
أهل التأليب على عثمان . وإن رأى أنه لا بد من إمام ينظم به الأمر وإن
علياً قد وليه وإنما يدعو إلى الإصلاح فليفروا إليه حتى يكونوا بمرأى ومسمع
من الأمر . ورد عليه آخرون وافترق الناس فريقين .

ثم قام الحسن بن علي فقال : يا أيها الناس ، أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن ينفر إليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس : وقال الحسن : إني غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء ، فخرج معه تسعة آلاف ستة آلاف ومئتان في البر وألفان ومئتان في السفن وجاءت الجنود إلى علي بذى قار . فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجؤا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبسموا بظلم ، وإن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله .

فلما حضر أهل الكوفة دعا علي القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة . وقال له : كيف أنت صانع فيم جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة مني ؟ فقال : نلقاهم بالذي أمرت . فإذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكليناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي فقال : أنت لها . وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وقال لها : أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، لإصلاح بين الناس . قال فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما . فبعثت إليهما فجاءا فقال : إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت لإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان ؟ فقالا متابعان . فقال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح فوالله إن عرفناه لنصلحن وإن أنكرناه لا نصلح ، فقالا : قتلة عثمان فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن . فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم . قتلتم ستمائة رجل إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل .

فإن تركنموهم كنتم تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأدبلوا عليكم فالذى حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون . وأنتم أحسن مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . فقالوا وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟ فقال لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة ودرك بنار هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أبيت إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا النور وبعثه الله في هذه الأمة هزاهز فأثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصبر عنا وإياكم . وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها منازل . فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم : أحست وأصبت ، فإن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر .

والناظر فى هذا القول يرى أن القعقاع قد تأتى لهذا الأمر بأحسن ما تأتى له رفيق مصلح حاذق درب . وأن هذا القول وقع من نفس عائشة وطلحة والزبير أحسن وقع . وأنه حملهما على إثارة العافية وما فيه الاجتماع ونبذ الفرقة ورتق ما فتقا وما أجل ذلك لو تم !

رجع القعقاع إلى على وأعلمه علم القوم وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح . ثم أمر على بالرحيل بعد أن جمع الناس وخطب فيهم خطبة قال منها : ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ألا ولا يرحلن غداً أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشيء فى شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم . وقد جاءت وفود قبائل البصرة إلى قبائل الكوفة وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها وأمن الناس بعضهم بعضاً .

من أين جاء الشر ؟

لما كان أمر الصلح لا يسوء أحدا من الأمة سوى المجلبين على عثمان لأن حياتهم لا تكون إلا بدوام الشقاق بين على وخصومه ، أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذا الصلح على أعناقهم ، فاجتمع منهم رهط ممن سار إلى عثمان ورضى بسير من سار وخلصوا نجياً . منهم علباء بن الهيثم وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة العبسي وسريح بن أوفى والأشتر وابن السوداء وخالد بن ملجم وغيرهم فتشاوروا فيما يصنعون وكان فيما قال بعضهم لبعض : إذا اجتمع الناس غدا واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا وأشار بعضهم (وهو الأشتر) بقتل على وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لهم ما أحدثوا بعثمان . فسفه الآخرون رأيه وكل أبدى رأياً . فقال لهم ابن السوداء . إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوه للظفر فإذا من أتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير عما تكرهون .

لما وصل على بعد ذلك إلى البصرة وقد بدت السيئة أمرهم وهو لا يعلم ولا بقية عسكره بما يسرون ، أرسل إلى القوم وإن كنتم على ما غارقتم القمعاق عليه فسكفوا وأقرونا نزل ونظر في هذا الأمر ، فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات الناس ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل فقام السبئية في الغلس ووضعوا السلاح في أهل البصرة وهم غارثون . فلما كانت الهيعة سأل طلحة والزبير عن الخبر ، فقالوا طرقتنا أهل الكوفة ليلاً . فقالا قد علمنا أن علياً غير منتبه حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه وأنه لن يطاوعا . وسأل على عن الخبر . وكان السبئية قد أرصدوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له : ما فجئنا إلا وقوم منهم يبيتونا . فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال على : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه ، وأهما لن يطاوعانا . ولم يجد الفريقان بداً من القتال ، إذ لم يكن ثمة مجال لاستجلاء الواقع ولا تراسل الرؤساء ، وتبين الحقيقة يفضى إلى تدارك الأمر .

وكانت عائشة في هودجها قد جللته الحديد وهي بمكة وجعلت فيه موضعاً لعينها وهي في عسكر أهل البصرة وثار العسكران لبعضهما . وكان القتال في ذلك اليوم من أشد القتال هولا وصدق كل فريق الحملة على الآخر . وأهل البصرة وشجعانهم وذوا السجدة منهم يلوذون بجمل عائشة ويدافعون عنها حتى لا تصاب بشر ، فقتل حوله بشر كثير وقطعت على زمامه أيد كثيرة ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل تنزل بالموت إذا الموت نزل
نعني ابن عفان بأطراف الأسل الموت أحلى عندنا من العسل
ردوا علينا شيخنا ثم مجل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه ابدأ وفيهم عين تطرف ، نادى اعقروا الجمل . فجاء إلى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره وسقط الهودج وكأه قفد لكثرة ما رمى به من النبل فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وقطعا غرضة الرجل واحتملا الهودج فنجياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة .
وكان لما ظهر الضعف في الناس تركهم الزبير بن العوام وولى وجهه شطر المدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله وقتله .

وقد قتل في هذه الواقعة المشؤومة عشرة آلاف فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوى الغناء والنجدة ، منهم الزبير وطلحة ومحمد ابنه وعبد الرحمن ابن عتاب بن أسيد وكثير غيرهم من قریش . فقد قالوا : قتل حول الجمل سبعون قرشياً .

وكان محمد بن طلحة يحمل ويقول : حم لا ينصرون ، فشد عليه جماعة فاشتركوا في قتله وقال أحدهم :

وأشمت قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما نرى العين مسلم
هتكت له بالرحم جيب قميصه نخر صريعا للدين وللغم

يذكرني حم والرحم شاجر فهلا تلا حم قل التقدم
على غير شيء أن ليس تابعا عليا ومن لا يتبع الحق يندم
ولما نقل عمار ومحمد بن أبي بكر عائشة قال لها عمار : كيف رأيت ضرب
بنيك يا أمه ؟ قالت من أنت ؟ قال ابنك البار عمار . فقالت لست لك بأم .
فقال بلى وإن كرهت . فقالت : فخرتم إن ظفرتهم وأتيتهم مثل الذي نقمتهم والله
لن يظفر من كان هذا دأبه . وجاءها علي بن أبي طالب فقال : أي أمه يغفر
الله لنا ولكم . فقالت : غفر الله لنا ولكم .

وكانت الواقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ .
وبعد أن انتهت الواقعة مر على بين القتلى ، فكلما مر بمصرع أهل البصرة
وعرفهم قال : زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وفلان !
ثم صلى على القتلى وأمر بدفنتهم جميعا . وبعد ذلك زار عائشة بالبيت الذي
نزلت فيه وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز .
ثم لما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقالت وسط مشيعيها .
« إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها
وأنه عندي — على معتبتي — من الأخيار » .

وقال علي « أيها الناس صدقت والله وبرت ، وأنه ما كان بيني وبينها إلا
ذلك ، وأنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة » .
وكان خروجها من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها أميالا
وسرح بذه معها يوما .

انتهت الواقعة بظهور علي وانهازم أعدائه هزيمة منكرة . فمن كان منهم من
البصرة أقام مكانه ومن نجا من غيرهم زایل البصرة . وأخذ على البيعة على أهل
البصرة . وولى عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد
ابن أبي سفيان .

كانت هذه الواقعة المشؤومة أول وقعة تلاقى فيها جيوش المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دماء بعض وكل من الجيشين تحت إمرة كبير من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسهل بعدها أن يقف المسلم بإزاء المسلم كل منهما يسفك دم الآخر ويحبل قتله بعد أن كان ذلك الموقف في نظرهم عظيماً مهيئاً .

وقد كان الزبير في بعض خطبه سمي ما فيه الناس فتنة . فقال له بعض الناس أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه ؟ فقال : والله ما وضعت رجلى في شيء إلا وأنا أعلمه إلا هذا الأمر فإنى لا أدري أيقبل بي أم يدبر .

نظرة في وقعة الجمل

أما وقد انتهت الواقعة التى اتسع بها الفتق على المسلمين وسهلت على أهل القبلة أن ينبذ فريق منهم إلى الفريق الآخر على سواء وجعلتهم يسلون السيوف كل منهم على الآخر ويسفك بعضهم دم بعض ، فلا بد للتورخ من أن يقف وقعة القاضى المجتهد ويلقى على هذه الواقعة ومقدماتها وما احتف بها من الأحوال نظرة المدقق ليصدر حكماً عادلاً يلزم به المخطئ . حظه من الخطأ ويحمله تبعه ما أتى باذلاً فى ذلك ما يصل إليه اجتهاده . أما ما لكل من الفريقين عند الله تعالى فالله وليه وهو يتولى الصالحين ورحمهم الله أجمعين .

أما عائشة أم المؤمنين فما كان لها أن تتولى كبر هذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان فإن أولياء دم عثمان كثيرون يفوت عدم الإحصاء وقد علمت أن معاوية بالشام غير وان فى أمره ولا متخاذل فيه وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان وأمس به رحماً وأقرب قرابة وليست رحماً الله بمن جعل الله لهم سلطان هذا الأمر ولولا وجودها فى هذا الجيش لماتت الفتنة فى هذه الناحية ولم يكن لهم نظام ولا حمية . فكانت سبباً لاشتداد البلاء على المسلمين ومشاراً لأمور أنتجت الحزن والأسى . وأما طلحة والزبير ، فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان فى شيء وقد كانا له بين قائم فى الفتنة مشير حريقها وبين خاذل مشير

إشارته أنفذ من صول لا يعنيه من الأمر إلا أن تكون الفتنة بيد غيره وياشرها سواء حتى تساق إليه الخلافة ويده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل . فلما وقعت الواقعة وأخطأه ما أمل ورأى أنه كان يسعى لغيره ويحطب في جبل سواء رجا أن ينال في سلطانه بعض ما يكون له عزاء — وإذا لم تكن إبل فمعزى — فلما رأى الفائز قد قبض يده عنه ولم يسوغه ما أراد ندم ولات ساعة مندم وخرج كل منهما ليغسل الدم بالدم ويكفر عن السيئة بأخش منها جرماً وأسوأ منها عاقبة فسهلا على عائشة خروجها إلى ما ليس من شأنها راجين بلوغ الأرب بمكانها ، فكان الختف فيما يرجوان ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون .

أما على فهو وإن كان في أمر عثمان أقل تأريثاً للشر وأذب عنه قبل اشتداد الأمر إلا أنه لم يكن عنده من الأناة وحسن التأني للأمور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجراح . وإلى أنه أرضى الرجلين ببعض ما في يده مما ليس فيه مصيبة لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثراً في العاقبة وأرجى للسلامة وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن علياً حين أحس بما في نفس طلحة والزبير استشار ابن عباس فأشار عليه أن يولي طلحة البصرة والزبير الكوفة فأبى إشفاقاً منه أن يؤلبا عليه الناس والبصرة والكوفة فيهما الرجال والمال . على أنه لو أرضاهما في أول الأمر حتى إذا اتسق له صنع ما أراد لكان ذلك أحسن في السياسة وأحقن للدماء وقد مر بنا هذا .

على أن علياً لم يكن القوى على جنده الممالك لزمام عسكره الخذر لكل ما يخاف ، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم . ولقد كان عمر بن الخطاب وهو بالمدينة واقفاً على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وأرمينيا والشام ومصر وتخوم الروم لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم . ولكن علياً كان تاركا لشأنهم وهو بين ظهرانهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيتون الشر ويكيدون له والمسلمين حتى لقد كان في ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمهما ويحقن دم المؤلبيين السفاكين الكائدين وهم

بمراى ومسمع منه وهو لا علم له بما يدبرون ولو كان من الضبط لامره والحيطة
فى شؤونه بالمسكان الذى يجب أن يكون به ، ما ساع للسبئية أن ينشبوا القتال
على الوصف الذى يبا . وحسن قول الأستاذ الخضرى رحمه الله فى محاضراته :
لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه . فإن طلحة
والزبير وعائشة خرجوا - كما يقولون - للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً
من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك . ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير
أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على
من يستحقه ؟

إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصّر الإمام فى إقامته
أو اتهم بالهواذة فيه ، مفسدة للظام الذى أسس عليه الإسلام . وإذا كانوا
لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار
المسلمين أولاً للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد
ذلك فى إقامة الحد ولكمهم قاموا بصفهم أفراداً من كسار الأمة ودعوا الناس إلى
أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه . ولا ندرى كيف غاب كل ذلك
عنهم مع سابقتهم وفضلهم ، ولكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا
أدبرت تبيئت . ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة
حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان . حقيقة إن أولئك الشياطين الذين
لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين
كليهما . ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحبث يمكن
فرقة من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه . وإن من الخطأ العظيم
أن يستعين على بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى جده فى الوقت الذى
يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة
لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الإتفاق إنما يقع على
رؤوسهم فهم يذلون كل جهدهم فى تضيق المسالك على كل من يريد الإصلاح
حفظاً لأنفسهم . على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول
اشتراكه فى الدم المسفوك ، وإن كان هو يسكر ذلك إنكاراً تاماً ،

وهو عندنا الصادق في قوله . والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عن ما يحدث الريبة في براءته . وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه . بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليه إلى حظيره . والسكى لا يكون إلا آخر الدواء . اهـ

روى الطبرى بسنده إلى طارق بن شهاب قال : خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتنا قتل عثمان رضى الله عنه ، فلما انتهينا إلى الربرة وذلك في وجه الصبح إذا الرفاق ، وإذا بعضهم يتلوا بعضا . فقلت ما هذا ؟ فقالوا أمير المؤمنين : فقلت ماله ؟ قالوا : غلبه طلحة والزبير . فخرج يعترض لهما ليردهما . فبلغه أنهما فاتاه فهو يريد أن يخرج في آثارهما . فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . أتى علياً فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه ؟ إن هذا لشديد . فخرجت فأتيته فأقيمت الصلاة بغلس فتقدم فصلى . فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس . فقال : قد أمرتك فعصيتني فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك . فقال علي : إنك لا تزال تخينُ خنين الجارية . وما الذى أمرتني فعصيتك ؟ قال : أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبائع حتى يأتبك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر . ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطالحوا فإن كان الفساد كان على يدى غيرك . فعصيتني في ذلك كله . قال : أى بنى أما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . وأما قولك : لا تبائع حتى تأتى بيعة الأمصار . فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . وأما قولك : حين خرج طلحة والزبير أن أجلس في بيتي حتى يصطالحوا فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام والله ما زلت مقهوراً مذوليت . منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي . وأما قولك اجلس في بيتك فكيف لى بما قد لزمنى أو من تريدنى ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يُحَكَّ عرقوبها ثم

تخرج وإذا لم أنظر فيما لزمى من هذا الأمر ويعينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أى بنى .

وكأنى به فى هذا الأمر الأخير يقول بمقالة عمان لا أخلع لباسا البسنيه الله عز وجل وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة ، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار بأهم لامناص لهم من تحمل التبعة الملقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التى يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مراقبها ومقومات حياتها دون أهلها .

ومن الجليل أن أقول وقد كانت سيرة على فى أصحاب الجمل سيرة رفق بعد الموقعة . فقد كان من ذلك أن لا يقتل مدبراً ولا يذفق على جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا . فقال قوم يومئذ ما يُجِلُّ لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم . فقال على : القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ونحن منه ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر وإن لكم فى خمسة لغنى . فيومئذ تكلمت الخوارج ولعله أول كلام ظاهر لهم .

على ومعاوية وما كان بينهما

قبل الكلام على ما بين على ومعاوية أريد أن أسوق كلمة تعرف بها الحال النفسية لأهل العراق وأهل الشام .

أهل العراق وأهل الشام : أهل العراق هم أهل المصرين الصرة والكوفة وهم الذين فتحوا العراق ودوخوا فارس وأرمينيا وفتحوا الفتوح العظيمة ومضروا المصرين وهم من قبائل كثيرة . وقد كان أبو بكر حين وجه الجند إلى جهة العراق وفارس لا يستعين بأهل الردة على قتال الفرس ومن معهم . إلى أن ذهب إليه المثني بن حارثة فى آخر أيام حياته وسأله الاستعانة بمن كان قد ارتد لأن الحاجة ماسة إليهم لكثرة جموع فارس وضخامة حشدهم وما أعدوا لأهل الإسلام من عدة ، فلم يل أبو بكر من ذلك شيئاً ، بل عهد فى ذلك إلى عمر فلما أفضى الأمر إلى عمر استنفر الناس إلى العراق وندبهم للخروج مع المثني

ثم نتابع الأمر على تزجية الجيوش إلى فارس والعراق . واستعان عمر بمن كان من أهل الردة بمن حسن إسلامه ورغب في الجهاد ، غير أنه لم يكن ليولى أحداً أمر الحرب ويوصى القواد أن لا يجعلوا أحداً منهم أميراً حذر غائلتهم ، فلما جاء عثمان سمح لهم بالولايات وقدم كثيراً منهم في الحروب يوليهام أمر بعضها وهم من الإسلام بمنزلة دون السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار ومن ثبتوا على إسلامهم . فلما ضخم الأمر في تلك النواحي ونبئت النابتة لهم في تلك الأمصار لم يكن الدين قد أخذ على شكايتهم وهم برأى ومسمع من الفرس وفي أيديهم السبي ويخالطون أهل الذمة في نواحيهم فأخذوا بعض الشيء من أخذهم وسقط بالمصرين روادف ردف ، وأعراب لحقت ؛ لاسابقة لهم ولا غناء فيهم ، وقد وجدوا التقدم لغيرهم فأحفظهم ذلك وجمعوا بما في نفوسهم من الكراهة لولاية قريش ، وقد أكلت الحرب ذوى الفضل والسابقة والبلاء إلا قليلاً فنقموا تقدم أهل التقدم ثم تدرجوا في الجهر بما في نفوسهم وصاروا يتجنون على العمال والولاية الجنائيات وكلما كرهوا من أمير أمراً استعفوا منه ، وكلما جاءهم أخذهم بآداب وأحوال لا تتفق مع ما أخذهم به سابقه . فسهل عليهم عيب الولاية وإظهار التأفف منهم وواجهوهم بالسوء . كل هذه العوامل أوجدت أهل العراق على أهواء مختلفة ، وأغراض متباينة وإدلال على الأمراء وتجن على الرؤساء مطرحين واجب الحشمة ولازم الوقار ، لا يبالي أحدهم أن يشذ عن الجماعة ويفرق الكلمة ، ومروا على هذا الضرب من الفرقة والتخاذل ، وصاروا أهل جدال ومقارعة بالحجة وقوة عارضه .

أما أهل الشام فهم أهل الولايات الأربع : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما يتبعها من الجزيرة وجهات أرمينيا ، وهم كأهل العراق فيهم بعض المهاجرين والأنصار وقبائل العرب فتحوا تلك الناحية وحملوا ثغورها وقد كثر عددهم غير أن جهاتهم لم تكن كثيرة الانتقاض كنواحي فارس ولم تتغير عليهم الولاية والأمراء بل كان الأمير عليهم معاوية بن أبي سفيان جمعت له بعض الولايات الأربع في مدة عمر واستكملت له في مدة عثمان ، عرفوه أميراً عليهم

وعرفوا أنفسهم رعية سامعة مطعة له ، لم تشتتهم الأهواء ولم يمرنوا على سحق
الرأى والتجنى على الأمراء .

فمعاوية لم يكن طارئاً على أهل الشام بالأمرة ولا جديداً عليهم في الولاية
بل ألفوا طاعته وبتبعوا إليه بنفوسهم وطال حكمه عليهم ، وكان راضياً مرضياً فيهم
أما علي بن أبي طالب فإنه قد ورد العراق على أمراء محالفين له مشبطين عنه
منحازين إلى صفوف أعدائه والطالبين لنفسه التي بين حنبيه قد تخالفوا في شأنه
فرقا وتفرقوا عليه حزائناً ، حتى إذا سمحوا بالدخول في أمره طوعاً أو كرها
وأعطوه أيديهم بالطاعة كانوا يرون أنفسهم أصحاب منة عليه وأولياء نعمة
أسدوها إليه ، ويرون أنفسهم شركاء في أمره وقسماءه في سلطانه ، ينازعونه
الآراء ولا يجيبون له نداء إلا إذا أطلعهم على خفية أمره وأسهم لهم في رأيه .
وجند هكذا يكون أمرهم لا يمكن أن يتم لهم أمر أو يبلغوا من نكاية العدو
مأرباً إذ الطاعة العمياء في الجنود أول شرط من شروط نجاح القواد وإحرازهم
النصر .

إن معرفتنا بكل ما تقدم تحمل لنا كثيراً من الأمور التي نراها أشبه بعقدة
لا تحل من نجاح معاوية مع تأخره وسابقة على فضله وغناؤه في الإسلام
وإخفاق علي مع ماله من الفضل .

كأنى بمعاوية كان عالماً جد العلم بالروح السارى في نفوس أهل العراق ،
والروح المبين له السارى في أهل الشام . وإن من كان على مثال أهل الشام كان
جديراً بالفوز والغلب ، إذ الاجتماع في الرأى ، والاتفاق في الكلمة ، والتسليم
للرئيس بالطاعة على ما أحب المرء أو كره مدد لا يعادله مدد وعامل قوى من
عوامل الفوز .

أما علي رضي الله تعالى عنه فإنه لم يحسب لهذه الأمور حسابها يوم بايع .
ويظهر المطلع أنه لم يكن على بينة من الحالة النفسية لأهل العراق وأهل الشام .
ولا بالحالة النفسية لمعاوية وماله من المسكنة عند القوم الذين هم في يده . وأن
مما سهل على معاوية القيام بما قام به وكثر الجموع لديه أنه كان والياً على جميع

ولايات الشام زمناً مديداً ولو أنه كان على دمشق وحدها ما تسنى له أن يقوم في الأمر على الوجه الذي قام به ولكان له مع علي شأن آخر .

يقول أرباب البصر بنواميس الاجتماع وطبيعة الجماعات : إن عمل قواد المجموع على الدوام خلق الاعتقاد في النفوس لا فرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً ولا أن يكون عمله عملاً أو إنساناً أو رأياً (روح الاجتماع) .

وقد كان معاوية قائداً بهذا المعنى . فإنه قد خلق في أهل الشام اعتقاد إجرام علي ، وأنه قتل عثمان ظلماً وعدواناً وأن دمه في عنقه ، وأن قتاله على ذلك واجب . وقد تأتى لمعاوية في هذا الأمر ما لم يكن يحلم به ، فإنه نصب قيص عثمان وهو مضر ج بدمه على منبر دمشق سنة كاملة وعلى أردانه أصابع نائلة زوجه يعرض ذلك على أنظار الناس ويستثير حميتهم ويدكى بذلك الأحقاد في قلوبهم على علي الغاصب — زعموا — للخلافة ، المحل لدم الخليفة وقد آوى قلبه . ولا شيء يهيج الإحساس ويثبت الاعتقاد كالصور التي تعرض على الإنسان . فما بالك بالدم على قيص الخليفة وأصابع زوجته مدلاة في رده تعرض على الأنظار بكرة وعشياً . ولم يكن لعل وسيلة كهذه يؤثر بها في قلوب أصحابه ويحمسهم بها .

فهذه الأمور وما تقدمها أوجدت لمعاوية نفوذاً شخصياً في القوم الذين معه زاده قوة ورسوخاً ماله من الإمرة والمسلطة فيهم دهرأ طويلاً . لهذا كان معاوية لا يلقى معارضاً لأوامره ولا معقب لحكمه . بخلاف علي فإنه لم يكن له في جندهم هذا النفوذ الذي كان لمعاوية في جنده .

يقول غوستاف لوبون ما معناه . إن قائد الجماعة يجب عليه أن يعرف روح الجماعة البعيدين عنه ليعرف كيف يسوسهم ويؤثر فيهم وإلا كان عمله ضائعاً . وإن نابليون كان عالماً بروح الجماعة في فرنسا ولذلك كان تأثيره عظيماً فيهم ناجحاً على الدوام . ولكنه لما ذهب روسيا لم يكن عالماً بأحوالهم فظن أنهم يكونون له على مثال أهل فرنسا وأنه لا يلقى في إخضاعهم وإلقائهم إليه بالطاعة عناء فكان الأمر على غير ما قدر . اهـ .

والظاهر أن علياً سيق إلى الأمر وهو غير عالم بما يتنازع أهل العراق من الآهواء ، وأنهم ليسوا بأهل جماعة ، وأن أحوالهم قد فسدت بخلاف أهل الشام . لذلك لقي العناء الأشد في أخذ طاعتهم له ، وكانت المسكيدة فيهم أسهل والتأثير في حل زباطتهم أسرع . والله يحكم لا معقب لحكمه .

بدء أمر معاوية

ذكر مؤلف (الإمامة والسياسة) أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان تذكر فيه دخول القوم عليه وما صنع محمد بن أبي بكر من تنف لحيته في كتاب رققت فيه وأبلغت حتى إذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه ويقميص عثمان مخضباً بالدم ممزقا وعقدت شعر لحيته في زر القميص . فصعد معاوية المنبر بالشام وجمع الناس ونشر عليهم القميص وذكر ما صنعوه بعثمان فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهق . ثم دعاهم إلى الطلب بدمه . فقام إليه أهل الشام فقالوا هو ابن عمك وأنت وليه ونحن الطالبون بدمه . فبايعوه أميراً عليهم . وكتب وبعث الرسل إلى كور الشام وكتب إلى شرحبيل بن السمط السكندى وهو بمحصر يأمره أن يبايع له بجمص كما يبايع أهل الشام . فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناساً من أشرف أهل حمص فقال لهم : ليس من قتل عثمان بأعظم جرماً ممن يبايع لمعاوية أميراً وهذه سقطة ولكننا نبايع له بالخلافة ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص . وكتب إلى معاوية : أما بعد فإنك أخطأت خطأ عظيماً حين كتبت إلى أن أبايعك بالإمرة وأنت تريد أن تطلب دم عثمان الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة وقد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة . فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ودعا الناس وصعد المنبر وأخبرهم بما قال شرحبيل ودعاهم إلى بيعته بالخلافة فأجابوه ولم يختلف عليه أحد .

﴿ شرحبيل بن السمط ﴾

مر بنا أن معاوية لما خالف على أمير المؤمنين على بن أبي طالب لم يبدأ أمره

إلا بأن يأخذ البيعة على من قبله بالإمرة عليهم للطلب بدم عثمان . فالخلافة لم تكن مطمح نظره إلى أن وجه نظره إليها شرحبيل بن السمط فمن هو شرحبيل ؟ وما مبلغ أثره ؟ وما الذى حمّله على ذلك ؟ .

أما الرجل فهو شرحبيل بن السمط من بنى معاوية بن عمرو من كندة ثبت هو وابنه على إسلامهما حين ارتدت كندة وقامت الفتنة بينهم وبين لييد بن زياد الأنصارى بسبب ناقة للعداء بن حجر أخى شيطان بن حجر وضع لييد عليها ميسم الصدقة خطأ وأبى أن يطلقها لصاحبها . فاستغاث شيطان بقومه وتمادى الخلاف فارتدوا وحاربوا فقام شرحبيل وابنه وتبرأ من قومهما الذين ارتدوا وقالوا لبني معاوية : إنه لقيسح بالأحرار التنقل إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا عنها مخافة العار ، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق ، إلى الباطل والقيبح ، اللهم إنا لا نألى قومنا على ذلك . وانتقلا إلى لييد بن زياد ومعهما امرؤ القيس بن عباس وكانوا يشيرون على لييد بالرأى والمكيدة فى الحرب فطرق زياد بجنوده مع الليل رؤساء المشاقين فأصاب ملوكهم وهم : مشرح ومخوص وجمد وأبضعة وأختهم العمردة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا عليهم حين بلغه أمر ردتهم فانقضت جموعهم وهرب من أطاق الحرب وسبى النساء والذرارى ولما مر السبي بالآشعث بن قيس فكهم وجمع الجموع لقتال المسلمين . وكان له مع المسلمين وقائع انتهت بحصار الأشعث ومن معه بحصن النجّيز . فلما عضتهم الحرب واشتد عليهم الحصار خرج الأشعث ومعه تسعة من الحصن ليستأمنوا لأنفسهم ويسلموا الحصن بمن فيه فكتبوا أسماء من يشملهم الأمان ونسى الأشعث أن يكتب اسمه وأراد لييد قتله بعد أن قتل المقاتلة من أهل الحصن وسبى غير المقاتلة . فقال أصحابه : أخره حتى يقدم على أبى بكر فهو أعلم بالأمر . فسيره مع السبي . فكان قومه يلعنونه لغدره والسبي يلعنونه . فلما قدم على أبى بكر (وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد توفى) قال له الأشعث : احتسب فى خيراً وتطابق إسرائى وترد على زوجتى (أم فروة أخت أبى بكر) وتقبلنى عثرنى وتفعل فى ما فعلت

بأمثالي تجدني خير أهل بلادى لدين الله . خفن أبو بكر دمه عليه ورد عليه أهله وأقام بالمدينة .

كان عمر بن الخطاب قد سير شرحبيل بن السمط إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق فكان معه وقدمه سعد وقربه ، فحسده الأشعث بن قيس . ولا يبعد أن يكون وجود شرحبيل في الجيش المحارب للأشعث أيام رده له أثر في حسده له واضطغانه عليه .

كان سعد بن أبي وقاص أوفد جرير بن عبد الله على عمر فتدسس له الأشعث بن قيس وقال له : إن قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل . فلما قدم سأله عمر عن الناس فأحسن الشاء على سعد . قال : وقد قال شعراء :
ألا ليتنى والمرء سعد بن مالك وزيراً وابن السمط في لجة البحر
فيغرق أصحابي وأخرج سالماً على ظهر قرقور أنادى أبا بكر
من هذين البيتين فهم عمر أن الناس يتبرهون بمكان زبر وشرحبيل من سعد وكان من شأن عمر الحرص على ألا يبقى لأحد من الناس علة يعتل بها فأرسل إلى سعد أن يرسل إليه زبراً وشرحبيل ، فلما قدما عليه أمسك زبراً بالمدينة وسير شرحبيل إلى معاوية بالشام فشرف بها وتقدم وعلا شأنه عند معاوية وعند الناس .

فلما قدم جرير بن عبد الله رسولا من على إلى معاوية وهو ثار شرحبيل ، عزم شرحبيل على إحباط مسعاه وردة غائباً ، فكان بما قاله لمعاوية حين أفضى إليه بما جاء إليه جرير ، كان أمير المؤمنين عثمان خليفتنا فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا ، وعمل على مبايعته بالخلافة . وانصرف جرير إلى على . وقد قال النجاشي :

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ولكن لبغض المالكى جرير
وقولك ما قد قلت عن أمر أشعث فأصبحت كالحادى بغير بعير

مسير عمرو بن العاص إلى معاوية

كان عمرو بن العاص بالمدينة في بدء الفتنة . ولا تجهل أن عثمان لم يكن بمحلاً

في شأنه لأن عمرو بن العاص هو الذي فتح مصر وثبت فيها كلمة الإسلام ودان أهلها له بالطاعة أقام واليا عليها بقية أيام عمر . فلما جاء عثمان عزل عمرأ عنها وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، والفظام عن الولاية شديد . فليس من الغريب أن يكون عمرو بن العاص في نفسه معتبة على عثمان . فكان عمرو يرمى بكلمات لها وقع الاسنة على عثمان حتى قيل إن عمرأ لما بلغه قتله قال : أنا أبو عبد الله . أنا قتلته وأنا بوادى السباع . ومعناه في ذلك أنه كان يؤلب عليه ويلقى إلى الناس ما يغير قلوبهم عليه حتى قلوب رعاة الشاء في الجبال وفي الأودية

خرج عمرو بن العاص من المدينة لما أحيط بعثمان وقال : يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل ، من لم يستطع نصره فلهرب وصار إلى فلسطين ومعه إبناه عبد الله ومحمد وأقام بها . فمر به راكب وأخبره بأنه ترك عثمان محصوراً . ثم مر به راكب آخر فأخبره بقتل عثمان . وبعد مدة مر به آخر فأنبأه ببيعة على . وأن الوليد بن عقبة سأل عليا عن قتله فقال له والله ما أمرت ولا نهيت ولا سرفني ولا سامني وأنه آوى ولم يرض (أي بالقصاص منهم) وإن مروان احتج عليه فقال إن لم تكن أمرت فقد توليت الأمر (أمر المسلمين) وإذا لم تكن قتلت فقد آويت القاتلين . فقال عمرو بن العاص : خلط والله أبو الحسن أنا أبو عبد الله يكون فيها حرب . من حك قرحة نكأها . فقال سلم بن زنباع : يا معشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا بابا غيره . فقال عمرو : ذلك الذي نريده . ويقول ابن الأثير ثم ارتحل عمرو يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه أنعى الحياء والدين . حتى قدم دمشق .

ويذكر ابن الأثير أن عمرأ قال حين بلغه قتل عثمان : إن يل هذا الأمر طلحة فهو قتي العرب سييا وإن يله ابن أبي طالب فهو أكرم من يليه إلى . فلما بلغه بيعة الناس لعلي اشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يفعل الناس . فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة فتربص حتى أتاه خبر وقعة الجمل وما تم فيها فارتجح عليه أمره .

أدار عمرو عينيه فإذا معاوية بالشام يعظم شأن عثمان، ويدعو إلى الطلب بدمه وكان معاوية أحب إليه من علي، فاستشار ولديه وقال لهما أما علي فلا خير لي عنده وهو يدل بسابقته وغير مشرقي في شيء من أمره، فأشار عليه ابنه عبد الله بأن يكف يده ويجلس في بيته حتى يجتمع الناس. وأشار عليه محمد بأنه لا ينبغي أن يجتمع الناس في هذا الأمر وليس له فيه صوت. فحمد لسل منهما رأيه وعمل برأي محمد وخرج إلى الشام فحسن لمعاوية ما رأى ومعاوية لا يلتفت إليه. وكأني بمعاوية وقد تخوف أن يكون الرجل يظن غير ما يظهر فلم يسترسل إليه حتى يكون على بيته من أمره.

رأى ابنه إعراض معاوية عنه فأشارا عليه بمفارقتها. فدخل عمرو على معاوية وكلمه في هذا الشأن بما كانت عاقبته أن استدناه وأشركه في أمره وجعله موضع شره ومرد مشورته.

وإني لأستبعد ما قصه ابن الأثير من أن عمرًا قال لمعاوية: والله لعجب لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض غنى! إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه. فإني لأحسن أن المخاطبة على هذا الوجه لا تسمح بها نفس عمرو بل هو يتكرم عنها ولا يقبل ذلك منه معاوية. مهما قيل إن باطن أمر كل منهما كان على ذلك.

﴿ خروج بن أبي سرح إلى مصر ﴾

فلما خرج عبد الله بن أبي سرح يريد المدينة وثب محمد بن أبي حذيفة على إمارة مصر فأحذها وصلى بالناس. وعلم ابن أبي سرح بالخبر فلم يقدر على الرجوع إلى مصر فأقام يتخومها حتى جاءه خبر قتل عثمان وبيعة على فاسترجع. فقال له المخبر كأن ولاية علي بن أبي طالب عدلت عندك قتل عثمان. قال أجل فنأمله الرجل وقال كأنك عبد الله بن أبي سرح أمير مصر. قال أجل. قال فإن كان له في نفسك حاجة فالنجاه النجاه فإن رأى أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك

سمى إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين وهذا بعدى أمير يقدم عليك . قال : ومن هو قال : قيس بن سعد بن عبادة . فقال عبد الله أبعده الله محمد بن أبي حذيفة فإنه بغى على ابن عمه وسعى عليه وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه . فأساء جواره ووثب على عماله وجهز الرجال حتى قتل ثم ولى عليه من هو أبعده من عثمان ، لم يمتعه بسطان بلاده حولا ولا شهراً ولم يره أهلاً لذلك ، فقال الرجل أنج نفسك لا تقتل . فولى عبد الله وجهه شطر الشام ولحق بمعاوية .

وكان على بن أبي طالب لما ولى دعا بقيس بن سعد وقال له : سر إلى مصر فقد وليتها وأخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحبيت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشتد على المريب وارفق بالعامّة والخاصة فإن الرفق بمن . فقال له قيس : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، فقد فهمت ما قلت ، أما قولك أخرج إليها بجند فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند آتيتها به من المدينة لا أدخلها أبداً ، فأنا أدع ذلك الجند لك فإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك وأنا أصير إليها بنفسى وأهل بيتى . وأما ما أوصيتنى به من الرفق والإحسان فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك . فخرج قيس بن سعد في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر . فصعد المنبر للجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرأ على أهل مصر . وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم وإني إليكم أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتديره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده وخص به من انتخب من خلقه . فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض

والسنة لكيما يهتدوا وجمعهم لكي لا يتفرقوا وزكاهم لكيما ينظروا ورهم لكي لا يجوروا . فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملاً بالكتاب والسنة وأحسن السيرة ولم يعدوا السنة ثم توفاهما الله عز وجل ورضى الله عنهما ثم ولي بعدهما وال فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ثم نقموا عليه فغيروا ثم جاءوني فبايعوني . فاستهدى الله عز وجل بالهدى وأستعينه على التقوى ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنة والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل - وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً فوازيه وكانموه وأعينوه على الحق وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم وهو من أَرْضَى هديه وأرجوا صلاحه ونصيحته أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في صفر ٣٦ - تم .

ثم إن قيس بن سعد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين : أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعه لنا عليكم . فقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر وبعث عليها عماله وتمت مصر على الطاعة إلا جماعة في خربنا أعظموا قتل عثمان واعتزلوا ينتظرون ماذا يتم وقالوا له ابعت عمالك فإن الأرض أرضك لا ننازعك وأمهلنا حتى يتبين الأمر . وكذلك مسلمة بن مخزوم لم يبايع وعاهد قيساً أن لا يعمل شيئاً ما بقي واليا على مصر وبقي في مصر إلى أن انقضى أمر الجمل . وكان قيس كافياً ، فكان أثقل شيء على معاوية وقد خشي أن يسير إلى علي وقيس خلفه بمصر - فكتب معاوية إلى قيس يعظم قتل عثمان ويطوفه علياً ويحضره على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يوليهِ العراقيين إذا طفر ولا يعزله

ويولى من أراد من أهله الحجاز كذلك ويعطيه ماشاء من الأموال .
فنظر في الأمر هو ومن معه من أهله بين موافقته ومصانعته ومطاولته
أو معاجلته بالحرب فأثر الموافقة والمطاوله وكتب إليه - أما بعد فإنى لم أقارف
شيئاً مما ذكرته وما اطاعت لصاحبي على شيء منه . وأما متابعتك فأنظر فيها -
وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قلى تكرهه حتى
نرى وترى . وكان يريد بذلك أن يطمع معاوية فى متابعتة حتى يتهبأ له مناجزته .
ولو أن قيساً بقى بمصر إلى زمن حرب صفين لكان وجوده شاغلاً لمعاوية
ولكان له معه شأن آخر ولكان أخرى أن ينقض من أمر معاوية كل مبرم .
كتب إليه معاوية بعد ذلك إنى لم أرك تدنو فأعدك سلماً ولا تتباعد
فأعدك حرباً ، وليس مثلى يصانع المحادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال
وأعدة الخيل والسلام .

علم قيس أن المدافعة لا تنفع معه . فأظهر ما فى نفسه وكتب إليه بالرد
القبيح والشتم والتصريح بفضل على والوعيد . وكان فيما قاله : « وأما قولك
أنى مالى عليك مصر خيلاً ورجلاً فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون
نفسك أهم إليك ، إنك لذو جد والسلام » . فأيس منه معاوية وثقل عليه مكانه
وأخذ يكيد له من قبل على فأشاع عنه أنه ماله وواقفه وأنه صار شيعة له وأنه
تأنيه كتبه ورسله وأنه قد ماله المطالبين بدم عثمان بمصر يجرى عليهم الأرزاق
ويوافيهم بالأعطيات . فوصل ذلك إلى على من محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر
وعيونهم بالشام . فأعظم على ذلك ولم يشأ أن يصدق فى قيس قولاً وتفاوض
مع ابنه وعبد الله بن جعفر فأشار عليه الأخير بعزله .

أما على فتمهل فى العزل . وجاءه بعد ذلك كتاب قيس بن سعد بشأن
المعتزلين بخربتا ومن لم يبايع وأنهم كافون عن القتال حتى يتبينوا . وخشى من مع
على أن تكون عمالة فأشاروا عليه أن يأمره بقتال الكافرين عنه . فأمره بذلك .
فلم ير قيس رأياً وكتب إليه : « متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن
معتزلون والرأى تركهم » . فكان ذلك مما يقوى ريبة أصحاب على فى أمر

سعد فأشاروا عليه بعزله وبعث محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ففعل . وغضب قيس وخرج من مصر إلى المدينة وعليها مروان بن الحكم فأخاف قيساً . فخرج عنها ولحق بعلي . وعاتب معاوية مروان فيما فعل وقال له : إنك أمددت علياً بقيس . ولو أنك أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس . وضعفه فيما صنع . أما قيس فلحق بعلي وكشف له الخبر فقبل عذره ووافقه على أمره كله . وكان خروج قيس بحسن تدبير معاوية وسلامة صدر علي .

أمر صفين

قال الأستاذ الحضري : لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفضاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين .

انصرف علي بن أبي طالب من البصرة إلى الكوفة وبعث إلى جرير بن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس السكندى وكانا عاملين لعثمان بفارس وأولهما بهمدان والثاني بأذربيجان أن يأخذ له كل منهما البيعة على من قبله وأن يوافياه ففعلوا وانصرفا إليه . فلما أراد علي توجيه الرسول إلى معاوية قال جرير : أبعثني إليه فإنه لي ود حتى آتية فأدعوه إلى الدخول في طاعتك فقال الأشر لعلي لا تبعته فوالله لأظن هواه معه فقال علي : دعه حتى تنظر ما يرجع به إلينا . فبعثه إليه وكتب معه كتاباً يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته فشخص إليه جرير فلما قدم عليه ما طله واستنظره ودعا عمرأفاستشاره فيما كتب إليه به . فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه أهل الشام ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم ففعل ذلك معاوية وكان أهل الشام لما قدم النعمان بن بشير بقميص عثمان وأصابع زوجته نائلة أصبعان مقطوعتان بالبراجم وشيء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الأبهام قد علقوه سنة وآلى الرجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء لغسل إلا من الاحتلام

ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء
أو تفنى أرواحهم .

فلما قدم جرير بن عبد الله على علي وأخبره الخبر وقع فيه الاشترا وقال :
قد كنت نيتك عن إرساله وأخبرتك بعدوانه وغشه ولو كنت بعثتني لكان
خيراً من هذا الذي أقام عنده ولم يدع باباً يريد فتحه إلا فتحه ولا باباً يخاف
منه إلا أغلقه . فقال جرير : لو كنت ثم لقتلوك . ولقد ذكروا أنك من قتلة
عثمان . فقال الاشترا : لو أتيتهم والله يا جرير لم يعينى جوابهم . ولحلت معاوية
على خطة أعجله فيها عن الفكر . ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهاك
في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور . فخرج جرير بن عبد الله
إلى قرقيسية وكتب إلى معاوية فاستقدمه .

ومعلوم أن الشام من مجامع أجناد المسلمين لأنها تفر عظيم يجاور الامة
الرومية التي لم تزل حافظة لشيء كثير من قوتها . فكانت الجنود الإسلامية
هناك على غاية الاستعداد عاشرهم معاوية طويلاً وهو الرجل السياسي المحنك
فامتلك قلوبهم وصاروا طوعاً أمراً ما أمرهم اتتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه
ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعته على ويطمه بالاشتراك
في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه . ولم يعمل أى
عمل في القصاص منهم . فلما جاء جرير علياً وأخبره بما عليه أهل الشام لم يجد
على مناصاً من المسير والقتال . فخرج وعسكر بالنخيلة خارج الكوفة وبلغ
معاوية خروجه إليه بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يخرج
بنفسه كذلك وأن لا يغيب عنه برأيه ومكيدته وسار معاوية متمهلاً وكتب إلى
كل من كان يرى أنه يخاف علياً أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم
عليه . فلما رأى ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فانك من أخى ثقة ملهم
قطعت الدهر كالدّم المني تهدير في دمشق فاتريم
وإنك والكتاب إلى على كدابة وقد حلم الأديم

يمنيك الإمارة كل ركب لا ينفاض العراق بها رسم
وليس أخواتك بمن تواني ، ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القليل وكان حيا لجرد لا الف ولا سؤوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يسي بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيعوا فهم صرعى كأنهم المهشم
فدعا معاوية شداد بن قيس كاتبه وقال : ابغني طومارا فأتاه به فأخذ القلم
فقال : لا تعجل . اكتب .

ومستعجب بما يرى عن أناتنا ولو زيفته الحرب لم يترعرع
وأرسل به إليه

أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ومن هناك قدم
طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين
القريتين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فحسرك
الطائفتان في سهل صفيين وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض .

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة ، وهم
بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشيث بن ربيع التيمي
فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال : يا معاوية إن
الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك وجزائك
بما قدمت يدك . وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك
دماءها . فقال له معاوية : هلا أوصيت صاحبك بذلك ؟ فقال : إن صاحبي
ليس مثلك ، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة
في الإسلام والقربة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا ؟ قال
بأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في
دنياك وخير لك في عاقبة أمرك . قال معاوية : ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل
ذلك أبدا فقام شيث فقال . يا معاوية إنني قد فهمت ما رددت أنه والله لا ينجني

علينا ماتغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك في واحدة منهما خير ، لأن أخطأت ماترجو إنك أشر العرب حالا في ذلك ، ولئن أصبت ماتمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار ، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله . ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد أشد وأمره إياهم بالانصراف . فأتوا علماً وأخبروه بالخير .

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك . فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتلون ، وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنة ٢٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً في الصلح ، واختلفت بينهما الرسل في ذلك .

وعلى ذكر الرسل أقول : إن ذا الرأي الحصيف إنما يلتقي الرسل ليعربوا عن ذات نفسه ويكون الواحد منهم رفيقاً محسناً للسفارة خيراً بالتأني للأمور لا يرى فتناً إلا رتقه ولا صدعاً إلا رأبه . وهو عنوان عقل مرسله ، فإذا لم يحسن اختيار الرسول كان بلاء استقبله وانبثقت عليه الأمور ، وكان ما يأتيه من البلاء على بد رسوله أشد وأنكى مما يأتيه من عدوه .

ونحن أولاء نرى من رسل على ظهوراً بمظهر العتو والنجر يبدو الشر على وجوههم والقول الجافي من أفواههم كأنما أرسلوا لإشعال النار وإيقاظ الشر وعلى مع ذلك لا يبذل شيئاً يكون الصلح عليه ولا يريد من معاوية إلا أن يلقي بيده ويستكين استكانة الدليل مع إخشان القول له والاستعلاء عليه وقد وصى من هو خير من على رسله بإلانة القول والرفق لمن هو شر من معاوية فقد قال الله تعالى لموسى وهرون إذ أرسلهما إلى فرعون « فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » فليس بعجيب أن تكون عاقبة هذه الرسائل الفشل .

بعث على عدى بن عامر ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن خصفة وشبث ابن ربعي — وهو أحد الرسل في المرة الأولى وربما كان حقه سبياً في عدم الجاح — لما دخلوا على معاوية بدأ عدى فقال : إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به عز وجل كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويصلح به ذات البين . إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدكم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فأنته يامعاوية لا يصيبك الله بأصحابك يوم كيوم الجمل . فقال معاوية كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً هيأت ياعدى كلا والله إنى لابن حرب ما يقعق لي بالثنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قلته وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيأت ياعدى قد حلبت بالساعد الأشد . فقال شبث وزياد أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ما لا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمننا وإياك نفعه . وقال يزيد بن قيس : إنما لم تأت إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ولؤدى عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن تنصح لك وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة وأنت راجع به إلى الألفة والجماعة . إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولاأظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميلوا بينك وبينه فاتق الله يامعاوية ولا تخالف علياً فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى وأزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه . فقال معاوية . أما بعد ، فإنكم دعوتهم إلى الطاعة والجماعة . فأما الجماعة التي دعوتهم إليها فعنا هي . وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لانراها . إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لانرد ذلك عليه . أرايتم قتلة صاحبنا ؟ أستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة . فقال له شبث . أيسرك يامعاوية أنك أمكنت من عمار تقتله ؟ فقال وما يمنعني من ذلك ، والله لو أمكنت من بن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان . فقال شبث لاتصل إلى عمار حتى تنذر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية . إنه لو قد كان ذلك كانت

الأرض عليك أضيق . وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه . لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين . يتنزل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً . أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتبعد ما بينها .

وأرسل معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن ابن يزيد ابن الأخنس فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال . أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستنقلم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله تقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شوري بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . فقال له : ما أنت لا أم لك والعزل وهذه الأمة ، اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له . فقام وقال : والله لتريني بحيث تيكره . فقال علي : وما أنت وإن أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت علي أخيرة أو سوءاً اذهب فصوب وصعد ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط : ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبت به من قبل ؟ فقال علي : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسن السيرة وعدل في الأمة وقد وجدنا عليها أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله ، فغفرنا ذلك لهما ، وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه . فساروا إليه فقتلوه . ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم . فقالوا لي : بايع ، فأبيت عليهم . فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف أن تفعل أن يفترق الناس . فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق بن حليق حذب من هذه الأحزاب ، لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين فلا غروا لإخلافكم معه وانقيادكم له

وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً . إلا أني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإمارة الباطل وأحباء معالم الدين . فقال له شرحبيل : أشهد أن عثمان قتل مظلوماً . فقال لهما : لا أقول إنه قتل مظلوماً ، ولا أنه قتل ظالماً . قالوا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء . ثم انصرفا . فقال علي فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .

لما انسلخ المحرم أمر علي من ينادى : ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم اني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتفيوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان . ولم تجيبوا إلى حق : وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ففرع أهل الشام إلى أمراءهم ورؤسائهم وخرج معاوية وعمر بن الخطاب والكتاب ويعبيان الجيوش وفعل علي فعلهما . وقال لا تقتاتلوهم حتى يقاتلوكم فأتتم على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمشوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والآنفس . وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن اهـ

وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي :

أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف على مجنود أهل العراق ، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشنوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله . ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانهت هزيمتهم إلى على فشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضربى الميسرة وثبتت ربيعة . ومر به في ذلك الوقت الاشترا النخعي ، فقال له : أنت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت ؟ فذهب إليهم الاشترا وهيج الناس لحوض الغمرات فتابعوه وكروا معه ، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه ورده ، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الاشترا في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول : أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول الأطنابة :

أبت لي عفتي وأبي بلائي وإقداي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي وأخذى الحمد بالثنى الريح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فنعني هذا القول من الفرار . وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر .

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الحرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الاشترا يزحف بالميمنة ويقا تل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يده بالرجال لما رأى من ظفره . وبينما هم في هذه الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رؤوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول : هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، من لثغور العراق بعد أهل العراق ! فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا : نجيب إلى كتاب الله . فقال لهم علي : يا عباد الله أمضوا على

حقكم وصدقكم ، فإن معاوية وعمر بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا . أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبهم رجالا فكانوا أشد أطفالا وأشد رجالا . ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة . فقالوا ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله . وقال مسعر بن فديكى التميمي وأشبه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه . وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو تفعل كما فعلنا بآب عفان أنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل . والله لتفعلنها أو لتفعلها بك ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال . فأرسل إليه رسولاً . فقال الأشتر للرسول . ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزبني فيها عن موقفي . إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني . فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر . فقال له القوم : والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك . فقال للرسول ويحك قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة الحرب . ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريد فلبا ذهب إليه قال له معاوية : ترجع ونحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منّا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق . ثم رجع إلى علي فأخبره ، فقال الناس : رضينا وقبلنا . فقال أهل الشام : قد اخترنا عمراً . فقال الأشعث ومن تابعه : وإنا قد رضينا بأبا موسى الأشعري . فقال علي : قد عصيتهموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن . وبين لهم تخوفه من أبي موسى الأشعري لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر علي للسير على ما أوا .

روى الطبري أن الأحنف بن قيس جاء إلى علي وقال : يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض وبمن حارب الله ورسوله أنفَ الإسلام (يريد عمراً) وإني قد عجمت هذا الرجل وحلست أسطره (يعني أبا موسى) فوجدته

كليل الشفرة قريب القعر وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أ كفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم . فإن أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانياً أو ثالثاً فإنه لن يعقد عقدة إلا حلتها ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها فأبى الناس إلا أبا موسى . فقال الأحنف : فإذا أبيت إلا أبا موسى فأدقوا ظهره بالرجال .

عقد التحكيم

لما رضى الفريقان بالتحكيم وأفضى بهما الأمر إلى كتابته كتبوا .

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه على أمير المؤمنين . فقال عمرو ابن العاص اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم فأما أميرنا فلا . فاستشار على في ذلك بنى هاشم وأدخل معهم الأحنف بن قيس . فقال الأحنف : لا تمح أمانة المؤمنين فإني أتحوف إن محوتها لا ترجع إليك أبداً . فأبى على ذلك ملياً من النهار ثم إن الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم برحه الله فمحي وكتب كتاب الصلح . وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه على بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان : قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين . إنا نزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره . وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما : أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص القرشي عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من اليهود والمواثق والثقة من الناس أنهما آمان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه إنا على ما فى هذه الصحيفة . إن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن

الآمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدتهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجتلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفي أحد الحكيم فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وأن مكان القضية الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً . اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة ،

ويتبع ذلك أسماء الشهود من الفريقين . وكان الكتاب في ١٥ صفر سنة ٣٧ وروى الطبري أن ذلك كان في ١٣ صفر .

الناظر إلى عقد التحكيم الذي أوردنا لا يجد فيه حدوداً مرسومة ولا أعلاماً بينة يهتدى بها الحكماء أو الناظر في أفعال الحكم . ولم يبين فيه حكم ما إذا فارق الحكمان أو أحدهما ما في كتاب الله أو السنة العادلة . ولا حكم ما إذا اختلفا ولم يتفقا ولم يبين به الشيء الذي يبحثان فيه من أمرهما . وإني لا أدري كيف يكون هذا عقد التحكيم ؟

قال الأستاذ الخضري : وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شيعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً . وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور . وما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كان لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر . وشيعة معاوية تنصره لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغي لهم معاينة من آوى إليه قتلته .

إن تهالك كل من الرجلين على ما يزعمه حقاً له كان بالغاً أقصى نهايته . فكل منهما يريد بلوغ أربه من الآخر بأى ثمن مهما غلا . إن من عنده ذرة من الشفقة ليزوب قلبه على هذه الأمة رحمة وأسى فقد وجدت بين عاملين يتنازعانها ويغريان أبنائها بعضهم ببعض ويسيلان دماءها أنهاراً ولا تحدث واحداً منهما نفسه بأنه لا يصل إلى ما يريد إلا على جسر من الجثث يزيد على عشرات الألوف من موافقيه ومخالفيه هم عدة الإسلام وعزه وقوته بهم أعلى الله كلمته وأعز ناصره وليس من الكياسة أن يهلك مثلهم ضيعة في أمر إن وقع لا يرتفع له ميزان الدين ولا ينخفض . ولو كان الرجلان ممن لا يؤبه لهما وليس لهما في الدين قدم وحسن بلاء لكان للقلم مجال ، ولكنهما بالمحل الرفيع والمكان المكين ، وبخاصة على بن أبى طالب وأثره في الدين وإعزازه . فليس لنا إلا أن نأسى على ما كان ونكل أمر صاحبي العمل إلى الله عز وجل ونسأله لهما الصفح والغفران .

حسن عندي قول المرحوم الأستاذ الخصرى : يظهر للمتتبع أخبار ما بين على ومعاوية أن الرجلين كانا على تباین تام . فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفسك حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك وينفضون عنه . وكان يرى فى معاوية انحطاطاً هائلاً عنه . ولماذا ؟ لأنه من الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه . وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الإسلام إلا كرهاً حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك . وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونة قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغماً لأنه لم يجد له أنصاراً ، فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن فى وقت بايعه فيه الناس بالخلافة ، وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه .

وكان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به الإنسان . ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ، والمنصف يقول خير نصفى

الامة وأنفعهما وأرضاها غناء وبلاء ، ومثله لا ينال إلا بالآناة وشيء من المصانعة والسهولة والتجاوز له عن شيء من السلطان يتجبر فيه وينال من متاع الدنيا ما تشره إليه نفسه ، فإنه رجل قد ألفت الشرف وأبهة السلطان إلى عز قديم وشرف عريق ورياسة في الجاهلية آزرتها رياسة في الإسلام فاتصل القديم بالحديث . وهذه أشياء لم ير على أن يزل إليها .

أما معاوية فإنه كان بدون ريب يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش ، لأنه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب أكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفع والنسبة . ثم كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق . فصارت له تلك الرياسة العظيمة والآثر الصالح في حماية الثغور الرومية ، وهو يعلم أن علياً لا ينظر إليه بتلك العين التي كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وقد وجد أمامه شها تفسح له المجال في تلك المناوأة .

١ — أنه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت إمرته جند من المسلمين لا يقل عن متي ألف .

٢ — إن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي .

٣ — إن أول من نذبه إلى الخلافة هم الثأرون على عثمان الذين قتلوه .

٤ — إنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالء لهم على فعلتهم كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيلة حتى لا يقع في المذلة والمهانة . شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة . ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشئ الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده ، فعلى كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك

لا يكون صلح حتى إن رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولاً أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقصص منهم ثم يكون الأمر شوري ، وكلا الأمرين لا يرضى بهما علي : أما قتلة عثمان فإنه إن أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما ثانياً فلأنه لا يترك حقاً قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه . أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الخطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخوارج ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جيش علي .

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند علي فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به علي طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديه وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال ؟ لا حكم إلا لله . ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فشى رؤساء بني تميم فنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة .

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء وما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشى فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشائمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقم إمامنا وفرقم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم أن أمير القتال شعث بن

ربعى التيمى (وهذا الذى كان رسول على إلى معاوية وكان يتوقع فى خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يسايح علياً وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء الإشكرى والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فبعث إليهم على عبد الله بن عباس وقال له : لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك . فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقيم من الحكمين وقد قال الله عز وجل : إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فامضاه فليس للعباد أن ينظروا فى هذا .

قال ابن عباس فإن الله عز وجل يقول : يحكم به ذوا عدل منكم ، فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين وقالوا إن هذه الآية بيننا ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم فى أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقيل ذلك مادعوناهم إلى كتاب الله فأبوه . ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً وجعلتم بينكم وبينه المودعة والإستفاضة وقد قطع عز وجل الإستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية . ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنك ؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا ؟ حكومتكم يوم صفين . فقال أنشدكم الله ألسنت قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأى ولما أبيتم إلا ذلك اشتراطكم على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن وإن أيا فتحن من حكمهما براء قالوا له نخبرنا أترأه عدلاً تحكيم الرجال فى الدماء ، فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا :

نخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال : ليعلم الجاهل ويتقرب العالم
ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم
الله . والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفرأ وقد تبنا إلى الله
فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون ، فبايعهم على وقال ادخلوا فلنمكث
سنة أشهر حتى يجيئ المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا . فدخلوا على
ذلك .

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن علياً كان إماماً ببيع يعة صحيحة فمن امتنع
عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن مرتكب الكبيرة
كافر فإذاً يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ
يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه
تغيير للمشروع إن قضى بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم
هذه العقوبة نصاً فاللين معهم ومهادنتهم إدهان في سبيل الله وتحكيم للرجال
فيما لا حكم فيه إلا الله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال ، والضال لا يصلح
لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه ، فلهم أن يقاتلوه وهم
في نظرهم يكبد معاوية سواء بسواء . فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة
بعض مقدماتها باطل ، فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة . كون جريمة العصيان
ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية
ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شهما في نفس إمامة
الإمام أم هي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيماً للرجال في
دين الله وإنما هو تحكيم في صحة وصف يتبنى عليه حكم فإن القاضى الذى ترفع
إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أو لا تقطع
وإنما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبت له
الصفة وجب عليه حتماً أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك في
إمامته والشك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك في صحته كان
هذا باطلاً أيضاً لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فإذا رأى من

خصمه إنكاراً أو تمسكاً بسبه فلا طريق له إلا أن يرفع الأمر لقاض أو لحكيم يكون حكمهما قاطعاً لنزاع خصمه .

وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بات أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كما أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار أعلى عدوان . أو المتبج لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بمظاهرهم أنه الصواب من الرأي حتى صار عندهم من الحقائق الثابتة التي لا ينكرها إلا غاو حائد عن الدين في نظرهم ، وإلا فكيف يؤول فعلهم وما صاروا إليه ؟ كان القوم بالأمس يعتقدون في على أنه سيد المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين ، واليوم قاموا ينبذون إليه على سواء ويباينونه كل المباينة ويرون أنه ضال بسبب ما كان منه من التحكيم ، وهو لم يصر إليه إلا بمشورتهم ، وعن ملامتهم ، ويقولون إنه صار لا يستحق أن يكون خليفة ويدينون بأن كل من تابعه حائد عن طريق الرشاد حلال الدم .

اجتماع الحكيم

لما حان أجل اجتماع الحكيم بعث على أربعمائه رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي ومعه ابن عباس يصلي بهم ويلى أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم . وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائه من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل بأذريح . وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما ذهب به أحد ولا يسأله أهل الشام عن شيء . وإذا جاء رسول على جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه : ما كتب إليك أمير المؤمنين ؟ فإن كتبهم ظنوا به الظنون فقالوا : ما نراه إلا كتب بكذا وكذا . فقال لهم ابن عباس : أما تعقلون ؟ أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به أحد ويرجع لا يعلم بما رجع به أحد ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون ! — وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص .

ولما كان القوم بدومة الجندل أحب المغيرة بن شعبة أن يعرف ما عند كل من الحكمين وهل يمكن اجتماعهما على رأى . فأتى عمرو بن العاص وقال له : يا أبا عبد الله ما رأيك فينا معشر القوم الذين اعتزلوا القتال ولم يشهدوا من هذه الحرب شيئاً ؟ فقال إنكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار . وجاء إلى أبي موسى وسأله عن شأنه ومن اعتزل الحرب حتى يتبين الحق ويجتمع الناس على إمام . فقال أتم المؤمنون الصالحون حقاً ، فقال : إن الرجلين لا يمكن أن يجتمعا .

وعما كان في اجتماع الحكمين أنها بحثا فيما جاء لأجله وهو إصلاح ما بين الناس . فتكلم عمرو فقال : أأست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ قال أبو موسى أشهد . قال عمرو : أأست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال بلى . قال عمرو : فإن الله يقول : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى وبينته في قريش كما قد علمت ؟ فإن تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة ، فإن لك بذلك حجة : تقول أنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير . وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان كاتب الوحي لرسول الله وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله : إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . فقال أبو موسى : يا عمرو أتق الله . فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولى أهله . ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة ابن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبي طالب . وأما قولك أن معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لى بالسلطان . فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله عز وجل . ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو : إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف

فضله وصلاحه . فقال إن ابنك رجل ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة . هذه رواية الطبري .

لا ينتظر من محكمين توليا الحكم بكتاب تحكيم مبهم يشبه مضمونه لغزاً من الألغاز أو أحجية من الأحاجي أن يتسكلا في مثل موضوعهما المشكل إلا بمثل هذا الكلام الذي لا يشفي غليلاً ولا يبرىء غليلاً وأن تكون المقدمات التي تبنى عليها النتائج والمطالب فجأة وليس بينها وبين بعضها ارتباط .

من هذه المناقشة يفهم أن الرجلين قد اتفقا على خلع المتنازعين ، ولكهما اختلافاً فيمن يخلفهما ويكون أمره جامعاً لكلمة المسلمين . وإني لا أفهم ، ولا أظن أحداً يفهم على أي حكم من كتاب الله تعالى يستندان فيما اتفقا عليه ولا بأي سنة استمسكا وهما إنما وليا على الحكم بمقتضى كتاب الله تعالى وسنة رسوله العادلة الجامعة غير المفرقة - فكان عليهما أن يعمدا إلى مثل قوله تعالى : وإن طائفتان من المؤمنين اقبلوا فأصلحوا بينهما ، الخ .

ولما صار الرجلين إلى هذه النقطة قال عمرو لأبي موسى : أخبرني ما رأيك ؟ فقال : رأي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : فإن الرأي ما رأيت .

كان عمرو قد أخذ أبا موسى من حين التقيا بدومة الجندل بأن يقدمه في الكلام وفي كل شيء فيقول له : إنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم . واغترى عمرو من ذلك أن يقدمه عند الكلام على خلع ثم يكون هو على رأس أمره .

ولما لم يبق إلا لإعلام الناس بما اجتمع عليه رأيهما واتفقت عليه كلمتهما ، خرجا وتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعبها من أمر أجمع عليه رأي ورأي عمرو وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا عنهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا

عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ، ثم تنحى ، وأقبل عمرو فقام مقامه
لحمد الله وأثنى عليه ، وقال : وإن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه
وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والطلاب
بدمه وأحق الناس بمقامه ، فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت
وجفرت . إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال
عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً . وحمل بعض رجال عليّ على عمرو
بالسوط ، وحمل بعض رجال معاوية عليهم بالسوط ثم تحاجز الفريقان .
والتمس رجال الشام أبا موسى ، فإذا هو قد ركب راحلته وذهب إلى مكة .

وقد روى الطبري أن أبا موسى لما خرج ليتكلم قال رأيي ورأي عمرو
وقد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به هذه الأمة . فقال عمرو : صدق
وبر ، يا أبا موسى تقدم فتكلم . فقال ابن عباس لأبي موسى أن عمرا رجل
غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قتت في الناس
خالفك وكان أبو موسى رجلاً مغفلاً فقال : إنما قد اتفقنا .

ويرى المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبنا صحيفة فيها
خلع على ومعاوية وأن المسلمين يولون عليهم من أحبوا — قال الأستاذ
الخضري : وهذا القول أقرب في نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين
بذكر الأول . لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعة تمت على
أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لأن الذي ثبتته إنما هو حكمه والذي يلزم
الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضى به أحد الحكامين
ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى في خطابه ببيعة معاوية . أقول وما ذكره
المرحوم الشيخ محمد الخضري بك حسن لو كان الأمر جارياً فيما بين
على ومعاوية على مقتضى الحكمة ناهجاً منهج المنطق الصحيح ، ولكننا
نرى الأمر من أوله إلى آخره مشوشاً غير منظم ولا مرتب ولا صائر في
سبيل العقل ونهج الفطنة فليس بينهما وثيقة تحكيم واضحة المعالم ظاهرة

المناهج مبين فيها أن الخلافة محل الخلاف ومحال النزاع فينبطرا في إثباتها أو إلغائها عن أحد الفريقين أو عنهما . ونقطة النزاع الكبرى وهي التي كانت مفهومة بادی الرأي وهي الاقتصاص من قتلة عثمان قد أغفلت إغفالا شائنا سواء في صحیفة التحکیم إن كانت تصلح أن تسمى صحیفة أم فی حکم الحکیم فلم يتداولوا فی هذا الشأن ولم ينقل ناقل أنهما تفاوضا فيه أو أشارا إليه باستحسان أو استهجان . ثم إذا كانت هناك صحیفة فاین ذهبت ؟ — ولم لم تكن لهما محاضر في كل جلسة یثبت فيها كل محاورته للآخر وتحدد فيها نقط النزاع وما دار بشأن كل نقطة .

ومن الوقت الذي جرى فيه عقد التحکیم وعین الحکمان يشعر الإنسان بأن هذا العمل لا يؤدي إلى نتيجة مفيدة . لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ، ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أى طريق يسلكه سوى إراقة الدماء وقد كان من المشبطين عن علي والمخذلین عن نصره ومتابعته الكارهين لمسيره . وقرينه عمرو بن العاص يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك وهو حول قلب لا يعي بالأمور ولا تكرهه المعضلات شهر من أول أيامه بسعة الحيلة العقلية وحسن الارتیاد للأمور يرى الخداع في طريق الوصول إلى ما يحب مما يزيد في أهته ويؤكد نباهة شأنه . فلا يهمه شيء سوى الوصول إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع . ومثل هذين لا يتفقان .

وما عجبت من شيء فإن أمر أبي موسى أعجب . ذلك أنه كان ينهى الناس عن هذه الفتنة ويأمرهم باعتزالها حتى يتضح المنهج وتستقيم السنن وأن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان إلى آخر الحديث . فما باله قد غس يده فيها من حيث لا يحتسب ؟ وأوقف نفسه فيها على ثنية عجز وأوقف المسلمين على سنن الاختلاف . ولولا رحمة من الله لعادت الفتنة جذعة وكان القوم أقرب إلى التفانى والاستئصال بفضل غفلته وسوء تقديره لنفسه ولخصمه — أما كان خيرا له أن يستعفى ويترك الأمر لمن هو أكفأ منه ؟ لم يكن على ليرضى بهذا

الحكم الذى اعتقده بحق مخالفاً للكتابات والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما وقد رضى به معاوية طبعاً .

وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضى الحابل

لأن أقل ما فى الحكم أن ليس لعلى إمامة . وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحداً فقويت آماله فى أن يكون خليفة للمسلمين وسلم عليه عمرو وسائر جنده بالخلافة .

رجع ابن عباس وشرح إلى على وأوقفاه على جلية ماتم . وهذا الأمر لا يرضيه كما قدمنا ، فكان إذا صلى صلاة الصبح يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرأ وأبا الأعور وحبيباً وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد . وإنى يازاء هذا القنوت أقول : إن علياً رحمه الله قد سن لخصومه أن يقابلوه بمثل عمله ويتخذوا من لعنه نوعاً من العبادة فى أعقاب الصلوات فكان معاوية إذا قنت سب علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر وصار ذلك سنة فى بنى أمية إلى زمن عمر بن عبد العزيز يأخذون الناس به فى أقطار بلاد الإسلام . ليس للتورخ إمام ما كان من الفريقين أن يخطبهما فيما صنعوا ويلومهما فيما أتيا وهذا عمر بن الخطاب قد وقع رجل أمامه فى الفرس فأظهر له النفور من قوله ، وقال له : إن الفرس حكمت فعدلت وعمرت بلاد الله فهم لا يستحقون ما تقول أو كما قال . فإذا كان هذا شأنه مع خصومه من الفرس فما بال أهل القبلة يتلاعبون ويأتون بما لا يليق بأماثلهم من الوقعة فى أهل دينهم ؟ على أن علياً قد مات واستمر بنو أمية يسبونه فى أعقاب الخطب ستين سنة .

ويذكر ابن الأثير أن سعد بن أبي وقاص كان حاضراً يوم إعلان الحكمين أمرهما فقال لآبى موسى : ما أضعفك عن عمرو ومكائده ! فقال أبو موسى : فما أصنع ، وافقنى على أمر ثم نزع عنه . فقال ابن عباس . لا ذنب لك يا أبا موسى الذنب لمن قدمك فى هذا المقام . فقال . غدر فما أصنع ؟ فقال ابن عمر انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة ، صار إلى رجل لا يبالي ما صنع ، وإلى آخر ضعيف وابن الأثير يصحح أن معاوية حضر الحكمين وأنه قام عشية فى الناس

فقال أما بعد من كان متكلماً في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه . قال ابن عمر . فأطلقت حبوتي فأردت أن أقول يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام فخشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة ويسفك فيها دم ، وكان ما وعد الله فيه الجنات أحب إلى من ذلك . فلما انصرفت إلى المنزل جاء إلى حبيب بن مسلمة فقال . ما منعك أن تتكلم حين سمعت هذا الرجل يتكلم ؟ قلت أردت ذلك ثم خشيت . فقال حبيب . وفقت وعصمت .

وأحسب أن حبيباً لم يأت إلى ابن عمر من تلقاء نفسه وإنما دسه عليه معاوية حين بصر به يحل حبوته أو بلغه ذلك فأحب أن يعلم ما عنده ويقف على ما كان مزماً أن يواجهه به .

شان الخوارج مع علي

رأى علي أنه لا بد له من معاودة الكبرة إلى معاوية وأصحابه . ومعالجة دأبهم ولكن صدفه عن ذلك عود الخوارج في حافرتهم وإجفالهم عن علي وجماعته ، ذلك أنهم كانوا يظنون أن علياً قد وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة . وجاءه إنسان منهم فقال له : إن الناس يتحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج وعابه ، فثارت الخوارج في ناحية المسجد يقولون : لاحكم إلّا الله . فقال علي : الله أكبر كلمة حق يلتبس بها باطل إما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا . لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم النىء ما دامت أيديكم مع أيدينا ؛ ولا نقاتلكم حتى تبدؤنا . عند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة حشم بها على الخروج وقال في خطابه : « فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكبين لهذه البدع المضلة أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على المتميزين فيهم : فكلهم يأبأها . ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال : هاتوها ؛ أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه ، لعشر خلون من شوال سنة ٣٧

ثم اتفقوا على أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهران .
وكتب عبد الله بن وهب إلى من بالبصرة منهم يعلمهم بما اجتمعوا عليه ويحثهم
على اللاحاق بهم فأجابوه . فلما عزموا تعبدوا ليلتهم ويومهم وساروا يوم السبت
فخرج شريح بن أوفى العبسي وهو يتلو ، فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني
من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاه مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل .
ولما خرجت الخوارج جاءت إلى علي شيعته ومن بقي علي ولاته فبايعوه
وقالوا نحن أولياء من وليت وأعداء من عاديت .

وبعد أن خرج القوم وعلم علي بما كان من أبي موسى وعمر بن العاص
في شأن التحكيم خطب أهل الكوفة فقال :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل . وأشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله . أما بعد . فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب
الندم . وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى ونحلتكم
رأى لو كان لقصير أمر ، ولكن أيتم ألا ما أردتم فكنت أنا وأنتم ، كما قال
آخر هوازن .

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا تضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى مكان الهدى أو أتى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكيمين قد نبذا القرآن وراء
ظهورهما وأحيا ما أمات القرآن واتبع كل منها هواه بغير هدى من الله
فكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء
الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام
وأصبحوا في معسكرهم إن شاء الله .

وكتب إلى الخوارج بالشيوخ معه لحرب أهل الشام . وإنما أطمعه في
ذلك منهم أنهم كانوا كارهين للتحكيم زارين على علي الرضا به . فما كان جوابهم
إلا أن كتبوا إليه .

« أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

قرأ على كتاب هؤلاء القوم فأيس من خيرهم واعتزم على إلقاء جبلهم على غارهم وأن يسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب إلى ابن عباس أن يستنفر أهل البصرة وبوجه إليه بالجند فقام فيهم ابن عباس بأمر على فلم يقيم منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيس واثاقلوا فخطبهم ابن عباس وحشهم وشدد في خروج من بقي منهم مع جارية بن قدامة فلم يخرج معه سوى ألف وسبعمائة . وكان ديوان أهل البصرة يحوى ستين ألف مقاتل سوى أبنائهم وعبدانهم ومواليهم . ولم يزل علي بالنخيلة حتى أتاه جيش البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل .

رأى على ذلك فجمع رؤساء الأسباع ووجهاء القبائل من أهل الكوفة وحشهم ورغبهم وأراهم قلة أهل البصرة وتناقلهم وقال فأعينوني بمناجحة جليلة خالية من الفسح وأمرهم أن يكتبوا المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال والعبدان والموالى فرفعوا إليه ذلك فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبناء وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم . وكان جميع من معه ثمانية وستين ألفاً بعد أن تم حشد على من البصرة والكوفة والمدائن وغيرها على ما وصفنا سمع أن بعض الجند يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأ بهم (يريدون الخوارج) ، فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام . فقام فيهم خطيباويين لهم أن قتال أهل الشام أهم . فتنادى الناس يقولون : يا أمير المؤمنين سار بنا إلى ما أحببت كان أمر الخوارج عجبا فإنهم كانوا يظهرون بمظهر العباد الزهاد الذين لا يرون نصبا في ذات الله ويتورعون عن تافه الأشياء وما يعد الورع فيه بارداً ويتخرجون من ذلك أشد تخرج ثم يأتون أفضح المنكرات وأكبر الكبائر كأنهم لا يدبنون ياله ولا يعرفون عدلاً ولا شفقة ولا رحمة ، فهم كما يقول المثل العامي « يفتون على الآبرة ويبلعون المدة » ، وهم في كل عملهم لا يعجزون عن الإتيان بالآيات من الكتاب يستدلون بها على تبرير عملهم .

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحيته فيها الكتاب المنزل

دخل القوم قرية فخرج منها عبد الله بن خباب بن الارت ومعه امرأته حاملاً فقالوا له : أفزعت ؟ فقال : والله لقد أفزعتموني . فقالوا : لا روع عليك ، وسأنوه من هو ؟ فقالوا : حدثنا عن أبيك عن رسول الله . فحشهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً ، فقالوا . لهذا الحديث سألناك ، فأتقول في أبي بكر ؟ فأثنى عليه وفي عمر فأثنى عليه وفي عثمان في أول خلافته وآخرها فقال : إنه كان محققاً في أولها وآخرها . وسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده فقال : هو أعلم بالله منكم وأشد توفيقاً لدينه وأنفذ بصيرة (وكان عبد الله بن خباب رأى أحدهم وقد سقطت رطبة من نخلة فالتقاها في فيه فأنكروا عليه أن يكون قد أكلها بغير ثمن وبغير إذن صاحبها . وقتل أحدهم خنزيراً فأنكروا عليه لأنه إنلاف لمال أهل الذمة) فقالوا له : والله إنك لتشهد بالهوى وتفضل الرجال على أسمائها لا على أفعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً قط . فأتوا به فذبجوه وبقروا بطن امرأته عن حملها وكانت متناً وقتلوا ثلاث نسوة من طيء . وأم سنان الصيداوية فبلغ ذلك علياً فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر عنهم فقتلوه . ولما جاء الخبر بذلك قال له أصحابه يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراةنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام . فلم يجد علي بدأ من موافقتهم على مناجزة الخوارج أولاً .

سار إلى الخوارج . فلما لقيهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم فقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أتمم عليه من أمركم . فبعثوا إليه : كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . وقد أعذر إليهم على جهده وأبلغ في الموعظة والتحذير في خطب رثانة خطبها فيهم فجعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً — ثم رفع راية مع أبي أيوب الأنصاري ونادى : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة

أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وآوى إلى على جمع وبقى ابن وهب في ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت الموقعة في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من أربعة أئمة فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرهم : وقال املوهم معكم فإذا برموا نخذوهم معكم إلى الكوفة . ويقول ابن الأثير : لأنهم قتلوا في وقت قصير كما نأمل قبل لهم موتوا فماتوا . وكان على يحدث أصحابه بمن يخرجون وعلامتهم رجل مخدج فالتمس فوجد فيهم .

تخاذل شيعة علي

لما رأى على أنه رتق الفتق من ناحية الخوارج وأراح الناس من شغبهم أراد أن ينهض إلى الشام . فقام في أصحابه فقال : إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدو في جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده . حيارى في الحق جفاة عن الكتاب نكسب عن الدين يعمهون في الطغيان ويعكسون في غمر الضلال فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً وكفى بالله نصيراً فقالوا :

يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا . وكان الذي تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس - وهو من أكره الناس للحرب - وإني لا أدري لم يخرج الكاره للحرب مع المستعدين لها ؟ ومثل هذا لا يكون له عمل سوى التثبيط والتخذيل وقد كان هذا الرجل كذلك من يوم الجمل .

سمع على هذا الكلام وأشفق أن يستكره الناس على النهوض من فورهم فرجع إلى النخيلة وعسكر بها وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم وأن يوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم . فقاموا

في معسكرهم أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا مدينتهم إلا رجالاتهم وجوه الناس قليلاً وترك المعسكر خالياً . فلما رأى على ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه وتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤسائهم وجوهرهم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرون ؟ فمنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من نشط . فقام فيهم خطيباً فقال : « عباد الله مالكم إذا أمرتكم أن تفروا اناقلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز وكلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة ، وكان قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون ، وكان أبصاركم كمنه فأنتم لا تبصرون . لله أتم ! ما أتم إلا أسود الشرى في الدعة وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس . ما أتم لي بثقة سيجيس اللبالي ما أتم بركب يصل بكم ولا ذوى عز يعتصم إليه لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم لأنكم تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم ولا تتحاشون ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون ، ثم بين لهم حقوقهم عليه وحقوقه عليهم واستحثهم فكان كأنما ينفخ في غير ضرم .

لم يزل على في القوم بغاديتهم بالخطب الطنانة ويرأوهم بالقول الجزل ويثير حميتهم ويستفز نخوهم . فلم يزد في ذلك إلا إعراضاً عن الحرب ونفاراً منها وما تغنى الأقوال والخطب عن قوم توزعتهم الأهواء وتفرقت بهم السبل يشهدون بقلوب غائبة وأفتدة شاردة وألباب طائرة ، قد تراخت أسباب طاعتهم وضعف سلطان إمامهم في أنفسهم قد استمرأوا مرعى الدعة وآثروا السلامة ، وأصبح على لا يدري لهم طاعة ولا يعرف لهم عصياناً فهو من أمرهم في داج من الشبك ومظلم من الريب .

شأن معاوية ومحمد بن أبي بكر

لما عزل على قيس بن سعد عن مصر بكيد معاوية وخُرق رأى المشيرين على علي وولى محمد بن أبي بكر على مصر جاء إليها ولم يلبث شهراً من مقدمه حتى كتب إلى المعتزلين بخربتنا يخبرهم بين الدخول في طاعته والخروج من مصر . فأجابوه : إنا لا نعمل دعنا حتى ننظر ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فإني عليهم فامتنعوا وحذروا أشد الحذر .

كان قيس بن سعد — لما علم بشخص محمد بن أبي بكر أميراً على مصر — تلقاه وناجاه فقال . إنك جئت من عند امرئ لا رأى له وليس عزلكم إياي بمانعي أن أنصح لكم وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وإنى فى ذلك على الذى كنت أكيد به معاوية وعمرأ وأهل خربتنا فكأيدهم به فإنك إن تكأيدهم بغيره تهلك ووصف له ما يأتى وما يدع من أمره . فاستغشه محمد بن أبي بكر وخالف كل شيء أمره به وخرج لحرب أهل خربتنا فقاتلوه وهزموه ولم يحل منهم بطائل .

علم معاوية بما كان بين محمد بن أبي بكر والمعتزلة بمصر فسر ذلك . وقام معاوية بن حديج السكونى السكندى يطلب بدم عثمان فأجابه ناس آخرون وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر وعلم على بالأمر فى أثناء هدنة الحكومة فأهمه ذلك وقال : إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذى عزلناه . والأشتر وكان الأشتر بالجزيرة عاملاً لعلى فأرسل إليه بأن مصر قد انتقضت على محمد بن أبي بكر وهو غلام حدث ليس عنده تجربة ولا علم بالأمور فاستخلف على عملك أهل الثقة بمن معك واحضر إلى . فلما جاء إليه ولاه أمر مصر وقال له . اخرج رحمك الله فإنى لولم أوصك اكتفيت برأبك واستعن بالله على ما أهمك فاخط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة . فخرج وتياً للرحلة إلى مصر وأنت معاوية عيونه فأخبره بولاية الأشتر على مصر فعظم عليه ذلك . وبعث إلى الجايستار — وهو رجل من أهل الخراج — فقال له إن الأشتر ولى مصر فإن أنت كفتنبه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت . فأتى ذلك الدهقان حتى نزل القلزم فلما انتهى الأشتر إليها استقبله الرجل وقال أنا رجل من أهل الخراج ، وهذا منزل وهذا طعام وعلف فزل الأشتر . فلما طعم جاءه بشرية غسل فيها سم فشربه الأشتر فمات — وكان معاوية حين علم بفصول الأشتر يقول لأهل الشام إن الأشتر قد ولى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه فكانوا يدعون على الأشتر بكرة وعشيا . إلى أن جاء الجايستار وأنباء بهلك الأشتر فقام معاوية فقال . أما بعد فإن على بن أبي طالب كان له يمينان قطعت إحداهما يوم صفين (يعنى عماراً) وقد قطعت الأخرى اليوم

(يعنى الأشر) وقد روى عنه أنه قال حين علم بموت الأشر . « إن لله جنوداً من عسل » .

أما محمد بن أبى بكر فساءه من على أن يعزله عن مصر ؛ فبلغ علماً مهلك الأشر وموجدة محمد بن أبى بكر فكتب إليه : « أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشر إلى عملى . وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً منى لك فى الجد ولو نزع ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أسر عليك فى المؤنة وأعجب إليك ولاية منه . إن الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب . اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه بكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك . أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته » . فكتب إليه محمد بن أبى بكر : « أما بعد فقد انتهى إلى كتاب أمير المؤمنين فقهتمته وعرفت ما فيه وليس أحد من الناس بأرضى منى لرأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أراف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس إلا من نصب لنا وأظهر لنا خلافاً وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه وملتجئ إليه وقائم به والله المستعان على كل حال والسلام عليك .

لما انصرف أهل الشام من صفين كانوا ينتظرون ما يأتى به الحكمان فلما انتهى أمرهما ، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فزاده ذلك توثيقاً فى أمره وقوة إلى قوته . واختلف أهل العراق على على وقعدوا عن أمره فتضاعف عليه اضطراب شؤونه ووهى جانب سلطانه . ولم يكن لمعاوية هم إلا مصر ، وكان لأهلها هائبا يخشى أن يتساق لعل الأمر فيها وأن يستظهر بهم على حربه ، مع قريتهم وشدتهم على من كان على رأى عثمان . وكان قد علم أن بها قوما ساءهم قتل عثمان وخالفوا ، فرجاهم أن يشدوا ساعده حتى إذا انقادت له أمور مصر بأزمته استظهر بأهلها على حرب على لعظم خراجها .

فدعا معاوية من كان معه من قريش . عمرو بن العاص وجبيب بن سلمة
وُسَير بن أبي أرطاة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ،
ومن غيرهم أبا الأعور السلي وحمزة بن مالك الهمداني وشرحبيل بن السمط
فقال لهم أتدرون لم دعوتكم ؟ إني قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون
الله قد أعان عليه . فقال قائلهم : إن الله لم يطلع على الغيب أحداً ، وما يدرينا
ما تريد ؟ فقال عمرو : أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير
عددتها والكثير عدد أهلها أهمك أمرها فدعوتنا تسألنا رأينا في ذلك ،
فإن كنت لذلك جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأي رأيت في افتتاحها عرك
وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك فقال معاوية لعمرو :
أهمك ما أهمك . يريد بذلك أن هذا الأمر أهم عمراً لأنه جعل له مصر
طعمة طول حياته في مقابلة معاونته ومؤازرته على أمره وما شجر بينه وبين
على . ثم قال : إن هذا قد ظن ثم حقق ظنه . فقالوا ولكننا لا ندرى فقال
إن أبا عبد الله قد أصاب ثم قال : أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم
في حربكم عدوكم . جاؤكم وهم لا يرون إلا أنهم سيقبضون ببيضتكم ويخربون
بلادكم ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً
بما أحبوا وحاكناهم إلى الله لحكم لنا عليهم . ثم جمع لنا كلمتنا ، وأصلح ذات
بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك
بعضهم دم بعض ، والله إني لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن نحاول
أهل مصر ، فكيف ترون ارتثاءنا لها ؟ فقال عمرو قد أخبرتك عما سألتني عنه
وقد أشرت عليك بما سمعت ، فقال معاوية : إن عمراً قد عزم وجزم ولم يفسر
فكيف لي أن أصنع ؟ فقال : إني أشير عليك كيف تصنع . أرى أن تبعث
جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به ، فيأتي مصر حتى يدخلها
فإنه سياثبه من كان من أهلها على رأينا فظاهره على من بها من عدونا
فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت
أن يعين الله بنصرك ويظهر فلجك . فقال معاوية فهل عندك سوى هذا ؟

فقال لا . فقال معاوية أرى أن نكتب إلى من هم من أهل صلحنا وعلى مثل رأينا فشببتهم ونقوبهم ونمنهم مجيئنا إليهم . وإلى أهل عداوتنا فندعوهم إلى صلحنا ونمنهم شكرينا ونخوفهم حربنا . فإن صلح لنا قيامهم بغير قتال فذاك ما أحببنا وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله . إنك يا ابن العاص امرؤ بورك لك في العجلة وأنا امرؤ بورك لي في التؤدة . فقال : افعل ما رأيت فإني أرى والله أن أمرك وأمرهم يصير إلى الحرب العوان . فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى معاوية بن حديج الكندي وكانا قد خالفا علياً : « أما بعد فإن الله قد بعثك لأمر عظيم أعظم به أجركا ورفع به ذكركا وزينك به في المسلمين طلبك بدم الخليفة المظلوم وغضبك الله إذ ترك حكم الكتاب وجاهدتما أهل البغي والعدوان ، فأبشرا برضوان الله وعاجل نصر أولياء الله والمواساة لكما في الدنيا وسلطاننا حتى ينتهي في ذلك ما يرضيكما ونؤدى به حقكما إلى ما يصير أمركما إليه فاصبرا وصابرا عدوكا وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما فكان الجيش قد أطل عليكم فانقشع كل ما تكرهان وكان كل ما تهويان . والسلام عليكم ، » .

فلما جاء الكتاب ، كتب إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج « أما بعد فإن هذا الأمر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا أمر الله فيه أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر بمن خالفنا وتعجيل النعمة لمن سعى على إمامنا وطأطأ الركض في جهادنا ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفينا من كان به من أهل البغي وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت المواساة في سلطانك ودنياك وبالله ما ذلك الأمر الذي له نهضنا ولا إياه أردنا فإن يجمع الله لنا ما نطلب ويؤتنا ما تمنينا فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين وقد يؤتيهما الله معا عالماً من خلقه كما قال في كتابه ولا خلف لموعوده » « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » عجل علينا خيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا حرباً وكنا فيهم قليلاً فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين فإن يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . والسلام عليكم . » .

جاء هذا الكتاب إلى معاوية فقال لعمر و تجهز يا أبا عبد الله وبعثه في ستة آلاف ، وأوصاه بالأعذار إلى المخالفين والتأني والرفق والقبول من أقبل والحقو عن أدبر وأن لا يبطش بمسكبر إلا بعد الإعذار إليه . فلما كان عمرو بأدنى أرض مصر اجتمعت إليه العثمانية وكتب عمرو إلى محمد بن أبي بكر :

« أما بعد فتتح عنى بدمك يا ابن أبي بكر : فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظنر . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك . فهم مسنوك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنى لك من الناصحين » .

وأرسل إليه معه بكتاب كان معاوية كتبه إلى محمد بن أبي بكر صورته « أما بعد فإن غب البغى والظلم عظيم الوبال وإن سفك الدم المحرام لا يسلم صاحبه من العقمة في الدنيا ، ومن اتبعت الموبقة في الآخرة . وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بنياً ولا أسوأ له عيياً ولا أشد عليه خلافاً منك : سميت عليه في الساعين وسفكت دمه في السافكين ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناس لك حتى تأتى فتأمّر على بلاد أنت فيها جارى وجل أهلها أنصارى يرون رأيى ويرقبون قولى ويستصرخونى عليك . وقد بعثت إليك قوماً خافاً عليك يستسقون دمك ويتقربون إلى الله بمجهاذك وقد أعطوا الله عهداً لئلا يهلكوا ولم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك ولا حبيت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعمدوك على عثمان يوم 'يطعن بمشاقصك بين 'خشماته وأوداجه . ولكن أكره أن يثل بقرشى وإن يملك الله من القصاص أبداً أيما كنت والسلام » .

فلما جاء إلى محمد كتاباها أرسلها إلى علي وكتب معها « أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أدانى مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ، من كان يرى رأيهم ، وقد جاء فى جيش لجب حراب . وقد رأيت من قبل بعض الفضل ، فإن كان لك فى أرض مصر حاجة فأمدنى بالرجال والأموال . والسلام »

فكتب إليه على يهون عليه امر ابن العاص ، وأن خروج من خرج إليه إنما هو في مصلحته . وأمره أن لا يفشل وإن فشل من قبله وأن يحصن القرية ويضم إليه شيعته ويقاتلهم بجهد ، ووعد أمداده بالرجال سريعاً . ونال من معاوية وعمر ما شاء أن ينال . وأمره أن يجيبهما عن كتابهما إن كان لم يجيبهما ، وأن يندب إليه كنانة بن بشر .

أما محمد بن أبي بكر فكتب إلى معاوية « أما بعد فقد أتاني كتابك تذكرني من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك منه وتأمرني التنحي عنك كأنك لي ناصح وتخوفني المثلة كأنك شفيق وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فأتاحكم في الواقعة وأن تؤتوا النصر ويكن لكم الأمر في الدنيا فكم لعمرى من ظالم قد نصرتموكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به وإلى الله مصيركم ومصيرهم وإلى الله مرد الأمور وهو أرحم الراحمين وهو المستعان على ما تصفون » وكتب إلى عمرو بن العاص : « زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين . وتزعم أنك لي نصيح وأقسم أنك عندى ظنين . وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمرى وندموا على اتباعي فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء . . . » وقام محمد بن أبي بكر في الناس يستجيشهم ويؤلبهم ويبعث فيهم الحماة ويهزم بالقول . فنفر منهم ألفان معه ومثلهم مع كنانة بن بشر واستقبل عمرو بن العاص ومن معه وتقدم إليه كنانة بن بشر وكان عمرو قد سرح جيشه كتاب فصار كنانة يضرب في هذه الكتاب ويردها إلى عمرو حتى قرب منه فاستدعى معاوية بن حديج السكوني فجاءه في مثل الدم فأحاطوا بكنانة بن بشر ومن معه وعطفت عليه أهل الشام فقاتلهم ابن بشر ومن معه حتى قتل . ثم جاء عمرو إلى محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أكثر من معه لما بلغهم ما حل بابن بشر ومن معه واستمروا في التفرق حتى لم يبق معه أحد ففرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة فدخل فيها ودل عليه بعض القبط وهم لا يعرفونه فدخل عليه معاوية بن حديج في أصحابه فأخرجوه وقد كاد يموت عطشا وقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال أتقتلون أخي فأرسل

عمر وإلى معاوية بن حديج أن يأتي به إلى القسطنطينية فقال أكذاكم قتلتم كنانة بن بشر وأبقي أنا محمد بن أبي بكر؟ أكفاركم خير من أولئكم؟ فطلب محمد أن يسقوه فقال لا سقاء الله شربة ماء أن سقاك فطرة ماء منعم عثمان الماء وقتلتموه صائماً محرماً حتى تلقاه الله بالرحيق المخنوم ، والله لأقتلك يا ابن أبي بكر ويسقيك الله الحميم والغساق ونال كل منهما من الآخر وانتهى الأمر بأن قتله وأدخله جيفة حمار ثم أحرقه . ولما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه وقتت على معاوية وعمر و دبر كل صلاة وضمت عيال محمد إليها .

أما على فلم يوفق لإخراج الجنود لأغاثة محمد بن أبي بكر إلا بعد شدة . وقد انتدب له ألفان ولم يسيرا قليلاً حتى جاء الخبر بقتل محمد بن أبي بكر ووقوع مصر في يد معاوية . فأرسل إلى القوم من ردهم من الطريق وحزن على محمد بن أبي بكر حزناً كثيراً . ولم يجد علياً ما صاغ من الخطب وصنف من القول في الاستنهاض . وقد سر معاوية وأهل الشام بما كان سروراً عظيماً .

كانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ، ولم يقنع بالاستيلاء عليها ، بل عمد إلى تجهيز الجيوش إلى أطراف على ينتقصها : فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعل قفز ع إلى على يستمده لكفاح المغيرين فأمر الناس باللاحاق واستنهضهم فثاقلوا فقام على فيهم بهذه الخطبة (يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسبر من مناسر أهل الشام أظلمكم انجحركل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه انجحار الضبع في وجارها . المغرور من غررتموه . ولئن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب . لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجا . إنا لله وإنا إليه راجعون . ماذا منيت بكم . عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون صم لا تسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد وجه معاوية أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف للإغارة على هيت والأنار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعل فذلهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية . ووجه عبد الله بن مسعدة إلى تباه وأمره أن يصدّق من مر به من أهل

البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة . فوجه إليه على جيشاً يقدمه
المسيب ابن نجية الفزاري فلقى ابن مسعدة بقياه فاقتلوا قتالا شديداً وانتهى
الامر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش .
فوجه معاوية الضحاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة فأغار عليها .

ووجه بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى
أتى المدينة وملكها وباع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فباع أهلها كذلك ، ثم قدم
حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس واليأ لعل . فلما علم بمقدم بسر بن أرطاة
فرّ إلى الكوفة واستخلف على صنعاء لجاء بسر وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله
ابن عباس قالوا : إنه ذبحهما وقد جنت أمهما لمصاهبهما وهوله ورُميت وهي
بالأسواق تنشدهما وتقول .

يا من أحس بابنيّ اللذين هما كدرتني تشظي عنهما الصدف

وكان بسر مسرفاً في القتل لشيعه علي ، سفاكاً للدماء ، فقد قتل كثيراً من
المسلمين في وجهه هذا وهدم دوراً كثيرة في مكة والمدينة وقد وجه إليه عليّ
جارية ابن قدامة في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين فخاف منهما وهرب حتى
أتى مكة وقد قتل علي في تلك الأثناء وحملهم جارية بن قدامة على بيعه الحسن
وكذلك أهل المدينة .

على هذا النمط كانت الأحوال : معاوية يتسوق له الأمر ويضخم ملكه
ويزداد قوة إلى قوته وتوابعه الأقدار ويرافقة التوفيق ، وعلى تضطرب عليه
الأحوال وتتعدر السبل وتنتقص أطرافه وتقتل شيعته وأهل طاعته وتلتوى
عليه الأمور . حتى أن أكثر المؤرخين يذكرون أن عبد الله بن عباس قد فارق
علياً إلى مكة . لأن علياً سمع فيه الوشائيات وقبل عليه السعايات من الساعين
إليه بأنه احتجج الأموال دونه وخان في بيت المال . وقد روى الطبري
أن الساعى بذلك أبو الأسود الدؤلي وكان ابن عباس عابه فأصغى على
إلى قوله ، فاحتمل ابن عباس ثقله وما كان معه من مال ولحق بمكة في جوار
أخواله من بني هلال . وذلك تقدير العزيز العليم .

جواب سؤال

يعتلاج نفسى سؤال كلما استعرضت الأحوال التى كانت فى أخريات زمان عثمان وفى مدة على وما بعدها وهو : لم اختص المصرين للبصرة والكوفة بقيام الخوارج دون الشام ومصر . ولم كان أهلها بهذه الأخلاق من النزوع عن الطاعة والخلاف لأمر الإمام ؟ .

هذا السؤال مهم جدا وجوابه أهم ويحتاج إلى الإفاضة والشرح فى البحث والتنقيب عن غوامض كثيرة وربط الأسباب بمسبباتها . غير أنى اجتزئ . بأن أقول كلمة موجزة تكون بمنزلة الإشارة ، واعتمد على ذهن القارئ . فى الإكفاء بهذا الإجمال .

يقول علماء الأخلاق وأهل البصر بعلم الاجتماع : إن ماضى الأمة لا يموت أبداً ولكنه يكون حيا فيها وفى أعقابها ، وإن الروح العامة للأحياء من الأمة إنما هي مؤلفة من أفكار الأموات . ومعلوم أن المسلمين قد غلبوا الفرس واحتلوا أموالهم ونساءهم وذرايرهم ، واتخذوا النساء الفارسيات زوجات وأولادهم أكثر أولادهم فى تلك النواحي . فنشأت نابتة تلك الأقطار بين آباء وأمهات من جنسين متباينين فى المدنية والأخلاق والآداب والعادات والمعتقدات ومن دمين مختلفين يحمل كل منهما صفات متنافرة وعقائد متضاربة . ومثل هذا النسل تنفك فيه أواصر الروح الوراثة وتوجد فيه أفكار متناقضة كل منها يجذب قواه إلى ناحيته . ومعلوم أن الفرس قد اعتنقوا أديانا مختلفة واصطبغوا بصبغات متنافرة فهم قوم يجمعون بين الصابئية والمجوسية والإباحية . ولهم ولوع باختلاف الأساليب الدينية يمثلها خيالهم ولم يكن لهم ثبات على دين خاص أو نخلة معينة بل كانوا فى جميع أدوار حياتهم متأثرين بعوامل الجذب والدفع بين النحل والأديان . فلما نشأ هذا الجيل المولد بين العرب والفرس نشأ مختلط المزاج سريع التأثر بالعقائد . يلبس لباس الدين والتقوى التى ورثها من الآباء ولكنه يريد أن يجذب هذا

اللباس وبوسع فيه حتى يحيط بكل ما انتقل إليه بطريق الوراثة من الأهواء المصلة التي يعجز عن التخلي عنها ولا يقدر على مفارقتها . وليس الدين عنده ديناً إن لم يتسع له ولما حمله بالوراثة من النزعات والنزغات وليس في وسعه أن يقاوم تلك العوامل الداخلية التي تدفعه إلى العمل على هذا النحو فهو يأتي ما يأتي باعتقاد قوى وفكرة لا شك فيها أنه على حق ليس وراه إلا الضلال . وعلى ذلك يكون مزاجه العقلي والأخلاقي وآدابه التي يأخذ نفسه بها مزيجاً مركباً من عناصر شتى .

ولهذا يقول علماء الاجتماع : إن الشعب الصحيح لا وجود له إلا عند القوم الأولين . وأما الأمم المتحضرة فإن كثرة اختلاط التناسل ووحدة البيئة ولدت منها شعوباً تاريخية جديدة تشبه الشعوب الصحيحة . وإن صفات الشعب النفسية ثابتة ثبات صفاته الجسدية وتنتقل بالوراثة على قاعدة واحدة وبلا استمرار . وإن المولد رجل تتجاذبه مؤثرات مختلفة من الوراثة والذكاء والآداب والأخلاق .

فاذا كانت أمة كلها أو جلها على هذا النحو من التناسل بين أبوين مختلفين كل الاختلاف على هذا النحو الذي ذكرنا كان قيادها صعباً وإن البيئة إذا كانت بهذا الوصف أثرت بطريق العدوى في من لم يكن مولداً واندمج كثير بحكم التقليد وتغلب روح الجماعة في ذلك المزاج المختلط فتندم شخصيته ويكون متأزراً بالروح العام للجماعة التي هو فيها .

وقد قال غوستاف لوبون « أمة أهلها كلهم مولد لا تسام ، فليس عجيباً أن تعانص على على سياسة هؤلاء القوم وأن ينزع منهم نازع في كل يوم إلى الخروج وانتحال نحلة جديدة وتأويل الدين على مقتضى ما يحول بخواطرهم لأنهم مدفوعون إلى هذا الضرب بعوامل الوراثة التي فيهم .

أما أهل الشام فلم يكونوا كذلك لأنهم لم يكونوا يستكثرون من إبلاد السبايا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الروميات كن متدينات بالدين المسيحي

وهو دين يأمر بالخير وينهى عن الشر وأهل تلك الناحية قد بعد عهدهم بالوثنية ولم ينقلبوا في الأهواء والبدع تغلب الفرس ، فكان المزاج الديني للامهات قريباً من مزاج الآباء فلم يكن التباين كثيراً من هذه الناحية فكانوا أبعد من البدع التي تختلق في العراق .

مقتل علي بن أبي طالب

كان الخوارج يرون في علي بن أبي طالب عدواً لدوداً وخصماً خصيماً . فاجتمع منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولائهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً لإخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا . فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وكان من أهل مصر . وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان . وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتوافتوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه . فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشر تخلص من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه . وأقبل كل واحد منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب .

فأما ابن ملجم فكان عداده في كندة غفرج فلقى أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره فرأى ذات يوم أصحابنا من تيم الرباب وكان على قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتالهم . ورأى من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ابنة الشحنة وقد قتل على أبائها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها التبت بعقله ونسى حاجته التي جاء لها ثم خطبها . فقالت لا أزوج حتى تشفى لي . فقال وما يشفيك قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب . فقال : هو مهلك ، أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي

وأنت تريدني . قالت : بلى ، التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي
ويهنئك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . قال :
فوالله ما جاء بي إلى هذا المصير إلا قتل علي ، فلك ما سألت . قالت : إني أطلب
لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك . فبعثت إلى رجل من قومها يقال له
وردان فكلّمته فأجابها . وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بجرة
فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال وما ذاك ؟ قال قتل علي بن
أبي طالب قال شككتك أمك لقد جئت شيئاً إداً ، فكيف تقدر على علي ؟ قال
أكن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فإن نجونا شفينا
أنفسنا وأدركنا ثأرنا وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال ويحك
لو كان غير علي لكان أهون علي ، قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقتها مع
النبي صلى الله عليه وسلم وما أجدني أنشرح لقتله . قال أما تعلم أنه قتل أهل النهر
العباد الصالحين ؟ قال بلى . قال فنقتله بمن قتل من إخواننا . فأجابوه فجاءوا قطام
وهي في المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها قد أجمع رأينا على قتل علي . فقالت
إذا أردتم ذلك فأتوني . ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها
علي فقال : هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي أن يقتل كل واحد منا صاحبه .
فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسياфهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج
منها علي فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب وضربه ابن
ملجم في قرنه بالسيف وهرب وردان .

فأما وردان فقد جاء منزله وأخبر رجلاً من قومه الخبر فقتله الرجل . وأما
شبيب فدخل غمار الناس ونجا . وأما ابن ملجم فشددوا عليه فأخذوه .

وأما علي بن أبي طالب فتأخر وقال : لا يفوتكم الرجل . وأدخل عليه
ابن ملجم فقال له : أي عدو الله ألم أحسن إليك ؟ قال بلى . قال فما حالك
على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه .
فقال علي : لا أراك إلا مقتولاً ، ولا أراك إلا من شر خلقه .

وكان ابن ملجم حين ضرب علياً بالسيف قال : الحكم لله يا علي ، لا لك

ولا لأصحابك وقد قال علي بعد ضربه : النفس بالنفس إن أنا مت قاتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي . وقالت أم كلثوم بنت علي وهي تبكي : أي عدو الله ، لا بأس علي أبي ، والله مخزبك . قال فعلى من تبكين ؟ والله لقد اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد .

ودخل جندب بن عبد الله على علي فقال : يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنباع الحسن ؟ قال ما أمركم ولا أنهاكم أتم أبصر . فرد عليه مثلاً . فدعا حسناً وحسيناً فقال : أوصيكم بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بقتكما ، ولا تبسكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغنيا الملهوف واصنما للآخرة وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً . اعملوا بما في الكتاب ولا تأخذكم في الله لومة لائم . ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم فقال إن أوصيك بمثله ، أوصيك بتوقيف أخويك لعظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرأدونهما . وما زال يوصيهم بمحاسن الأخلاق والتقوى ، وما زال يقول لا إله إلا الله حتى قضت صبيحة يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ٤٠ . وكان قد نهاهم عن المثلة وقال : يا بني عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن إلا قاتلي . انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور . فلما قبض بعث الحسن إلى ابن ملجم . فقال للحسن هل لك في خصلة إني والله ما أعطيت الله عهداً إلا وفيت به . إني قد كنت أعطيت الله عهداً عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما . فإن شئت خلعت بيني وبينه ولك الله على إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدي في يدك . فقال الحسن : أما والله حتى تعابن النار فلا . ثم قدمه فقتله وأخذته الناس فأدرجوه في بوارى ثم أحرقوه بالنار .

وأما البرك فإنه قعد لمعاوية في الليلة التي ضرب فيها على ، فلما خرج ليصلي الصبح شد عليه بسيفه فوقع في إلبته ولم يقتله ، فأخذ . فقال لمعاوية : عندي خبر أسرك به فإن أخبرتك به أنافعي ذلك عندك ؟ قال : نعم . قال : إن أخألى قتل علياً في مثل هذه الليلة . قال : فلعله لم يقدر على ذلك ؟ قال : بلى ، إن علياً يخرج وليس معه حرس . فأمر به فقتل . وأرسل معاوية إلى الساعدي وكان طبيباً فقال : إن ضربتك مسمومة فإما أن أحى حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع عنك الولد وتبرأ منها . فقال : أما النار فلا صبر لي عليها ، وأما الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني فسقاه تلك الشربة وبرأ ولم يولد له بعدها . وأمر معاوية باتخاذ المقصورات وحرس الليل والشرط تقوم على رأسه إذا سجد .

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمر بن العاص في تلك الليلة وكان اشتكى من مغس أصاب بطنه فلم يخرج وكان خارجة بن حذافة صاحب 'شرطته' فأمره أن يصلي بالناس فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله . فأخذته الناس وانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالأمرة . فقال من هذا ؟ قالوا : عمرو . قال . فمن قتل ؟ قالوا : خارجة بن حذافة . قال : أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة . وقدمه فقتله .

وبلغ معاوية ما كان بمصر فكتب إلى عمرو :

وقتل وأسباب المنايا كثيرة منه شيخ من لوى بن غالب
فيا عمرو مهلاً إنما أنت عمه وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوت وقد بل المرادى سيفه من ابن أبي شيخ الأباطح طائب
ويضربني بالسيف آخر مثله فكانت علينا تلك ضربة لازب
ولما انتهى إلى عائشة قتل على تمثلت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت : من قتله ؟ فقيل : رجل من مراد ، فقالت :
فإن بك نائباً فلقد نعاها غلام ليس في فيه تراب
فقالت زينب بنت أبي سلمة : ألعلي تقولين هذا ؟ فقالت : إني أنسى فإذا
نسيت فذكروني .

وقد قال ابن أبي مياس المرودي في قتل علي :
ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقتية وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم
وقد رثاه أبو الأسود الدؤلي بقوله :

ألا بلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام لجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
في أبيات غير هذه . ومعلوم أن مخاطبة معاوية بهذه الكلمة أمر في غير
محله ، لأنه لا ذنب له في ذلك ، وإنما قتله الخوارج ، وقد استوفى معاوية
حصته من المؤامرة .

وقد كان علي قد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة وكانت خلافته خمس
سنين إلا ثلاثة أشهر .

وقد روى الطبري بسنده إلى خالد بن جابر قال : سمعت الحسن يقول
— لما قتل علي عليه السلام — وقد قام خطيباً ، لقد قتلتم الليلة رجلاً في ليلة
نزل فيها القرآن وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام وفيها قتل يوشع بن نون
قتى موسى عليه السلام . والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون
بعده والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعنه في السرية وجبريل
عن يمينه وميكائيل عن يساره والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة
أو سبعمائة أرصدها لحادمه ، ومعلوم أن يوشع لم يقتل ، وأما كون عيسى
رفع في مثل تلك الليلة فلم أقف عليه .

وإني هنا أتعجل بكلمة صغيرة وهي : أننا إذا نظرنا إلى علي من جانب الدين وحب الحق والزهد في الدنيا والإعراض عن زخايفها وزينتها وجدناه يمشي في صف أبي بكر وعمر لا يتخلف عنهما قيد خطوة . وإذا نظرنا إليه من جهة الفقه في أحكام الدين والعلم بجزئيات فروع الشريعة وجدناه يسبقهما أما من حيث تدبير الملك وسياسة الرعية ومقاربة العامة والتنبه لدقائق السياسة والأخذ على شكائم القوم والإحاطة بأحوالهم . فإنه يتأخر عن الرجلين في هذا المقام . مع سعة درايته وقوة عارضته لأن الأقوال في السياسة وحسن الملكة والإعراب عن دقائق ذلك شيء ، وإفاضة ذلك على الرعية وبسط النفوذ على السكافة وإخضاعهم للإرادة شيء آخر . وقد يمر بنا شيء من ذلك ومن عدم نجاحه في جمع كلمة الأمة والسرف في ذلك سوء الأحوال التي تولى فيها .

وعندي أن الوقت لو صفا لعلی رضى الله عنه ووائته المقادير باستتباب الراحة واجتماع الكلمة ، لأذاق الأمة حلاوة العدل وحلهم على الجادة وسارهم في طريق الفتوح وبسط نفوذ الإسلام وإعزاز كلمته بما لم يدع مقالا لقائل والله في خلقه شئون .

ويكنى من ينظر في أمر علي أنه لم يوجد عنده من المال سوى سبعمائة درهم كان أرصدها لشراء خادم له لم يكن عنده سواها وفي رعيته من يملك عشرات الآلاف ومئات الآلاف . ولم يكن مترفها في معيشته ولا متوسعا كما كان معاوية أو عثمان بل كان من طراز أبي بكر وعمر .

بيت علي

تزوج علي بن أبي طالب :

- (١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده . وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وهي زوج عمر بن الخطاب .
- (٢) أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب ، فولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان .

- (٣) ليلي بنت مسعود التيمية ، فولدت له عبيد الله وأبا بكر .
(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية ، فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر .
(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب ولدت له عمر ورقية .
(٦) أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فولدت له محمداً الأوسط .
(٧) خولة بنت جعفر الحنفية ، فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية .
(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود ، فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى
(٩) بحية بنت امرئ القيس الكلبي ، ولدت له جارية ماتت صغيرة .
وكان له بنات منهن : أم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتى . وكان النسل من ولده الخمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس ، وعمر .

صفة علي وأخلاقه

هنا أترك الكلام لصديق المرحوم الحضري بك يقول كلمة في ذلك : يخطر ببال من فحس عن تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال . كيف دانت قریش لشبختين ، أولهما من بنى تيم بن كعب والثاني من بنى عدى وخضعت لهم الخضوع التام ، فصار القوم بقلب واحد في سبيل نصرته الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبني عبد مناف وولها اثنان منهم نفعت على أولها حياته في آخر عمره ، ولم يصف الأمر لثانتهما في جميع حياته ، بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بنى عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الأدنون وسادة قریش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التي لم تجتمع في غيره ؟ لا بد

لذلك من أسباب . أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى ، وأما أمر على فإننا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خالق على وما كان من الأحوال التي أحاطت به .

كان على ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره ، وهي :
الشجاعة — الفقه — الفصاحة .

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ؟ وأول ما عرف من شجاعته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوماً يترصدون حتى إذا خرج يقتلونه ، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه . ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفى مكانه ، يبارز الأقران فلا يقفون له ، ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد أتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر . أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفه ففعل به الأفاعيل ، وكان الناس يهابون مواقفه ويخشون مبارزته لما يعلون من شدة صولته وقوة ضربته .

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالجهول . صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صباه وأخذ عنه القرآن ، وكان يكتب له مع ما أوتيته من ذكاء بني عبد مناف ثم بنى هاشم ، ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان ، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب .

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد الرضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة ، وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد . فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل

من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية
توحى إليها رشادها وتقوم مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد
الفضل والكمال .

وطوراً كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح
فى أشباح النور ومخالب النور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ،
نخلبت القلوب عين هواها وأخذت الخواطر دون مرماها . واغتالت فاسد
الاهواء وباطل الآراء . وأحياناً كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا
جسدانيا ، فصل عن الموكب الآلى واتصل بالروح الإنسانى ، نخلعه عن
غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى . ونما به إلى مشهد النور الأجل ،
وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلّيس .

وآتات كأتى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلاء الكلمة وأولياء أمر الأمة
يعرفهم مواقع الصواب وبصرهم مواضع الارتباب ويحذرهم مزالق الاضطراب
ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن
المصير وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئا كثيرا .

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه
وسلم ومصاهرته له ، جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قریش صغيرها وكبيرها
شيخها وفتاها . ويرى بذلك له الحق فى ولاية الأمر دونهم فقد قال : لقد
تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى يجدر عنى السيل
ولا یرقى إلى الطیر . وقال : فوالله ما زلت مدفوعا عن حقى مستأثرا على منذ
قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا . وهناك طيعة فى الناس —
أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى
قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم .

إن تلك الأمور التى يراها على لنفسه جعلته يقتنع بأن الحق فيما يراه ، وافقه
عليه غيره أم خالفه — ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الاستشارة فيما هو صانع —
وهذا شئ شديد لا تقله نفس الكبراء والأشياخ — روى أنه لما بوىع

عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتها والاستعانة في الأمور بهما فقال لهما : لقد نقيمتا يسيرا وأرجأتما كثيرا . ألا تخبرانني أى شيء لسا في حق دفعكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به . أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت ما به ؟ والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية أربة ولكنكم دعوتموني إليها ، فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاقديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته أستشيركما وإخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن هذا الأمر لم أحكم فيه أنا برأي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا وأتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه ، أحتج إليكما : قد فرغ الله من قسمه وأمضى إلى حكمه ، فليس لسا والله عندي ولا لغيركما في هذا عتي . أخذ الله بقلوبنا وقلوبكما إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر . وأى نفس تصبر على مثل هذا ، ؟ .

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صواباً كان أو خطأ فلما آل الأمر إلى علي كان يريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القصة تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين .

كان لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى علي ، فقال بعد خلافته : والله لو وجدتته قد تزوج به النساء وملك به الإمام لرددته ، فإن العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق .

بويج بولاية الأمصار من عليّة قريش وذوى الرأى والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره ، فلم يسمع لأحد قولاً بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم حتى خيل إليهم أنه لو ملك كانت مصيبة كبرى فناموه وكانوا عليه يداً واحدة .

أراد في هذه الأحوال أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم أنه لولا هم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا : أرض بالحكيم وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان . ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا قثم ابن العباس على الحجاز وعبيد الله ابن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة فقيم قتلنا ابن عفان ؟ وكانت سآمتهم منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان . يدعومهم فلا يجيئون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فأرهقهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لها بين الطائفتين توازن عند الحصومة . كان معاوية يتساهل ببعض الشيء لرموس أجناده ويفيض عليهم العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقيير والقطمير في وقت هو محتاج إليهم فيه حتى كان سبباً في تغيير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة . وليس شأن علي في ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما علي فكان معظم الأمة عليه فضلاً عن أن كثيراً من التهم كانت تلتصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله بن عباس .

وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إلى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائاه عن رأى الأشياخ من قريش وشدة عليهم شدة لم يُعَدَّ لها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة والحال السيئة التي تولى فيها فإنها كانت تقصره على غير ما عرف عنه من الكياسة وسداد السياسة . اهـ ببعض تصرف .



مبايعة الحسن بن علي

لما قتل علي بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة . وأول من بايعه قيس بن سعد فقال له : أبسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقاتل المحلين . فقال له الحسن رضي الله عنه : علي كتاب الله وسنة نبيه ؛ فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط . فبايعه وسكت وبايعه الناس .

وكان علي رضي الله تعالى عنه قد استطاع بعد الجهد الشديد أن يبايعه أربعون ألفاً على الموت وكان قد جعل قيس بن سعد على مقدمته ووجهته أذربيجان . فلم يزل سعد يداري ذلك البيعة حتى قتل علي . وكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة . وعرف أن قيس بن سعد لا يوافقهم فعزله . وقيل إنه لم يعزله ، ولكن الحسن قد اختلف عليه أهل عسكره وهو بالمدائن وقد نزل معاوية بجند مسكن وسبب هذا الاختلاف على الحسن أن قاتلاً في عسكره قال : إن قيس بن سعد قد قتل فأنفروا ، فنهروا ونهوا سرادق الحسن حتى نازعوه اساطل كان تحته ، فخرج حتى نزل المقصور البيضاء بالمدائن وكان سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد عامله عليها . فقال له المختار وهو غلام شاب : هل لك في الغي والشرف ؟ قال وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية . فقال له عمه : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ، بثس الرجل أنت ؟ .

فلما رأى الحسن تفرق الأمر عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح . وقال للحسين ولعند الله بن جعفر إني قد كتبت إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان فقال له الحسين . نشدتك الله أن تصدق أحذوثة معاوية وتكذب أحذوثة علي . فقال له الحسن : اسكت فأنا أعلم بالأمر منك فلما انتهى كتاب الحسن إلى معاوية أرسل إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فقدموا المدائن وأعطيا الحسن ما أراد - فكتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدمته

في اثني عشر عاماً يأمره بالدخول في طاعة معاوية . فقام قيس في الناس فقال : يا أيها الناس . اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلال ، أو القتال مع غير إمام . قالوا لا - بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة ، فبايعوا لمعاوية .

ويظهر لي أن هذه الرواية واهية إذ يبعد على قوم مسلمين أن يقولوا ذلك ولعلمهم لم يقولوا ذلك إلا بعد أن استوثق لهم بنفسه . وروى الطبري أن أهل العراق لما بايعوا الحسن بن علي طفق يشترط عليهم أنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالم وتحابون من حاربت فارتأت أهل العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط . وقالوا : ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتال . ثم لم يلبث الحسن حتى طعن طعنة أشوته^(١) فازداد لهم بغضا ومنهم ذعراً . فكتب إلى معاوية يطلب الصلح ، فأرسل إليه معاوية صحيفة يضاء محتوم على أسفلها ، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك . فلما جاءت الصحيفة إلى الحسن أضعف الشروط التي كتب بها إلى معاوية أولاً وهي خمسة ملايين درهم كانت في بيت مال الكوفة وخراج دار الجرد ، وأن لا يشتم على بمسمع منه فلما رأى معاوية أنه أضعف الشروط استمسك بما كتبه الحسن أولاً ولم يعطه ما اشترطه ثانياً

سار معاوية بعد ذلك حتى نزل الكوفة . وأراد عمرو بن العاص أن يفضح الحسن بن علي ، وأن يدو عيه للناس فأشار على معاوية أن يخطب في الناس ويدعو الحسن إلى الخطبة فقام معاوية كارهاً لذلك ، فخطب في الناس ثم أمر رجلاً أن ينادي الحسن ليتكلم . فقام فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيه ثم قال : أيها الناس . إن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا . وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول . وأن الله تعالى قد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، فلما قالها قال له معاوية أجلس . ولم يزل ضرمًا على عمرو وقال له هذا من رأيك . وقد تحمل الحسن بمن معه من أهل بيته إلى المدينة .

(١) لم تصه

وروى الطبري أيضا أنه لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بمسكن ، قام الحسن فقال . يا أهل العراق إنه سخي بنفسى عنكم ثلاث : قتلتم أبي ، وطعمتم لياى ، واتهابكم متاعى .

وكان قيس بن سعد قد أبى من الصلح ، وكان تابعاً لابن العباس . وقد كاتب ابن عباس معاوية يطلب إليه الأمان وترك ما أصاب من مال على الدخول في طاعته فكتب له بذلك وأرسل إليه جندا ، فلحق ابن عباس بجند معاوية سرّاً وترك الجند الذى كان فيه بلا قائد سوى قيس بن سعد . فبقى قيس على الجند الذى كان مع الحسن وخاطبه معاوية في الدخول في الطاعة فأبى سعد أن يلين له . فأرسل إليه معاوية ورقة مختومة من أسفلها وقال له اشترط فيها ما شئت . فكتب فيها الأمان لنفسه ولشيعته على ولم يزد . وكان هذا من حكمة معاوية لأن عمرا أراده على قتاله فأبى وقال إنا لا نخلص إليهم حتى يقتل عدا دم من أهل الشام وما خير العيش بعد ذلك . وأنا لا أقاتلهم ما وجدت إلى الصالح سبيلا . وكان الصلح في شهر ربيع الآخر سنة ٤١ : وهذه الرواية أراها أثبت وهي تدل أيضاً على نفس عالية كريمة لقيس بن سعد .

والذى يلاحظه المؤرخ ، أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان وسكنت الضوضاء وهذا يدل على أن الطلب بدم عثمان حجة داحضة . وأن الغرض الحقيقى لمعاوية ومن معه إنما هو الملك لا طلب الثأر . وقد كانوا حين ثارت الفتنة يعدون دهاة العرب خمسة : معاوية ، وعمر بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ، وقيس بن سعد ، وعبد الله بن بديل .

تنزل الحسن بن علي

كان من رأى جند على أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الأحوال التى هو فيها نظرة صائفة .

وجد جنداً لا يركن إليه وخصما قوى الشكيمة ، وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة ، فلم ير خيراً لنفسه ولا لأمته من أن ينزل

لمعاوية على شروط رضا الطرفان ، وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ ، وبذلك تم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين ، . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة (عام الجماعة)

مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين^(١)

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دولة الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم . ونريد بالمدنية مجموع النظام الذي اتبعوه في أحوالهم الاجتماعية ، سواء في إدارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم .

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس (الخلافة الإسلامية) . وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم لم يزل مستعملاً لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء . وهذه الخلافة رياسة دنيوية أسسها الدين ، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً الخليفة في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا مالا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيئونه بما عدهم فإن اتفقوا في الفتوى كان من المحتم

(١) أُلِّمَت هذه الكلمة سماحاً في عاصرات المرحوم الحضري بك مع زيادة نسط ووصل بيان .

عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم ، فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين . فليست الخلافة سلطاناً دينياً كما يزعمون ، وإنما هي سلطان أساسه الدين .

ولم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة ، بل يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش . والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر . فأبو بكر من بني تيم ، وعمر من بني عدى ، وعثمان وعلى من بني عبد مناف . وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة ، وصاحبها يتعين بالانتخاب ، ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى ، تشبه رئاسة الجمهورية . وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى .

وكانت الناس تباع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وزادوا في بيعة عثمان « وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر » وحذفت هذه الزيادة في بيعة على لأنه كان أباهما لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف . وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور ، إلا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك . وكان أكثرهم اهتماماً بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلماً يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحس الآراء وكانت له (شورى خاصة) من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبي طالب ومن مائثلهم . وكان يلحق بهم عند الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه و (شورى عامة) من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الأمر في المسجد بعد أن يدعو الصلاة جامعة ، فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خاصته . وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول : من رأى منكم في أعوجاجاً فليقومه . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلى أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة والديمقراطية الصحيحة ولم يكن

ينقص هذا النظام البديع إلا شيء واحد . وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف بينهم وقد كان عدم هذا التعيين سبباً من أسباب الفرقة بين على ومعاوية . لأن علياً كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الأمصار الأخرى فتنى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته ، وليس لأحد منهم بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار مع ما كان يدعيه سوى هذا . فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحرب العظيمة بين المسلمين .

ولم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبته ، بل كان الخليفة يسير في طريقه وفي بيته كسائر الناس لا حاح ولا حارس والكبير إذا طلب منه أمراً أو أراذه على شأن من الشؤون وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الإمارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه إلا بعد الاستئذان

القضاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة ، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء . ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح اضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتديرها ، فقوضوا هذا العمل إلى من في مكنتهم الاستنباط ، ولكنهم لم يتسموا بالقضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب : فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم نموذجاً يسرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين .

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرف نفوسهم واستقلالهم في الحكم ولم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به . وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع

والخليفة والرعية . ولم يكن لأمره الأماصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً ، وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولى قضاء بلده من يرى فيه الكفاية وعلى الحاليين التعيين صادر من الخليفة . وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاء ما يقال إنه كتبه على بن أبي طالب إلى أحد عماله ، ثم اختر للحكميين الناس أفضل رعتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه ، أوقفهم في الشبهات وأخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل غلته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك) وهذا الكتاب عندي فيه شك وأرى أنه موضوع .

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام ، كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر . وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة في كتاب ، بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً . وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر وربما عرضت للقاضى مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص وهو الحديث - عند غيره لذلك كانوا يسألون : هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولم يجمعوا هذه الفتاوى ، ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم . وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والاقضية

ولم يكن التقاضى موكولاً إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء . وإما ما كان موكولاً إلى الاجتهاد في فهم القانون

الشرعى وتطبيقه على الحوادث والواقعات . حقيقة إن ذلك القانون لم يعنى بالتفصيل التام ، بل اهتم بالقواعد الكلية . وليس هذا عيباً فى القوانين التى يراد منها البقاء ، بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

الاجتهاد للقاضى — والحال كما ذكرنا — أمر لا بد منه . ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة .

ولم يكن تعيين القضاة ما نعا للخلفاء من نظر أية خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء فى آفات كثيرة ، فكان القضاة كانوا نواباً للخلفاء .

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له ، لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ فى يد القاضى ، فهو الذى يقضى وهو الذى ينفذ الحكم . ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ ، لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق : فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين ينفذون ما صدرت به الفتوى من تلقاء أنفسهم

ويظهر لنا أن قضاء القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاية الأمصار لا ناراينا قضايها حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد الكرم ولم يبلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها . وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يبلغنا أيضاً أن قضاة الأمصار كانوا ينيون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك دليل على قلة القضاة والخصومات .

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه ، ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسله إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش من يرون فيه السجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء . وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمر يكون سلطانهم قاصراً على تدير أمر الجنود والطر في معداتهم . ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب وهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف - وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمراً من ضربة السيف ، لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ، ويرون الإحجام عاراً لا يمحي - وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم على بن أبي طالب ، وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم .

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد أن كانت العرب تحارب جاهليتها بطريقة الكر والفر - وهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفر ثم يكر وهكذا لا يتبعون نظاماً - رأى قواد الجند من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح مع حروب الأمم المنظمة فبطوا مسير الجنود بعضهم بعض حتى يكون الصف متضامناً وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ المداوشات وتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنتان يمين ويسرى - أو جناحان - وساقة وهي الجزء المؤخر من الجيش وإذا كان الجيش تام الأقسام على هذا الوصف يسمى خميساً . ولكل فرقة من الفرق الخمس أمير ياتمر بأمر القائد العام . وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان للاحتفاظ بخطوط

رجعتهم الشأن العظيم حتى لا يأتوا من خلفهم وكانوا يحذرون البيانات جهدهم .
ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتيسير الجودما كتبه عمر
ابن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول : وترفق
بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم
حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم . فإيهم سائرون إلى عدو مقيم
حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم
راحة يحبون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . ونح ما زلهم عن قرى أهل
الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ، ولا يرزأ أحداً من أهلها
شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما اتلو بالصبر عليها فما صبروا لكم
فتولوهم خير ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت
أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء . وليكن
عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب
لا ينفعلك خبره وإن صدق في بعضه والغاش غين عليك وليس عينا لك . وليكن
ملك عند دلوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم
فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتوسع الطلائع عوراتهم . واحتر للطلائع
أهل البأس والرأى من أصحابك وتخبر لهم سوابق الخيل فإن تقوا عدواً كان أول
ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الحلال ولا
تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك
ولا تمنع طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلة أو ضيعة أو نكابة . فإذا
عابنت العدو فاصمم إليك أقاصيك واجمع اليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم
بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض
كلها كمعرفة أهلها بها فتضع بعدوك كصعده بك ثم اذك حراسك على عسكرك
وتيقظ من البيات جهداً .

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للحباية عمالاً مستقيين عن

العمال والقواد ، وقليل ما كانوا يكلون أمر الجباية إلى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة بما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في مصارفه .

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية ، وإيرادات غير ثابتة . أما الأولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية .

والخراج هو ما كان يوضع على الأرض التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها ويؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحياناً شيئاً مقدراً كما عمل عمر في السودان . وأحياناً يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض . أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن وملسكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب ، فهذه أرض عشر ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين . والعشر هو عشر ما يخرج من الأرض .

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون . فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الأرض والعلوج إلا بما أفاء الله عليهم . فقال عمر : ما هو إلا ما تقول ، ولست أرى ذلك . والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل . بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبعيره من أهل الشام والعراق ؟ فأكثروا على عمر وقالوا : تقف ما أفاء الله علينا بأسياقنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء آبائهم ولم يحضروا ؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأي . قالوا فاستنشر فاستنشر المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيهم أن يقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأي عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار

خمسة من الأوس وحسة من الخزرج من كبرائهم وأشرفهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا معي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هوأى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله إن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

قالوا نسمع يا أمير المؤمنين . قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ بالله أن أركب ظملاً لأن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أروى كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجته على وجهه وأنا في توحيه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتسكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم . أرايتم هذه الثغور؟ لا بد لها من رجال يلزمونها أرايتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وأدرا العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ فقالوا جميعاً : الرأي رأيك فعما قلت وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنها فقال قد بان لي الأمر فمن رحل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا نعهه على أهم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة — قبل أن يموت عمر عام — مائة ألب ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المنقال .

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خير . وكان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح . فقال عمر : إذا أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم . وفعل بالشام كما فعل بالعراق وترك أهله دمة يؤدون الخراج للمسلمين .

قال أبو يوسف القاضي : والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم . لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنها إذا خلت من المقاتلة المرتزقة .

ولم يكن مقدار الخراج معروفاً في عهد الخلفاء الراشدين تمام المعرفة

الجزية

والجزية هي ما يوضع على رؤس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم . ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا بمن لا قدرة له على العمل — روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم بالخراج^(١) قال : مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر . فضرب على عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال يهودي . فقال فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال الجزية والحاجة والسنة . قال : فأخذ عمر بيده وذمبه به إلى منزله فوضع له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال . فقال . أنظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفاه أن أكلنا شبيبته ثم تحذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهماً في السنة . ولا تنقص عن ١٢ درهماً روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته « أوصى الخليفة من بعدي بذيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم » .

(١) ص ٧٣ بولاق و ص ١٥١ طبعه المصنف السلفي

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم - نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم . وقد بيّنت الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب فيما الزكاة دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه ، بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده . وكانوا يعيّنون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار المسلمين يذهبون بتجارهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر : أن تجاراً من قلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب يأخذون منهم العشر . فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ليس فيما دون المائتين شيء . فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فحسابه .

روى أبو يوسف القاضي . أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب . دعنا ندخل أرضك تجاراً ونعشرنا . فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب وبعث زياد بن حدير على عشور أهل العراق والشام

ومما يستطرف من خبر زياد أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومته بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر راحعاً في سفته . فقال . اعطى ألفاً أخرى . فقال التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً ؟ قال نعم فسار التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيته فاستأذن عليه فقال : من أنت ؟ قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته . فقال عمر . وكفيت ، ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي

إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً . فقال الرجل : قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفاً وإنى أشهد الله أنى على دين الرجل الذى بعث إليك الكتاب (١) .

وقد اتنع المسلمون سنة عمر فى تعشير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين . قال أنس بن سيرين : أرادوا أن يستعملوا على عشور الإبل فأيبت فلقينى أنس بن مالك فقال . ما يمنعك ؟ فقلت العشور أخبت ما عمل عليه الناس قال فقال لى . لا تفعل ، عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك من أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب . وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة إلى بيت المال وفرأ ، وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة .

النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم ، لأنها تتبع المدنية والحضارة والأمة العربية كانت فى ذلك الحين تغلب عليها البسداوة . ولما جاء الإسلام لم بتغير التعامل بهذه النقود بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر . فلما فتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم ، رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فنها درهم على وزن المئقال وعشرين قيراطاً ، ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قيراطاً فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهى ٤٢

(١) المراح لأبى يوسف ص ١٦٢ طبع المطبعة السلفية .

فيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط الميثقال وضرب الدرهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سعة مثاقيل لأن كلا منها = ١٤٠ فصارت النسبة بين الدرهم والميثقال كنسبة ١٠ : ٧ . - نقل المرحوم على مبارك باشا في خططه عن المقرئى قال : وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله وحده . وعلى أخرى عمر . وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل . فلما ببيع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها : الله أكبر .

والظاهر أن ولاية الأمور والأمراء كانوا يضربون السكة فى نواحيهم ويضعون أسماءهم عليها . ذكر صاحب تاريخ النعمان الإسلامى أن من ذلك قطعة من الدنانير ضربها خالد بن الوليد فى طبرية سنة ١٥ للهجرة وهى على رسم الدنانير الرومية تماما بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالأحرف اليونانية (Xaled) وهذه الأحرف (Bou) قال ويظن الدكتور مولر المؤرخ الألمانى أنها مقطعة من (أبو سليمان) كنية خالد بن الوليد وصورة القطعة منقوشة فى الكتاب من وجهيها .

وفى الكتاب المذكور . وذكر المرحوم جودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الأمراء والولاة فى عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ فى قسبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفى (بسم الله الرحمن الرحيم) ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضاً . ونقداً ضرب سنة ٦١ فى بزد على دائرته (عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين) بخط بهلوى .

الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم . وكان الحج معتبراً فى نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاماً يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكواهم من رعيته

(٣١ - الخلفاء)

وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلبا يتخلفون . وكان أكثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فإنه حج سنه كلها لم يتخلف في واحدة منها ، إلا أنه حصل خلاف في السنة الأولى من حكمه فقل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة . وعثمان بن عفان حج سنه . وعلى أناب عنه كل سني خلافته لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية .

كان الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيماً وقائمة كبرى في تعارف المسلمين بعضهم ببعض ، وكان الخلفاء يجتهدون به الأخبار ما لا يمكن أن يصل إليهم بواسطة الولاة .

الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه ، وكان في كل مصر مسجد جامع تؤدي فيه الجمعة ولا ينصب منبر في غيره . فلم تكن تقام إلا الجمعة واحدة في مصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالي . ولم يبلغنا أنه تعددت في البلد المساجد في عهد الخلفاء الراشدين .

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة في الأمة انعريه خصوصاً في الحجاز ونجد . فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أمري بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداء . ولما فتحت البلاد الفارسية . وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون . جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة . وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة — أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب وقد كتبوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع في صحف في عهد أبي بكر . وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها الأمصار ليكون كل مصحف إماماً لأهل المصر الذي أرسل إليه . أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع في كتاب . وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكثفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها . والشرعية إنما جامتهم بهذه اللغة . فكانوا يستقلون بفهمها — وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق — وما قيل من أن علم النحو دونه أبو الأسود الدؤلي بأمر الإمام علي ، فقد كان شيئاً يسيراً ولم يكن كتاباً مدوناً كما هو المعروف في الكتب المدونة .

فهرس

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٧٣	غزو الفرس	٣	الخلافة في الإسلام
٨٤	خبر دومة الجندل	٥	بيت الخلافة
٨٦	حصيد	١٥	شكل الانتخاب
٨٦	الحنافس	٢٧	نوع الحكم في الخلافة الإسلامية
٨٧	الثنى والزميل	٢٩	انتخاب أبي بكر
٨٨	الفراض	٣٣	أول خطبة لأبي بكر
٩٢	ابتداء حرب الروم بالشام	٣٤	ترجمة أبي بكر
٩٧	واقعة اليرموك	٣٥	أخلاق أبي بكر
١٠٢	إدارة البلاد في عهد أبي بكر	٣٦	الردة
١٠٤	جمع القرآن	٣٧	إنقاذ أبي بكر جيش أسامة
١٠٥	رزق الخليفة	٤٠	قتال أبي بكر لأهل الردة
١٠٧	أرزاق الجند	٤٣	عقد الألوية للقتال
١٠٨	أرزاق العمال	٤٥	كتب أبي بكر إلى أهل الردة
١٠٨	وفاة أبي بكر	٤٥	عهد أبي بكر إلى القواد
١٠٩	انتخاب عمر للخلافة	٤٦	طليحة
١١٢	ترجمة عمر بن الخطاب	٤٨	بنو نعيم ومالك بن نويرة
١١٥	أول خطبة لعمر	٥١	بنو حنيفة ومسيلمة
١١٥	فتح فارس وما كان بعد خالد	٥٣	البنين والأسود المنسي
١١٨	التمارق	٥٦	ردة كندة
١٢٠	وقعة الجسر	٥٦	ردة أهل البحرين
١٢١	البويب	٥٩	ردة أهل عمان ومهرة
١٢٦	أمر القادسية	٦٢	ظهور الأمة العربية
١٤٩	يوم أعواث	٦٤	جراة العرب على الفتح
١٥٢	يوم عماس	٦٧	الأمور التي ساعدت العرب على الفتح

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢١٢	فتح حصص	١٥٥	مابعد الواقعة
١١٤	فتح بيت المقدس	١٥٨	ما بعد القادسية
٢٢١	القضاء	١٥٩	برص
٢٥٢	سيرة عمر في عماله	١٦٠	يوم بابل وكوثي
٣٣٩	عفة عمر عن مال المسلمين	١٦١	بهرسير
٢٤٤	تدوين الدواوين وفرض المطاء	١٦٢	المدائن القصوى
٢٤٥	الوصف على الجملة	١٦٧	ماجم من غنائم أهل المدائن وقسمتها
٢٤٦	بيت عمر	١٦٩	وقعة جلولا
٢٤٧	مقتل عمر	١٧٢	فتح تكريت
٢٥٠	كيف قتل عمر؟	١٧٣	ما سبدان
١٥١	كيف انتخب عثمان؟	١٧٣	قرقيسيا
٢٥٤	انتخاب خليفة عمر	١٧٤	تمصير الكوفة
٢٥٧	الحالة العامة في عهد عمر	١٧٦	فتح الجزيرة
٢٦٣	ترجة عثمان بن عفان	١٨٢	فتح الأهواز
٢٦٥	أول قضية نظر فيها عثمان	١٨٤	غزو فارس من البحرين
٢٦٧	أول خطبة لعثمان	١٨٦	فتح رامهرمز والسوس وتستر
٢٦٨	كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار	١٩١	فتح نهاوند
٢٦٩	الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان	١٩٤	فتح أصبهان
٢٧٠	الفتوح في زمن عثمان	١٩٥	فتح أذربيجان
٢٧٠	فتح أرمينيا والقوقاز في عهد عثمان	١٩٦	فتح الري
٢٧٩	تتمة فتح بلاد فارس	١٩٦	فتح الباب
٢٨٦	الفتح في مملكة الروم زمن عثمان	١٩٩	فتح خراسان
٢٨٩	مقتل يزيد جرد	٢٠٢	فتح أهل البصرة
٢٩١	اجتماع أعمال سورية كلها لماوية	٢٠٥	الفتوح في بلاد الروم
٢٩٢	الفرقة العربية وأسبابها ونتائجها	٢٠٦	فتح دمشق
	هل كان عثمان مسيئا إلى الناس	٢٠٩	غزوة فحل
٢٩٢	أو نقص عنهم الرزق في عهده؟	٢١١	الوقعة بمرج الروم

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
السكوفة	٢٩٧	شر حبيب بن السمط	٤٠٩
البصرة	٣٠٨	مسير عمرو بن العاص إلى معاوية	٤١١
مصر	٣١٠	خروج ابن أبي سرح إلى مصر	٤١٣
الشام	٣١٣	أمر صفين	٤١٧
إبتداء العمل في الفتنة	٣١٦	عقد التحكيم	٤٢٦
دور الشدة في الفتنة	٣٢٤	نتائج التحكيم	٤٣٠
عمل علي وعمل مروان مع الخليفة عثمان	٣٣١	إجتماع الحكمين	٤٣٣
الحصار وما كان في أيامه	٣٣٥	شأن الخوارج مع علي	٤٣٩
ما قعد بأهل المدينة عن نصر عثمان	٣٤٣	نخاذل شيعة علي	٣٤٣
إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان	٣٤٧	شأن معاوية ومحمد بن أبي بكر	٤٤٤
قبل الحصار	٣٥٨	جواب سؤال	٤٥٣
كيف قتل عثمان ؟	٣٦٠	مقتل علي بن أبي طالب	٤٥٥
دفن عثمان	٣٦٣	بيت علي	٤٦٠
علي بن أبي طالب	٣٦٤	صفة علي وأخلاقه	٤٦١
ترجمة علي	٣٦٦	مبايعة الحسن بن علي	٤٦٦
خطته السياسية	٣٦٩	نزل الحسن بن علي	٤٦٨
طلب الصحابة القود من قلة عثمان	٣٧٠	مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين	٤٦٩
نتيجة الفتنة وقتل عثمان في زمن علي	٣٧٢	الخلافة	٤٦٩
أول أعمال علي	٣٧٣	القضاء	٤٧١
اضطراب الحبل	٣٧٦	قيادة الجيوش	٤٧٤
استئذان طلحة والزبير	٣٧٨	الخراج وحبائته	٤٧٥
أسر عائشة	٣٨٠	الحزبية	٤٧٨
من أين جاء الشر ؟	٣٩٨	المشور (الجمارك)	٤٧٩
نظرة في ومة الجمل	٤٠١	النقود	٤٨٠
علي ومعاوية وما كان بينهما	٤٠٥	الحج	٤٨١
بدء أمر معاوية	٤٠٩	الصلاة	٤٨٢
		العلم والتعليم	٤٨٢

مكتبة
دار الشُّرَاثُ
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

مطابع المختار الاسلامي